مختصر
طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف

تصنيف:

الإمام الكبير، الفقيه الأديب أبي محمد علي بن أحمد
ابن حزم الأندلسي
(٣٨٤ - ٤٥٦هـ)

تحقيق
عبد الحق التركماني



دار ابن حزم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مُختصر
طوق الحمامة وظل الغمامة
في الأُلفة والأُلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُختصر
طَوْقِ الحَمَامَةِ وَظِلِّ الغَمَامَةِ
في الأُلْفَةِ وَالأُلَّافِ

تصنيف:
الإمامِ الكبيرِ، الفقيهِ الأديبِ أبي مُحمّدٍ عليِّ بنِ أحمد
ابنِ حزمٍ الأَنْدلسيِّ
(٣٨٤ - ٤٥٦هـ)

تحقيق
عبد الحق التركماني

دار ابن حزم

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



Islamiskt forskningscenter i Göteborg
(Islamic Research Center in Gothenburg)
Box: 11307, 404 27 Göteborg - Sweden

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

أمَا كانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ؟!

عَنْ عَبْدِ الله بن عبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -؛ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً. قالَ: فَغَنِمُوا، وَفِيهِمْ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: إنِّي لَسْتُ مِنْهُمْ، عَشِقْتُ امْرَأَةً؛ فَلَحِقْتُهَا، فَدَعُونِي أَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَةً؛ ثُمَّ اصْنَعُوا بِي مَا بَدَا لَكُمْ. قَالَ: فَإِذَا امْرَأَةٌ طَوِيلَةٌ أَدْمَاءُ. فَقَالَ لَها: اسْلِمِي حُبَيْش؛ قَبْلَ نَفَادِ الْعَيْشِ!

أَرَأَيتِ لَوْ تَبِعْتُكُمْ فَلَحِقْتُكُمْ ... بِحَلْيَةٍ أَوْ أَدْرَكْتُكُمْ بِالْخَوَانِقِ

أَلَمْ يَكُ حَقّاً أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ ... تَكَلَّفَ إِدْلاجَ السُّرَى وَالْوَدَائِقِ

قَالَتْ: نَعَمْ؛ فَدَيْتُكَ! قَالَ: فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَجَاءَت الْمَرْأَةُ، فَوَقَفَتْ عَلَيْهِ، فَشَهِقَتْ شَهْقَةً - أَوْ شَهْقَتَيْنِ -؛ ثُمَّ مَاتَتْ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ؛ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ».

رواه النَّسائيُّ في (السُّنن الكبرى) (٨٦٦٣)؛ بإسنادٍ حسنٍ؛ كما قال الحافظ الهيثميُّ في (مجمع الزوائد) ٦/ ٢١٠ (١٠٣٥٥)، والعلامة الألباني في (الصحيحة) (٢٥٩٤)، وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) (٦٤: المغازي/ باب: ٥٨): بإسنادٍ صحيحٍ.

(حبيش): مرخَّم حبيشة. و(حَلْيَة) و(الخوانق): موضعان بتِهامة. و(يُنوَّل): يُعطى. و(الإدلاج) سير بعض الليل و(السُّرى): سير الليل كله، وهو من باب إضافة البعض إلى الكلِّ. و(الودائق) جمع وديقة، وهي شدة الحرِّ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

ـ ١ ـ

أبو محمَّد بن حزم ـ رحمه الله ـ قِمَّة مِنَ القِمَم العلميَّة والفكريَّة العِمْلاقة في التَّاريخ الإسلاميِّ والأندلسيِّ. ورَغْمَ ما لَقِيَهُ في حياته، ولَقِيَ تراثه مِنْ بَعْده؛ مِنْ عداءٍ وتحاملٍ وإهمالٍ، وحرقٍ لكتبه، فقد عرفَ الكثيرونَ ـ خلالَ العصور الإسلاميَّة المختلفة ـ فَضْلَهُ، وانتفعوا بكتبه؛ قراءةً ودراسة، وتداولاً ونسخاً. . . فحَفِظَ الله ـ تعالى ـ بهم بعضَ كتبه ورسائله، متفرقةً في مكتباتٍ خاصَّةٍ وعامَّةٍ؛ في الشَّرق والغرب.

وفي عصرنا حَظِيَ ابنُ حزم وما بقيَ من تراثه، باهتمامٍ بالغٍ من قِبَلِ الباحثين والدَّارسين، من المسلمين وغيرهم؛ فطبعوا كتبه ـ كلَّها؛ إلا شيئاً يسيراً ما زال مخطوطاً ـ، ودَرَسُوا حياتَه، وعقيدته، وفِقْهَه، وأدبه، وسائرَ علومه ونظريَّاته وأفكاره. وكان لهذا الكتاب الذي بين يدي القارىء الكريم؛ الحصيلة الكبرى من ذلك الاهتمام؛ إذ طُبِعَ قبل نحو قرنٍ من الزَّمان، وأعيد طبعه مراراً، وترجم إلى أشهر اللُّغات العالمية، وبالغ الباحثون في دراسته؛ أدبياً وفكرياً وتاريخياً.

ورغم هذا ـ كلّه ـ ثمّة هاهنا مفارقة عجيبة، تكمن في أن تلك العناية البالغة بتراث ابن حزم لم تقترن بها عنايةٌ علميَّةٌ جادَّةٌ بطباعتها على الطريقة الحديثة؛ من المقابلة على المخطوطات، والتحقيق، والضبط، والتَّصحيح! وهذا ينطبق على جميع كتبه ـ إلا بعض ما حقّق حديثاً بخدمة علمية جيدة ـ، وخيرُ مثالٍ على ذلك هذا الكتاب؛ إذ جميع طبعاته التي صدرتْ في العالم العربيِّ اعتمدتْ على الطبعة الأولى التي أخرجها المستشرق الرُّوسيُّ د.ك. بتروف سنة: (١٩١٤م)، من غير رجوع إلى النسخة المخطوطة، بل إن كثيراً منها لم ترجع إلى طبعة بتروف، بل رجعت إلى بعض الطبعات التي نقلت عنها؛ فأصاب الكتاب شيءٌ غير قليلٍ من التَّصحيف، والتَّحريف، والسَّقط، والتَّغيير!

لهذا فقد صحَّ العَزْمُ منِّي على تحقيق كتب ورسائل ابن حزم ـ كلِّها ـ وفق منهجٍ علميٍّ متكاملٍ، وبالرُّجوع إلى مخطوطاتها الأصليَّة.

ـ ٢ ـ

وعندما بدأتُ في العمل في تحقيق هذا الكتاب؛ خشيتُ أنْ لا أقدِّم جديداً ـ سوى تصحيح نصِّه وتحريره؛ بالمقابلة على نسخته الخطِّيَّة الوحيدة ـ فالدِّراسات والتَّحقيقات حول الكتاب ومادَّته كثيرةٌ وواسعةٌ، حتَّى أنَّني ظننتُ أنَّ ما سأكتبه لن يكون إلا مُعاداً مكروراً، وتذكَّرت قول كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ:

مَـا أَرَانَـا نَـقُـولُ إلا رَجِـيـعـاً ... ومُـعَـاداً مِـنَ قَـوْلِـنَـا مَـكْـرُورا

والآن ـ بعدَ أنْ انتهيتُ من خدمة الكتاب ـ يمكنني أنْ أزعم أنَّ في هذه الطبعة الجديدة المحقَّقة؛ الشَّيء الكثير من الجديد والمفيد، من ذلك:

- تصحيح عنوان الكتاب وتكميله.

- توثيق نسبة الكتاب إلى ابن حزم من مصدرين هامَّين؛ أحدهما أندلسي، والآخر مشرقي.

- العناية بتخريج أحاديثه، والحكم عليها تصحيحاً وتضعيفاً.

- تصديره بدراسةٍ شرعيةٍ تهدفُ إلى توضيح بعض مقاصد المؤلِّف ـ رحمه الله ـ، وتصحيح ما أخطأ فيه، والاستدراك عليه بما يشتدُّ حاجة قارىء كتابه إليه. . .، نصحاً لله تعالى، ولدينه، ولعامة المسلمين، ووفاءً لابن حزم ولما له مِنْ منزلةٍ في القلوب.

ـ ٣ ـ

وقد رأيتُ معظمَ مَن دَرَسَ هذا الكتابَ، أو كتب عنه، وأغلبهم من المستشرقين؛ قد تكلَّفوا في الاستدلال بنصوص الكتاب لآرائهم وأفكارهم، فجعلوه مَطِيَّةً لها، حتى أنَّهم قد أخرجوه عن الإطار الذي وضعه فيه مصنفه، فخرجوا بنتائج هي ثمار ما تبخَّر في رؤوسهم، لا ما أرشدهم إليه أبو محمد ـ رحمه الله ـ:

فمِنْ مدَّعٍ (إسبانيَّته)، زاعم أن هذا الكتاب ثمرة نسبه (النصرانيّ)، وبيئته (الأوربية)، ومزاجه وأخلاقه (الإسبانية)!!

وءاخر: يتخيَّلُ ابنَ حزم وأصحابَه من الأدباء وطلبة العلم؛ جماعةً مزعومةً: «يتميَّزون بالأناقة، ويرتدون أفخم الثِّياب، في أحدث الأنماط، يفتنهم الجمال، وتستهويهم الطبيعة، تطربهم الموسيقى، ويفضِّلون الأدب، ويتَّبعون فيه منهجاً ثورياً. . .»!!

وثالث: يصرّح بأنَّ ما نَقْرَؤُهُ في هذا الكتاب من أدبٍ صافٍ وروحيٍّ، وعاطفةٍ رقيقةٍ، لا يمكن أن يكون عربياً خالصاً؛ بل هو من بقايا (المسيحية) في أعماق روحه[1]!...

ورابع: يُخْرِجُ الكتابَ في طبعة سقيمة علمياً، لكنها مزَّودة بصُورٍ (مرسومة) لرجال ونساء، هي ـ في زعمه ـ: «أجملِ اللَّوحات الفنية لكبارِ الفنانين العالميّينَ»[2]. مع أنَّه لا يمكن أن يخفى على مِثله حكم الإسلام في تحريم الصُّور؛ ممَّا ذكره ابن حزم واستدلَّ له في كتابه: «المحلَّى بالآثار».

وهكذا في بلاء متناسل، يشوِّه صورة الكتاب، ويصيب قارِأَهُ بالدُّوار لينسى أنه يقرأ للإمام الفقيه الحجَّة، صاحب: «المحلى»، و«الإحكام»، و«الفصل»!!

والدراسة التي صدَّرت بها الكتاب؛ كفيلة ـ إن شاء الله ـ بإعادته إلى وضعه الحقيقي؛ من غير تكلُّف، ولا تأويل، ولا تعسُّف. وبحسب القارىء أن يقرأه كما تركه مؤلِّفه، من غير أنْ يزاحمه أحد في تفسير نصوصه، أو إخراجها من إطارها المعقول. ولا بأس بعد ذلك أن يستفيد من جهود الباحثين، ودراساتهم التَّخَصُّصِيَّةِ المُتَعَمِّقَةِ، إذ ليس المقصود التَّنقيص من قَدْرها، أو ردّ ما فيها من حقٍّ وصوابٍ.

ـ ٤ ـ

وأخيراً؛ لا بدَّ أن أشكر ناشر الكتاب؛ الأستاذ أحمد قصيباتي ـ

(١) الأول هو المؤرخ الإسباني سانتشث البرنس، والثاني: غرسيه غومث، والثالث: رينهارت دوزي، وتجد بحوثهم ومقالاتهم مترجمة في: «دراسات عن ابن حزم وكتابه: طوق الحمامة»، للدكتور الطاهر أحمد مكي، ص: ١١٥ ـ ١٣٦، ٦٧ ـ ٦٨، ١٥٥ (ط: ٤ /القاهرة، ١٩٩٣م).

(٢) طبعة دار الهلال الثانية، القاهرة: ١٩٩٤، تحقيق: د.الطاهر أحمد مكي.

وفقه الله ـ على عنايته الفائقة بإخراج الكتاب في أحسن حلَّة، وصبره على إعادة تصحيح تجاربه مراراً، وكأنِّي به لم يرض لنفسه أن تحمل (داره) اسم الإمام (ابن حزم)؛ حتَّى يؤدِّيَ تجاهه بعض ما يجب لمثله من معاني التَّقدير والوفاء، فيعطي كُتُبَهُ حقَّها من حُسْنِ الطِّباعة، وجمال الإخراج، فجزاه الله ـ تعالى ـ على ذلك خير الجزاء.

أسألُ الله ـ تعالى ـ أن يجعلَ قولي وعملي خالصاً لوجهه الكريم، ويلهمني فيه الحقَّ والصَّواب، ويكتب له التَّوفيق والقبول، وأن يدَّخر أجر ذلك عنده؛ إنَّه خيرُ مسؤولٍ.

والحمدُ لله أولاً وءاخراً، وصلَّى الله على محمَّدٍ وءاله وصَحْبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

غوطنبورغ، السويد

غرَّة شعبان/ ١٤٢٢هـ

وكتبه:

عبد الحق التركماني



نظرة شرعية في الكتاب

١ ـ هل أخفق ابن حزم في تعريف الحبِّ؟

٢ ـ الحبُّ بين الاضطرار والاختيار.

٣ ـ مخالفات شرعية بين الحكاية والإقرار.

٤ ـ علاج الحبِّ بين الإمام ابن حزم وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ.

٥ ـ شخصية ابن حزم وأخلاقه.

١ ـ هل أخفق ابن حزم في تعريف الحب؟

اختلف الناس في تعريف الحبِّ وماهيته اختلافاً كبيراً، مما يجده القارىء مفصَّلاً في المؤلفات (التَّقْليدية) في هذا الباب، ولم يشأ ابن حزم أن يقف عند هذا الأمر طويلاً، بل أشار إلى ذلك الاختلاف إشارةً عابرةً، ثم ذكر رأيه ومذهبه، وهو: «أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع؛ . . . على سبيل مناسبة قواها في مقرِّ عالمها العِلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها» وردَّ قول بعض المتفلسفين من أن: «الأرواح أكَرٌ مقسومة».

وهذا التعريف في غاية الإجمال؛ لكن لعلَّه يتَّضح قليلاً بمعرفة مذهب ابن حزم في (الأرواح).

ذهب ابن حزم إلى أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الأرواح جملة قبل خلق ءادم، وجعل مستقرها في البرزخ، ويرسل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كلَّ روحٍ من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه، وعند الموت ترجع الرُّوح إلى مستقرها الأول[1].

فإذا عُرف هذا تبيَّن مقصوده من قوله: «على سبيل مناسبة قُوَاها في مقرِّ عالمها العِلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها»؛ فكأنه يشير إلى أن سبب الحب ما يكون بينها في عالم البرزخ من التقاء وتناسب وتشاكل، خاصة وأنها في تلك الحال ـ فيما ذهب إليه ـ: مصوَّرة عاقلة حسَّاسة[2].

وهذا رأي كان يمكن أن يكون مقبولاً لو صحَّ مذهبه في الأرواح؛ غير أنَّه لا يصحُّ، بل الصَّواب ـ الذي دلَّ عليه القرءانُ والسنة والاعتبار ـ: «أن الأرواح مخلوقة مع الأجساد، وأنَّ الملك الموكَّلَ بِنَفْخِ الرُّوح في الجسد؛ ينفخ فيه الرُّوح إذا مضى على النُّطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس، وذلك أول حدوث الرُّوح فيه. ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط»[3]. وليس هذا موضع تفصيل القول في هذه المسألة، لكن المقصود ردُّ النتيجة التي بناها على مذهبه.

لكن يمكن التَّسليم بقوله: «في أصل عنصرها الرفيع» إن كان المقصود به أصل خِلْقتها التي أوجدها الله ـ تعالى ـ عليها؛ خَلْقاً وفطرةً وطبعاً

---

(١) «الفصل في الملل والنحل» ٥٨/٤، وممن قال بهذا قبل ابن حزم: إسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي ـ كما ذكر ابن القيم في «الرُّوح» ١٥٦، و«أحكام أهل الذمة» ١٠٣٣/٢ ـ والخطَّابيُّ في «معالم السنن» ١٠٧/٤.

(٢) «الفصل» ٥٨/٤.

(٣) قاله ابن القيم في: «روضة المحبين» ٥٦، واحتج له وردَّ أدلة القول الآخر في كتابيه المذكورين في الهامش السابق.

وجِبِلَّةً. فلا شكَّ أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد خلق الأنفس على صفات وطبائع مختلفة، فالنفوس التي بينها توافق في أصل صفاتها وطبائعها يكون بينها تآلف وتقارب، وهذا معنى الحديث: «**الأرواح جنود مجنَّدة**[1] **ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»؛ وهذا الذي يفهم من كلام غير واحد من العلماء في شرح الحديث.

قال الخطَّابيُّ: يقول ﷺ: إن الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا؛ فتأتلف وتختلف على حسب ما جُعلت عليه من التشاكل أو التنافر في بَدْءِ الخِلْقة، ولذلك ترى البَرَّ الخَيِّرَ يحبُّ شكله، ويحن إلى قربه، وينفر عن ضدِّه، وكذلك الرَّهِق الفاجر يألف شكله، ويستحسن فعله، وينحرف عن ضدِّه[2].

وقال القرطبيُّ: الأرواح وإن اتفقت في كونها أرواحاً؛ لكنَّها تتمايز بأمور مختلفة تتنوَّع بها، فتتشاكلُ أشخاص النَّوع الواحد، وتتناسب بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاصِّ لذلك النَّوع للمناسبة، ولذلك نشاهد أشخاص كلِّ نوعٍ تألف نوعها وتنفر من مخالفها، ثمَّ إنَّا نجد أشخاص النَّوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر، وذلك بسبب الأمور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها[3].

نعم؛ والفرق بين رأي ابن حزم والرأي الآخر لبعض الفلاسفة واضحٌ، فابن حزم يذهب إلى أن الله خلق الأرواح جملة؛ أي: أن كل روح من الأرواح مخلوقة بمفردها، وهي جميعها مجموعة في البرزخ، أما القول

---

(١) أي: أجناس مُجَنَّسة، أو جموع مجَمَّعة.
(٢) «معالم السُّنن» ٢/١٠٧.
(٣) نقله ابن حجر في: «فتح الباري» تحت الحديث: **(٣٣٣٦)**.

الآخر فيرى أن الله ـ جلَّ ثناؤه ـ خلق كل روح مدوَّرة الشَّكل على هيئة الكرة، ثم قطعها فجعل في كل جسد نصفاً. وهذا قول في غاية البطلان؛ إذ ليس عليه شبه دليل من نقل أو عقل، لهذا ردَّه ابن حزم، لكن ربَّما يفهم من قوله: «أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة»؛ أنه يقول ـ أيضاً ـ بأن النفوس تجزَّأت عدة أجزاء. وهذا يعني أنه وقع في تناقض شديد، ويلزم منه لوازم فاسدة، ومهما يكن فإن كلامه مجمل[1]، وكأنه أخفق في التوفيق بين النظرة الواقعية ـ التي حرص على إبرازها ـ، والنظرة الفلسفية ـ التي تأثَّر بها، ولم يستطع الخروج من إطارها العام ـ.

وانتهى ابن حزم في تحديده لماهية الحب إلى أنَّه «استحسان روحاني، وامتزاج نفساني» فلا يُعَلَّلُ بشيء إنما هو «شيء في ذات النَّفس». ولم ينف المحبة التي تكون لسبب من الأسباب، ولكنه فرَّق بينهما بأن هذه تفنى بفناء سببها، والأولى لا تفنى ـ إذا كانت محبة عشق صحيحة متمكِّنة من النفس ـ إلا بالموت.

وقد أخذ ابن القيم ـ رحمه الله ـ بهذا الرأي، وفصَّل القول فيه، فقال ـ في بيان دواعي المحبة ومتعلقاتها ـ:

«الدَّاعي قد يراد به الشُّعور الذي تتبعه الإرادة والميل؛ فذلك قائم بالمحب. وقد يراد به السبب الذي لأجله وجدت المحبة وتعلقت به؛ وذلك قائم بالمحبوب. ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين؛ وهو: ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته، وما قام بالمحب من الشعور

---

(١) ولا يَرِدُ احتمال وقوع الاضطراب في النسخة التي وصلتنا؛ كما أشار إليه الدكتور إحسان عباس، فإن النص المتعلق بماهية الحب قد نقله عن «الطَّوق»؛ ابنُ القيم في «روضة المحبِّين» بما يوافق ما في النسخة الخطية موافقة تامة. والله أعلم.

بها. والموافقة التي بين المحب والمحبوب، وهي الرابطة بينهما، وتسمى بين المخلوق والمخلوق مناسبة وملاءمة.

فهاهنا أمور: وصف المحبوب وجماله، وشعور المحب به، والمناسبة وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب. فمتى قويت الثلاثة وكملت؛ قويت المحبة واستحكمت، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها.

فمتى كان المحبوب في غاية الجمال، وشعور المحب بجماله أتم شعور، والمناسبة التي بين الروحين قوية؛ فذلك الحب اللازم الدَّائم؛ وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً، لكن هو في عين المحب كامل، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حبَّك للشيء يعمي ويصم، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوبه، كما يحكى أن عَزَّةَ دخلتْ على الحجاج، فقال لها: يا عَزَّةُ! والله ما أنتِ كما قال فيك كُثَيِّرُ! فقالت: أيها الأمير! إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها. ولا ريب أن المحبوبَ أحلى في عين محبه، وأكبر في صدره من غيره، وقد أفصح بهذا القائلُ في قوله:

فـــوالله مـــا أدري أزيـــدَتْ مَـــلاحَـــةً وحُسْناً على النِّسوان أم ليسَ لي عَقْلُ

وقد يكون الجمال موفَّراً لكنَّه ناقص الشعور به؛ فتضعُف محبته لذلك، فلو كُشفَ له عن حقيقته لأسر قلبه، ولهذا أمر النساء بسَتْر وجوههن عن الرِّجال؛ فإنَّ ظهور الوجه يُسْفِرُ عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شرع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة؛ فإنَّه إذا شاهد حسنها وجمالها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والألفة بينهما؛ كما أشار إليه النبيُّ في قوله: «**إذا أراد أحدُكم خِطْبَة امرأةٍ فلينظر إلى ما يدعوه إلى نِكاحِها. فإنَّه أحرى أن**

يُؤْدَمَ بينهما»[1] ـ أي: يُلائِمَ ويوافق ويصلُح. ومنه: الإدام الذي يصلح به الخبز ـ.

وإذا وُجِدَ ذلك كلُّه وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة، وربما لم تقع البتة، فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة:

فَكُلُّ امْرِئٍ يَصْبُو إلى مَا يُنَاسِبُهُ

وهذه المناسبة نوعان: أصلية من أصل الخِلْقة، وعارضة بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور، فإنَّ من ناسب قصدُك قصدَه حصل التوافق بين روحك وروحه، فإذا اختلف القصد زال التوافق.

فأما التناسب الأصلي فهو اتفاق أخلاق، وتشاكل أرواحٍ، وشوق كل نفس إلى مُشاكلها، فإن شبه الشَّيء ينجذب إليه بالطَّبع، فتكون الروحان متشاكلتَيْن في أصل الخلقة فتنجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع. وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصيَّة؛ وهذا لا يعلَّل، ولا يعرف سببه؛ كانجذاب الحديد إلى الحجر المغناطيس.

ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات؛ كما قيل:

(١) صحيح: الشطر الأول أخرجه أحمد (١٤٥٨٦)، وأبو داود (٢٠٨٢)، عن جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ، وقال: فخطبتُ جارية، فمكثت أتخبَّأ لها، حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وتزَوُّجِها؛ فتزوجتها. والشطر الثاني: «فإنَّه أحرى....»؛ أخرجه: النَّسائي (٣٢٣٥)، والتِّرمذيُّ (١٠٨٧)، وابن ماجه (١٨٦٦)؛ من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ. وفي الباب أحاديث صحيحة، ذكر جملة منها، مع بيان فقهها؛ العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ في: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٥ ـ ٩٩).

محاسِنُها هَيُولَى كلِّ حُسْنٍ ومِغناطيسُ أفئِدَةِ الرِّجَالِ

وهذا الذي حمل بعض الناس على أن قال: إن العشق لا يقف على الحسن والجمال ولا يلزم من عدمه عدمه، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة، كما قيل:

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنَّه شيءٌ به الرُّوح تَكْلفُ

قال هذا القائلُ: فحقيقته أنَّه مِرْءَاةٌ يبصر فيها المحب طباعه ورقَّته في صورة محبوبة، ففي الحقيقة لم يحبَّ إلا نفسه وطباعه ومشاكله.

قال بعضهم لمحبوبه: صادفتُ فيك جوهر نفسي ومُشَاكِلَتِها في كلِّ أحوالها؛ فانبعثتْ نفسي نحوك، وانقادتْ إليك، وإنما هويتُ نفسي.

وهذا صحيح من وجه، فإن المناسبة علة الضَّمِّ شرعاً وقدراً، وشاهد هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشبه بجوهر بدنه، وأكثر مناسبة له، وكلَّما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء كان ميل النفس إليه أكثر، وكلَّما بعدت المناسبة حصلت النَّفْرة عنه، ولا ريب أن هذا قدر زائد على مجرد الحسن والجمال.

ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العلوية تعشق صفات الكمال بالذَّات، فأحب شيء إليها العلم والشَّجاعة والعفة والجود والإحسان والصبر والثبات، لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمة الدنية فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات، وكثير من الناس يحمله على الجود والإحسان فرط عشقه ومحبته له، واللذة التي يجدها في بذله، كما قال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفو حتى خشيت أن لا أؤجر عليه. وقيل للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ: تعلمتَ هذا العلم لله؟ فقال: أمَّا لله

فعزيزٌ، ولكنْ شيء حُبِّبَ إليَّ ففعلته. وقال ءاخر: إني لأفرح بالعطاء وألتذُّ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه منّي. وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات:

وتَـأخُـذُهُ عِـنْـدَ الـمَـكـارِمِ هَـزَّةٌ كمَا اهْتَزَّ عند البَارِحِ الغُصْنُ الرَّطبُ

وقال شاعر الحماسة:

تَـرَاهُ إذا مَـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهَـلِّـلاً كَـأنَّكَ تُـعْـطِـيهِ الَّـذِي أنْـتَ سَـائِـلُـهُ

وكثير من الأجواد يعشق الجود أعظم عشق، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود به، ولا يقبل فيه عذل عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، وأما عشاق العلم فأعظم شغفاً به، وعشقاً له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر، وقيل لامرأة الزبير بن بكار ـ أو غيره ـ: هنيئاً لك إذ ليستْ لك ضَرَّة! فقالت: والله لهذه الكتب أضرُّ عليّ من عدة ضرائر. وحدَّثني أخو شيخنا عبد الرحمٰن بن تيمية، عن أبيه، قال: كان الجَدُّ إذا دخل الخلاء؛ يقول لي اقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع. وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمًّى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك، فقال: إن هذا لا يحلُّ لك فإنك تعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك. وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك؛ أليست النفس إذا فرحت وسُرَّتْ؛ قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى! فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة. فقال: هذا خارج عن علاجنا، أو كما قال.

فعشق صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها؛ أعلاها وأشرفها معشوقاً، كما قيل:

أنْتَ القَتِيلُ بكلِّ مَنْ أحببته فاخْتَرْ لنَفْسِكَ في الهوى مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكنت، ولم يُزِلها إلا مانع أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبة لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل، فمن أحبك لأمر ولّى عند انقضائه، فداعي المحبة وباعثها إن كان غرضاً للمحبِّ لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب سريع الزَّوال والانتقال زالت محبته بزواله، وإن كان صفة لازمة فمحبته باقية ببقاء داعيها، ما لم يعارضه معارض يوجب زوالها، وهو إما تَغَيُّر حال في المحب، أو أذى من المحبوب، فإن الأذى إما أن يضعف المحبة أو يزيلها...»؛ إلى أن قال: «وأنت إذا تأملت الوجود لا تكاد تجد اثنين يتحابَّان إلا وبينهما مُشاكلة، أو اتفاق في فعل أو حال أو مقصد، فإذا تباينت المقاصد والأوصاف والأفعال والطرائق؛ لم يكن هناك إلا النَّفْرة والبعد بين القلوب، ويكفي في هذا الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتَعَاطُفِهِم؛ كمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ؛ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ**»[1]...»[2].

قلتُ: هذا كلُّه كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ وهو لا يخرج عمَّا قرَّره

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٩٦).
(٢) «روضة المحبين» ص: ٤٩ ـ ٥٤.

ابن حزم ـ رحمه الله ـ، وتأثُّره به واضح، حتَّى أنه استخدم بعض كلماته، لكنه أسقط الخلفية الفلسفية في تعليل التشاكل والتجانس بين الأرواح، الأمر الذي لم يتمكَّن ابن حزم من التخلُّص منه.

على أن ابن حزم ـ رحمه الله ـ لم يستقر على هذا الرأي، بل انتهى إلى إلغاء النظرية الأولى في تفسير الحبِّ ـ أعني: اعتباره اتصالاً بين أجزاء النفوس . . .ـ؛ وأبقى على الجانب الواقعي في تفسيره؛ وهو تعليله بالأسباب العارضة فقط، وأرجعها جميعاً إلى أصلٍ واحدٍ؛ هو: «الطَّمع».

قال في: «الأخلاق والسِّير» ـ وهو من أواخر ما كتب؛ بعد رحلة طويلة من العلم المحقَّق، والتجربة الإنسانية العميقة ـ:

«فصل؛ في أنواع المحبة. وقد سُئِلْتُ عن تحقيق القول فيها، وفي أنواعها.

المحبَّة ـ كلُّها ـ جنسٌ واحدٌ، ورسمها أنَّها الرَّغبة في المحبوب، وكَراهية منافَرته، والرَّغبة في المقارضة منه بالمحبَّة.

وإنَّما قدَّر النَّاسُ أنها تختلفُ من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنَّما اختلفتِ الأغراضُ من أجل اختلاف الأطماع، وتزايدِها وضعفها، أو انْحِسَامِها، فتكون المحبَّةُ: لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وفيه، وللاتِّفاق على بعض المطالب، وللأب وللابن، وللقرابة، وللصَّديق، وللسُّلطان، ولذات الفراش، وللمُحْسِنِ، وللمَأمُول، وللمَعْشُوق. فهذا ـ كلُّه ـ جنسٌ واحدٌ، اختلفت أنواعه ـ كما وصفتُ لك ـ على قدر الطَّمع فيما ينال من المحبوب، فلذلك اختلفت وجوه المحبَّة.

وقد رأينا من مات أسفاً على ولده كما يموت العاشق أسفاً على

معشوقه، وبلغنا عن من شَهِقَ من خوف الله ـ تعالى ـ ومحبَّته فمات، ونجد المرءَ يغار على سُلْطانه، وعلى صديقه؛ كما يغار على ذات فراشه، وكما يغار العاشق على معشوقه.

فأدنى أطماع المحبّ ممَّن يحبُّ الحظوة منه، والرِّفعة لديه، والزُّلفة عنده، إذا لم يَطْمَعْ في أكثر، وهذه غايةُ أطماع المحبِّين للّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ. ثمَّ يزيد الطَّمع في المجالسة، ثم في المحادثة، والمُؤَازرة، وهذه أطماعُ المرء في سلطانه وصديقه، وذَوِي رَحِمِهِ.

وأقصى أطماع المحبّ ممَّن يحبُّ المخالطةُ بالأعضاء إذا رجا ذلك، ولذلك نَجِدُ المحبَّ المُفْرِطَ المحبَّة في ذات فراشه يرغب في مجامعتها على هيئات شتَّى، وفي أماكنَ مختلفةٍ، لِيَسْتَكْثِرَ[1] من الاتصال، ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجسد والتَّقبيل، وقد يقع بعض هذا الطَّمع في الأب في ولده فيتعدَّى إلى التَّقبيل والتَّعْنِيق.

وكل ما ذكرنا إنَّما هو على قدر الطَّمع، فإذا انحسم الطَّمعُ عن شيءٍ ما ـ لبعض الأسباب الموجبة له ـ مالت النَّفس إلى ما تطمع فيه.

ونجدُ المقرَّ بالرُّؤية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ شديد الحنين إليه عظيم النُّزوع نحوها، لا يقنع بدرجةٍ دونها، لأنَّه يطمع فيها، ونجد المنكر لها لا تحنُّ نفسه إلى ذلك، ولا يتمنَّاه أصلاً؛ لأنَّه لا يطمع فيه، ونجده يقتصر على الرِّضى والحلول في دار الكرامة فقط، لأنه لا تطمع نفسه في أكثرَ.

ونجدُ المُسْتَحِلَّ لنكاح القرائب لا يقنع منهنَّ بما يقنع المُحَرِّم لذلك، ولا تقف محبَّته حيث تقف محبَّة من لا يطمع في ذلك. فنجد من يستحلُّ

(١) في المطبوع: لَيستكثر، بفتح اللام، وهو خطأ مطبعي.

نكاحَ ابنته، وابنة أخيه ـ كالمجوس واليهود ـ لا يقف من محبتهما حيثُ يقف المسلم، بل نجدُهما يتعشَّقان الابنة وابنة الأخ كتَعَشُّقِ المسلم من يَطْمع في مخالطته بالجماع، ولا نجد مسلماً يَبْلُغُ ذلك فيهما، ولو أنَّهما أجمل من الشَّمس، وكان هو أغْهَرَ النَّاس وأغزَلهم، فإنْ وُجِدَ ذلك في النُّدرة فلا تجده إلا من فاسد الدِّين، قد زال عنه ذلك الرَّادع، فانْفَسَحَ له الأملُ، وانفتحَ له بابُ الطَّمع.

ولا يُؤمَنُ من المسلم أن تفرط محبَّته لابنة عمِّه حتَّى تصير عشقاً، وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته، وابنة أخيه، وإن كانتا أجملَ منها، لأنَّه يطمع من الوصول إلى ابنة عمِّه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه.

ونجد النَّصرانيَّ قد أمِنَ ذلك من نفسه في ابنة عمِّه ـ أيضاً ـ لأنه لا يطمع منها في ذلك، ولا يأمَنُ ذلك من نفسه في أخته من الرَّضاعة؛ لأنَّه طامع بها في شَرِيعَتِهِ.

فَلاحَ بهذا عياناً ما ذكرنا من أنَّ المحبة ـ كلَّها[1] ـ جنسٌ واحدٌ، لكنَّها تختلف أنواعُها على قدر اختلاف الأغراض فيها، وإلا فطبائع البشر ـ كلُّهم ـ واحدةٌ، إلا أنَّ للعادة والاعتقاد الدِّيني تأثيراً ظاهراً»[2].

قلت: هذا التفصيل أكثر واقعيَّة، وأوفق بطريقة ابن حزم ومذهبه، فقد انتقل فيه من نظرية الاتصال بين النفوس؛ إلى الرغبة الذاتية المتمثلة في تحقيق دواعي الطَّمع، وهذا قد يكون معنوياً؛ مثل محبة الله تعالى وفيه،

---

(١) في المطبوع: كلُّها، بالرفع، وهو خطأ مطبعي.

(٢) «الأخلاق والسِّير» ص: ١٢٩ ـ ١٣٢ (الفقرات: ١٢٢ ـ ١٢٤)، تحقيق: إيفا رياض، وبمراجعتي وتعليقي، دار ابن حزم، بيروت: ١٤٢١هـ.

وقد يكون حسياً؛ مثل المحبة لذات الفراش، فغياب نظرية الاتصال بين النفوس لا يعني أن «التلاحم الجسدي» قد حلَّ محلها؛ خلافاً لما ذهب إليه بعض الباحثين[1]، كما أنه لا يلزم منه إلغاء المعنى الصحيح المقتضي لاتصال النفوس؛ على النحو الذي أشرت إليه، ونقلت كلام ابن القيم - رحمه الله - في شرحه.

٢ ـ الحب بين الاضطرار والاختيار

ذهب ابن حزم إلى أن الحبَّ: «ليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله - عزَّ وجلَّ -»[2]، وأنكر على من يكتم حبَّه تصاوناً عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتفادى، فقال: «وما هذا الوجه بصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله - عزَّ وجلَّ - التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحبِّ فطبع لا يؤمر به، ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلِّبها. ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخِلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة»[3].

والذي يفهم من هذين النصين الصريحين؛ أنه يذهب إلى أن الحب اضطراري، حتَّى أنه قد أخرجه عن دائرة (حركات الجوارح المكتسبة)! لكن ما أن يتأمل المرء عباراته وءاراءه في مواضع شتَّى من الكتاب؛ حتى يتَّضح

(١) انظر: د. إحسان عبَّاس: «رسائل ابن حزم الأندلسي» ٦٢/١.
(٢) (١ ـ المقدمة: الكلام في ماهية الحب).
(٣) (١٢ ـ باب: طيِّ السرِّ).

له أن ابن حزم يرى ـ من الناحية العملية ـ أن الحبَّ كسب محض؛ له مقدماته وأسبابه، فهو ينكر الحبَّ من نظرة واحدة، ويتعجب ممن يدعيه، ولا يكاد يصدِّقه، بل لا يعد حبَّه إلا ضرباً من الشهوة، ويخبر عن نفسه أنه ما لصق بأحشائه حبٌّ قطُّ إلا مع الزَّمن الطَّويل[1]، . . . ويعترف أن تمكُّن العشق، وغلبته على عقل وفكر من ابتلي به: «إنَّما يتولَّد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرة، وتمكَّن الخلط، وترك التداوي؛ خرج الأمر عن حدِّ الحب إلى حد الوله والجنون، وإذا أغفل التداوي في أوائل المعاناة قوي جداً، ولم يوجد له دواء سوى الوصال»[2]، لهذا فإن بإمكان المرء أن يتَّقي أسباب التورط في هوى يتمكن من قلبه، ويورده المهالك، وقد أورد نموذجين للتطبيق العملي لهذا، الأول لمجهول ـ ولعله أراد به نفسه! ـ، والثاني من تجربته الشخصية:

«ولقد رأيت من أهل هذه الصفة (يعني: الذين لا يحبُّون إلا مع المطاولة) مَن إنْ أحسَّ من نفسه بابتداء هوى، أو توجَّس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور؛ استعمل الهجر وترك الإلمام؛ لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده، ويحال بين العَير والنزوان»[3].

«ولقد ضمَّني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي ضمَّتها معي النشأة في الصِّبا، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة، وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشَّباب ففاض

(١) (٦ ـ باب من لا يحب إلا مع المطاولة).
(٢) (٢٦ ـ باب الضنى).
(٣) (٦ ـ باب من لا يحب إلا مع المطاولة).

وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيَّرت،..... وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت منها صورة تعجز الوصاف... فبت عندها ثلاث ليال متوالية، ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية، فلعمري! لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى، ويعاوده مَنْسِيُّ الغزَل. ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان، ولقد كانت ـ هي وجميع أهلها ـ مِمَّن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمول الغوائل»[1].

وهكذا يظهر اضطراب ابن حزم في هذه المسألة، والسبب في ذلك يرجع ـ فيما يظهر لي ـ إلى عدم عنايته بتحرير المسائل العلمية والنظر إلى توافقها مع الجانب العملي.

وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل؛ فإن الحب قد يكون اضطراراً، وقد يكون اختياراً.

أما الاضطرار فأن يكون من نظرة فُجَاءة، فلا يلام من نَظَرَ نظرة فجأة ثم صرف بصره وقد تمكَّن العشق من قلبه بغير اختياره، على أن عليه مدافعته وصرفه عن قلبه بضدِّه[2]. أو أن يكون نتيجة أسباب اختيارية؛ فإن كانت مشروعة كنظره إلى من يريد خطبته، أو من اتصل بها بطريق مشروعة من زواج أو نحوه؛ فهذا لا يذمُّ ولا يلام صاحبه، كما وقع في قصَّة مُغِيثٍ بعد أن فارق زوجه بَرِيرَةَ، فجعلَ يطوف خلفها، يَبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبيُّ ﷺ لعباسٍ: **«يا عَبَّاسُ ألا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَة، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً»** فقال النبي ﷺ: **«لَوْ رَاجَعْتِهِ»**. قالتْ: يا رسول الله

---

(١) (٢٩ ـ باب قبح المعصية).

(٢) «روضة المحبين»: ١٠٦.

تأمرني؟ قال: «**إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ**» قالتْ: لا حاجة لي فيه[1].

وإنما يلحقه الذم إن كان ارتكب أسباباً ومقدمات اختيارية داخلة تحت التكليف ممَّا لم يأذن الشارع به، ولا يعذر بدخوله ـ بتلك الأسباب ـ في حال الحب أو العشق الاضطراري الغالب عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية النُّميري ـ رحمه الله ـ: «فأما إذا ابتلي بالعشق وعفَّ وصبر؛ فإنَّه يثاب على تقواه الله، وقد رُوي في الحديث أنَّ: «**مَن عَشِقَ فعفَّ، وكتم، وصبر، ثمَّ مات كان شهيداً**»، وهو معروف من رواية يحيى القتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه نظر، ولا يحتج بهذا. لكنْ مِن المعلوم بأدلة الشَّرع أنه إذا عفَّ عن المحرمات نظراً، وقولاً، وعملاً، وكتم ذلك فلم يتكلَّم به حتَّى لا يكون في ذلك كلام محرَّم؛ إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلبٍ للمعشوق، وصَبَرَ على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه مِنْ أَلَمِ العشق؛ كما يَصبر المصاب على ألم المصيبة؛ فإنَّ هذا يكون ممَّن اتَّقى الله وصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]»[2].

قلت: الأثر الذي ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ؛ سيذكره ابن حزم (٢٨ ـ باب الموت)، وسيأتي تخريجه هناك، وبيان أن ابن القيم قد ذهب إلى بطلانه سنداً ومتناً.

وكلام شيخ الإسلام فيه تصحيح معناه بالتفصيل الذي ذكره.

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٨٣).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٠/١٣٣.

وقد ذهب ابن القيم إلى أنَّ: «مبادىء العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف»؛ هكذا أطلق القول، وقال: «فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتُّب المسبَّب عليها بغير اختياره». ثم ذكر الحبَّ من نظرة الفُجاءة، وعدَّه من الحب الاختياري الذي لا يلام صاحبه عليه. ويظهر لي أن هذه الصورة ينطبق عليها حكم الاضطرار، والله أعلم.

٣ ـ مخالفات شرعية بين الحكاية والإقرار

لا شك أن موضوع أي كتاب؛ هو الذي يحدِّد طبيعة محتواه. وعندما يتصدَّى المؤلِّف للكتابة عن الحب وما هو في سبيله، ويرصد ظواهره الإنسانية والاجتماعية؛ يجد نفسه مضطراً إلى الإخبار عنها بعُجَرِهَا وبُجَرِهَا؛ فتلك هي مادته، وليس بإمكانه أن يلغيها أو يختزلها؛ إلا ما كان منكراً وفحشاً ظاهراً ممَّا لا ينبغي حكايته، ولا يجوز التَّساهل في روايته.

على هذا الأساس أفهم صنيع الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ في هذا الكتاب، وليس هو بدعاً في ذلك، بل هذا صنيع كثير من أئمة العلم والهدى، أهل الدِّيانة والتقوى؛ ممَّن ألَّفوا في فنون الأدب والتاريخ والنَّوادر والأخبار.

وفي إطار موضوع هذا الكتاب؛ صنيع الإمام الفقيه ابن قيم الجوزية الحنبلي (٧٥١هـ)؛ في كتابه: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، وقد كان أكثر تساهلاً من ابن حزم في إيراد بعض الأخبار، ممَّا قد يستنكره كثير من متنسكة زماننا[١].

---

(١) انظر فيه، على سبيل المثال: (ص: ٥٩، ٦٣، ١٥٤، ١٧٠ ـ ط: دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٥هـ).

ورأيتُ الإمامَ ابن الجوزي البغدادي (٥٩٧هـ) ـ وهو فقيه حنبلي أيضاً ـ لمَّا استجاب لشكوى بعض من ابتلي بالعشق، فألَّف له كتاب: «ذم الهوى»؛ قدَّم بين يدي الكتاب اعتذاراً عمَّا سيورده فيه من الحكايات والأخبار، فقال:

«واعلم! أنِّي قد نزلتُ لأجلكَ في هذا الكتاب عن يفاع الوقار، إلى حضيض الترخُّص فيما أورد، اجتذاباً لسلامتك، واجتلاباً لعافيتك، وقد مددت فيه النَّفس بعض المدِّ، لأنَّ مثلك مفتقرٌ إلى ما يلهيه من الأسمار، عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار، فليكن هذا الكتاب سميرَك، واستعمال ما ءامرك به فيه شغلك....».

وقد سبق ابنُ حزم إلى هذا المعنى، فاعتذر بأمور:

١ ـ طلب أحد أصدقائه منه تصنيف الكتاب، وإلحاحه عليه في ذلك: «ولولا الإيجاب لك لما تكلَّفته، فهذا من العفو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب، وحسن المآب».

٢ ـ أن في هذا استجماماً وترويحاً للنفس، بما يدفع الممل عنها، ويعينها على الحق. واستدل لهذا ببعض الآثار.

٣ ـ أنه على وجه التَّرخُّص، فإنَّه: «إن لم يكن من اللَّغو الذي لا يؤاخذ به المرء، فهو ـ إن شاء الله ـ من اللَّمَمِ المعفوِّ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب، وعلى كل حال؛ فليس من الكبائر التي ورد النَّصُّ فيها».

ومع أن ابن حزم قد التزم الواقعية في تأليفه، واستطرد في وصف الحب: «على سبيل الحقيقة، لا متزيداً ولا متفنناً، لكن مورداً لما يحضرني

على وجهه وبحسب وقوعه...»؛ فإنه كان أديباً مُنْتَقِياً فيما يورده، يتجنَّب ما يخدش الحياء، وينافي الفضيلة، وتمجه الأذواق السليمة، فإن اضطر إلى إيراد شيء من ذلك؛ علّق عليه بما فيه زجر وتنبيه، مثل حكاية الجارية التي كانت تحب فتى، فبدرت إليه، وقبلته في فمه؛ قال: «وإن هذا لمن مصائد إبليس، ودواعي الهوى؛ التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله - عزَّ وجلَّ -»[1].

أما ما لم يعقب عليه من المسائل والأخبار؛ فعذره في ذلك ما قدمناه، فيكون حكمه فيه أنَّه حاكٍ وليس بمقرٍّ، وفرق بين الأمرين كبير، والمرجع في ذلك فقه الرجل وعلمه ودينه، وما يجب على كل مسلم في مثله من أئمة العلم من حسن الظنّ، وحمل كلامه على أحسن الوجوه.

وهذا موضع الإشارة إلى بعض تلك المسائل والأخبار، فإني لم ألتزم التعليق عليها في مواضعها من الكتاب، بل رأيت أن أكتفي بما أورده هنا، فأقول:

١ ـ التصاوير:

ذكر تصاوير الحَمَّام دون إنكار[2]. وقد علَّقت على هذا الموضع، وبيَّنت أنه ـ رحمه الله ـ قد نصَّ على تحريم التصاوير في كتابه: «المحلى».

٢ ـ في الأشعار:

يتوسَّع فيها كثيراً في الإخبار عن نفسه، فليتذكر القارىء قاعدته في

(١) (٢٠ ـ باب الوصل).

(٢) (٣ ـ باب: علامات الحبّ).

ذلك ـ التي ذكرها في: «المقدمة»: «وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ـ ومَنْ رَءَاهَا ـ عليَّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلِّين بقول الشِّعر. . . .».

ويرد في بعض الأبيات ما هو من جنس سبِّ الدَّهر(١).

وسبُّ الدَّهر محرَّم شرعاً، قبيح عقلاً، وقد جاء النَّصُّ الصريح بالدلالة على الأمرين:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«قالَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: يُؤْذِيني ابنُ ءادم يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّبُ الليلَ والنَّهارَ»**(٢).

وقد بيَّن العلماء أنَّ سبَّ الدَّهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحضَ دون اللَّوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من حرِّ هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك. لأنَّ الأعمال بالنِّيات، ومثل هذا اللَّفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

الثاني: أن يسبَّ الدَّهر على أنَّه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبِّه الدَّهر؛ أنَّ الدَّهر هو الذي يقلِّب الأمور إلى الخير والشَّر. فهذا شرك أكبر، لأنه اعتقد أنَّ مع الله خالقاً؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكلُّ من اعتقد أن مع الله خالقاً؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلٰهاً يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

---

(١) انظر مثلاً: (٢١ ـ باب الهجر).

(٢) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)؛ وغيرهما.

الثالث: أن يسبَّ الدَّهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبُّه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده، فهذا محرَّم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفه في العقل، والضَّلال في الدِّين، لأن حقيقة سبِّه تعود إلى الله ـ سبحانه ـ، لأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يصرف الدهر، ويكون فيه ما أراد من خيرٍ أو شر، فليس الدهر فاعلاً. وليس هذا السَّابُّ يَكْفُرُ؛ لأنَّه لم يسبَّ الله ـ تعالى ـ مباشرةً[1].

قلت: فما يقع في كلام المسلمين من الشعراء والأدباء وغيرهم مما هو من جنس سبِّ الدَّهر لا يخلو أن يكون من القسم الأول أو الثالث، ولا يكون من القسم الثاني؛ لمخالفته العقيدة الإسلامية مخالفة صريحة لا تخفى على أهل الإسلام والسنَّة.

فإن أمكن حمله على الأول زال الحرج إن شاء الله، وإن ظهر أنه من الثالث فهو محرَّم ومذموم.

وقد وقع في كلامهم الأمران معاً، لكن يجب إحسان الظَّنِّ بالمسلمين، خاصَّة بأهل العلم والدين منهم.

وقد وقفت للإمام الحجَّة أبي عمر بن عبدالبَرِّ ـ شيخ ابن حزم وصاحبه؛ رحمهما الله ـ على كلام نفيس في توجيه ذلك؛ قال ـ رحمه الله ـ في شرحه للحديث المتقدِّم: «والمعنى فيه أن أهل الجاهلية كانوا يذمُّون الدهر في أشعارهم وأخبارهم، ويضيفون إليه كل ما يصنعه الله بهم، وقد حكى الله عنهم قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ

---

(1) العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ: «القول المفيد على كتاب التوحيد» ١٥١/٢.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ فنهى الله عن قولهم ذلك، ونهى رسول الله ﷺ عنه أيضاً بقوله: «**لا تسبوا الدهر**» يعني: لأنكم إذا سببتموه وذممتموه لما يصيبكم فيه من المحن والآفات والمصائب؛ وقع السب والذمُّ على الله، لأنه الفاعل ذلك وحده لا شريك له. وهذا ما لا يسع أحداً جهله، والوقوف على معناه، لما يتعلق به الدَّهرية أهل التعطيل والإلحاد، وقد نطق القرءان وصحَّت السنة بما ذكرنا، وذلك أن العرب كان من شأنها ذم الدهر عندما ينزل بها من المكاره، فيقولون: أصابتنا قوارع الدهر، وأبادنا الدهر، وأتى علينا الدهر. ألا ترى إلى قول شاعرهم[1]:

رَمَتْني بناتُ الدَّهر مِنْ حيثُ لا أرى ... فكيفَ بمَنْ يُرمى وليسَ بِرَام

فلَوْ أنَّها نَبْلٌ إذاً لاتَّقَيْتُها ... ولكنَّني أرمَى بِغَيْرِ سِهام

فأفنَى وما أفْنَيْتُ للدَّهرِ ليلةً ... ولم يُغْنِ ما أفنيتُ سِلْكَ نِظَام

وقال أبو العتاهية[2] ـ فذكر الزَّمان والدَّهر؛ وهما سواء، ومراده في ذلك ـ كلّه ـ ما يُحْدِثُ اللَّهُ من العِبَرِ فيها لمن اعتبر ـ:

إنَّ الزَّمانَ إذا رَمَى لَمُصِيبُ ... والعُود مِنْهُ إذا عُجِمَتْ صَلِيبُ

إنَّ الزَّمانَ لأهْلِهِ لَمُؤَدِّبٌ ... لَوْ كانَ يَنْفَعُ فيهم التَّأديبُ

كيفَ اغْتَرَرْتَ بصَرْفِ دَهْرِكَ يا أخي ... كيفَ اغتررتَ به وأنتَ لَبِيبُ

ولقدْ رأيتُكَ للزَّمانِ مُجَرِّباً ... لو كانَ يَحْكُمُ رأيَكَ التَّجْرِيبُ

وهذا المعنى في شِعْره كثير جداً...».

---

(١) هو: عمرو بن قميئة، شاعر جاهلي.

(٢) إسماعيل بن القاسم العيني (٢١١هـ).

وأورد نماذج أخرى لغير واحد من الشُّعراء، ثمَّ قال: «وأشعارهم في هذا أكثر من أن تحصى، خرجت كلُّها على المجاز، والاستعارة، والمعروف من مذاهب العرب في كلامها؛ أنهم يسمون الشيء ويعبرون عنه بما يقرب منه، وبما هو فيه، فكأنهم أرادوا ما ينزل بهم في الليل والنهار من مصائب الأيام؛ فجاء النهي عن ذلك، تنزيهاً لله لأنه الفاعل ذلك بهم في الحقيقة، وجرى ذلك على الألسنة في الإسلام وهم لا يريدون ذلك، ألا ترى أن المسلمين الخيار الفضلاء قد استعملوا ذلك في أشعارهم؛ على دينهم وإيمانهم، جرياً في ذلك على عادتهم، وعلماً بالمراد، وأن ذلك مفهوم معلوم، لا يشكل على ذي لبٍّ...»؛ ثمَّ أورد نماذج أخرى، وقال: «والأشعار في هذا لا يحاط بها كثرة، وفيما لوَّحنا به منها كفاية، والحمد لله»[1].

٣ ـ في الاختلاط المحرَّم بين الرجال والنساء:

وهذا يقع في أوساط كثير من الرؤساء والأغنياء، وفي أوساط بعض العامة الذين جمعوا مع الجهل رقَّة الدين، وابن حزم لا يقرُّه، وحكمه واضح، وقد نبَّه إلى خطورته في (باب قبح المعصية).

وعندما أورد حكاية دخوله على بعض معارفه ومعها جارية لم تحجب عنه، بيَّن سبب عدم احتجابها عنه بقوله: «على جاري العادة في التربية»[2].

قلت: تلك عادة جاهلية، وقد وجدت في المجتمعات الإسلامية، واشتد أمرها في العصور المتأخرة، والله المستعان.

---

(١) ابن عبدالبر: «التمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد» ١٨/١٥٤ ـ ١٦١.
(٢) (٢٩ ـ باب قبح المعصية).

٤ ـ النظر إلى الأجنبية:

وقوع النظر إلى الأجنبية في مواضع كثيرة في الكتاب، وحكمه واضح أيضاً، وقد اكتفى ابن حزم ببيانه في (باب قبح المعصية)، مصرِّحاً بأنَّ النظرة الأولىٰ لك والثانية عليك.

وقال في: «المحلَّى»[1] عند كلامه على مسألة نظر الخاطب: «... قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠]؛ فافترض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غضَّ البصر جملةً، كما افترض حفظ الفرج، فهو عموم لا يجوز أن يُخَصَّ منه إلا ما خصَّه نصٌّ صحيح، وقد خصَّ النَّصُّ نظر من أراد الزواج فقط، ... وأما الوجه والكفَّان: فقد جاء فيهما الخبر المشهور الذي أوردناه في غير هذا المكان من أمر الخَثْعَمِيَّةِ التي سألت رسول الله ﷺ عن الحجِّ عن أبيها، وأن الفضل بن العباس جعل ينظر إلى وجهها، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل عنها، ولم يأمرها بستر وجهها[2]. ففي هذا إباحة النظر إلى وجه المرأة لغير اللذة...».

قلت: فمذهبه تحريم النَّظر إلى الأجنبية، ويجب عليها ستر جميع بدنها عدا الوجه والكفين، وما جازَ كشفه جاز النَّظَرُ إليه (لغير اللَّذَّة).

والخلاف في هذه المسألة، أعني: وجوب ستر الوجه والكفين معروف ـ قديماً وحديثاً ـ، والقَيْدُ الذي أورده ابن حزم، وهو أن لا تكون النَّظرة نظرة لذَّةٍ ـ أي: شهوة ـ؛ في غاية الأهمية، وقد نصَّ عليه كثير من الفقهاء

---

(١) المسألة: (١٨٧٣).

(٢) الحديث عند: البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤)؛ وغيرهما.

الذين ذهبوا إلى القول بجواز كشف المرأة وجهها.

فإذا تبيَّن هذا؛ بطل القول بأنَّ ابن حزم قد أباح النَّظر إلى الأجنبية مطلقاً، فكيف إذا انضاف إليه عشقها، وأيُّ لذَّة أعظم عند العاشق من النَّظر إلى وجه معشوقه!

٥ ـ الغناء والمعازف:

مذهب ابن حزم في إباحة الغناء مع ءالات الموسيقى والطَّرب مشهور، وإنما أدَّاه اجتهاده إلى ذلك لظنِّه عدم صحَّة الأحاديث الواردة في تحريم المعازف، فقد درسها ـ سنداً ومتناً ـ ثم خلص إلى القول أنه: «لا يصح في هذا الباب شيء أبداً، وكل ما فيه فموضوع»[1]!

هذا هو عذر ابن حزم فيما ذهب إليه، والظنُّ بمثله أنه لو صحَّ الحديث عنده لما تردد في الأخذ به؛ كما هو منهجه في اتباع النَّصِّ، وقد أقسم على ذلك في خصوص هذه المسألة؛ فقال ـ بعد كلامه المتقدِّم ـ: «ووالله! لو أُسْنِدَ جميعه ـ أو واحد منه فأكثر ـ من طريق الثِّقات إلى رسول الله ﷺ؛ لما تردَّدنا في الأخذ به».

قلت: هذه طريقة نجدها عند كبار أئمة الدين في غير ما مسألة ممَّا لم تثبت عندهم صحة حديثها؛ فيعلِّقون الحكم فيها على ثبوته، تأكيداً على مبدأ الاتباع وتعظيم السنة.

وقد صحَّت في تحريم المعازف وءالات الطرب أحاديث، ليس هذا موضع ذكرها؛ لكني أحيل القارىء في هذه المسألة المهمة إلى البحوث

(١) «المحلى بالآثار» (المسألة: ١٥٦٦).

العلمية الإيمانية القيمة التي أوردها الإمام الحجة ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ـ رحمه الله ـ في كتابه: «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان»؛ في تحريم السماع الشيطاني وبيان مفاسده وشروره، وكتاب العلامة محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى سنة: ١٤٢٠هـ) ـ رحمه الله ـ: «تحريم ءالات الطَّرب، والرد على ابن حزم ومقلديه»؛ وهو كتاب فريد في بابه.

وقد كثر ـ في زماننا هذا ـ المقلِّدون لابن حزمٍ في هذه المسألة؛ لا لدليلٍ أوجبَ ترجيح قوله، إنما اتباعاً لِزَلَّتِهِ وخطئه؛ لهوىً غلب على النُّفوس فاستحسن لها تتبع الرُّخص وزلات العلماء، وقد قال شيخ الإسلام سليمان بن طَرخان التَّيمي (١٤٣هـ) ـ رحمه الله ـ: لو أخذتَ برُخْصَةِ ـ أو زَلَّةِ ـ كلِّ عالمٍ اجتمع فيك الشَّرُّ كلُّه[1]!

وقد سمعنا من بعض من ينتسب إلى العلم يُفتي (مطربةً) تابتْ ورجعتْ إلى ربِّها ـ وقد استفتته في حكم الغناء ـ: بالاستمرار في مجال (الفنِّ والإبداع)! زاعماً أنه لم يجد ءايةً من كتاب الله تعالى، ولا حديثاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ؛ في تحريم الغناء، ثم أضاف إلى ذلك الزَّعم بأنَّه: «مقلِّدٌ في ذلكَ لابن حزمٍ»!

قلت: معاذ الله أن يكون ابن حزم ممَّن يبيح للمرأة المسلمة أن تفتن الرجال بصوتها وغنائها؛ وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فكيف بـ (الفنِّ الغنائي) الذي يذهب بالعقول بما يصاحبه من موسيقى ءالاتٍ سُخِّرتْ لها أرقى ما توصَّلتْ إليه

(١) رواه أبو نُعيم في: «حلية الأولياء» ٣/٣٢، وابن حزم في: «الإحكام» ٦/٣٣١ ط: دار الكتب العلمية. وذكره الحافظ المزِّي في: «تهذيب الكمال» ١٢/١١، والذهبي في: «سير أعلام النبلاء» ٦/١٩٨.

التقنية الحديثة في مجال المؤثرات الصوتية والنفسية!!

على أنني لا أجدني في حاجة لأن أكون في موقف الدِّفاع عن الإمام أبي محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ؛ فها هو يدافع عن دينه وعلمه، ويفضح هذا التدليس القبيح في التستُّر بفتواه؛ فيقول ـ وهو في صدد شرح الأسباب التي تسهِّل الفاحشة، وتؤدِّي إلى الهلاك والتَّلف ـ:

«... ولهذا حُرِّمَ على المُسْلِم الالْتِذَاذُ بسماعِ نغمَةِ امرأةٍ أجنبيَّةٍ، ...»[1].

قلت: هذا النَّصُّ في غاية الأهمية، فالقيد فيه كفيل بإبطال تلبيسات أهل الأهواء! والحمد لله على فضله، نسأله الثبات على دينه وأمره.

٤ ـ علاج الحبّ بين الإمام ابن حزم وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ

هناك نقاط التقاء كثيرة بين الإمامين: ابن حزم وابن تيمية، لعل أهمَّها التجرُّد للحقِّ، ونصرة السُّنَّة، والعناية بالحديث. على أنَّ بينهما نقاط افتراق كثيرة جداً؛ لست هنا بصدد شرحها، ولكني أشير إلى ما يتعلق منها بهذا المبحث خلال عرضه:

ختم ابن حزم كتابه بفصلين لعلاج العشق شرعاً؛ الأول: في قبح المعصية، والثاني: في فضل التَّعفف. وأراد بذلك أن يكون ءاخر كلامه في: «الحضِّ على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترض على كلِّ مؤمنٍ» كما ذكر في: «المقدمة».

(١) «مختصر طوق الحمامة» (٢٩ ـ باب قبح المعصية).

وتظهر لنا من خلال الفصلين صورة ابن حزم الواعظ المربِّي؛ بكلماته المؤثرة، وخطابه الصَّادق، وتفننه في إيراد ألوان الترغيب والترهيب. وهما من أنفس ما كتبه، وأعمقه تأثيراً في نفس قارئه، ومع هذا فإننا نجد الخطاب العقلي غالباً على وعظه، يزاحمه حتى في ذاته فيكاد أن يقلبه عن صورته الحقيقية؛ إلى لون خاص من ألوان الخطاب العقلي الذي يراد به الوعظ!

وهذه (ظاهرة) عند ابن حزم ترجع إلى منهجه (الظَّاهري)!

يمكنني أن أزعم - في ضوء قراءاتي ودراساتي للمذهب الظَّاهري - أنَّ الظَّاهرية ليست مذهباً فقهياً حسب؛ بل هي طريقة في التفكير؛ قد ارتضاها أصحابها لأنفسهم، لا لجمودهم وحرفيتهم، ولا لضيق نظرهم وتفكيرهم، وإنما لبراهين عقلية تقرَّرت عندهم، وترجَّحت لديهم؛ بشواهد من الكتاب والسنة!

فالظاهرية تخفي وراءها نزعة عقلية؛ يمكن رصد بعض أبعادها من خلال ملاحظة عوامل التكوين الفكرية والعلمية لأئمتها، ودراسةِ تراثهم المتميز بالأصالة والتنوع والإبداع.

فلا عجب أن نرى مؤسس المذهب الإمامَ أبا سليمان داود بن علي الأصبهانيَّ (٢٧٠هـ)؛ يخوض في مسألة القرءان، ويقول فيه أبو العبَّاس ثعْلَب: كان داود بن علي عقله أكبرُ من علمه[١]. وهذا ابنه وحامل لواء مذهبه من بعده: أبو بكر محمد بن داود (٢٩٧هـ)؛ كان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً، أحد من يُضرب المثل بذكائه[٢]. ولا عجب - أيضاً - أن نجد قاضي

---

(١) «سير أعلام النُبلاء» ١٣/١٠٠، الترجمة: (٥٥).

(٢) «السير» ١٣ /الترجمة: (٥٦).

الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلُّوطي (٣٥٥هـ)[1] قد جمع بين الاعتزال في العقيدة، والظَّاهرية في الفقه! أمَّا أبو محمد بن حزم؛ فصِلَتُه بالمنطق والفلسفة معروف؛ رحم الله ـ تعالى ـ الجميع!

من هنا فإنني أستطيع أن أقول: إن ابن حزم كان (ظاهرياً) في فهم الحب، وكان (ظاهرياً) في علاجه ـ أيضاً ـ. وظاهريته في الحالتين (ظاهرية عقلية)، تبطل العلل، وتبتعد عن الجانب المعنوي والروحي.

وإذا كنَّا نلاحظ هذا في الفصلين اللذين أشرت إليها، وفي مواضع أخرى متفرقة من الكتاب، فإننا نقرأه صريحاً واضحاً في كلماته هذه:

«فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحبِّ فطبع لا يؤمر به، ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلبها. ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة»[2].

وبهذه (الظاهرية) تعامل أبو بكر الظَّاهري ـ المتقدِّم ذكره ـ مع ما ابتلي به من العشق، في قصَّة مشهورة يجدها القارىء في مصادر ترجمته، ولولا خشية الإطالة لذكرتها.

أمَّا شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيميَّة النُّميري (٧٢٨هـ)؛ فإنه عندما عالج موضوع (الحب) لم يقف عند (ظاهر) ما يجوز وما لا يجوز،

---

(١) ترجمته ومصادرها في: «السير» ١٦/(١٢٧).

(٢) (١٢ ـ باب: طيّ السرّ)، وسبق نقله في المبحث الثاني.

بل نفذ إلى أعماق القلوب ليربط تصوراتها وإراداتها؛ بالمعاني الإيمانية العظيمة التي دلَّت عليها نصوص الكتاب والسنَّة، على هدىً من فهم مقاصدها وأسرارها، وإدراكٍ لما يتعلق بتلك التصورات والإرادات من عللٍ وأسبابٍ.

وهو في ذلك ـ كلِّه ـ مستند إلى منهجه (السَّلفي الأثري الحنبلي) في التمسك بالكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وإعمال العقل في إدراك حقائق الشَّرع والقدر، وإثبات العلل والمناسبات والأسباب؛ بربَّانية خاشعة، ورقَّة بالغة، وروحانية صافية، وبصيرة نافذة، وقلب ملؤه الإخلاص والإنابة وصدق التوجُّه إلى الله تعالى، والانكسار بين يديه.

وقد أشار العلامة أبو عبدالرحمٰن بن عقيل الظاهري إلى هذا الفرق بين الإمامين في معالجة العشق، فقال عن تطبيب ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «ولم يَبْلغ شَأوَ شيخ الإسلام في تطبيبه»[1].

والآن فلنذكر نماذج من كلام شيخ الإسلام في أمراض القلوب، وتطبيبه لداء العشق، قال ـ رحمه الله ـ:

«قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال

---

(١) «كيف يموت العُشَّاق؟» ص: ١٨٣.

تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإدراكه إمَّا أنْ يذهب كالعمى والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه؛ كما يدرك الحلو مرًّا، وكما يُخَيَّل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج. وأمَّا فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحبَّ الأشياء التي تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك؛ ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك، بل فيه نوع قوَّة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة، فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن؛ إمَّا بسبب فساد الكمية أو الكيفية. فالأول: إما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها فيحتاج إلى استفراغ. والثاني: كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى.

وكذلك مرض القلب؛ هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحقَّ النافع، ويحب الباطل الضَّارَّ، فلهذا يُفَسَّرُ المرض تارة بالشكِّ والرَّيب، كما فسَّر مجاهد وقتادة قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]؛ أي: شكٌّ. وتارة يفسر بشهوة الزنا؛ كما فُسِّرَ به قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ولهذا صنَّف الخرائطيُّ كتاب: «اعتلال القلوب» أي: مرضها، وأراد به مرضها بالشَّهوة.

والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصَّحيح فيضره يسير الحرّ والبرد والعمل؛ ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض. والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القويُّ، والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد، والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضدِّه، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك. وإن حصل له ما يقوي القوة، ويزيل المرض؛ كان بالعكس.

ومرض القلب ألم يحصل في القلب؛ كالغيظ من عدوٍّ استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب. قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوهم من الألم. ويقال: فلان شفَى غيظَهُ. وفي القَوَدِ استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك. فهذا شفاء من الغمّ والغيظ والحزن، وكل هذه ءالام تحصل في النفس.

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبي ﷺ: «**هَلا سألُوا إذا لم يعلموا! فإنَّما شِفَاءُ العِيِّ السُّؤالُ**»[1]، والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض، وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه، فلهذا مرض القلب إذا ورد

---

(١) حديث حسن: أخرجه أبو داود (٣٣٦) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ. والعِيُّ: الجهل.

عليه شبهة أو شهوة قوَّت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه. قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]؛ لأن ذلك أورث شبهة عندهم، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ليبسها، فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض؛ فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان فصار فتنة لهم. وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، كما قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المدثر: ٣١]؛ لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات، وكذلك: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة؛ لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة، فإنه - لضعفه - يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضَعْنَ بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

والقرءان شفاء لما في الصدور، ومَنْ في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البيِّنات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك؛ بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة؛ ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عمَّا يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد، مبغضاً للغيِّ، بعد أن كان مريداً للغيِّ مبغضاً للرشاد. فالقرءان مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرءان؛ بما يزكيه

ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينمِّيه ويقومه، فإنَّ زكاة القلب مثل نماء البدن. . . .».

ثم ذكر شيخ الإسلام معنى التزكية لغةً وشرعاً، وحقيقة حياة القلب وصلاحه، ثم ذكر من أمراضه مرض الحسد والبخل، ثمَّ قال ـ رحمه الله ـ:

«وأما مرض الشَّهوة والعشق؛ فهو حبُّ النَّفس لما يضرها، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها. والعشق مرض نفسانيٌّ، وإذا قوي أثَّر في البدن فصار مرضاً في الجسم، إمَّا من أمراض الدِّماغ كالماليخوليا؛ ولهذا قيل فيه: هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، وإمَّا من أمراض البدن؛ كالضعف والنحول، ونحو ذلك.

والمقصود هنا مرض القلب فإنَّه أصل محبة النَّفس لما يضرُّها كالمريض البَدِنِ الذي يشتهي ما يضره، وإذا لم يطعم ذلك تألَّم، وإن أطعم ذلك قوي به المرض وزاد.

كذلك العاشق يضُرُّه اتصاله بالمعشوق مشاهدةً وملامسةً وسماعاً، بل ويضرُّه التفكُّر فيه والتَّخيُّل له، وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألَّم وتعذَّب، وإن أعطي مشتهاه قويَ مرضه، وكان سبباً لزيادة الألم.

وفي الحديث: «**إنَّ الله يَحْمِي عبدَهُ المؤمِنَ مِنَ الدُّنيا؛ كما يَحْمِي أحدُكم مريضَه الطَّعامَ والشَّرابَ [تخافون عليه]**»[1]، وفي مناجاة موسى ـ المأثورة عن وهب، التي رواها الإمام أحمد في كتاب «الزهد» ـ: يقول الله

---

(١) صحيح: رواه أحمد ٥/٤٢٧، ٤٢٨، من حديث: محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ، وعنده: «من الدُّنيا، وهو يحبُّه. . .»، وفي بعض النُّسخ: «وهو يحبُّها. .». وأخرجه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث محمود بن لبيد، عن قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنهما ـ؛ بلفظ: «**إذَا أحَبَّ اللَّهُ عَبْداً حَمَاهُ الدُّنْيَا؛ كَمَا يَظَلُّ أحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ المَاءَ**».

تعالى: إني لأذُود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها؛ كما يذود الرَّاعي الشَّفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنِّبُهم سكونها وعيشها؛ كما يجنِّبُ الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغِرَّة، وما ذلك لِهَوانِهِمْ عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفَّراً لم تَكْلَمْهُ الدُّنيا، ولم يُطْفئه الهوى.

وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحبِّ المذموم من قلبه.

والنَّاس في العشق على قولين:

قيل: إنَّه من باب الإرادات، وهذا هو المشهور.

وقيل: من باب التَّصورات، وأنه فساد في التَّخييل، حيث يتصوَّر المعشوق على ما هو به، قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق، ولا أنه يعشق؛ لأنه منزَّه عن ذلك، ولا يحمد من يتخيَّل فيه خيالاً فاسداً.

وأما الأولون فمنهم من قال: يوصف بالعشق فإنه المحبة التَّامة؛ والله يُحِبُّ ويُحَبُّ، وروي في أثرٍ عن عبدالواحد بن زيد أنَّه قال: لا يزال عبدي يتقرب إليَّ يعشقني وأعشقه. وهذا قول بعض الصوفية.

والجمهور لا يطلقون هذا اللَّفظ في حقِّ الله؛ لأن العشق هو المحبَّة المفرطة الزائدة على الحدِّ الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها، فليست تنتهي إلى حدٍّ لا تنبغي مجاوزته. قال هؤلاء: والعشق مذموم مطلقاً لا يمدح لا في محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحدِّ المحمود. وأيضاً: فإن لفظ (العشق) إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأةٍ أو صبيٍّ، لا يستعمل في محبةٍ كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين، وهو مقرون كثيراً بالفعل

المحرَّم: إمَّا بمحبة امرأة أجنبية، أو صبيٍّ، يقترن به النَّظر المحرَّم، واللمس المحرم، وغير ذلك من الأفعال المحرَّمة.

وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته محبةً تخرجه عن العدل، بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل، ويترك ما يجب ـ كما هو الواقع كثيراً ـ حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة؛ لمحبَّته الجديدة، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه، مثل أن يخصَّها بميراثٍ لا تستحقه، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله، أو يسرف في الإنفاق عليها، أو يُمَلِّكُها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه؛ وهذا في عشق من يباح له وطؤها، فكيف عشق الأجنبية والذُّكران من العالمين؟! ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه[1].

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: **٣٢**]؛ ومن في قلبه مرض الشَّهوة، وإرادة الصورة؛ متى خضع المطلوب طمع المريض، والطمع الذي يقوي الإرادة والطلب، ويقوي المرض بذلك، بخلاف ما إذا كان ءايساً من المطلوب؛ فإن اليأس يزيل الطَّمع، فتضعف الإرادة فيضعف الحبُّ، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو ءايس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلاً، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر، ونحو ذلك، فيأثم بذلك.

---

(١) فالعشق مذموم مطلقاً، أمَّا (الحبُّ) فإنَّه إن لم يخرج عن حدِّه الطبيعي، ولم يكن سبباً لترك واجب، أو فعل محرَّم؛ فإنه لا يذم، بل يحمد عليه صاحبه؛ إن نوى به الخير، وحمله على ما يرضي الربَّ ـ سبحانه ـ، ألا ترى أن حبَّ الرجل لزوجه؛ يعينه على الاستعفاف، وطهارة القلب، وسكينة النفس، وحبه لولده، وذوي رحمه، وإخوانه وأصحابه؛ يحمله على حسن العشرة، وصلة الرَّحم، والوفاء والصِّدق، وكرم الأخلاق.

فأما إذا ابتلي بالعشق وعفَّ وصبر؛ فإنه يثاب على تقواه الله، وقد روي في الحديث أن «**من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيداً**»، وهو معروف من رواية يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. وفيه نظر، ولا يحتجُّ بهذا؛ لكن من المعلوم بأدلة الشَّرع أنَّه إذا عف عن المحرمات نظراً وقولاً وعملاً، وكتم ذلك فلم يتكلَّم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرَّم؛ إمَّا شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق، وصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن اتَّقى الله وصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠][١].

وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس.

وإذا كانت النَّفس تطلب ما يبغضه الله، فينهاها خشية من الله؛ كان مِمَّن دخل في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالنفس إذا أحبت شيئاً سعت في حصوله بما يمكن حتى تسعى في أمور كثيرة، تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحبَّ محبة مذمومة، أو أبغض بغضاً مذموماً، وفعل ذلك كان ءاثماً، مثل أن يبغض شخصاً لحسده له، فيؤذي من له به تعلُّق، إما بمنع حقوقهم، أو بعدوانٍ عليهم. أو لمحبة له لهواه معه، فيفعل لأجله ما هو محرَّم، أو ما هو مأمور به لله، فيفعله لأجل هواه لا لله، وهذه أمراض كثيرة في النفوس.

---

(١) هذه الفقرة تقدَّم نقلها والتعليق عليها في المبحث الثاني.

والإنسان قد يبغض شيئاً فيبغض لأجله أموراً كثيرةً؛ بمجرَّد الوهم والخيال، وكذلك يحب شيئاً فيحب لأجله أموراً كثيرة؛ لأجل الوهم والخيال، كما قال شاعرهم:

أحبُّ لِحُبِّها السُّودانَ حتَّى أحبُّ لحبِّها سُودَ الكِلابِ

فقد أحبَّ سوداء؛ فأحبَّ جنس السَّواد حتى في الكلاب، وهذا كلُّه مرض في القلب في تصوره وإرادته.

فنسأل الله تعالى أن يعافي قلوبنا من كل داء؛ ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والقلب إنما خلق لأجل حُبِّ الله تعالى، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده، كما قال النبيُّ ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يهوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرَانِهِ، أو يُمَجِّسَانِهِ؛ كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء**»، ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الرُّوم: ٣٠]. أخرجه البخاريُّ ومسلم.

فالله سبحانه فَطَرَ عباده على محبَّته وعبادته وحده؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله، محباً له، عابداً له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه، كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وهذه كلُّها تغيِّر فطرته التي فطره عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ كما يغيِّر البدن بالجدع ـ ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسَّر الله ـ تعالى ـ لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرُّسل ـ صلَّى اللّه عليهم وسلَّم ـ بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها.

وإذا كان القلب مُحِبّاً لله وحده مخلصاً له الدِّين؛ لم يُبْتَلَ بِحُبِّ غيره أصلاً، فَضلاً أن يُبتَلى بالعشق. وحيث ابتلي بالعشق فلِنَقْصِ محبَّتِهِ لله وَحْده.

ولهذا لَمَّا كان يوسف محباً لله، مخلصاً له الدِّين، لم يُبْتَلَ بذلك؛ بل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وأمَّا امرأة العزيز فكانت مشركة ـ هي وقومها ـ؛ فلهذا ابتليت بالعشق، وما يُبْتَلى بالعشق أحدٌ إلا لنَقْص توحيده وإيمانه؛ وإلا فالقلب المنيب إلى الله، الخائف منه، فيه صارفان يصرفانه عن العشق:

أحدهما: إنابته إلى الله، ومحبته له، فإن ذلك ألذُّ وأطيبُ من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوقٍ تزاحمه.

والثاني: خوفه من الله، فإنَّ الخوف المضاد للعشق يصرفه، وكل من أحبَّ شيئاً ـ بعشقٍ أو غير عشق ـ فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه، إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب.

فإذا كان الله أحبَّ إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، لم يحصل معه عشق، ولا مزاحمة، إلا عند غفلة، أو عند ضعف هذا الحب والخوف؛ بترك بعض الواجبات، وفعل بعض المحرَّمات، فإن الإيمان يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية، فكلَّما فعل العبد الطاعة محبةً لله، وخوفاً منه، وترك المعصية حباً له، وخوفاً منه؛ قَوِيَ حبُّه له، وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصِّحَّة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع

بالضد، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع، والعمل الصالح، فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً: «**إنَّ كلَّ ءادِبٍ يُحِبُّ أن تُؤْتَى مَأْدُبَتُهُ، وإنَّ مأدبة الله هي القرءان**»[1]. والآدب: المُضَيِّفُ، فهو ضيافة الله لعباده.

[فصلاحُ قلب من ابتلي بهذا الدَّاء، وشفاؤه؛ بالتَّوبة النَّصوح، وصدق اللُّجوء إلى الله تعالى، والتذلُّل إليه، والانكسار بين يديه، والإكثار من الدعاء، خاصَّة في الأوقات الفاضلة][2]؛ مثل ءاخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي إدبار الصَّلوات، ويضم إلى ذلك الاستغفار؛ فإنَّه من استغفر الله ثم تاب إليه متَّعه متاعاً حسناً إلى أجل مسمىً.

وليتخذ ورداً من الأذكار في النهار، ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصَّوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصَّلوات الخمس باطنةً وظاهرةً؛ فإنها عمود الدين.

---

(١) رواه إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود. وإبراهيم: ليِّنُ الحديث، عيب عليه رفعه للموقوفات، وقد اضطرب في هذا الحديث، فرواه مرفوعاً ـ أخرجه ابن أبي شيبة في: «المصنَّف» (٣٠٠٠٨)، والحاكم في: «المستدرك» ١/٥٥٥ (٢٠٤٠)، والبيهقي في: «شعب الإيمان» (١٩٣٣)؛ وغيرهم ـ، ورواه موقوفاً ـ أخرجه عبدالرزاق في: «المصنَّف» (٥٩٩٨، ٦٠١٧)، والدَّارمي (٣٣٠٧، ٣٣١٥)، وسعيد بن منصور (٧)؛ وغيرهم ـ؛ قال ابن الجوزي في: «العلل المتناهية» ١/١٠٩: لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، ويُشبه أن يكون من كلام ابن مسعودٍ. قلت: خاصَّة وأن له طرقاً أخرى عنه موقوفاً.

(٢) هنا بياض في الأصل، وزدت ما بين المعقوفتين بما يفهم من السياق.

وليكن هَجِّيراه: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يَعْجَل؛ فيقول: قد دعوتُ، ودعوتُ؛ فلم يستجب لي!

وليعلم أنَّ النَّصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، ولم ينل أحد شيئاً من ختم الخير ـ نبيٌّ فمن دونه ـ إلا بالصبر. والحمد لله رب العالمين، وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة؛ حمداً يكافىء نعمه الظاهرة والباطنة، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع ءاخر ـ بعد أن بيَّن حقيقة العبودية لله تعالى، وأن العبد كلما زاد تحقيقاً للعبودية لله ازداد كماله، وعلت درجته، وأن الرقَّ والعبودية في الحقيقة رقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده ـ:

«وكلُّ من علق قلبه بالمخلوقات ـ أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه ـ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظَّاهر أميراً لهم، مدبراً لهم، متصرفاً بهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظَّواهر.

فالرجل إذا تعلَّق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له؛ يبقى قلبه أسيراً لها، تحكم فيه، وتتصرَّف بما تريد، وهو في الظَّاهر سيِّدها لأنه زوجها، وفي

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ١٠/١٣٣ ـ ١٣٧.

الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا دَرَتْ بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنَّها ـ حينئذٍ ـ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور؛ الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم. فإنَّ أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من اسْتُعْبِدَ بدَنُه، واسْتُرِقَّ؛ لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك، مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأمَّا إذا كان القَلب ـ الذي هو المَلِكُ ـ رقيقاً، مستعبداً، مُتَيَّماً لغير الله؛ فهذا هو الذُّلُّ والأَسْرُ المَحْضُ، والعبودية لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره؛ هي التي يترتب عليها الثَّواب والعقاب، فإنَّ المسلم لو أسره كافرٌ، أو استرقَّه فاجرٌ بغير حقٍّ؛ لم يضرَّه ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حقَّ الله، وحق مواليه؛ له أجران، ولو أكره على التَّكلُّم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لم يضرَّه ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله؛ فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظَّاهر ملك الناس.

فالحُرِّيَّة حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغِنَى غنى النفس. قال النبيُّ ﷺ: «**ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، وإنَّما الغنى غنى النَّفس**»[1].

وهذا ـ لَعَمْري! ـ إذا كان قد اسْتَعْبَدَ قلبَهُ صورةٌ مباحةٌ، فأمَّا من استعبدَ قلبه صورة محرمة ـ امرأة، أو صبي ـ فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه.

(١) «صحيح مسلم» (١٠٥١).

وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً، وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورةٍ إذا بقي قلبه متعلِّقاً بها، مستعبَداً لها، اجتمع له من أنواع الشَّرِّ والفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشدُّ ضرراً عليه مِمَّن يفعل ذنباً ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يُشَبَّهون بالسَّكارى والمجانين، كما قيل:

سُكْران: سكرُ هوىً، وسكرُ مدامة ... ومتى إفاقةُ مَنْ به سُكْرَان

وقيل:

قالوا: جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوى، فقلت لهم: ... العشقُ أعظم مِمَّا بالمجانينِ

العشقُ لا يَسْتفيقُ الدَّهر صاحبه ... وإنَّما يُصرع المجنونُ في الحِينِ

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإنَّ القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قطُّ أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب ءاخر يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروه، فالحبُّ الفاسد إنَّما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالى في حقِّ يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤُهُ من الميل إلى الصور، والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء؛ بإخلاصه لله. ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له؛ تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي في قلبه؛ انقهر له هواه بلا علاج. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فإن الصلاة فيها دفع للمكروه؛ وهو الفحشاء

والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب؛ وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها. وأما اندفاع الشَّر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التَّبعِ.

والقلب خَلْقٌ يحبُّ الحقَّ، ويريده، ويطلبه. فلما عرضت له إرادة الشر؛ طلب دفع ذلك، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدَّغل، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، فجعل ـ سبحانه ـ غضَّ البصر، وحفظ الفرج؛ هو أزكى للنفس، وبَيَّنَ أن ترك الفواحش من زكاة النفوس. وزكاة النفوس تتضمَّن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب، وغير ذلك...»[1].

وبيَّن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن عشق الصُّورِ ءاتٍ من فراغ القلب؛ فقال ـ بعد كلام له في اتباع الهوى، وحقيقة المحبة ـ:

«إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس؛ يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسيرَ ما يهواه، يصرفه كيف تصرَّف ذلك المطلوب، ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشَّاب الناسك بأخوف منِّي عليه من سَبُعٍ ضارٍ يَثِبُ عليه؛ مِنْ صبي حَدَثٍ يجلس إليه. وذلك أن النفس الصافية، التي فيها رِقَّةُ الرِّياضة، ولم تنجذب

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٠/١٨٦ ـ ١٨٩.

إلى محبة الله وعبادته انجذاباً تاماً، ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها؛ متى صارت تحت صورة من الصُّور؛ استولت تلك الصورة عليها، كما يستولي السَّبُع على ما يفترسه. فالسَّبُع يأخذ فريسته بالقهر، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه، كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصُّور المحبوبة، تبتلع قلبه، وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقاً في تلك الصُّورة أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس، له عليها سلطان قاهر»[1].

قلت: قد أطلت في هذه النُّقول عن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ، وأردت بذلك أن يكون البعض دليلاً على الكلِّ، ومعرِّفاً به، ومشوِّقاً إليه، فمن أراد الاستزادة من هذا الكلام الربَّاني الفريد، والانتفاع بالخطاب المحيي للقلوب، والهادي للعقول، والمزكِّي للنُّفوس؛ فعليه بـ (مجلد علم السلوك) من: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى».

٥ ــ شخصية ابن حزم واخلاقه

عندما أراد ابن حزم أن يبحث قضية الحبِّ؛ وجد نفسه أمام سيل هائل من الأفكار والمشاعر والذِّكريات، التي تستوعب قضية الحب وتزيد عليها بمعانٍ وأبعادٍ إنسانية وأخلاقية كثيرةٍ وعميقةٍ.

ولم يكن ابن حزم ليهمل تلك المعاني، ولا أن يتجاوز تلك الأبعاد؛ خاصة وإنها جزء لا يتجزأ من شخصيته، وكيانه الفكري والعاطفي.

لهذا وجد نفسه مدفوعاً لتعميق البحث، وتغذيته ببعض تلك المعاني، وساعده على ذلك شجاعته الأدبية النادرة؛ التي تتجاوز حدود الحياء

(١) نفسه: ١٠/٥٩٥ ـ ٦٠٦.

المصطنع، وتكسر قيود النسك الأعجميّ، وتأذن للآخرين أن يطَّلعوا على أفكاره ومشاعره، والجوانب الشخصية الخاصة من حياته.

وشواهد هذا يجده القارىء مبثوثاً في ثنايا الكتاب، حتى أنني أستطيع الزعم بأنَّ هذا الكتاب كما هو كتاب حبٍّ؛ فهو ـ أيضاً ـ كتاب سيرة وذكريات واعترافات شخصية، وهو ـ أيضاً ـ كتاب أخلاق وقيم. لهذا أجدني أكرر ما ذكرته في مقدمة كتابه الآخر: «الأخلاق والسير» من أنَّه يمكن استخراج كثير من الفوائد منه، خاصَّة فيما يتعلَّق بشخصية ابن حزم وحبِّه للحق والعدل والصِّدق، وبغضه الشديد للباطل والظُّلم والكذب. وهذه أصول مهمة يتفرَّع عنها أخلاق وسلوكيات كثيرة فالتَّنبه لها مما يعين على فهم القيم التي ساعدت على تكوين شخصيته، وبالتالي يمكن رصد بعض الأسس التي تدخل في بناء الرجال الكبار[1]!

وإذا تتبَّعنا بعض تلك الجوانب في ثنايا هذا الكتاب؛ فإننا نجد ـ أولاً وقبل كلِّ شيء ـ أن الحبَّ بمفهومه الضَّيق (حب الرجل للمرأة) الذي هو موضوع الكتاب؛ قد اتَّسع ليشمل مطلق المحبَّة والألفة، ويتضَمَّنَ الكلام في الأُخُوَّةِ والصُّحبة والصَّداقة.

والكلام في (الحب من نظرة واحدة)، وفي (الحب مع المطاولة)؛ نقله إلى الكلام في أخلاق النَّفس من الصبر والملل والحنين..

والكلام في (الطَّاعة)؛ قاده إلى تحرير الفرق بينها وبين دناءة النَّفس.

وفي (باب العاذل) ذكر عذل صديق له في أمرٍ ليس هو من جنس الكتاب، لكن له صلة بالصداقة وحقوقها..

---

(١) «كتاب الأخلاق والسير» ص: ٢٠.

وعند ذكر (المساعد من الإخوان) ذكر صفات كثيرة رائعة للصَّديق المخلص، ثم قال: «وأين هذا؟ فإن ظفرت به يداك؛ فشدَّهما عليه شدَّ الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصُنْه بطارفك وتالدك...».

وجعل من تمام ذمِّ (الواشي) بيان التَّنقيل والنَّمائم، فذمَّ الكذب وأهله أعظم ذمٍّ، وعدَّه أصل كلِّ فاحشة، وجامع كل سوء...

ولم يكتف فيه بالجانب العلمي، بل بيَّن موقفه العمليَّ والسُّلوكي؛ فقال:

«وما أحببتُ كذَّاباً قطُّ. وإنِّي لأسامح في إخاء كل ذي عيبٍ؛ وإن كان عظيماً، وأكل أمره إلى خالقه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وءاخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشا من أعلمه يكذِب، فهو عندي ماحٍ لكلِّ محاسنه، ومعفٌ على جميع خصاله، ومُذهب كلَّ ما فيه، فما أرجو عنده خيراً أصلاً... ولا بدأت ـ قطُّ ـ بقطيعة ذي معرفةٍ إلا أن أطَّلع له على الكذب، فحينئذٍ أكون أنا القاصدَ إلى مجانبته، والمتعرِّض لمتاركته،...».

وفي استعارضه لآفات (الهجر)؛ ذمَّ (الملل) وشرح ءاثاره القبيحة.

وعند كلامه عن (الوفاء) ومراتبه، أراد التفصيل في بيانها، لكن منعه من ذلك أن رسالته هذه لم يقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان...، ومع هذا لم يغفل الجانب الأخلاقي في الموضوع، فأشار إليه إشارات عديدة، وانتهى إلى ذكر ما منحه الله تعالى: «من الوفاء لكلِّ من يمتُّ إليه بلُقْيَةٍ واحدة، ووهبه من المحافظة لمن يتذمَّم منه ولو بمحادثته ساعةً؛ حظاً» عظيماً موجباً لحمد الله وشكره، والاستزادة من فضله، وما ذكر ذلك «ممتدحاً، ولكن ءاخذاً بأدب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]».

وربط أثر (البين) والهجر على النَّفس؛ بطبيعة النَّفس وأخلاقها. وكذلك فعل بنوع من أنواع (القنوع).

واعتبر (السُّلوَّ) الطبيعي، وهو المسمى بالنسيان؛ حادثاً عن أخلاقٍ ذميمةٍ؛ إلا إن كان عن عذرٍ صحيحٍ. لهذا فإنه يستعيذ بالله أن يكون النسيان طبعاً له، غير أنه لا يطيق (الغدر): «فما يصبر عليه إلا دنيء المروءة، خسيس الهمَّة، ساقط الأنفة» لهذا فإن السَّالي في هذه الحالة لا يكون مذموماً.

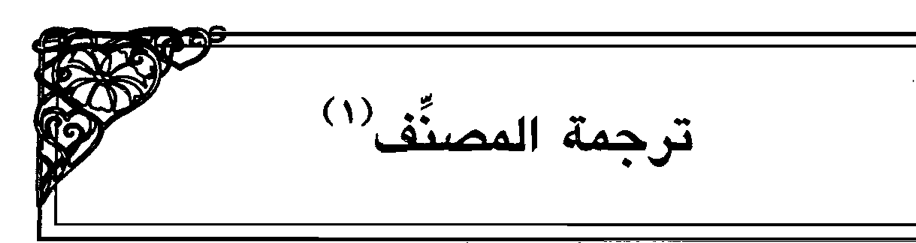
وقد اتصف ابن حزم بخصلتين جبل عليهما، هما الوفاء وعزة النفس، وكل واحدة من هاتين السَّجيَّتين تدعو لنفسها، فالوفاء يدعو إلى الثبات وعدم التلون والنسيان، وعزة النفس لا تقرُّ الضيم، وتهتم بأقل ما يرد عليها من تغير المعارف؛ فتدعو ـ بطبيعة الحال ـ إلى الهجر والنسيان. وتدافع دواعي هاتين الصفتين؛ ولَّد في نفسه صراعاً شديداً، وصفه بهذه الكلمات الصريحة: «لا يهنأني معهما عيش أبداً، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما، وأود التغيُّب من نفسي ـ أحياناً ـ لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما»!!

تلك هي بعض المباحث والإشارات الأخلاقية في ثنايا الكتاب؛ ويتَّضح لنا من خلالها عظيم اهتمام ابن حزم بهذا الجانب، واتصافه ـ هو ـ في نفسه وسلوكه بها؛ صدقاً، ووفاءً، وعزَّة نفسٍ، وعلو همَّة،... إلى ءاخر ما نقرأه ـ هنا ـ سلوكاً عملياً، ونقرأه في كتابه الآخر: «الأخلاق والسِّير» خطاباً تربوياً سامياً، عاش ابن حزم كل كلمة من كلماته؛ شعوراً في النفس، وسلوكاً في الحياة، وممارسة في المجتمع مع أحبابه وأصدقائه وأصحابه، ومع مناوئيه ومبغضيه وأعدائه؛ على حدٍّ سواء.

* * *

ترجمة المصنِّف

- اسمه ونسبه.
- مولده.
- شيوخه.
- تلاميذه.
- نشأته.
- منزلته العلمية.
- أشهر مصنَّفاته.
- محنته.
- نماذج من شعره.
- وفاته.



ترجمة المصنِّف[1]

اسمه ونسبه:

هو: الإمامُ الأوحدُ، البحرُ، ذو الفنون والمعارف، الفقيهُ الحافظُ، المتكلِّمُ الأديبُ، الوزيرُ الظَّاهريُّ، صاحبُ التَّصانيف؛ أبو محمَّدٍ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، الفارسيُّ الأصل، ثمَّ الأندلسيُّ القرطبيُّ اليزيديُّ؛ مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي ـ رضي الله عنه ـ المعروف بيزيد الخير[2]، نائب أمير المؤمنين أبي حفصٍ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ على دمشقَ. فكان جده يزيد؛ مولىً للأمير يزيد أخي معاوية، وكان جدُّه خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالدَّاخل[3].

---

(١) هذه الترجمة من: «سير أعلام النبلاء» ١٨/١٨٤- ٢١٢، الترجمة: (٩٩)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٦/ الترجمة: ١٦٨)؛ كلاهما للإمام شمس الدين الذَّهبيِّ (٧٤٨هـ)، وسياق الكلام فيها له ـ رحمه الله ـ مِنَ: «السِّيَر»، غير أنِّي عمدت إلى النص؛ فاختصرته، وهذَّبته، ورتبته، وعلَّقت عليه.

(٢) أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وشهد حُنيناً، وهو أحد الأمراء الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، ولمَّا فتحت دمشق؛ أمَّره عمر عليها. توفي في الطَّاعون سنة (١٨هـ). ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ١/(٦٨).

(٣) لأنه حين انقرضت خلافة بني أمية من الدنيا، وقتل مروان الحمار، وقامت دولة بني=

مولده:

قال القاضي صاعد بن أحمد التَّغْلبيُّ (٤٦٢هـ)[1]: كتبَ إليَّ ابنُ حزمٍ ـ بخطِّه ـ يقول: ولدتُ بقرطبةَ، في الجانب الشَّرقي، في رَبَضِ منية المغيرة، قبل طلوع الشَّمس، وبعد سلام الإمام من صلاة الصُّبح، ءاخر ليلة الأربعاء، ءاخر يومٍ من شهر رمضانَ المعظَّم ـ وهو اليوم السابع من نُوَنْبِر[2] ـ سنة أربع وثمانين وثلاث مئة، بطالع العقرب.

شيوخه:

وسمع في سنة أربع مئة وبعدها؛ من طائفةٍ، منهم:

١ ـ يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود؛ عُرِفَ بابن وَجْه الجنَّة (٣٠٤-٤٠٢هـ)؛ صاحب قاسم بن أصبغ (٣٤٠هـ)، فهو أعلى شيخٍ عنده.

٢ ـ ومن أبي عمر أحمد بن محمد بن أحمد الأمويِّ القرطبيِّ، ابن الجسور (٤٠١هـ).

٣ ـ ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي (٣٣٨-٤٢٩هـ).

٤ ـ وحُمَام بن أحمد القاضي (٣٥٧-٤٢١هـ).

٥ ـ ومحمد بن سعيد بن محمَّد بن نبات الأُمويِّ القرطبيِّ (٣٣٥-٤٢٩هـ).

٦ ـ وعبد الله بن ربيع التَّميميُّ (٣٣٠-٤١٥هـ).

= العبَّاس؛ هرب هذا، فنجا، ودخل إلى الأندلس فتملكها، وتوفي سنة: (١٧٢هـ) ترجمته ومصادرها في: «السِّير» ٨/(٥٥).

(١) في: «طبقات الأمم» ٨٦، وعنه: الحافظ أبو القاسم ابن بشكوال في: «الصِّلة» ٢/٤١٧.

(٢) وهو: نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ سنة ٩٩٤ من تأريخ النصارى.

٧ ـ وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر، أبي القاسم الهمدانيِّ الوهرانيِّ (٣٣٨-٤١١هـ)[١].

٨ ـ وأبي عمر أحمد بن محمد الطَّلَمَنْكيِّ (٤٢٩هـ).

٩ ـ وعبد الله بن يوسف بن نامي (٣٤٨-٤٣٥هـ).

١٠ ـ وأحمد بن قاسم بن محمَّد بن قاسم بن أصبغ (٤٣٠هـ).

وينزل إلى أن يروي عن:

١١ ـ أبي عمر بن عبد البرِّ (٣٦٨-٤٦٣هـ).

١٢ ـ وأحمد بن عمر بن أنس العُذْريِّ (٣٩٣-٤٧٨هـ).

وأول سماعه من ابن الجَسور في حدود سنة أربع مئة[٢].

وأجود ما عنده من الكتب «سنن النَّسائيِّ» يحمله عن ابن ربيع، عن ابن الأحمر؛ عنه. وأنزل ما عنده «صحيحُ مسلمٍ» بينه وبينه خمسة رجال، وأعلى ما رأيتُ له حديث بينه وبين وكيعٍ فيه ثلاثة أنفس.

تلاميذه:

حدَّث عنه: ابنُهُ أبو رافع الفَضْلُ (٤٧٩هـ)[٣]، وأبو عبد الله محمَّد بن

---

(١) ذكر الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ بعد هذا: «عبد الله بن محمَّد بن عثمان»؛ وهو: أبو محمَّد الأسدي الأندلسي؛ كان محدِّثاً، ضابطاً، ثقةً. ذكره الذَّهبي ـ نفسه ـ في وَفَيات سنة: (٣٦٤) من: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٧/ص: ٣٢٤)، فذِكْرُه في شيوخ ابن حزم وهمٌ، وإنَّما يروي عنه بواسطة شيخه: عبد الله بن ربيع؛ كما في مواضع من: «المُحلَّى».

(٢) قاله الحميدي في: «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشِّعر» الترجمة: (٧٠٧).

(٣) كان عنده أدب ونباهة وذكاء، وكتب بخطِّه علماً كثيراً. توفي ـ رحمه الله ـ بوقعة الزَّلاقة شهيداً. «الصِّلة» (٩٩٧)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٨/الترجمة: ٢٩٦). ومن أبناء ابن حزم ـ أيضاً ـ: أبو أسامة يعقوب، قال ابن بشكوال في «الصِّلة»: كان من أهل=

فُتوح الحميديُّ (٤٨٨هـ)؛ فأكثرَ، ووالد القاضي أبي بكرٍ ابن العربيِّ[١]، وطائفة.

وءاخر من روى عنه بالإجازة: أبو الحسن شُريح بن محمَّد الرعينيُّ الإشبيليُّ (٥٣٩هـ)

نشأته:

نشأ في تنعُّمٍ ورفاهيَّةٍ، ورُزِقَ ذكاءً مفرطاً، وذهناً سيَّالاً، وكتباً نفيسةً كثيرةً. وكان والده من كُبَراء أهل قرطبة؛ عمل الوزارة في الدَّولة العامرية، وكذلك وَزَرَ أبو محمَّد في شَبِيبَتِهِ.

وكان قد مهر أوَّلاً في الأدب والأخبار والشِّعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة؛ فأثَّرت فيه تأثيراً لَيْتَهُ سَلِمَ من ذلك، ولقد وقفتُ له على تأليفٍ يحضُّ فيه على الاعتناء بالمنطق، ويقدِّمه على العلوم؛ فتألَّمْتُ له، فإنَّه رأسٌ في علوم الإسلام، متبحِّرٌ في النَّقل، عديم النَّظير، على يُبْسٍ فيه، وفَرْطِ ظاهِرِيَّةٍ؛ في الفروع لا الأصول.

قيل إنَّه تفقَّه أوَّلاً للشَّافعيِّ، ثمَّ أدَّاه اجتهاده إلى القول بنَفْي القياس كلِّه؛ جَلِيِّه وخَفِيِّه، والأخذ بظاهر النَّصِّ، وعموم الكتاب والحديث، والقول

= النباهة والإستقامة، من بيتة علم وجلالة. توفي سنة: (٥٠٣هـ). ومنهم: أبو سليمان مصعب، ذكره ابن خير الإشبيلي في: «فهرسته» ٤٥٦/٢، ووصفه بالفقيه.

(١) هو العلامة الأديب، ذو الفنون أبو محمد عبدالله بن محمد ابن العربي الإشبيلي، صحب ابن حزم، وأكثر عنه، ثمَّ ارتحل بولده أبي بكر، ومات بمصر في أول سنة: (٤٩٣)، ورجع ابنه أبو بكر إلى الأندلس، وتوفي سنة: (٥٤٣). قال الذهبي: وكان أبو محمَّد من كبار أصحاب أبي محمد بن حزم الظاهري، بخلاف ابنه القاضي أبي بكر؛ فإنَّه مُنَافِرٌ لابن حزم، مُحِطٌّ عليه بنفسٍ ثائرة. ترجُمتهما في: «سير أعلام النبلاء» ١٩/(٦٨)، و٢٠/(١٢٨).

بالبراءة الأصلِيَّة، واستصحاب الحال. وصنَّفَ في ذلك كتباً كثيرةً، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدَّب مع الأئمة في الخطاب؛ بل فَجَّجَ العبارة، وسَبَّ وجَدَّع، فكان جزاؤه مِنْ جنس فعله، بحيث إنَّه أعرضَ عن تصانيفه جماعةٌ من الأئمَّة، وهجروها، ونفروا منها، وأُحرقتْ في وقتٍ، واعتنى بها ءاخرون من العلماء، وفتَّشوها انتقاداً واستفادةً، وأخذاً ومؤاخذةً، ورأوا فيها الدُّرَّ الثَّمين ممزوجاً - في الرَّصْف - بالخَرَزِ المَهين؛ فتارةً يطربون، ومرَّةً يعجبون، ومن تفرُّده يهزَؤُون.

وفي الجملة؛ فالكمال عزيز، وكلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويترك؛ إلا رسولَ الله ﷺ.

منزلته العلمية:

وكان ينهض بعلومٍ جمَّةٍ، ويُجيد النَّقل، ويُحْسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ. وفيه دِينٌ وخَيْر، (وتورُّعٌ، وتزهُّدٌ، وتحرٍّ للصِّدق)[1]، ومقاصدُهُ جميلةٌ، ومصنَّفاته مفيدةٌ، وقد زهد في الرِّئاسة، ولزم منزله؛ مُكِبًّا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قَبْلَنا الكبارُ:

قال أبو حامد الغزَّالي (٥٠٥هـ) - رحمه الله -[2]: قَدْ وَجَدْتُ في أسماء الله تعالى كتاباً أَلَّفه أبو محمَّد بنُ حزمِ الأندلسيُّ؛ يدلُّ على عِظَمِ حِفْظِهِ، وسيلان ذِهْنِهِ.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابنُ حزم أجمعَ أهل

---

(١) زيادة من ترجمة ابن حزم في: «تذكرة الحفَّاظ» ٣/الترجمة: (١٠١٦)؛ للإمام الذَّهبيِّ - أيضاً -.

(٢) في: «شرح الأسماء الحسنى» كما ذكر ابن حجر في: «لسان الميزان» ٤/٢٠١.

الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعَهم معرفةً، مع توسعه في علم اللِّسان، ووُفور حظِّه من البلاغة والشِّعر، والمعرفةِ بالسِّيَر والأخبار. أخبرني ابْنُهُ الفَضْلُ أنَّه اجتمع عنده بخطِّ أبيه ـ أبي محمَّدٍ ـ من تواليفه؛ أربعُ مئةِ مجلَّدٍ، تشتمل على قريبٍ من ثمانينَ ألف ورقةٍ[1].

قال أبو عبد الله الحميديُّ[2]: كان ابنُ حزمٍ حافظاً، عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مُسْتنبطاً للأحكام من الكتاب والسُّنَّة، متفنِّناً في علوم جمَّةٍ، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدُّنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً، ذا فضائل جمَّة، وتواليف كثيرة في كلِّ ما تحقَّق به في العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث، والمصنَّفات، والمُسندات؛ شيئاً كثيراً، وسمع سماعاً جمًّا. وما رأينا مِثْلَهُ ـ رحمه الله ـ فيما اجتمع له من الذَّكاء، وسُرْعَةِ الحفظ، وكرم النَّفْس، والتَّدَيُّن. وكان له في الأدب والشِّعر نَفَسٌ واسعٌ، وباعٌ طويلٌ، وما رأيتُ من يقول الشِّعر على البديهة أسرعَ منه، وشعره كثيرٌ؛ جَمعتُه على حروف المعجم.

وقال أبو القاسم صاعد: كان أبوه أبو عُمَر من وزراء المنصور محمَّد بن أبي عامر؛ مدبِّر دولة المؤيَّد بالله بن المستنصر المروانيِّ، ثم وزر للمظفَّر بن المنصور، ووَزَرَ أبو محمَّد للمُسْتظهر بالله عبد الرَّحمن بن هشام، ثم نَبَذَ هذه الطريقة، وأقبل على العلوم الشَّرعية، وعُني بعلم المنطق، وبرع فيه، ثم أعرضَ عنه.

---

(١) «طبقات الأمم» ص ٧٦؛ ثمَّ قال صاعد الأندلسي ـ تعليقاً على هذا العدد ـ: وهذا شيء ما علمناه من أحدٍ كان في دولة الإسلام قبله؛ إلا لأبي جعفر بن جرير الطبريِّ؛ فإنَّه أكثر أهل الإسلام تأليفاً.

(٢) في: «جذوة المقتبس».

قلتُ: ما أعرضَ عنه حتَّى زرع في باطنه أموراً، وانحرافاً عن السُّنَّة.

قال: وأقبل على علوم الإسلام حتَّى نال من ذلك ما لم ينله أحدٌ بالأندلس قبله.

وقد حَطَّ أبو بكر ابن العربيِّ على أبي محمَّدٍ؛ في كتاب: «القواصم والعواصم»[1]، وعلى الظَّاهريَّة، ولم يُنْصِف القاضي أبو بكر ـ رحمه الله ـ شيخ أبيه في العلم، ولا تكلَّم فيه بالقِسْط، وبالغ في الاستخفاف به، وأبو بكر ـ فعلى عظمته في العلم ـ لا يبلغ رُتْبة أبي محمَّد؛ ولا يكادُ، فرحمهما الله، وغفر لهما.

قال اليَسَعُ ابنُ حزمٍ الغافقيُّ (٥٧٥هـ) ـ وذكر أبا محمَّدٍ ـ فقال: أمَّا محفوظه؛ فبحرٌ عجَّاج، وماءٌ ثجَّاجٌ، يخرج من بحره مَرجان الحِكَم، وينبت بثَجَّاجه ألفاف النِّعم في رياض الهِمم، لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على كلِّ أهلِ دِينٍ، وألَّف: «الملل والنِّحَل». وكان في صباه يلبس الحرير، ولا يرضى من المكانة إلا بالسَّرير، أنشدَ المعتمدَ؛ فأجاد، وقصد بَلَنْسِيَةَ وبها المظفَّر أحدُ الأطواد. وحدَّثني عنه عمرُ بنُ واجب؛ قال: بينما نحن عند أبي ببَلَنْسِيَةَ، وهو يدرِّس المذهب، إذا بأبي محمَّدٍ بن حزم يَسْمَعُنا؛ ويتعجَّبُ، ثم سألَ الحاضرينَ مسألةً مِن الفقه، جُووب فيها، فاعترضَ في ذلك، فقال له بعض الحُضَّار: هذا العلمُ ليس مِنْ مُنْتَحَلاتِكَ! فقامَ وقَعَدَ، ودخل منزله فعَكَفَ، ووَكَفَ منه وابلٌ فما كَفَّ، وما كان بعدَ أشهرٍ قريبةٍ حتى قَصَدْنا إلى ذلك الموضع، فناظر أحسنَ مناظرةٍ، وقال فيها: أنا أَتَّبعُ الحقَّ، وأجتهدُ، ولا أتقيَّدُ بمذهبٍ.

---

(١) وقد أورد الذَّهبي كلامه بطوله، وهو في: «العواصم من القواصم» ٢/٣٣٦-٣٣٧، تحقيق: عمَّار الطالبي.

أشهر مصنَّفاته:

ولابن حزم مصنَّفات جليلةٌ:

١ ـ أكبرها كتابُ: «الإيصال إلى فهم كتاب الخِصَال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام [وسائر الأحكام؛ على ما أوجبه القرءان] والسنة والإجماع»[١]، أورد فيه أقوال الصَّحابة فمن بعدهم في الفقه، والحجةَ لكلِّ قول، وهو كتاب كبير، [في] خمسة عشر ألف ورقة.

٢ ـ «الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام» مجلدان.

٣ ـ «المُجَلَّى»[٢] في الفقه، (على مذهبه واجتهاده)[٣]، مجلد.

٤ ـ «المُحَلَّى في شرح المُجَلَّى بالحُجَج والآثار»[٤] ثماني مجلدات، في غاية التقصِّي.

---

(١) ذكره الحميدي في: «الجذوة»؛ وتكملة العنوان منه، وقال: «أورد فيه أقوال الصَّحابة والتَّابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه، والحجة لكل طائفة وعليها، والأحاديث الواردة في ذلك من الصَّحيح والسقيم بالأسانيد، وبيان ذلك كلِّه، وتحقيق القول فيه». وهذا الكتاب مفقود، لم يعثر منه إلا على صفحات ضمن مجموع رقم: (٤٨٥٦) في مكتبة تشتيريتي، وذكر ءاربرِّي ـ في فهرس المكتبة المذكورة ـ أنَّها النُّسخة الوحيدة في العالم.

Arberry, Arthur John: The Chester Beatty library: a handlist of the Arabic manuscripts, Dublin, 1959. vol 5, p119.

وقد اختصر بعض هذا الكتاب ابنه أبو رافع ليكمِّل به: «المحلَّى» ابتداءً من المسألة: (٢٠٢٩)، وحتى نهاية الكتاب، إذ توفي ابن حزم ـ رحمه الله ـ قبل إتمامه.

(٢) «المُجَلَّى بالاختصار»، وهو المتن الذي عمل عليه شرحاً سمَّاه بـ«المُحَلَّى» وهو التالي. والمتن لا يوجد بمفرده، وأنا في صدد تجريده من: «المحلَّى»؛ يسَّر الله تعالى إتمامه.

(٣) زيادة من: «تذكرة الحفَّاظ».

(٤) والأصحُّ في عنوانه: «المحلَّى بالآثار في شرح المُجلَّى بالاختصار، على ما أوجبه القرءان والسُّنن الثَّابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم». طبع في مصر بالمطبعة المنيرية ١٣٤٧ -١٣٥٠هـ (١٩٢٨-١٩٣١م)، حقَّق العلامة أحمد محمد شاكر=

قال الشَّيخ عزُّ الدِّين بنُ عبد السَّلام (٦٦٠هـ) - وكان أحدَ المجتهدين -: ما رأيتُ في كُتُبِ الإسلام في العلم مِثْل: «المحلَّى» لابن حزم، وكتاب: «المغني» للشَّيخ موفق الدِّين[(١)].

قلتُ: لقد صدق الشَّيخ عز الدين، وثالثهما: «السُّنن الكبير» للبيهقيِّ (٤٥٨هـ)، ورابعها: «التَّمهيد» لابن عبد البَرِّ. فمن حصَّل هذه الدَّواوين، وكان من أذكياء المُفْتين، وأدمن المطالعة فيها؛ فهو العالم حَقًّا

٥ - «حَجَّة الوداع»[(٢)].

٦ - «الإجماع»[(٣)].

٧ - «الإحكام لأصول الأحكام»[(٤)]، في غاية التقصِّي [وإيراد

= - رحمه الله - الأجزاء الستة الأولى، وحقَّق الجزء السابع: الشيخ عبد الرحمن الجزيري - رحمه الله -، وأتمَّ تحقيقه الشيخ محمد منير أغا الدمشقي - رحمه الله -. وطبع بمصر - أيضاً - سنة ١٩٧٢م بتصحيح حسن زيدان طلبة، ولم تشتهر هذه الطبعة، بل بقيت الطبعة المنيرية هي المتداولة المعتمدة، وجدَّدت بعض دور النشر في بيروت طبعها بطريقة التصوير (الأوفست)، وما زال الأمر كذلك؛ حتى تجرَّأ ورَّاق، جاهل، متعالم؛ على إعادة تنضيد الكتاب، فمسخه، وشوهه؛ باسم التحقيق (دار الفكر ببيروت: ١٩٨٨). وقد بدأتُ بجمع مخطوطات الكتاب من مكتبات العالم، وشرعت في تحقيقه على منهج علميٍّ متكامل، ومن الله تعالى العون والتوفيق.

(١) الإمام الفقيه موفَّق الدِّين أبو محمَّد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدِّمشقي، المتوفى سنة ٦٢٠ هـ. وكتابه: «المغني» من أعظم الكتب الفقهية الجامعة لمذاهب الأئمة الفقهاء، مع الاستدلال والتعليل والترجيح، بلغة علميةٍ أصوليَّةٍ ساميةٍ، وهو مطبوعٌ، متداولٌ، مشهورٌ.

(٢) حقَّقه: ممدوح حقي، دمشق: دار اليقظة العربية، ط: ١/ ١٩٥٦م، وط٢/١٩٦٦.

(٣) طبع باسم: مراتب الإجماع، القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م؛ تصحيح: حسام الدين القدسي، في ١٧٩ صفحة. وطبع في بيروت، دار الآفاق الجديدة ١٩٧٨م.

(٤) طبع في مصر ١٣٤٥-١٣٤٨هـ، وقد عُني بتصحيحه العلامة أحمد محمد شاكر، وهو في ثمانية أجزاء، وقد صورته دار الآفاق الجديدة في بيروت سنة ١٩٨٠م، وقدَّم له: الدكتور إحسان عباس. وطبعته دار الكتب العلمية في بيروت طبعة تجارية سيئة. وبلغني =

الحجاج][1].

٨ ـ «إظهار تبديل اليهود والنَّصارى للتَّوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا يحتمله التَّأويل»[2]؛ وهو كتاب لم يسبق إليه في الحسن.

٩ ـ «الفَصْل في الملل والنحل»[3]، مجلدان كبيران.

١٠ ـ «التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية»[4]، مجلد.

١١ ـ «نقط العروس»[5]، مجيليد.

وغير ذلك، ومما له في جزء أو كراس:

١٢ ـ «النبذ الكافية»[6].

= أن الأخ الشيخ مشهور حسن ءال سلمان؛ قد انتهى من تحقيقه.

(١) قاله الحميدي في: «الجذوة»؛ والزيادة منه.

(٢) هو ضمن كتابه: «الفصل» ١/١١٦-٢/٩١.

(٣) طبع قديماً في القاهرة: ١٣١٧-١٣٢١هـ/١٩٠٣-١٩٠٧م، في خمسة أجزاء. وحققه: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، جدة: مكتبة عكاظ ١٤٠٢هـ.

(٤) قال الحميدي: «سلك في بيانه وإزالة سوء الظنِّ عنه، وتكذيب المُمَخرقين به؛ طريقةً لم يسلكها أحد قبله؛ فيما علمناه». وقد طبع بتحقيق: إحسان عبَّاس، مكتبة دار الحياة، بيروت: ١٩٥٩م. ٢٣٧ صفحة. ثم طبعه في المجلد الرابع من: «رسائل ابن حزم».

(٥) في تواريخ الخلفاء، أو: في نوادر الأخبار، نشره سيبولد، مجلة مركز الدراسات التاريخية، غَرناطة، ١٩١١م. وحققه: شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م١٣/ع٢/١٩٥١م، وجدَّد تحقيقها الدكتور إحسان عباس في: «رسائل ابن حزم» ٢/٤٣-١١٦.

(٦) لعلها: «النُّبَذ في أصول الفقه الظاهري» طبعت في القاهرة، مطبعة الأنوار، ١٩٤٠م، بتحقيق: محمد زاهد الكوثري. وحققها الشيخ محمد صبحي حلاق (دار ابن حزم، بيروت: ١٤٢٠هـ) عن مخطوطة المكتبة الراشدية في باكستان، ويظهر أنَّه لم يطَّلع على المطبوع.

١٣ ـ «النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد»[١]، مجلد صغير.

١٤ ـ «السِّير والأخلاق»[٢].

وأشياء سوى ذلك[٣].

محنته:

وقد امْتُحِنَ لتطويل لسانه في العلماء، وشُرِّد عن وطنه، فنزل بقريةٍ له، وجرت له أمورٌ، وقام عليه جماعةٌ من المالكيَّة[٤]، وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجيِّ (٤٠٣-٤٧٤هـ)؛ مُناظراتٌ ومُنَافراتٌ، ونفَّروا منه ملوك النَّاحية، فأقْصَتْهُ الدَّولة، وأُحرقتْ مجلداتٌ من كتبه[٥]، وتحوَّل إلى بادية

---

(١) وهو: «ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل»، تحقيق: الأستاذ سعيد الأفغاني ـ رحمه الله ـ، دمشق ١٩٦٠م، وط: ٢/بيروت ١٩٦٩م.

(٢) أو: «الأخلاق والسير» طبعت مراراً، وءاخرها: بتحقيق الأستاذة الدكتورة إيفا رياض، وبتقديمي وتعليقي، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢١هـ.

(٣) وقد ذكر الذهبي جملة كبيرة منها، واكتفيت بذكر أهمها وأشهرها، ومما لم يذكره الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ من كتبه المشهورة:
«جمهرة أنساب العرب» تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: ١٩٧٧م.
«جوامع السيرة» ـ وذكره الذَّهبي في: «تذكرة الحفاظ» وسمَّاه: «السيرة النبوية» ـ، طبع بدار المعارف بمصر بتحقيق: إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، ومراجعة العلامة أحمد محمد شاكر، وبذيله خمس رسائل لابن حزم.
ونشر الدكتور إحسان عباس أربعة أجزاء من: «رسائل ابن حزم الأندلسي» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: ١٩٨٣)، تضم رسائل متنوعة في فنون الأدب، والتاريخ، والدين، والمنطق، وغيرها.

(٤) هذه واحدة من المحن التي أصابته، غير أنها لم تكن الوحيدة، بل قاسى ابن حزم محناً كثيرة؛ من الإجلاء، والسجن، والأسر والنَّفي والتغريب، مما سيذكر بعضه في: «طوق الحمامة»، وذلك لأنه لم يرض بأنصاف الحلول، بل تمسك بشرعية الخلافة الأموية، واتخذ موقفاً شجاعاً وواضحاً من فتنة البربر.

(٥) ومع هذا لم يخرج ابن حزم ـ رحمه الله ـ عند حدِّ العدل والإنصاف، قال ابن بسَّام =

لَبْلَة[1] في قريةٍ.

قال أبو العبَّاس ابنُ العريف (٥٣٦هـ): كان لسانُ ابن حزم وسيفُ الحجَّاج شقيقَيْن.

وقال أبو بكر محمد بنُ طَرْخان التُركي (٥١٣هـ)، قال لي الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد ـ يعني والد أبي بكر ابن العربيِّ ـ: أخبرني أبو محمد بن حزم أنَّ سبب تعلُّمه الفقه أنَّه شهد جِنازةً، فدخل المسجد، فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قُمْ فصلِّ تحيَّة المسجد ـ وكان قد بلغ ستًّاً وعشرين سنة ـ قال: فقمتُ وركعتُ، فلمَّا رجعنا من الصَّلاة على الجِنَازة؛ دخلتُ المسجدَ، فبادرتُ بالرُّكوع. فقيل لي: اجلس! اجلس! ليس ذا وقتَ صلاةٍ ـ وكان بعدَ العصر ـ قال: فانصرفتُ وقد حَزِنْتُ، وقلت للأستاذ الذي ربَّاني: دلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دَحُّون[2]. قال: فقصدته، وأعلمته بما جرى، فدلَّني على «موطَّأ» مالكٍ، فبدأتُ به عليه، وتتابعتْ قراءتي عليه وعلى غيره؛ نحواً من ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة[3].

= في: «الذَّخيرة» ق٢/م٢/٩٦: بلغني عن الفقيه أبي محمَّد بن حزم؛ أنه كان يقول: لم يكن لأصحاب المذهب المالكيِّ ـ بعد عبد الوهَّاب ـ مثل أبي الوليد الباجيِّ. وقد ناظره بميورقة؛ ففلَّ من غَرْبه، وسبَّب إحراق كتبه، ولكنَّ أبا محمَّد وإن كان اعتقد خلافه؛ فلم يطَّرح إنصافه، أو حاول الردَّ عليه؛ فلم ينسب التقصير إليه.

قال عبد الحق: هكذا تكون أخلاق العلماء الربَّانيِّين!

(١) غربي قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية؛ خمسة أيام. «معجم البلدان» ٥/١٠.

(٢) هو في الراجح: أبو محمَّد عبد الله بن يحيى، الفقيه المالكي، المعروف بابن دحون، كان من جلَّة الفقهاء المذكورين، عارفاً بالفتوى، حافظاً للمذهب، عمَّر وأسنَّ، وانتفع به النَّاس، وانفرد برئاسة المذهب المالكي بقية مدَّته، توفي سنة: (٤٣١). «الصِّلة» (٥٩٠)، «ترتيب المدارك» ٤/٧٣٠ للقاضي عياض، «تاريخ الإسلام» (الطبقة. ٤٤/الترجمة: ٩).

(٣) هذه الحكاية نقلها عن ابن طرخان ـ وجادةً ـ؛ ياقوتُ الحموي في: «معجم الأدباء» =

ثم قال ابنُ العربيِّ: صحبتُ ابنَ حزمٍ سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنَّفاته سوى المجلد الأخير من كتاب: «الفصل» وهو ست مجلدات، وقرأنا عليه من كتاب: «الإيصال» أربع مجلدات في سنة ست وخمسين وأربع مئة، وهو أربعة وعشرون مجلداً، ولي منه إجازةٌ غير مرَّةٍ.

قال أبو مروان بن حَيَّان (٣٧٧-٤٦٩هـ): كان ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ حامل فنونٍ من حديثٍ وفِقْهٍ وجَدَلٍ ونَسَبٍ، وما يتعلَّق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع التَّعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله (في بعض تلك الفنون) كتبٌ كثيرةٌ، (غير أنه) لم يَخْلُ فيها من غَلَطٍ؛ لجُراءته في التَّسَوُّر على الفنون، لا سيما المنطق، فإنهَّم زعموا أنَّه زَلَّ هنالك، وضَلَّ في سلوك المَسَالك، وخالف أرسطاطاليس واضع الفَنِّ مخالفةَ مَنْ لم يَفْهم غَرَضَهُ ولا ارْتَاضَ، ومالَ أوَّلاً إلى النَّظر على رأي الشَّافعيِّ ـ رحمه الله ـ،

= ٢٤١/١٢-٢٤٢، ثم تناقلها بعده غير واحد من المؤرخين، واشتهرت جداً؛ رغم أنَّه لم يرد ذكرها في شيءٍ من المصادر الأندلسية الأصيلة، وهي قصَّة وإن كانت صحيحة الإسناد؛ فإنَّ متنها منكر جداً، وابن حزم ـ نفسه ـ يكذِّبها إذ يروي في مصنَّفاته عن شيخيه: ابن وجه الجنَّة؛ الذي مات في شهر ذي الحجة سنة (٤٠٢)، وابن الجسور؛ الذي مات في شهر ذي القعدة سنة (٤٠١)، وقد ذكرنا أنَّ ابن حزم ولد في رمضان ٣٨٤، فيكون قد شرع في دراسة الحديث والفقه على ابن الجسور وهو ابن سبع عشرة سنة، فيما لو لم يبتدئ عليه الدراسة إلا في سنة وفاته. ويكون قد شرع في دراسة الفقه على ابن وجه الجنَّة وهو ابن ثمان عشرة سنة؛ فيما لو لم يبتدئ القراءة عليه إلا في سنة وفاته. كيف؟ وابن حزم يصَرِّح بأنَّ ابن الجسور: «أول شيخ سمعت منه قبل سنة الأربع مئة» (الجذوة: ٩٩)، والحافظ الذَّهبيُّ يحدِّد هذه القبلية بقوله: وأول سماع ابن حزم سنة تسع وتسعين وثلاث مئة. (العبر: ٢٣٩/٣)، فتكون السِّنُّ التي ابتدأ فيها ابن حزم دراسة الحديث والفقه هي عمر الغلام اليافع، سنُّ الخامسة عشرة. وأين هذا من عمر رجل في السادسة والعشرين؟ (انظر: مقدِّمة الكتَّاني لـ «معجم فقه ابن حزم» ٧٣-٧٥)، وقد ردَّ هذه الحكاية ـ أيضاً ـ العلامة أبو عبد الرحمن الظَّاهري، في كتابه: «ابن حزم خلال ألف عام» وبيَّن أن ابن حزم قد أخبر عن نفسه أنه صلَّى على جنازة قبل أحد عشر عاماً من تاريخ هذه القصَّة، فقد صلَّى على المؤيد هشام.

وناضل عن مذهبه حتَّى وُسِمَ به، فاسْتُهْدِفَ بذلك لكثيرٍ من الفقهاء، وعِيب بالشُّذُوذ، ثم عَدَلَ إلى قول أصحاب الظَّاهر، فنقَّحه، وجادل عنه، (وَوَضَعَ الكتُبَ في بَسْطه)، وثبت عليه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ.

وكان يحمل علمه ـ هذا ـ ويجادل عنه من خالفه، على استرسالٍ في طباعِهِ، ومَذَلٍ بأسراره، واستنادٍ إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده: «لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ»[1]، فلم يكُ يُلَطِّفُ صَدْعَه بما عنده بتعريضٍ ولا (يزُفُّه) بتدريجٍ، بل يصكُّ به من عارضه صكَّ الجَندل[2]، ويُنْشِقُهُ (متلقِّيه) إنشاقَ الخَرْدَل، فتنفر عنه القلوب، وتُوقع به النُّدوب، حتى اسْتُهْدِفَ لفقهاء وقته، فتمالؤُوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنَّعوا عليه، وحذَّروا سلاطينهم من فِتْنَتِه، ونهوا عَوامَّهم عن الدُّنُوِّ منه، (والأخذ عنه)، فطَفِقَ الملوكُ يقصونه عن قُرْبِهم، ويُسَيِّرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به مُنقطعَ أثره: (بتربة بلده) من بادية لَبْلَة، (وبها توفي ـ رحمه الله ـ؛ سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئةٍ)، وهو في ذلك غيرُ مُرْتَدِعٍ ولا راجع (إلى ما أرادوا به)، يَبُثُّ علمه فيمن ينتابه مِن بادية بلده، من عامَّة المقتبسين من أصاغر الطَّلبةِ، الذين لا يخشون فيه المَلامة؛ يحدِّثهم، ويفقِّههم، ويدارسهم، (ولا يَدَعُ المثابرةَ على العلم، والمواظبةَ على التَّأليفِ، والإكثارَ من التَّصنيف)؛ حتَّى كَمَل من مصنفاته (في فنونٍ من العلم) وِقْرُ بعير، لم يَعْدُ أكثرها (عتبة) باديته؛ لزُهد الفقهاء فيها، حتى لأُحْرِقَ بعضُها بإشبيلية، ومُزِّقت علانيةً.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقوله تعالى: «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ» قرأ ابن كثير وأبو عَمرو بياء الغيب فيهما، والباقون بتاء الخطاب.

(٢) الجندل: ما يُقِلُّه الرَّجل من الحجارة. «القاموس».

وأكثر معايبه ـ زعموا عند المُنْصِفِ له ـ جَهلُه بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه، وتخلُّفه عن ذلك؛ على قوَّة سَبحه في غماره، وعلى ذلك فلم يكن بالسَّليم من اضطراب رأيه، ومغيب شاهد علمه عنه عند لقائه، إلى أن يُحَرَّكَ بالسُّؤال، فيتفجر منه بَحْرُ علمٍ لا تكدِّره الدِّلاء، (ولا يقصر غنه الرِّشاء، له على كل ما ذكرنا دلائل ماثلة، وأخبار مأثورة).

وكان ممَّا يزيد في شنآنه؛ تشَيُّعه لأمراء بني أميَّة؛ ماضيهم وباقيهم، (بالمشرق والأندلس)، واعتقاده لصِحَّة إمامتهم، (وانحرافه عمَّن سواهم من قريشٍ) حتَّى لنُسِبَ إلى النَّصب[1]

---

(١) النَّصب هو بغض عليٍّ رضي الله عنه. وهذه التُّهمة نتيجة باطلة للمقدمة السابقة، وهي: (تشيُّعه لأمراء بني أميَّة)؛ إذ أن ذلك (التشيع) والحب والولاء كان قائماً على أساس الولاء الشرعي للخلافة الأموية، والإدراك لدورها الهام في المحافظة على وحدة المسلمين وعزِّهم، فقد كانت دولة بني أمية ـ وكما قال ابن حزم ـ: «دولة عربية لم يتخذوا قاعدة، إنَّما سكنى كلُّ امرئٍ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجان الأموال، ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد، ويكاتبوهم بالعبودية والملك، ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد، وإنَّما كان غرضهم الطَّاعة الصَّحيحة من التَّولية... فلم يملك أحد من ملوك الدُّنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغَلَّب عليهم بنو العبَّاس بالمشرق، وانقطع به ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أميَّة نحو الثلاث مئة سنة، فلم يكُ في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصراً على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير، وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدُّنيا بذهابها. وانتقل الأمر بالمشرق إلى بني العباس... وكانت دولتهم أعجمية، سقطت فيها دواوين العرب، وغلب عجم خراسان على الأمر، وعاد الأمر ملكاً عضوضاً، محققاً كسروياً...». «البيان المغرب»: ٢/٣٩-٤٠، فيما نقله الدكتور إحسان عبَّاس في مقدمته لـ«رسائل ابن حزم» ٢/٢١-٢٢؛ وعلَّق عليه بقوله: وفي مثل هذا الحكم على الدُّول يتَّضح «الجانب التركيبي» في نظرات ابن حزم، بحيث يستطيع المرء أن يحلَّ هذه المركبات في بحوث مفردة، وتبدو في ذلك مهارة ابن حزم في انتقاء السِّمات المميزة، مثلما يبدو جانب هام ءاخر من حسِّ المؤرخ لديه، وذلك أنَّه لا ينظر إلى منجزات الدَّولة الواحدة نظرته إلى بعض الأفراد من ذوي المسؤولية فيها، وإنما يرى =

(لغيرهم)[1].

قلت: وقد أخذ المنطقَ ـ أبعده الله مِنْ علمٍ ـ عن محمد بن الحسن المَذْحِجيِّ، وأمعن فيه، فزَلْزَله في أشياءَ[2].

= هذه المنجزات من منظار المميزات الكبرى، وتلك تتجلّى في ما أصاب الجماعة من خيرٍ، فقد يعيب هو الوليد بن عبد الملك، ويصفه بالطّغيان (نقط العروس: ٢/٧١؛ وقال عنه: أحد الفراعنة)، أو يعيب مروان بن الحكم، ويتهمه بأنّه شقَّ عصا الجماعة، ويقول فيه: «مروان ما نعلم له جرحة قبل خروجه على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير؛ رضي الله عنهما» (المحلّى: ١٦٣)، ولكنه يبرز الخصائص الإيجابية التي تتميز بها الدَّولة الأموية بكلمات دقيقة دالَّة، ولا يضع سيئات الأفراد على كاهل الدولة كلِّها.
قلت: وتمام هذا البحث والرد على ابن حيَّان؛ عند الدكتور إحسان عباس في المصدر المذكور، ومحمد المنتصر الكتاني في مقدمته لـ«معجم فقه ابن حزم» ٧١-٧٣، وغيرهما.

(١) انتهى كلام ابن حيَّان، ونقله الذَّهبيُّ ـ أيضاً ـ في: «تذكرة الحفَّاظ» ٣/١١٥١-١١٥٢. وقد حفظه لنا أبو الحسن علي بن بسَّام الشَّنتريني (٥٤٢هـ) في: «الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ١/١/١٦٨-١٦٩، ونقله ياقوت الحموي في: «معجم الأدباء» ١٢/٢٤٧-٢٤٩، وعنهما استدركت بعض الفقرات وجعلتها بين قوسين. وله تتمَّه أغفلها الذَّهبي عمداً؛ لأنَّها تحتاج إلى نقدٍ ومناقشةٍ.

(٢) وقال في «تذكرة الحفاظ»: فيقي فيه قسط من نحلة الحكماء. وقال الإمام ابن عبد الهادي (٧٤٤هـ) في: «طبقات علماء الحديث» ٣/الترجمة: (٩٩٣): وقد طالعت أكثر كتاب: «الملل والنحل» لابن حزم فرأيته قد ذكر فيه عجائب كثيرة، ونقولاً غريبة، وهو يدلُّ على قوَّة ذكاءِ مؤلِّفه، وكثرة اطلاعه، لكن تبيَّن لي منه أنَّه جَهْمِيٌّ جَلْد، لا يُثْبِت من معاني أسماء الله الحسنى إلا القليل، كالخالق والحق، وسائر الأسماء عنده لا تدلُّ على معنىً أصلاً؛ كالرَّحيم والعليم والقدير ونحوها، بل العِلْمُ عنده هو القُدرة، والقدرة هي العِلم، وهما عين الذَّات، ولا يدلُّ العلم على معنى زائد على الذَّات المجرَّدة أصلاً، وهذا عين السَّفْسَطة، والمكابرة، وكان ابن حزم في صغره قد اشتغل في المنطق والفَلْسَفة، وأخذ المنطق عن محمَّد بن الحسن المَذْحجي، وأمعن في ذلك فتقرَّر في ذهنه ـ بهذا السَّبب ـ معاني باطلة، ثمَّ نظر في الكتاب والسُّنَّة فوجد فيهما من المخالفة لما تقرَّر في ذِهنه فصار في الحقيقة حائراً في تلك المعاني الموجودة في الكتاب والسنة، فرَوَغَ في ردِّها روغان الثَّعلب، فتارةً يحمل اللَّفظ على غير معناه اللُّغوي، ومرَّةً يحمل ويقول: هذا اللفظ لا معنى له أصلاً، بل هو بمنزلة الأعلام، وتارة يردُّ ما ثبت =

ولي أنا مَيْلٌ إلى أبي محمَّد لمحبَّته في الحديث الصَّحيح، ومعرفته به، وإن كنتُ لا أُوافِقُه في كثيرٍ ممَّا يقوله في الرِّجال والعلل، والمسائل البَشِعَة في الأصول والفروع، وأقطعُ بخطته في غير ما مسألةٍ، ولكن لا أُكفِّره، ولا أُضلِّلُه، وأرجو له العفوَ والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفَرْط ذكائه، وسَعة علومه.

نماذج من شعره[1]:

كتب إلينا المعمَّر العالم أبو محمَّد عبد الله بن محمد بن هارون ـ من

= عن المصدوق، كردِّه الحديث المتَّفق على صحَّته في إطلاق لفظ الصِّفات؛ وقول الذي كان يلزم قراءة «قل هو الله أحد» ـ لأنَّها صفة الرَّحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ: «فأنا أحبُّ أن أقرأ بها». ومرَّةً يخالف إجماع المسلمين في إطلاق بعض الأسماء على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وفي كلامه على اليهود والنَّصارى ومذاهبهم وتناقضهم فوائد كثيرة، وتخليط كبير، وهجوم عظيم، فإنَّه ردَّ كثيراً من باطلهم بباطل مثله، كما ردَّ على النَّصارى في التَّثليث بما يتضمن نفي الصِّفات، وكثيراً ما يَلعَنُ ويكفِّر ويَشْتُمُ جماعةً ممَّن نقل كتبهم كمتَّى ولوقا ويوحنَّا؛ وغيرهم، ويَقْذَعُ في القدْح فيهم إقذاعاً بليغاً. وهو ـ في الجملة ـ لونٌ غريبٌ، وشيءٌ عجيبٌ، وقد تكلَّم على نقل القرءان، والمعجزات، وهيئة العالم؛ بكلامٍ أكثره مليحٌ حسنٌ.

قلت: ومع ما وقع فيه ابن حزم من انحراف في عقيدة الأسماء والصِّفات، وغيرها؛ فإنه يذم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ويصرِّح بلعن جهم بن صفوان، ويقول: «وأهل السُّنة ـ الذين نذكرهم ـ أهلُ الحَقِّ، ومَنْ عَداهم؛ فأهلُ البدعة، فإنَّهم الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكلُّ من سلك نهجهم؛ من خيار التَّابعين ـ رحمة الله عليهم ـ ثُمَّ أصحاب الحديث، ومن اتبعهم من الفقهاء؛ جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، أو مَن اقتدى بهم من العوام في شَرْق الأرض وغربها ـ رحمة الله عليهم.» (الفَصْل: ٢/٩٩)؛ والأمر في ذلك ـ كلّه ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «...وطائفة أخرى كأبي محمد بن حزم وغيره ممن يقول أيضاً: إنه متَّبعٌ لأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة، إلى غير هؤلاء ممَّن ينتسب إلى السنة ومذهب الحديث؛ يقولون إنهم على اعتقاد أحمد بن حنبل، ونحوه من أهل السنة، وهم لم يعرفوا حقيقة ما كان يقوله أئمة السنة؛ كأحمد بن حنبل وأمثاله». (مجموع الفتاوى: ٧/٦٥٩).

(١) أغنى المصادر بشعر ابن حزم هو: «طوق الحمامة»، لكني حرصت على إيراد هذه =

مدينة تونس، عام سبعِ مئةٍ ـ عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي، عن شريح بن محمَّد الرُّعينيِّ؛ أنَّ أبا محمَّد بن حزم كتبَ إليه ـ فيما أحرقَ له المُعْتَضِدُ بن عَبَّاد من الكُتُب ـ يقول:

فإنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاس لا تَحْرِقُوا الَّذِي ... تَضَمَّنَهُ القرطاسُ بَلْ هو في صَدْرِي
يَسِيرُ معي حيثُ اسْتَقَلَّتْ رَكائِبِي ... وَيَنزِلُ إنْ أَنْزِلْ ويُدْفَن في قَبْرِي
دَعُونِيَ مِنْ إحْرَاقِ رَقٍّ وكَاغِدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدري
وإلا فَعُودُوا في المَكَاتِبِ بَدْأَةً ... فَكَمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ للهِ مِنْ سِتْرِ
كذَاكَ النَّصَارى يَحْرِقُونَ إذا عَلَتْ ... أكفُّهُم القُرْءانَ في مُدُنِ الثَّغْرِ

وبه لابنِ حزمٍ:

أُشْهِدُ اللهَ والمَلائِكَ أنِّي ... لا أرَى الرَّأْيَ والمَقَايِيسَ دِينا
حاشَ لله أنْ أقُولَ سِوى مَا ... جاء في النَّصِّ والهُدَى مُسْتَبِينَا
كَيْفَ يَخْفَى عَلَى البَصَائِرِ هذَا ... وهو كالشَّمْسِ شُهْرَةً وَيَقِينَا

فقلتُ مُجِيباً له :

لو سَلِمْتُمْ مِنَ العُمُومِ الَّذي ... نَعْلَمُ قَطْعاً تَخْصِيصَهُ وَيَقِيناً
وَتَرَطَّبْتُمْ فكَمْ قَدْ يَبِسْتُمْ ... لَرَأَيْنا لكم شُفُوفاً مُبِيناً

ولابنِ حزم:

مُنَايَ من الدُّنيا علومٌ أبُثُّها ... وَأَنْشُرُها في كُلِّ بَادٍ وحَاضِرِ
دُعاءٌ إلى القُرءانِ والسُّنَنِ التي ... تَناسَى رِجالٌ ذِكْرَها في المَحَاضِرِ

= النماذج التي انتقاها الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ؛ ليتعرَّف القارئ على أغراض أخرى في شعره، غير ما يجده في هذا الكتاب.

وَأَلْـزَمُ أطْـرافَ الـثُّـغُـور مُـجَـاهِـداً إذَا هَـيْـعَـةٌ ثَـارَتْ فَـأَوَّلُ نَـافِـرِ
لأَلْقَى حِمامي مُقْبلاً غيرَ مُدْبِرِ بِسُمْرِ العَوالي والرِّقاق البَواتِرِ
كِفَاحاً مع الكُفَّار في حَوْمَةِ الوَغَى وأَكْرَمُ مَوْتٍ لِلْفَتى قَتْلُ كافِرِ
فَيَا رَبِّ لا تَجْعَل حِمامِي بغَيْرِها ولا تَجْعَلَنِّي مِنْ قَطِينِ المقابِرِ

ومِنْ شِعْره:

هلِ الدَّهرُ إلا ما عَرَفْنَا وأَدْرَكْنَا فَجَائِعُهُ تَبْقَى وَلَذَّاتُهُ تَفْنَى
إذا أَمْكَنَتْ فيه مَسَرَّةُ ساعةٍ تَوَلَّتْ كَمَرِّ الطَّرْفِ واسْتَخْلَفَتْ حُزْنَا
إلى تَبِعاتٍ في المَعَادِ وَمَوْقِفٍ نَوَدُّ لَدَيْهِ أنَّنا لم نَكُنْ كُنَّا
حَنِينٌ لما وَلَّى وشُغْلٌ بما أَتَى وَهَمٌّ لما نَخْشَى فَعَيْشُكَ لا يَهْنَا
حَصَلْنا على هَمٍّ وإثْمٍ وحَسْرَةٍ وفاتَ الَّذي كُنَّا نَلَذُّ بِهِ عَنَّا
كأنَّ الذي كُنَّا نُسَرُّ بِكَوْنِهِ إذا حقَّقَتْهُ النَّفْسُ لَفْظٌ بلا مَعْنَى

ولَهُ على سبيل الدُّعابة ـ وهو يماشي أبا عمرَ بن عبد البَرِّ ـ وقد رأى شابًّا مَليحاً، فأعجبَ ابنَ حزم، فقال أبو عُمر: لعلَّ ما تحت الثِّياب ليس هناك! فقالَ(١):

---

(١) هذه القصَّة أوردها ـ أيضاً ـ المقري في: «نفح الطِّيب» ٨٢/٢؛ وقال في صدرها: «قال ابن حزم في: «طوق الحمامة»: إنه مرَّ يوماً هو وأبو عمر بن عبد البر ـ صاحب: «الاستيعاب» ـ بسكَّة الحطَّابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب حسن الوجه. . . .» فذكر الحوار والأبيات. غير أنَّ النُّسخة التي وصلتنا من الطَّوق لا تحتوي هذه القصَّة، وقد نبَّه إلى هذا: Max Weisweiler في ترجمته للطوق إلى الألمانية:
Halsband Der Taube, Leiden 1942.
وكذلك الدكتور الطاهر أحمد مكي في مقدِّمته لـ«الطوق» ص: ٣٨، والدُّكتور إحسان عبَّاس، وتساءل فيما إذا كانت هذه القصَّة ممَّا حذفها النَّاسخ أو أن المقري وَهِمَ؟ =

وَذِي عَذَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ ... يُطِيلُ مَلامي في الهَوَى ويَقُولُ
أَمِنْ حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لم تَرَ غَيْرَهُ ... ولم تَدْرِ كيفَ الجِسْمُ أنتَ قَتِيلُ؟
فقلتُ لَهُ: أَسْرَفْتَ في اللَّوْمِ فاتَّئِدِ ... فَعِنْدِي رَدٌّ لَوْ أَشَاءُ طَوِيلُ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِيٌّ وأنَّنِي ... عَلَى ما بَدَا حتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

أنشدنا أبو الفهم بن أحمد السُّلَمي، قال: أنشدنا ابنُ قُدامة، قال: أنشدنا ابنُ البَطِّي، قال: أنشدنا أبو عبد الله الحميديُّ، قال: أنشدنا أبو محمَّد عليُّ بن أحمد ـ لنفسه ـ:

لا تَشْمَتَنَّ حاسِدي إنْ نَكْبَةٌ عَرَضَتْ ... فالدَّهْرُ لَيْسَ على حَال بمُتَّرِكِ
ذُو الفَضْل كالتِّبْرِ طَوْراً تَحْتَ مَيْفَعَةٍ[1] ... وتارةً في ذُرَى تاجِ على مَلِكِ

وشِعْرُه فَحْلٌ كما ترى، وكان يُنْظِمُ على البَدِيه.

وله يفتخر[2]:

أنا الشَّمْسُ في جَوِّ العُلُومِ مُنيرةً ... ولكنَّ عَيْبي أنَّ مَطْلَعِي الغَرْبُ
ولو أنَّنِي مِنْ جانب الشَّرْقِ طالِعٌ ... لَجَدَّ على ما ضَاعَ مِنْ ذِكْرِيَ النَّهْبُ
وَلِي نحوَ أَكْنَافِ العِراقِ صَبَابَةٌ ... ولا غَرْوَ أن يَسْتَوْحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ
فإنْ يُنْزِلِ الرَّحمنُ رَحْلِيَ بَيْنَهُمْ ... فَحِينَئِذٍ يَبْدُو التَّأَسُّفُ والكَرْبُ

= (رسائل ابن حزم: ٢/٤٤٧). قلت: لعل الراجح هو الأول، والله أعلم. والأبيات ـ دون القصَّة ـ في: «الذَّخيرة» ١/١/١٧٥، و«معجم الأدباء» ١٢/٢٤٣-٢٤٤، و«المغرب في حُلي المغرب» ١/٣٥٦، و«وفيات الأعيان» ٣/٣٢٧.

(١) الميفعة: الشَّرف من الأرض.

(٢) وهي من قصيدة طويلة، خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر؛ يفخر فيها بالعلم، ويذكر أصناف ما علم. قاله الحميدي في: «الجذوة».

(فكَمْ قائِلٍ أغفلتُه وهو حاضِرٌ ... وأطْلُبُ ما عَنْهُ تَجيءُ بِهِ الكُتُبُ)[1]

هُنالِكَ يُدْرى أنَّ لِلْبُعْدِ قِصَّةً ... وأنَّ كَسادَ العِلْمِ ءافَتُهُ القُرْبُ

فَواعَجَباً مَنْ غابَ عَنْهُم تشَوَّقُوا ... لَهُ ودُنُوُّ المَرْءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبُ[2]

وَلَهُ:

أَنَائِمٌ أنتَ عَن كُتُبِ الحديثِ وما ... أتى عَنِ المُصْطَفَى فِيها مِنَ الدِّينِ

كمُسْلِمٍ والبُخَاريِّ اللَّذَيْنِ هُمَا ... شَدَّا عُرَى الدِّينِ في نَقْلٍ وتَبْيينِ

أَوْلَى بأجْرٍ وتَعْظِيمٍ ومَحْمَدَةٍ ... مِنْ كُلِّ قَوْلٍ أتَى مِنْ رَأْيِ سُحْنُونِ

يا مَنْ هَدَى بِهِمَا اجْعَلْنِي كَمِثْلِهِما ... في نَصْرِ دِينِكَ مَحْضاً غَيْرَ مَفْتُونِ

ومِنْ نَظْمِهِ ـ أيضاً ـ:

لم أَشْكُ صَدّاً ولم أُذْعِنْ بِهِجْرَانِ ... ولا شَعَرْتُ مَدَى دَهْرِي بِسُلْوَانِ

أسماءُ لم أَدْرِ مَغْناها ولا خَطَرَتْ ... يَوْماً عَلَيَّ ولا جَالَتْ بِمَيْدَانِي

لكِنَّمَا دائِيَ الأَدْوَا الَّذِي عَصَفَتْ ... عَلَيَّ أرْوَاحُهُ قِدماً فأَعْيَانِي

تَفَرُّقٌ لم تَزَلْ تَسْرِي طَوَارِقُهُ ... إلى مَجَامِعِ أحْبَابِي وخِلانِي

كأنَّما البَيْنُ بي يَأْتَمُّ حيثُ رأى ... لِي مَذْهَباً فهو يَتْلُونِي ويَغْشَانِي

---

(١) هذا البيت أغفله الذهبي، وهو في: «الجذوة»، و«البغية»، و«الذَّخيرة»، و«معجم الأدباء»، و«نفح الطيب».

(٢) وزاد في: «معجم الأدباء» وغيره:

وإنَّ مَكَاناً ضَاقَ عَنِّي لَضَيِّقٌ ... على أنَّهُ فَسْحٌ مَهامِهُهُ سَهْبُ

وإنَّ رِجَالاً ضَيَّعُونِي لَضُيَّعٌ ... وإنَّ زَمَاناً لَمْ أَنَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ

ومنها في الاعتذار عن مَدْحِه لنَفْسِه:

ولكنَّ لِي في يوسُفَ خَيْرُ أُسْوَةٍ ... ولَيْسَ على مَنْ بِالنَّبِيِّ ائْتَسَى ذَنْبُ

يقُولُ ـ وقالَ الحَقَّ والصِّدْقَ ـ إنَّنِي ... حَفِيظٌ عَلَيْهِم، مَا على صَادِقٍ عَتْبُ

وكنتُ أحسَبُ عندي للنَّوى جَلَدَاً ... دَاءٌ عَنا في فُؤادِي شَجْوُهَا العَانِي
فَقَابَلَتْني بألوانٍ غَدَوْتُ بِهَا ... مقابَلاً من صَباباتي بألوانِ

وله ـ أيضاً ـ:

قالُوا تَحَفَّظْ فإنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرَتْ ... أقوالُهُمْ وأقاويلُ الوَرَى مِحَنُ
فقلتُ: هَلْ عَيْبُهُمْ لي غَيْرَ أنِّي لا ... أقولُ بالرَّأيِ إذْ في رَأيِهِم فِتَنُ
وَأنَّنِي مُولَعٌ بالنَّصِّ لَسْتُ إلى ... سِوَاهُ أنحُو ولا في نَصْرِهِ أَهِنُ
لا أنْثَنِي لِمَقَايِيسَ يُقال بها ... في الدِّينِ بَلْ حَسْبِيَ القُرءانُ والسُّنَنُ
يا بَرْدَ ذَا القَوْلِ في قَلْبِي وفي كَبِدِي ... ويا سُرُوري به لو أنَّهم فَطِنُوا
دَعْهُمْ يَعَضُّوا على صُمِّ الحَصَى كَمَداً ... مَنْ مَاتَ مِنْ قَوْلِهِ عِنْدي لَهُ كَفَنُ

وفاته:

قال صاعد: ونقلتُ من خطِّ ابنه أبي رافعٍ؛ أنَّ أباه توفي ـ رحمه الله ـ عَشية يوم الأحد، لليلتين بقيتا من شعبان، سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئة. فكان عُمُره إحدى وسبعين سنةً وأشهراً[١]، رحمه الله تعالى.

ولأبي بكر أحمد بن سليمان المروانيِّ[٢]، يمدح ابن حزم ـ رحمه الله ـ:

لمَّا تَحَلَّى بِخُلُقٍ كَالمِسْكِ أوْ نَشْرِ عُوْدِ ... نَجْلُ الكِرَامِ ابنُ حَزْمٍ وَفَاقَ في العِلْمِ عُوْدِي
فَتْوَاهُ جَدَّدَ دِينِي جَذْوَاهُ أَوْرَقَ عُودِي ... أقُولُ ـ إذ غِبْتُ عَنْهُ ـ: يا سَاعَةَ السَّعْدِ عُودِي

---

(١) «الصِّلة»؛ وفيه: «وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوماً». وهو يوافق: ١٠٦٤/٨/١٥ من التأريخ النَّصرانيِّ، والله تعالى أعلم.

(٢) ذكره الحميديُّ في: «الجذوة»، وقال: من أهل الأدب، أنشدني لنفسه في أبي محمَّد علي بن أحمد؛ على طريقة البستي: .... وذكر الأبيات.



مقدمة التَّحقيق

١ - وصف النسخة الخطية.

٢ - توثيق نسبة الكتاب لابن حزم.

٣ - عنوان الكتاب.

٤ - تاريخ التأليف.

٥ - طبعات الكتاب السابقة.

٦ - التَّرجمات.

٧ - منهج التَّحقيق.



مقدِّمة التَّحقيق

١ ـ وصف النُّسخة الخطِّيَّة:

للكتاب نسخة خطية وحيدة، يحتفظ بها قسم المخطوطات الشرقية، في مكتبة جامعة ليدن، في هولندة، في مجلَّد لطيف، تحت الرقم: **(٩٢٧)**.

وقد اطلعتُ عليها في المكتبة المذكورة، وكتبتُ الوصف التَّالي لها:

قياس الكتاب: **١٣ ـ ١٨** سم، والكتابة بقياس: **٩ ـ ١٤** سم.

في كل صفحة **١٥** سطراً.

تقع النسخة في (١٣٨) ورقة، غير مرقَّمة في الأصل، لكنها رقِّمت بقلم رصاص.

ضربت الرطوبة القسم الأعلى من يمين المجلد، وأثَّرت على قسم من أوراقها، خاصة الأوراق: **١٢٠ ـ ١٣٦**، لكن النَّصَّ بقي مقروءاً.

الوجه الأول من الورقة الأولى للعنوان، وفيه:

«كتاب فيه الرسالة المعروفة بطوق الحمامة في الألفة والأُلاف. تأليف أبي محمَّدٍ علي بن حزم الأندلسي عفا الله عنه وغفر له وللمسلمين».

وإلى اليسار:

«العبد الضَّعيف إلى ربِّه اللَّطيف محمد بن عثمان النَّهاوندي الصُّوفي ـ عفا الله تعالى [عنه] ـ في سنة (٧٣٨)».

وتحته صورة تملك غير مقروءة، وأخرى إلى يمين الصفحة، مؤرخة (سنة تسع وأربعين وألف).

وكتب أحدهم: «مصنِّف خطِّي در شبو رساله».

وهذه عبارة بالتركية، معناها: «هذه الرِّسالة بخطِّ المصنِّف»!!

وهذا كذب، ربما كان مقصوداً من كاتبه، ليبيع النُّسخة بأغلى الأثمان![1].

ونهاية الكتاب في ظهر الورقة الأخيرة: (١٣٨)، وفيها:

«كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم؛ رضي الله عنه ـ بعد (اختصار) أكثر أشعارها، وإبقاء العيون منها، تحسيناً لها، وإظهاراً لمحاسنها، وتصغيراً لحجمها، وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها ـ بحمد الله تعالى وعونه، وحسن توفيقه. وفُرِغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة. والحمد لله رب العالمين».

وهكذا أغفل النَّاسخ اسمه، رغم أنَّه قام بعمل خطير في اختصار الكتاب، وتصغير حجمه.

---

(١) وقد كانت هذه النُّسخة في تركية، واشتراها ـ ضمن ما اشترى من نوادر المخطوطات في تركية وغيرها ـ المستشرق السَّائح لافن وارنر (١٦١٩-١٦٦٥م) الذي كان سفيراً لبلاده هولندة في عاصمة الدولة العثمانية؛ الأستانة في الفترة: ١٦٤٤-١٦٦٥م، ثمَّ وهب ما جمعه من المخطوطات للمدرسة الكلية في مدينة ليدن (مكتبة جامعة ليدن). ينظر: ادوارد كرنيليوس فنديك: «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» ص: ١٥، ط: مصر ١٨٩٧م، ومقدّمة د. الطاهر مكي لـ«الطوق» ص: ٣٥.

وكتب على غلاف الكتاب الأخير:

«نظر في هذا الكتاب الفقير الحاج علي ابن الحاج أبو بكر ابن (النعمان) غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. ءامين. كتبه بتاريخ عشر من شهر صفر الخير سنة ست وخمسين وتسع مئة».

والنسخة مكتوبة بخطٍّ نسخٍ مشرقيٍّ.

اجتهد الناسخ في كتابة نسخة دقيقة وأمينة، وبذل جهداً ظاهراً في ذلك، فخطُّه جميل مقروءٌ، وأسماء بعض الأبواب والفصول وبداية الفقرات مكتوبة بالخط الأحمر، إلى الورقة: (٢٠)، ثمَّ الغالب بالأسود، لكنه يكتبها بخطٍّ كبير متميز.

وقد ضبط الناسخ كثيراً من الكلمات بالشَّكل، ولكنَّه ـ رحمه الله ـ كثير الوهم في ذلك. كما أنَّه أخفق في قراءة بعض الكلمات في الأصل الذي نقل عنه؛ فوقع في تحريف ظاهر لقسم كبير منها، وبعضها لا يظهر إلا بالتأمُّل.

٢ ـ توثيق نسبة الكتاب لابن حزم:

نسبة هذا الكتاب إلى مصنِّفه: الإمام ابن حزم؛ نسبة أكيدة، لا يداخلها شكٌّ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً، إذ يجد الناظر في نصوص هذا الكتاب توافقاً تامَّاً مع ما اشتهر من سيرته وأخباره، وكذلك في روايته عن شيوخه المعروفين، واتفاق ءارائه الفقهية هنا مع ما ذكره في كتابه الشَّهير: «المحلَّى». وكذلك ما نجده من الاتفاق بين ما رواه تلميذه الحميدي ـ أو ما ذكره غيره من المؤرخين ـ عن ابن حزم من أخبار وحوادث؛ مما ورد بعضها في: «الطَّوق»؛ بحروفها أو بمعناها.

وقد اطَّلعتُ على ترجمة ابن حزمٍ في مصادرَ كثيرةٍ ـ أندلسيَّةٍ ومشرقيَّةٍ ـ فلم أجد أحداً ممَّن ترجم له؛ ذكر كتابه هذا بين ما ذكر له من مؤلفاتٍ ـ باستثناء الفيروزءابادي؛ كما سيأتي[1] ـ، ولعل السَّبب في ذلك يرجع إلى رغبتهم في إماتة ذكر الكتاب، خاصَّة مع ظنِّ بعضهم أنَّ ابن حزم تأخَّر في طلب العلم ـ بناءً على قصَّة باطلةٍ ـ فيكون كتابه هذا ممَّا ألَّفه قبل ذلك!

ومهما يكن؛ فإنَّ غير واحد من العلماء صرَّح بنسبة الكتاب لابن حزم، منهم:

١ ـ الإمام العلامة، البليغ، الحافظ، مجد العلماء أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الأندلسي البَلَنْسِي، المعروف بابن الأبَّار (٦٥٨هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ[2]:

ذكر في كتابه: «التَّكملة لكتاب الصِّلة»[3]؛ تغلب بن عيسى الكلابي، فقال:

«حكى عنه ابن حزم في رسالته المسماة بطوق الحمامة».

والحكاية عن: (تغلب) موجودة في كتابنا هذا [٢٩ ـ باب قبح المعصية]؛ لكن وقع اسمه عندنا هكذا: «ثعلب بن موسى الكلاذاني».

٢ ـ العلامة اللُّغويُّ محمد بن يعقوب الفَيْرُوزْءابادي (٨١٧ هـ) صاحب «القاموس المحيط» ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) ولم أجد فيما كتبه الذين حقَّقوا الكتاب أو درسوه ـ وهم كُثر ـ الإشارة إلى ذكر الكتاب في شيء من مصادر ترجمة ابن حزم.

(٢) ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٢٣/(٢٣٤).

(٣) صفحة: ٢٧٦/رقم: (٦٢١)، في القطعة التي عني بطبعها وتعليق حواشيها: الفريد بل، مدير مدرسة تلمسان، وابن أبي شنب، المدرس بمدرسة الجزائر، المطبعة الشرقية، الجزائر، سنة: (١٣٣٧هـ/١٩١٩م).

ترجم لابن حزم في كتابه القيِّم: «البُلْغة في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة»[١]، وذكر جملة كبيرة من مصنَّفاته، وقال:

«وكتابُ: (طوق الحمامة)؛ نحو ثلاث مئة ورقةٍ، عارضَ كتابَ: (الزُّهرة) لأبي بكر بن داود[٢]».

٣ ـ الإمام الفقيه الحجَّة ابن قيِّم الجوزية (٧٥١) ـ رحمه الله تعالى ـ:

استفاد من: «طوق الحمامة» في مواضع كثيرة من كتابه القيِّم: «روضة المُحِبِّين»؛ ونقل منه نصوصاً مصرّحاً بنسبتها إلى ابن حزم[٣]، وصرَّح في موضعٍ باسم كتابه فقال[٤]:

«وجرى على هذا المذهب أبو محمَّد بن حزمٍ في كتاب: «طوق الحمامة» له»[٥].

٤ ـ الإمام العلامة الحافظ المُتْقِن ابن ناصر الدِّين الدِّمشقي (٨٤٢هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) ص: ١٤٦-١٤٧، الترجمة: (٢٢٧)، تحقيق: محمد المصري، الكويت: ١٤٠٧هـ.

(٢) سيأتي التَّعريف به وبكتابه؛ عند نقل ابن حزم عنه في (ماهية الحبِّ).

(٣) منها في الباب ٢١: اقتضاء المحبة إفراد الحبيب، (ص: ٢٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٥/١هـ)؛ قال: «وقد بالغ أبو محمَّد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنَّه يعشق أكثر من واحدٍ، وقال في ذلك شعراً، ونحن نذكر كلامه وشعره، قال بعد كلام طويل: ومن هذا دخل الغلط. . . .» ونقل كلامه وأبياته النونية وهي في كتابنا هذا في: (٦- باب من لا يحبُّ إلا مع المطاولة).

(٤) في الباب الثامن: ذكر الشُّبه التي احتج بها من أباح النَّظر. . .ص: ٨٥.

(٥) وممَّا نقله ابن القيم، قوله (في الباب: ١١/ص: ١٠٣): «وقال أبو محمَّد بن حزم: قال رجل لعمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ: يا أمير المؤمنين إنِّي رأيت امرأة فعشقتها. فقال عمر: ذاك ممَّا لا يُمْلَكُ.». وهكذا ورد عند ابن أبي حجلة في: «ديوان الصَّبابة» (الفصل الخامس، ص: ٣٤، دار حمد ومحيو، بيروت: ١٩٧٢). وليس لهذا القول وجود في نسخة الطوق، فلعله ممَّا أسقطه النَّاسخ.

ذكره في موضعين من كتابه: «توضيح المشتبه»:

الموضع الأول: ذكر أبا شاكر عبد الواحد بن محمَّد ابن القَبْري، ونقل ترجمة موجزة له عن ابن ماكولا، ثمَّ قال:

«وفي كتاب «طوق الحمامة وظل الغمامة» لأبي محمد بن حزم: فأمَّا أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القَبْري فكان لي صديقاً مدَّة على غير رؤية، ثم التقينا فتأكدت المودَّة، وتمادت إلى الآن. انتهى»[1].

والشيء الهام في هذا النَّقل أنَّ ابن ناصر الدِّين قد ذكر اسم أبي شاكر على الصَّواب: «عبد الواحد»، ثم نقل عن «طوق الحمامة» ما يخالف ذلك، إذ وقع اسمه هناك: «عبد الرَّحمن»، ولم يعلِّق على ذلك، وهذا يدلُّ على ثقته بالكتاب وبالنسخة التي نقل عنها، إذ لم يسارع إلى تخطئة ما وقع فيها.

وقد جاء هذا الاسم في نسختنا الخطية على الصَّواب في هذا الموضع، أعني على الخطأ، إذ الصَّواب ـ في هذا الموضع ـ هو الخطأ، وهو: «عبد الرحمن» بدل: «عبد الواحد» [٤ ـ باب من أحبَّ بالوصف]، وورد كذلك في موضع ءاخر [٢ ـ باب الموت].

وهذا ممَّا يزيد الثِّقة بالنسخة الخطِّية!

الموضع الثاني: عند ذكر أبي إسحاق النَّظَّام المعتزلي، قال:

«وقد وجدت بخطِّ الحافظ مُغُلْطاي على حاشية كتاب «الألقاب» لأبي بكرِ الشِّيرازيِّ ـ عند ذكر النظام هذا ـ: ذَكَرَ ابنُ حزم في «طوق الحمامة» أنَّ

---

(١) «توضيح المشتبه» ٧/١٨٧-١٨٩، (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤هـ).

النَّظَّام عشق فتىً نصرانيًّاً، ووضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التَّوحيد.
انتهى ما وجدته، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثمَّ وقفت على كلام أبي محمَّدٍ بن حزمٍ في كتابه «طوق الحمامة وظلّ الغمامة»، فقال: وقد ذكر أبو الحسن[١] أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدي[٢] في كتاب «اللفظ والاصطلام» أنَّ أبا إسحاقٍ إبراهيم بن سَيَّار النظَّام ـ رأس أهل الاعتزال ـ مع علو طبقته في الكلام، وتمكُّنه في العلم، وتحكمه في المعرفة؛ تسبَّب إلى ما حرَّم الله تعالى عليه من فتىً نصرانيٍّ عشقه، بأن وضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد، فيا غوثاه! عياذك يا ربِّ من تولُّج الشيطان، ووقوع الخذلان. انتهى كلام ابن حزمٍ»[٣].

وهذا النَّقل عندنا في: [**٢٩ ـ** باب قبح المعصية].

٥ ـ الحافظ أبو عبد الله مُغُلْطاي بن قَلِيج البكجري الحنفي **(٧٦٢هـ)**:

تقدَّم ذكره للكتاب في النَّقل السابق عن ابن ناصر الدِّين.

٦ ـ العلامة أحمد بن علي المَقْرِيُّ **(١٠٤١هـ)**:

نقل في كتابه: «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب» نصَّاً صدَّره بقوله:

«وقال ابن حزم في: طوق الحمامة..».

وقد تقدَّم ذكر هذا[٤].

---

(١) (أبو الحسن) هكذا في: «التَّوضيح»، وعندنا: (أبو الحسين)؛ وهو الصَّواب.
(٢) (الرويدي) هكذا في: «التَّوضيح» وهكذا هو في نسختنا، ولعل صوابه: (الروندي) بالنون، ويقال: (الرَّاوندي)؛ وهو الأشهر.
(٣) «توضيح المشتبه» ٩/٩٧-٩٨.
(٤) في التَّعليق على (ترجمة المصنِّف) عند ذكر نماذج من شعره.

نعم؛ ولم أجد أحداً من أهل العلم شكَّ أو شكَّك في صِحَّة نسبة هذا الكتاب لابن حزم، وإنَّما سمعت كثيراً من عوامِّ المثقفين يشُكُّون فيها، فرأيت ذكر هذه النُّقولات عن بعض كبار الأئمة، ليطمئنَّ القارئ وهو يقطع مسافة الأرض والزَّمن إلى ابن حزم وبلاط مغيث!

ثم رأيت بعض الجهلة المتعالمين من الورَّاقين[1]؛ قد ذكر «طوق الحمامة» وقال:

«وفي نسبة هذا الكتاب إليه نظر»!!

قلت: إنَّما (النَّظر) في (جواز) أن يتكلَّم مثلك، والذي يقتضيه ـ أي النَّظر ـ شرعاً وعقلاً؛ أن يُحْجَرَ عليك وعلى أمثالك، حفاظاً على تراث الأمَّة.

٣ ـ عنوان الكتاب:

عنوان الكتاب كما ورد في النسخة الخطِّيَّة: «طوق الحمامة في الألفة والأُلاف».

---

(١) في مقدِّمته لرسالة ابن حزم: «أصحاب الفتيا» (ص: ٣٠، دار الكتب العلمية، ط١/بيروت ١٤١٥هـ) وهي رسالة صغيرة كان قد حققها: إحسان عباس وناصر الدين الأسد، مع «جوامع السيرة» (دار المعارف، القاهرة)، وتقع في ١٦ صفحة فقط، فجاء هذا الورَّاق وسرق المطبوع، ثمَّ علَّق عليه تعليقات مطوَّلة لا حاجة إليها، كالتعريف بالخلفاء الراشدين ومشاهير الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة، والإحالة إلى مصادر كثيرة لكل ترجمة، والإكثار من الدعاء بمناسبة وغير مناسبة، حتى (انتفخت) الرسالة، وصارت كتاباً مجلداً في (٢٩٦) صفحة! ومع هذا لم يخل عمله من تصحيف وتحريف وأوهام!

قال عبد الحق: وهذا صنيع كثير من أهل زماننا مِمَّن امتهنوا التِّجارة بكتب الأئمة، يبالغون في التَّعليق، ويُكثرون العزو إلى المصادر؛ مع عدم قدرتهم على ضبط نصِّ الكتاب وتحريره، وقد اجتمعت عندي أمثلة كثيرة على هذا؛ لو أفردتها في كتاب لافتضح أقوام... والله المستعان، هو حسيبهم، وإليه منقلبهم.

وفي المصادر المذكور في الفقرة السابقة: «طوق الحمامة» وهذا اختصار للعنوان، كما يظهر ممّا أثبته ابن ناصر الدِّين: «طوق الحمامة وظلُّ الغمامة».

وابن ناصر الدِّين الدِّمشقيُّ ـ رحمه الله ـ علامة متقنٌ، حجَّة فيما ينقل ويثبت، وقد صرَّح أنه وقف على الكتابِ ـ نفسِهِ ـ بنفسه، ونقل عنه في موضعين مختلفين من كتابه.

هذا؛ وقد كان العلامة المؤرِّخ الأديب المتفنِّن أبو عبد الرحمن بن عقيل الظَّاهري ـ نفع الله به ـ قد أشار عليَّ ـ عندما حدَّثته برغبتي في تحقيق هذا الكتاب[1] ـ؛ أن أضيف إلى العنوان كلمة: «مختصر»، وقال لي:

«إنَّ تحقيقك للكتاب لا يكتمل حتى تجعل عنوانه: مختصر طوق الحمامة، لأن ما بأيدينا الآن ليس نسخة كاملة، بل هو مختصر؛ كما صرَّح به ناسخ المخطوطة» أو كلاماً نحو هذا[2].

والعلامة أبو عبد الرحمن الظَّاهري أعلم أهل عصرنا بالإمام ابن حزم؛ بسيرته وأخباره، وكتبه ورسائله، وفقهه وءارائه... ولو أدركه وتتلمذ عليه؛ لكان أحظى عنده من الحميديِّ! فرأيت أن ءاخذ برأي تلميذه المعاصر الذي تسلَّل إلينا عبر العصور!!

---

(١) وذلك أثناء زيارتي له في منزله في الرِّياض ـ حاضرة ءال سعود ـ، بتاريخ: ١٤٢٠/٦/١٣هـ الموافق لـ ١٩٩٩/٩/٢٣م

(٢) وقال في كتابه: «كيف يموت العشَّاق» ص ٣٠: «طوق الحمامة؛ طبع مختصره، ولا يعرف له نسخة كاملة».
قلت: وقد تقدَّم النقل عن الفيروزءابادي أنَّ الحجم الأصلي للطوق في: (نحو ثلاث مئة ورقة)، والمخطوطة التي بأيدينا اليوم في (١٣٨) ورقة فقط، فيكون النَّاسخ قد أسقط نحو نصف الكتاب؛ في أقل تقديرٍ، والله أعلم.

وبناءً على ما تقدَّم، فقد ترجَّح عندي أن يكون عنوان الكتاب هكذا: «مختصرُ طوقِ الحمامةِ وظِلِّ الغمامة في الأُلفة والأُلاف»[1].

وهذا أوان شرح معناه:

قال الثَّعالبيُّ: (طوق الحمامة) يضرب مثلاً لما يلزم ولا يبرح، ويقيم ولا يريم. قال الجاحظ: قد أطبق العرب والأعراب والشُّعراء على أنَّ الحمامة هي التي كانت دليل نوحٍ ورائده، وهي التي اسْتُجْعلَت عليه الطَّوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تلك الزِّينة، ومنحها تلك الحِلْية، بدعاء نوحٍ ـ عليه السلام ـ حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها، وفي رجليها من الطين والحمأة ما فيهما، فعوضت من ذلك خضاب الرِّجلين، ومن حسن الدِّلالة والطَّاعة طوق العنق[2].

قال الثَّعالبيُّ: وقد أكثر الشُّعراء في ذكر طوق الحمام، والتمثُّل به[3].

قلت: فطوق الحمامة رمز للدوام والثَّبات، لأن طوق الحمامة لا يفارقها، ولا تلقيها عن نفسها أبداً، كما قال ابن بسَّام البغدادي:

أبا عليٍّ لَقَدْ طوَّقْتَني مِنَناً طوقَ الحمامة لا تَبْلى على القِدَم

ويضرب هذا مثلاً للخصلة الحسنة والقبيحة، وللمدح والذَّم، فمن الأول قول المتنبي:

---

(١) وقد جاء بعد ابن حزم ابنُ أبي الخصال: محمد بن مسعود الغافقي القرطبي، المتوفى سنة: (٥٤٠هـ)، فجعل هذا العنوان لأحد كتبه، ولكنه في غير هذا الباب، وهو: «ظل الغمامة وطوق الحمامة في مناقب من خصَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحابته ـ رضي الله عنهم ـ بالكرامة، وأحلَّهم بشهادته الصَّادقة دار المقامة»؛ ذكره أبو الخطَّاب بن دحية الكلبي في: «المطرب في أشعار أهل المغرب».

(٢) هذا من الإسرائيليات، وقد ذكره أهل التاريخ أيضاً، انظر على سبيل المثال: «البداية والنهاية» ١/١١٦-١١٧.

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٤٦٥.

أقامَتْ في الرِّقاب له أَيادٍ هي الأطْواقُ والنَّاسُ الحَمَامُ

يقول: إنَّ نعمه وأياديه لازمة لرقاب النَّاس لا تفارقها، كما تلزم الأطواق الحمام، يعني: أن الناس تحت مِنَنِهِ وأياديه، وهذا كما قال السَّريُّ الرَّفاء:

وطوَّقْتَ قوماً في الرِّقاب صنائعاً كأنَّهم مِنْها الحَمامُ المُطَوَّقُ

ومن الثَّاني قول بشر بن أبي خازم ـ يذم قوماً بغُدرة ارتكبوها ـ:

حَبَاكَ بِها مَوْلاكَ عن ظَهْرِ بغضَةٍ وقُلِّدَها طوقَ الحمامةِ جَعْفَرُ

ومنه قول يزيد بن مفرغ الحميري:

غَدَرَتْ جذيمةُ غدرة مذكورةً طوقَ الحمامة يُعرفون بها ضُحى

أما (ظِلُّ الغَمامة) فيضرب مثلاً لما لا يدوم بل يسرع انقضاؤه؛ كما قال الثَّعالبيُّ[1]، ومنه قول كُثَيِّر عَزَّة:

وإنِّي وتَهْيامِي بِعَزَّةَ بعدَما تَخَلَّيْتُ مِمَّا بيننا وتَخَلَّتِ

لَكالمُرْتَجِي ظِلَّ الغَمَامَةِ كُلَّما تبوَّأَ منها للمَقِيل اضْمَحَلَّتِ

كَأَنِّي وَإِيَّاها سَحَابَةُ مُمْحِلٍ رَجَاها فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ

وقال ابن المعتزّ:

ألا إنَّما الدُّنيا كظلِّ غمامةٍ إذا ما رجاها المستَظِلُّ اضْمَحَلَّتِ

فلا تكُ مِفْرَاحاً إذا هي أقبلتْ ولا تكُ مِجْزاعاً إذا هي وَلَّتِ

وقد قيل: ستة أشياء لا ثبات لها: ظلُّ الغَمامة، وخُلَّة الأشرار،

---

(١) ثمار القلوب: ٥٤.

وعشق النِّساء، والثَّناء الكاذب، والسُّلطان الجائر[1].

و(الأُلفة) ـ بالضَّم ـ: اسم من الائْتِلاف، وهو: الاجتماع. والمقصود هنا الاجتماع على المودَّة والمحبة والاستحسان. و(الأُلاف) جمع ءالِفٍ.

وبهذا يتَّضح مقصود ابن حزم من عنوان كتابه، إذ يشير بجزئه الأول؛ إلى الحبِّ الثابت، والوفاء الجازم، والمودَّة الأكيدة؛ الَّتي تلازم صاحبها ملازمة (طوق الحمامة) لها. ويشير بجزئه الثَّاني؛ إلى الحبِّ الذي يزول، لنقص في صاحبه؛ من قلَّةِ وفاءٍ وصدقٍ، أو لأنه لم يكن في أصله إلا (ضرباً من الشَّهوة)، فهذا مثل (ظلِّ الغمامة) لا يدوم بل يسرع انقضاؤه. وتمام العنوان يوضِّح أن موضوع الكتاب ليس فقط في (العشق)، وإنما هو أعمُّ؛ فيشمل جنس المحبة والمودَّة والتآلُف.

هذا ما ظهر لي في فهم عنوان الكتاب، وأرجو أن أكون مصيباً فيما كتبتُ، خاصَّة وأنه يتضمن تصحيحاً مهماً للعنوان، إذ لم يسبق وأنْ أتمَّ أحد من الدارسين أو المحقِّقين للكتاب؛ اسمه من: «توضيح المشتبه» على النَّحْو الذي فعلت، وربما يرجع السَّبب في ذلك أنَّ كتاب ابن ناصر الدِّين ـ رحمه الله ـ كان مخطوطاً إلى وقتٍ قريبٍ.

ولمَّا كان اسم الكتاب بصيغته السابقة المشهورة لا يدلُّ إلا على جزء من المعنى الذي قصده المصنِّفُ؛ فقد استشكله الدكتور إحسان عبَّاس؛ قال:

«إنها تسمية فريدة. . .، ولكنْ من درس أحوال الحبِّ في الكتاب؛ يجد أن معنى «الدَّوام» ليس من الأمور التي تلازم الحبَّ، لا من حيث النَّظرية، ولا من حيث التَّجربة، غير أنَّ هذا لا ينفي أن الطوق للحمامة زينةٌ مُنحتها

---

(١) الرَّاغب الأصبهاني: «محاضرات الأدباء».

بدعاء نوح ـ عليه السلام ـ، حين أرسلها لتستكشف المدى الذي سترسو عنده سفينته، فطوق الحمامة هنا كناية عن استلهام الجمال الذي هو مثار الحبِّ، أعني جمال الطوق لأنه حلية متميِّزة عن سائر لون الحمامة. ولست أستطيع هنا أن أتحدثَّ عن «الحمائم» التي تقود مركبة فينوس ـ ربَّة الحبِّ ـ في الأساطير الرومانية [تعالى الله عمَّا يشركون]، فربما كان التوجه إلى هذا المعنى إيغالاً في التَّصور، ونقلاً من حضارة إلى حضارة أخرى، ولست كذلك أتوجه إلى أفانين الحبِّ التي يمارسها الحمام، والتي يرى الجاحظ ـ أو من نقل عنه ـ أنها هي عين الممارسات التي توجد لدى الإنسان[١]، كأنما هي صورة طبق الأصل في شتَّى المواقف؛ من إخلاص وغيرة وشذوذ وتضحية، وما إلى ذلك من فنون. ولكني حين أجدني أصل إلى الحَيْرة في سرِّ هذه التسمية، أتوقف عند «الجمال» و«التميز»، وكأني بابن حزم يقول: هذا كتاب يتحدَّث عن العلاقة السِّرية بين الجمال والحب، أو هذا الكتاب بين الكتب كطوق الحمامة بالنسبة للحمامة، وعند هذا الحد أجد الثعالبي يقول: إن الحمامة أعطيت طوقها «من حسن الدلالة والطاعة»، فأضيف إلى الجمال والتميز عنصر «الطاعة» وهو عنصر هام في مفهوم الحبِّ»[٢].

قلت: لعلَّ (الحيرة) في فهم (هذه التسمية) تزول بما تقدَّم من تصحيح اسم الكتاب وشرحه، وبالله تعالى التَّوفيق.

٤ ـ تاريخ التأليف:

ليس في الكتاب نصٌّ صريح بتاريخ تأليفه، وقد حاول غير واحد من

(١) الحيوان: ١٦٣/٣.
(٢) رسائل ابن حزم: ٣٦/١ ـ ٣٧، وما بين المعقوفتين زيادة منِّي.

الباحثين تحديده؛ من خلال نصوص الكتاب والتواريخ الواردة فيه، وقد لخَّص ذلك الدكتور إحسان عبَّاس تلخيصاً حسناً، فقال[١]:

«تقلَّبت الأحوال بابن حزم تقلُّباً (كبيراً) في الفتنة، كان عمره حين انتقل أبوه من دورهم الجديدة بالجانب الشَّرقي (في ربض الزَّاهرة) إلى دورهم القديمة في الجهة الغربية (أي: بلاط مغيث)؛ حوالي خمسة عشر عاماً وتسعة أشهر. وفي ذي القعدة من سنة **٤٠٢** توفي والده[٢]، وقبلها بنحو عام توفي أخوه أبو بكر في الطَّاعون[٣].

وتوالت عليهم النَّكبات والاعتقال والمصادرة، ثمَّ احتل جند البربر منزل أهله، فاضطر للخروج عن قرطبة؛ أول المحرم سنة **٤٠٤**[٤]، فذهب إلى المريَّة يطلب الاستقرار فيها، ولم تطل فيها إقامته، فقد نكبه صاحبها خيران العامري إذ اتهمه مع صاحبه محمد بن إسحاق؛ بأنهما يسعيان في استعادة الدَّولة الأموية، فاعتقلهما أشهراً، ثمَّ غربهما فذهبا إلى حصن القصر، ونزلا على صاحبه عبد الله بن هذيل التُّجيبي فرحَّب بها، ولما سمعا بقيام المرتضى عبد الرحمن بن محمد (**٤٠٧**) لإحياء الدولة الأموية؛ ركبا البحر من حصن القصر إلى لقائه في بلنسية، وسكنا معه فيها[٥]. ويبدو أن ابن حزم سار إلى قرطبة بعد اخفاق المرتضى ومقتله عند غرناطة، وكان الخليفة بقرطبة يومئذ القاسم بن حمُّود، فدخلها سنة: **٤٠٩**[٦].

---

(١) رسائل ابن حزم: ١/٣٨ ـ ٣٩.
(٢) مختصر طوق الحمامة: (٢٧ ـ باب السُّلو).
(٣) نفسه: (٢٨-باب الموت).
(٤) نفسه: (٢٧ ـ باب السُّلو).
(٥) نفسه: (٢٨ ـ باب الموت).
(٦) نفسه: (٢٧ ـ باب السلو).

وبقي فيها حتى لاحت الفرصة بمبايعة عبد الرحمن بن هشام النَّاصري، الذي لقِّب بالمستظهر (٤١٤)، فقرَّب إليه ابن حزم وابن عمِّه أبا المغيرة وابن شُهَيْد، لكن هذه الخلافة لم تدم أكثر من سبعة وأربعين يوماً، وبويع المستكفي فاعتقل ابن حزم وغيره من رجال المستظهر وسجنهم، ثم نراه سنة ٤١٧ في شاطبة، ولعله استوطنها قبل ذلك بقليل. وفي ذلك العام جاء إليه صديق من المرية ونزل ضيفاً عنده بشاطبة، فلم يمض إلا وقت قصير حتَّى نشبت الفتنة بين أبي الجيش مجاهد العامري وخيران العامري (وكان ذلك سنة ٤١٧)، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب، «وتُحُومِيَت السُّبل، واحترس البحر بالأساطيل»؛ فاشتد الكرب بصديقه لأنه حيل بينه وبين العودة إلى هوىً له في المرية[١].

ويقول ياقوت ـ نقلاً عن صاعد الأندلسي ـ: إن ابن حزم وزر للمعتد بالله هشام بن محمَّد[٢]. ونحن نعلم أن أهل قرطبة أرسلوا بيعتهم إلى هشام وهو في البونت (البنت) في ربيع الآخر سنة ٤١٨، ثم انتقل إلى قرطبة سنة ٤٢٠. فإذا كان ابن حزم قد وزر له أولاً فقد انتقل إلى البنت، وإذا كان قد وزر له بعد ذلك فقد انتقل إلى قرطبة، ولكن الرِّسالة كتبت في شاطبة، ولا بدَّ أن يكون ذلك قد تمَّ في وقت ما بين سنتي ٤١٧ ـ ٤١٨.

وممَّا يزيد الأمر تحديداً قول ابن حزم في حكم بن المنذر بن سعيد البلُّوطي: «وحكم ـ المذكور ـ في الحياة حين كتابتي إليك بهذه الرِّسالة، قد

---

(١) نفسه: (٢٤ ـ باب البَيْن).

(٢) «معجم الأدباء» ٢٣٧/١٢، وسقط هذا من ترجمة ابن حزم في: «طبقات الأمم»: ٧٦، ثم أضيف اعتماداً على إحدى النُّسخ الخطِّية (ص: ١١٦، وتصحَّف المعتد إلى المقتدر).

كفَّ بصره، وأسنَّ جداً»[1]. وقد ذكر ابن بشكوال[2] ـ نقلاً عن ابن مُدِيْر ـ أنَّ وفاة حكم كانت في نحو سنة عشرين وأربع مئة. وهذا يعني أن وفاته تمَّت في ٤١٨، أو ٤١٩، أو أوائل سنة عشرين وأربع مئة[3]».

قلت: ومن خلال هذا التفصيل يتبيَّن أن ابن حزم قد صنَّف هذا الكتاب وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر، أو الرابعة والثلاثين في أكبر تقدير[4]. وهذا يتوافق مع ما نجده في ثنايا الكتاب من مادَّة أدبية وتاريخية وفقهية زاخرة، تنبئ بأنه ـ رحمه الله ـ كان قد حصَّل قسطاً وافراً من العلوم الشرعية واللغوية، ونال حظاً كبيراً من المعرفة في ميادين المنطق والفلسفة والشعر. وهذا يبطل ما يقال من أنَّ ابن حزم قد كتب كتابه هذا قبل أن يتوجه إلى دراسة الفقه والحديث وبقية علوم الشريعة.

٥ ـ طبعات الكتاب السَّابقة:

كان المستشرق الهولندي رينهارت دوزي؛ أول من اكتشف النسخة الخطِّية المختصرة من: «طوق الحمامة»، وعرَّف بها في: «فهرس

---

(١) مختصر طوق الحمامة: (١٤-باب الطَّاعة).

(٢) في: «الصِّلة» ١٤٨/١، الترجمة: (٣٣٥)، ونقله الذَّهبيُّ في: «تاريخ الإسلام»، في المتوفَّين تقريباً من رجال الطبقة: (٤٢) حوادث ووفَيَات: (٤١١-٤٢٠هـ)، الترجمة: (٤٣٨).

(٣) انظر طه الحاجري: «ابن حزم؛ صورة أندلسية» ص ١٥٣-١٥٤.

(٤) وذهب الدكتور الطاهر أحمد مكي ـ وهو في ذلك ناقل عن المستشرقين الأسبان! ـ إلى أن ابن حزم حرَّر كتابه بين عامي ٤١٢ و٤١٣ فيما يحتمل، وله من العمر ٢٨ سنة (مقدمة طوق الحمامة: ١٨، ودراسات عن ابن حزم: ٧٢). قلت: وهذا لا يصحُّ، فقد أخبر ابن حزم عن المنابذة التي حصلت بين مجاهد وخيران، وكانت كما قال الدكتور إحسان عباس سنة ٤١٧، وهو قول صحيح، نصَّ عليه ابن الأثير في: «الكامل في التاريخ»، وغيرُه.

المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن»[١]، وعندما نشر كتابه: «تاريخ مسلمي إسبانيا» عام ١٨٦١[٢]؛ نقل من «طوق الحمامة» الصفحات المتصلة بقصّة حبّ ابن حزم الأولى، وترجمها إلى فرنسية رقيقة وعذبة، فذاعت في كلّ أنحاء أوربا، وأعطت الكتاب شهرة واسعة[٣].

ثم إن المستشرق الروسي د. ك. بتروف ـ وكان أستاذاً شاباً في جامعة بطرسبرج ـ قام بأعباء نشر الكتاب كاملاً، فحققه تحقيقاً متقناً، وقدَّم له باللُّغة الفرنسية، وطُبع في مطبعة بريل العربية الشهيرة في ليدن، عام: (١٩١٤)[٤]، وجاء نصُّ الكتاب في (١٤٥) صفحة، مضبوط الشِّعر بالشَّكل، وألحق به فهرساً للقوافي، وءاخر للأعلام لكن بالحروف اللاتينية، وجدولاً بتصحيح الأخطاء المطبعية.

وإن الإنسان ليقف أمام هذا العمل العلمي الكبير متعجباً ومندهشاً؛ لما فيه من ءاثار الذَّكاء، والدِّقة البالغة، والأمانة العلمية الرَّصينة، فقد استطاع بتروف أن يخرج الكتاب مضبوطاً غاية الضبط، خالياً من السقط والتحريف[٥]، مع أن مخطوطة الكتاب وحيدة، والمصادر المساعدة ـ كانت في ذلك الوقت ـ قليلة ونادرة.

---

(١) Catalogus codicum orientalium bibliothecae academiae Lugduno Batavae, R.P.A. Dozy, vol 1, p 224-227, Leiden 1851.

(٢) Historia de los musulmanes de Espana, Reinhart P. Dozy, 1861. (Madrid 1988).

(٣) انظر: د. الطاهر مكي: مقدمة طوق الحمامة ص ٣٦/ دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

(٤) وهذه الطبعة بين يديَّ الآن، وتجد فيما يأتي نماذج مصوَّرة عن بعض صفحاتها.

(٥) إلا شيئاً يسيراً، ولما لم يكن بتروف في صدد دراسة المتن ونقده؛ فإنه لم يصحح كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها ناسخ المخطوطة.

ثمَّ تتابعت طبعات الكتاب، لكنها كانت ـ كلُّها من غير استثناء[1] ـ عالة على طبعة بتروف، فلم يرجع أحد ممَّن طبع الكتاب أو حقَّقه أو درسه إلى النسخة الخطية أو مصوَّرتها! لهذا لم تخلُ واحدة منها من سقط، أو تحريف، أو تغيير لبعض الكلمات؛ بغية تصحيح المعنى. وعندما يفتقر الباحث إلى أصل يرجع إليه؛ يبدأ بإعمال رأيه وفكره، فيقع في الخطأ من حيث لا يشعر!

وهذا تعريف موجز بتلك الطَّبعات:

١ ـ طبعة: محمد ياسين عرفة، صاحب مكتبة عرفة في دمشق، تقديم: محمد البزم، مطبعة البرهان، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، في ١٧٨ صفحة، صدَّره بفقرات مقتبسة ومترجمة من مقدمة بتروف، وبموجز عن حياة ابن حزم.

٢ ـ طبعة المستشرق الفرنسي: ليون برشيه Leon Bercher، الجزائر، مكتبة Carbonel، **١٩٤٩**م، بالنَّص العربي وترجمة فرنسية عنه[2].

٣ ـ تحقيق: حسن كامل الصَّيرفي، وتقديم: إبراهيم الإبياري، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، **١٩٥٠**م، و**١٩٥٩**، و**١٩٦٤**.

٤ ـ مطبعة حجازي، القاهرة، **١٩٥٠**م، طبعة شعبية.

٥ ـ عناية: فائق الجواهري، القاهرة، مطابع جويدة المصري، **١٩٥٢**م، نشر تحت عنوان: (أصول الحب).

---

(١) هذا ما تبيَّن لي من خلال اطلاعي على مختلف الطبعات، وأكَّده لي المستشرق الهولندي Dr. Jan Just Witkam

(٢) ولم يرجع ليون برشيه إلى النسخة الخطية، ولكنه بذل جهداً كبيراً في تصحيح نصوص الكتاب وتقويمها، ولعمله قيمة علمية كبيرة، وقد استفاد منه كل من جاء بعده ممن خدم الكتاب، وقد اطلعت على هذه الطبعة، واستفدت منها، وأشير إليها في الهوامش بكلمة: «برشيه».

٦ ـ تحقيق فاروق سعد، بيروت، مكتبة دار الحياة، ١٩٦٨، و١٩٧٢، و١٩٨٦.

٧ ـ المكتبة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٩٧٥.

٨ ـ مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت ١٩٧٨، طبعة شعبية.

٩ ـ تحقيق: د. إحسان عبَّاس، المجموعة الأولى من رسائل ابن حزم، بيروت ١٩٨٠. وضمن مجموع: «رسائل ابن حزم الأندلسي» ١٩/١-٣١٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢/بيروت: ١٩٨٧، وطبعته المؤسسة مفرداً في مجلد، ١٩٩٣م.

١٠ ـ تحقيق: صلاح الدين القاسمي، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، وطبعته دار الشؤون الثقافية ببغداد، ضمن مشروع النشر المشترك: ١٩٨٨م.

١١ ـ تحقيق: د. الطَّاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ودار الهلال ١٩٩٤ (طبعة ثانية مزيدة منقحة مصوَّرة!!)(١).

١٢ ـ وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

١٣ ـ تحقيق: علي حمد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٣م.

١٤ ـ دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧م.

---

(١) وبين يدي هذه الطبعة، وأشير إليها في الهوامش بـ: (مكي).

٦- التَّرجمات[1]:

1. A book containing the Risala known as The dove's neck-ring about love and lovers. composed by Abu Muhammad Ali ibn Hazm al-Andalusi; transl. by A.R. Nykl. Paris, 1931.

2. A. Salie. (ترجمة روسية) Leningrad, 1933.

3. Halsband der Taube: über die Liebe und die Liebenden. von Abu-Muhammad Ali Ibn-Hazm al-Andalusi; aus dem Arabischen übersetzt von Max Weisweiler. Leiden, 1942

4. Il collare della colomba: sull'amore e gli amanti. versione dall'arabo di Francesco Gabrieli. Bari, 1949.

5. Le collier du pigeon ou De l'amour et des amants. Parallelltitel: T'awq al-h'amâ-fî'l-ulfa wa'l-ullãf, Ibn H'azm al-Andalusî, texte arabe et traduction française, avec un avant-propos, des notes et un index Léon Bercher. Alger: Carbonel, 1949.

6. El collar de la paloma: tratado sobre el amor y los amantes, de Ibn Hazm de Còrdoba; traducido por Emilio García Gómez; con un prólogo de José Ortega y Gasset. Madrid,1952.

7. The ring of the dove: a treatise on the art and practice of Arab love, by Ibn Hazm; translated by A. J. Arberry. London,1953 (New York, 1981, ISBN: 0-404-17148-6).

8. De l'amour et des amants, Collier de la colombe sur l'amour et les amants; traduit de l'arabe, présenté et annoté par Gabriel Martinez-Gros. Paris, 1992, ISBN: 2-7274-0210-4.

9. De ring van de duif: over minnaars en liefde. Vertaald uit het Arabisch en ingeleid door Remke Kruk & J.J. Witkam. Amsterdam, 1977. ISBN: 90-290-0503-3.

10. Güvercin Gerdanlıgıi; Sevgiye ve sevenlere dair. Çeviren:Mahmut Kanlk, Tashih: Ismail örgen. iNSAN YAYINLARI, Istanbul 1985, 1997. (1998, ISBN:9757732605).

---

(١) وهي حسب ترتيب ذكرها: الإنجليزية، والروسية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، والإنجليزية الثانية، والفرنسية الثانية، والهولندية والتركية. وهذه أشهر التَّرجمات، ولعله يوجد ترجمات أخرى لم أعلم بها. وقد اطلعت على الترجمات: (١، ٣-٧، ٩، ١٠)، وذكر الدكتور إحسان عبَّاس الترجمات: (١-٦)، وأفادتني الأستاذة الدكتورة إيفا رياض؛ بالتَّرجمات: (٧-٩).

وأخبرني الأستاذ الدكتور تول Christopher Toll، بأنَّه يعمل. منذ سنوات. على ترجمة الكتاب إلى اللغة السويدية، وسينتهي منه قريباً؛ إن شاء الله تعالى، وكان ترجم (باب علامات الحبِّ) إلى السويدية، ونُشِرَ ضمن سلسلة أفضل النصوص العالمية:
"Om kärlekens kännetecken", i Världens bästa essayer i urval. Stockholm, 1961.

٧ ـ منهج التحقيق:

يمكن تلخيص منهجي وعملي في خدمة هذا الكتاب؛ بما يلي:

١ ـ بعد إعادة تنضيد الكتاب؛ قمت بمقابلته على النسخة الخطية[١]، مقابلة دقيقة متأنية، ثم بعد الانتهاء من تحقيق الكتاب؛ قابلته على المخطوطة من جديد.

٢ ـ لم أر إثقال هوامش الكتاب بالإشارة إلى الأخطاء الإملائية، أو الأخطاء البيِّنة الظَّاهرة التي وقع فيها ناسخ الأصل[٢]، بل اكتفيت بالإشارة إلى ما يمكن أن تختلف فيه وجهات النظر ويكون موضع بحث واجتهاد. وأشير إلى النسخة المخطوطة بحرف: (خ)، أو بـ(الأصل).

٣ ـ لمَّا كان الدكتور إحسان عبَّاس ـ وهو متخصص حجَّة في الدراسات الأندلسية؛ التاريخية والأدبية ـ قد خدم هذا الكتاب خدمة متميزة، وعلق عليه تعليقات نافعة؛ فقد رأيت أن اتَّكِأَ إلى تعليقاته التي هي في مجال اختصاصه، خاصة وأنها تتعلق بمادة تاريخية لا تقبل ـ في

---

(١) ولا يفوتني هنا أن أسجِّل كبير شكري للأستاذة الدكتورة إيفا رياض (معهد اللُّغات السَّامية بجامعة أبسالا في السويد) فإنها ما أن علمت برغبتي في تحقيق هذا الكتاب؛ حتى وضعت بين يديَّ مصوَّرتها الخاصة من المخطوطة؛ فوفَّرت عليَّ كثيراً من الوقت والجهد، وهذا دأبها في كلِّ ما من شأنه خدمة العمل العلميِّ الجاد.
ثمَّ قامت مكتبة جامعة ليدن بوضع مصورة جميع أوراق المخطوطة على الشبكة العالمية (الانترنيت)؛ على هذا العنوان:
http://bc.leidenuniv.nl/olg/selec/Tawq/index.htm

(٢) وكذلك لم أشر إلى ما وقع في النسخ المطبوعة من سقط، وتحريف، وتصحيف، وتغيير لبعض الكلمات(!)؛ في مواضع كثيرة جداً، ولم تخل من ذلك طبعة الدكتور إحسان عبَّاس ولا طبعة الدكتور الطاهر أحمد مكي، لعدم اطلاعهما على النسخة الخطية، ولا على طبعة بتروف! وتتبع تلك الأخطاء ليس مما ينفع القارئ، خاصة وقد أغنانا الله تعالى بالرجوع إلى النسخة المخطوطة.

غالبه ـ التغيير، وإعادة صياغتها لا تخرجها عن الصُّورة التي توصل هو إليها أولاً. لهذا فقد احتفظت بجملة كبيرة من تعليقاته، وميزتها بحرف: (ع) في ءاخرها. واستفدت أيضاً من الطبعات الأخرى للكتاب، خاصة طبعة بتروف[1]، وطبعة برشيه، والطاهر أحمد مكي، وأشرت في مواضع كثيرة إلى رأيهم في ضبط المواضع المُشْكِلة.

٤ ـ وكان العلامة الراحل الأستاذ محمود محمد شاكر ـ (توفي سنة ١٤١٨هـ) رحمه الله تعالى ـ قد قيَّد تصحيحاته وقراءاته لبعض كلمات وعبارات الكتاب في قائمة أوردها الدكتور إحسان عبَّاس كاملة[2]. فرأيت من حقِّ العلامة الراحل، ومن حقِّ القارئ عليَّ؛ أن أشير إليها في مواضعها من الكتاب إشارة واضحة.

٥ ـ خرَّجت أحاديث الكتاب تخريجاً موجزاً، يعرف به درجة الحديث، وحاولت تخريج الآثار ـ أيضاً ـ لكنِّي لم أبذل في تخريجها نفس الجهد.

٦ ـ علَّقت على مواضع في الكتاب؛ ظهر لي أنَّ المصنِّف ـ رحمه الله ـ قد جانب الصَّواب فيها، وعلى مواضع أخرى أحببتُ الإشارة عندها إلى فوائد مناسبة، لكني لم أتكلَّف في ذلك، والتزمت الاختصار ما أمكن[3]، حرصاً منِّي على عدم (نفخ) حجم الكتاب بما لا طائل تحته.

٧ ـ صنعتُ فهارس تيسِّر الانتفاع بمادة الكتاب.

---

(١) والإشارة إليها بـ (بتروف)، أو: (ب).

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي: ٢/٢٤٥-٢٤٧.

(٣) إلا في مواضع قليلة؛ اقتضى المقام فيها التطويل.

ولقد بذلت جهداً كبيراً في خدمة هذا الكتاب؛ ضبطاً وتحقيقاً وتحريراً، وأعترف أنني لم أبلغ الغاية، بل إنني لم أحقِّق ما كان في نفسي من ذلك! ومهما يكن الباحث دقيقاً ومتأنياً في عمله فلا بدَّ أن يقع في أخطاءٍ وأوهام[1]، بَلْهَ ما أنا فيه؛ «مِنْ نُبوِّ الدِّيار، والجلاء عن الأوطان، وتبدُّل الأيام، وتغيُّر الإخوان، وفساد الأحوال، والغُرْبة في البلاد، واليأس عن الرُّجوع إلى موطن الأهل»، ومُدَافعة الأمراض، وتحمُّل الأوجاع، لا جعلنا الله من الشَّاكِين إلا إليه، إليه ملجؤنا، وهو ملاذنا، لا حول ولا قوَّة إلا به، له الحمد في الأولى والأخرى، وصلى الله على محمَّد وعلى ءاله وسلَّم تسليماً كثيراً.

❋ ❋ ❋

(١) ومن غريب ما وقع لي في مقدِّمتي لكتاب: «الأخلاق والسِّير» (دار ابن حزم: ١٤٢١هـ) ص: ٢٢/هامش: ٢/سطر: ٤: «الزُّوركاريُّ»؛ وهذا تحريف، صوابه: «الزُّوكاويُّ»!!



كتاب فيه الرسالة

المعروفة بطوق الحمامة في الالفة والألاف

تاليف ابي محمد علي بن حزم الاندلسي

عفا الله عنه وغفر له

Ex Legato Viri Ampliss. LEVINI WARNER.

صفحة عنوان المخطوطة (وجه الورقة الأولى)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين

قال أبو محمد عفا الله عنه: أفضل ما ابتدي به حمد الله عز وجل بما هو أهله ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة وعلى جميع انبيايه عامة. وبعد عصمنا الله واياك من الحيرة ولا حملنا ما لا طاقة لنا به وقيض لنا من جميل عونه دليلا هاديا الى طاعته ووهبنا من توفيقه ... رادعا عن معاصيه ولا وكلنا الى ضعف عزايمنا وخور قوانا ووهاء ... آرائنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد اهوائنا فان كتابك وردني من مدينة المرية الى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم ألبث أن اطلع على شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتناي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق وفي دون هذا ما سلى المشتاق ونسى الذاكر الا من يمسك بحبل الوفاء ويرعى سالف الأذمة وولي المودات وحق النشأة ومحبة الصبى وكانت مودة لله تعالى ولقد اثبت الله بيننا منها ما نحن عليه حامدون شاكرون وكانت معاريك في هذه رايدة على ما عهدته من سائر ذهبك

بداية الكتاب (ظهر الورقة الأولى من المخطوطة)

ثم الاسباب الثلاثه الباقيه التي هي من قبل المحبوب فالمتصبر
من الناس فيها غير مذموم لما سنورده ان شا الله في كل فصل
منها خبر نفار يكون في المحبوب وانزوا قاطع للاطماع خبر
واني لاخبرك عني اني الفت في ايام صباي الفة المحبة جاريه
نشات في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت سته عشر عاما وكانت
غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها
عديمة الهزل منيعة البذل بديعة البشر مسبلة الستر فقيدة
الذام قليلة الكلام مغضوضة البصر شديدة الحذر نقية من
العيوب دايمة القطوب حلوة الاعراض مطبوعة الانقباض
مليحة الصدود رزينة القعود كثيرة الوقار مستلذة النفار
لا توجه الاراجي نحوها ولا تقف المطامع عليها ولا معرس
للامل لديها فوجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من امها
تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل
موقوفه على الجد في امرها غير راغبه في اللهو على انها كانت
تحسن العود احسانا جيدا فجنحت اليها واحببتها حبا مفرطا شديدا

فسعيت

قصّةُ حُبٍّ؛ يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، ظهر الورقة ٩٩)

فسعيت عامين او نحوهما في ان تجيبني بكلمة واسمع من فيها لفظة
غير ما يقع في الحديث الظاهر الى كل سامع بابلغ السعي فما وصلت
من ذلك الى شيء البتة فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض
ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة
اخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من
خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله فلبثن صدرا
من النهار ثم تنقلن الى قصبة كانت في دارنا مشرفة على
بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبه وفحوصها مفتحه
الابواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وانا بينهن
فاني لاذكر اني كنت اقصد نحو الباب الذي هي فيه انسا بقربها
متعرضا للدنو منها فما هو الا ان تراني في جوارها فتترك
ذلك الباب وتقصد غيره في لطف من الحركة فاتعمد انا
القصد الى الباب الذي صارت اليه فتعود الى مثل ذلك
الفعل من الزوال الى غيره وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر
سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عددا كثيرا واذ كلهن ينتقلن

قصّةُ حُبّ؛ يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، وجه الورقة ١٠٠)

من باب الى باب لسبب الاطلاع من بعض الابواب على جهات
لا يطلع من غيرها عليها واعلم ان فيافة النسا في من ميل اليهن
انفذ من فيافة مدلج في الاثار ثم نزلن الى البستان فرغب
عجايزنا وكرايمنا الى سيدتها في سماع غنايها فامرتها فاخذت
العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله وان الشي يضاعف
حسنه في عين مستحسنه ثم اندفعت تغني بابيات العباس
ابن الاحنف حيث يقول

اني طربت الى شمس اذا غربت كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية كان اعطافها طي الطوامير
ليست من الانس الا في مناسبة ولا من الجن الا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة والريح عنبرة والكل من نور
كانها حين تخطو في مجاسدها تخطو على البيض او حد القوارير

فلعمري لكان المضراب انما يقع على قلبي وما نسيت ذلك اليوم
ولا انساه الى يوم مفارقتي الدنيا وهذا اكثر ما وصلت اليه من
التمكن من رويتها وسماع كلامها وفي ذلك اقول

قصّةُ حُبٍّ؛ يحكيها صاحبها!
أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُلو، ظهر الورقة ١٠٠)

لا تَلُمْهَا على النفار ومنع الوصل ما ذاكم لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد او يكون الغزال غير نفور
واقول
مَنَعت جمالك وَجهك مقلتينا ولفظك قد ضننت به علينا
اراك نذرت للرحمن صوما فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعرا هنيئا ذا العباس هنيئا
فلو يلقاك عباس لاضحى لفوز قاليا وبكم شجيا
ثم انتقل الوزير ابي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبه في ربض الزاهرة الى دورنا القديمه في الجانب الغربي من قرطبه ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام امير المومنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت انا بانتقاله وذلك في جمادى الاخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ولم ينتقل هي بانتقالنا لامور اوجبت ذلك ثم شغلنا بعد قيام امير المومنين هشام المويد بالنكبات وباعتداء ارباب دولته وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار وارزمت

قصَّةُ حُبّ، يحكيها صاحبها!
أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُلو، وجه الورقة ١٠١)

الفتنة والقت باعها وعمّت الناس وخصتنا الى ان توفي ابي
الوزير رحمه الله ونحن في هذه الاحوال بعد العصر يوم السبت
لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين واربعمايه واتصلت
بنا تلك الحال بعده الى ان كانت عندنا جنازة لبعض اهلنا
فرايتها وقد ارتفعت الواعية قايمةً في المائم وسط النساء
في جملة البواكي والنوادب فلقد اثارت وجدا دفينا وحركت
ساكنا وذكرتني عهدا قديما وحبا تليدا ودهرا ماضيا
وزمنا عافيا وشهورا خوالي واخبارا بوالي ودهورا
فواني وايّاما قد ذهبت وآثارا قد دثرت وجددت
احزاني وهيجت بلابلي على اني كنت في ذلك اليوم مرزّى مصابا
من وجوه وما كنت نسيت ولكن زاد الشجا وتوقدت
اللوعة وتاكد الحزن وتضاعف الاسف واستجلب الوجد
ما كان منه كامنا فلباه مجيبا فقلت قطعة منها

يبكّي لميت مات وهو مكرّم ... والحي اولى بالدموع الذوارف
فيا عجبا من آسف لامرئٍ ثوى ... وما هو للمقتول ظلما بآسف

ثم

قصّةُ حُبّ؛ يحكيها صاحبها!
أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السّلو، ظهر الورقة ١٠١)

ثم ضرب الدهر ضربانه واجلينا عن منازلنا وتغلب علينا
جند البربر فخرجت عن قرطبة اول المحرم سنه اربع واربعمايه
وغابت عن بصري بعد تلك الروية الواحدة ستة اعوام
واكثر ثم دخلت قرطبه في شوال سنه تسع واربعمايه فنزلت
على بعض نسآينا فرايتها هنالك وما كدت ان اميزها حتى
قيل لي هذه فلانه وقد تغير اكثر محاسنها وذهبت نضارتها
وفنيت تلك البهجه وغاض ذلك المآ الذي كان يرى كالسيف
الصقيل والمراة الهنديه وذبل ذلك النوار الذي كان
البصر يقصد نحوه متبورا ويرتاد فيه متخيرا وينصرف عنه
متحيرا فلم يبق الا البعض المنبي عن الكل والخبر المخبر عن
الجميع وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانه التى
كانت غذيت بها ايام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذلها في
الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل
ذلك وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت وبنيه
متى لم يهتبل بها استهدمت ولذلك قال من قال ان حسن

قصَّةُ حُبٍّ، يحكيها صاحبها!
أوَّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، وجه الورقة ١٠٢)

الرجال اصدق صدقًا واثبت اصلًا واعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النسآ لتغيرت اشد التغير مثل الهجر والسموم والرياح واختلاف الهوآء وعدم الكن واني لو نلت منها اقل وصل وانست لي بعض الانس لخولطت طربًا اوليت فرحًا ولكن هذا النفار الذي صبرني واسلاني وهذا الوجه من اسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور غير ملوم اذ لم يقع تثبت يوجب الوفآ ولا عهد يقتضي المحافظة ولا سلف ذمام ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه عشرة ومنها جفآ يكون من المحبوب فاذا افرط فيه واسرف وصادف من المحب نفسًا لها بعض الانفة والعزة تسلى واذا كان الجفا يسيرًا منقطعًا او دائمًا او كثيرًا منقطعًا احتمل واغضي عليه حتى اذا كثر ودام فلا بقاء عليه ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا ومنها الغدر وهو الذي لا يحتمله احد ولا يغضي عليه كريم وهو المسلاة حقًا ولا يلام السالي عنه على اي وجه كان ناسيًا او متصبرًا بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ولولا ان القلوب بيد مقلبها لا اله الا هو

ولو

قصّةُ حُبٍّ؛ يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجماً إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُلو، ظهر الورقة ١٠٢)

لا اعتداء الجسم ايقنت انهم يعيشون عيشًا مثل عيش الملائك

رب قدّسهم وزد في صلاتهم وصلّ عليهم حيث حلوا وبارك

ويا نفس جدّي لا تملّي وشمّري لنيل سرور الدهر فيما هنالك

وانت متى ... شغلك في الهوى علمت بان الحق ليس كذلك

فكانت من الله الشريعة للورى تبين من زهر النجوم الشوابك

فما لي نفسي جدي في خلاصك وانقلي نفاد السيوف المرهفات البواتك

فلو اعمل الناس الفكر في الذي له خلقوا ما كان حي بضاحك

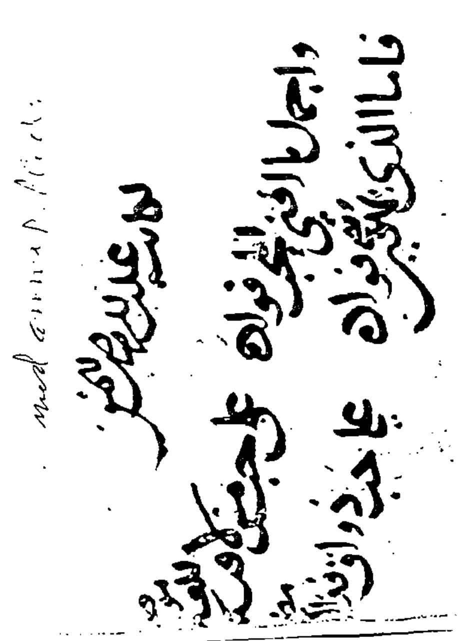
باب فضل التعفف

ومن افضل ما يأتيه الانسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة وان لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة وان لا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكانا واهلا لامره ونهيه وارسل اليه رسله وجعل كلامه ثابتًا لديه عناية منه بنا واحسانًا الينا وان من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده ثم ظفر فرام هواه ان يغلب عقله وشهوته وان يقهر دينه ثم اقام

العدل

٣٠ ـ باب فضل التعفُّف. (ظهر الورقة ١٢٧)

الذاكرين آمين آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ٥ كملت الرسالة
المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم
رضي الله عنه بعد اختصار أكثر أشعارها وإبقاء العيون منها
تحسينا وإظهارا لمحاسنها وتصغيرا لحجمها وتسهيلا لوجدان
المعاني الغريبة من ألفاظها بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه
وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد شهور ثمان وثلثين وسبعمائة
والحمد لله رب العالمين



الصفحة الأخيرة من المخطوطة (ظهر الورقة ١٣٨)

كتاب فيه الرسالة

المعروفة بطوق الحمامة فى الالفة والالّاف

تأليف ابى محمّد علىّ بن حزم الاندلسىّ

عفا اللّه عنه وغفر له

وللمسلمين

طبع فى مطبعة بريل فى مدينة ليدن
سنة ١٩١٤

صفحة عنوان طبعة د.ك. بتروف؛ بالعربية، ليدن ١٩١٤م

ABÛ-MUHAMMED-ALÎ-IBN-HAZM
AL-ANDALUSÌ

ṬAUK-AL-ḤAMÂMA

PUBLIÉ D'APRÈS L'UNIQUE MANUSCRIT DE LA
BIBLIOTHÈQUE DE L'UNIVERSITÉ DE LEIDE

PAR

D. K. PÉTROF
Professeur à l'Université Impériale de St-Pétersbourg.

LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL — LEIDE
1914.

صفحة عنوان طبعة د.ك. بتروف؛ بالفرنسية، ليدن ١٩١٤م

باسم الله الرّحمن الرّحيم وبه أستعينُ 1b

قال ابو محمّد عفا الله عنه أفضلُ ما ابتدى بـه حمد الله عزّ وجلّ بما هو اهله ثم الصلاة على محمّد عبده ورسوله خاصّة وعلى جميع انبيآئـه عامّة وبعد عصمنا الله وإيّاك من الحيرة ولا حمّلنا ما لا طاقة لنا به وقيّض لنا من جميل عونه دليلا هاديا الى طاعته و وهبنا من توفيقه أدبًا(؟) صارفا ٥ عن معاصيه ولا وكلنا الى ضعف عزايمنا وخور قوانا و وهاء بِنْيَتنا[1] وتلدّد ارايِنا[2] وسوء اختبارنا وقلّة تمييزنا وفساد اهوآينا فانّ كتابك وردني من مدينة المريّة الى مسكني بحضرة شَاطِبَةَ تذكر من حسن حالك ما يسرّني وحمدت الله عزّ وجلّ عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم البث ان اطلع على شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقّة وتناءى الديار وشحط المزار ١٠ وطول المسافة وغول الطريق وفي دون هذا مـا سلّى المشتاق و نسّى الذاكر الّا من تمسّك بحبل الوفاء مثلك و رعى سالف الاذمّـة و وكيد المودّات وحقّ النشأة ومحبّة الصبى وكانت مودّته لله تعالى ولقد اثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون وكانت مغازيك في كتابك 2a زايدة على ما عهدته من ساير كتبك ثم كشفت اليّ باقبالك غرضك و اطلعتني ١٥ على مذهبك سجيّةً لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرّك وسرّك وجهرك بجدوك الودّ الصحيح الذي انا لكـ على اضعافه لا ابتغي جزآء غير مقابلته بمثله وفي ذلك اقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة ابن امير المومنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقا ١٩

(1) Leçon proposée par M. Snouck Hurgronje; dans le MS peu lisible.
(2) MS آرآبنا.

الصفحة الأولى من طبعة د.ك. بتروف، ليدن ١٩١٤م

مختصر
طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف

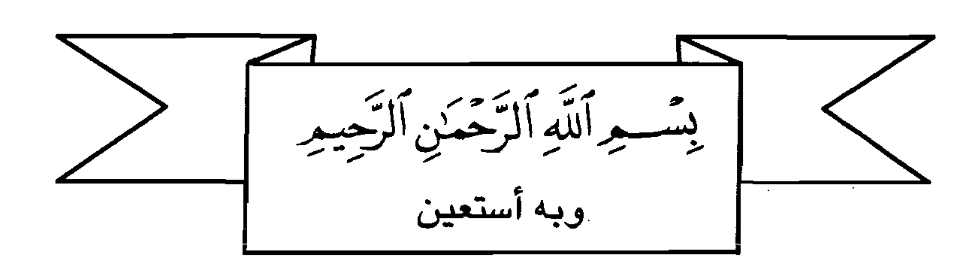
تصنيف:

الإمام الكبير، الفقيه الأديب أبي محمد علي بن أحمد
ابن حزم الأندلسي
(٣٨٤ - ٤٥٦هـ)

تحقيق

عبد الحق التركماني





① [المقدّمة]

[صدر الرسالة]

قال أبو محمد ـ عفا الله عنه ـ:

أفضلُ ما ابتدىء به حمدُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما هو أهلُهُ، ثُمَّ الصَّلاةُ علىٰ محمَّدٍ عبدِهِ ورسولِهِ خاصَّةً، وعلىٰ جميع أنبيائه عامةً.

وبعدُ ـ عَصَمَنا الله وإيَّاك من الحَيْرَةِ، ولا حمَّلنا ما لا طاقةَ لنا به، وقيَّض لنا من جميلِ عونِهِ دليلاً هادياً إلىٰ طاعته، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه، ولا وكَلنا إلىٰ ضَعْفِ عزائمنا، وخَوَرِ قُوَانا، ووهاءِ بِنْيَتِنَا، وتَلَدُّدِ ءارائِنا[1]، وسوءِ اختيارنا، وَقِلَّةِ تَمْييزِنا، وَفسادِ أهوائنا ـ: فإنَّ كتابَكَ ورَدَني من مدينة المَرِيَّة[2] إلىٰ مسكني بحَضْرةِ شاطبةَ[3]، تَذكُر مِنْ

(١) قد تقرأ ـ أيضاً ـ: «ءارابنا»، والتلدّد: التحيّر (ع).
قلت: «ءارائنا» واضحة في الأصل.

(٢) المريّة (Almeria): بنيت عام ٣٤٤ وأصبحت أهم قاعدة للأسطول الأندلسي على البحر المتوسط (انظر: الروض: ١٨٣/٥٣٧، والترجمة: ٢٢٢، والزهري: ١٠١، والعذري: ٨٦) (ع).

(٣) شاطبة (Jativa): تقع إلى الجنوب الغربي من بلنسية، وكانت في الأيام الإسلامية مدينة =

حُسْن حالِكَ ما يسرُّني، وحمدتُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه، واستَدَمْتُهُ لك، واستزَدْتُهُ فيكَ؛ ثمَّ لم ألبثْ أن اطَّلَعَ[١] عليَّ شخْصُكَ، وَقَصَدْتَني بنفسِكَ، علىٰ بعد الشُّقَّةِ، وتنائي الدِّيار، وشَحْطِ المزار، وطولِ المسافة، وغَولِ الطَّريق؛ وفي دون هذا ما سلَّىٰ المشتاقَ، ونسَّىٰ الذَّاكرَ؛ إلا من تمسَّكَ بحبلِ الوفاءِ مِثْلك، ورعىٰ سالفَ الأذِمَّةِ، ووكيدَ المودَّات، وحقَّ النشأةِ، ومحبةَ الصِّبا، وكانت مودته لله ـ تعالىٰ ـ. ولقد أثبتَ الله بيننا من ذلك مَا نحنُ عليه حامدونَ وشاكرونَ.

وكانتْ مغازيكَ[٢] في كتابكَ زائدةً علىٰ ما عهدتُهُ من سائرِ كُتُبِكَ، ثُمَّ كشفتَ إليَّ ـ بإقبالِكَ ـ غرضَكَ، وأطلَعْتَني علىٰ مَذْهَبِك؛ سَجِيَّةً لم تزل عليها[٣] من مشاركتك لي في حُلوكَ ومُرِّكَ، وسِرِّكَ وجَهْرِكَ، يَحدُوكَ الودُّ الصَّحيحُ الذي أنا لك علىٰ أضعافه، لا أبتغي علىٰ ذلكَ[٤] جزاءً غيرَ مقابلته بمِثْلِهِ. وفي ذلكَ أقولُ مخاطباً لعُبَيْدِ الله بن عبدالرَّحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين النَّاصر[٥] ـ رحمه الله ـ في كلمةٍ لي طويلةٍ ـ وكانَ لي صديقاً ـ:

[من الطويل]

= حصينة يعمل بها كاغد لا نظير له (الروض: ٣٣٧، والإدريسي: (١٩٢ دوزي)، والعذري: ١٨، وءاثار البلاد: ٥٣٩) (ع).

(١) اطَّلع بمعنىٰ: طلع (ع).

(٢) كذا في الأصل، وعند بتروف. ومغزىٰ الكلام: مقصِدُه. وأثبتها (ع): معانيك. وقال: قرأها برشيه: مغازيك.

(٣) خ: علينا. غيّرها برشيه إلىٰ: «عليها» وتبعه (ع)، وهذا أكثر توافقاً مع السياق، ولكنهما لم ينبّها علىٰ ما في الأصل.

(٤) «علىٰ ذلك» سقطت من طبعة بتروف وجميع الطبعات اللاحقة.

(٥) المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر قُتل خنقاً صبيحة الليلة التي مات فيها أخوه الحكم المستنصر في مؤامرة شرحها ابن حيان؛ (انظر: «الذخيرة» لابن بسام ١/٤ : ٥٨ ط. بيروت) كي تكون البيعة مضمونة لأخيه الأصغر هشام المؤيد؛ ويقول ابن حزم في=

أودُّك وُدّاً لـيـسَ فـيـه غَـضَـاضَـةٌ وَبَـعْـضُ مَـوَدّاتِ الـرِّجَـالِ سَـرابُ

وأَمْحَضُكَ[1] النُّصحَ الصَّريحَ وفي الحَشَا لـوُدِّكَ نَـقْـشٌ ظَـاهِـرٌ وكِـتَـابُ

فَلَو كانَ في رُوحي سِواكَ[2] اقتلعتُه ومُـزِّقَ بـالـكـفَّـيْـنِ عـنـه إهـابُ

ومـا لـيَ غـيـرُ الـوُدِّ مِـنْـكَ إرادةٌ ولا فـي سِـواهُ لـي إلـيـكَ خِـطَـابُ

إذا حُزتُهُ فـالأرضُ جَـمْـعَـاءُ والـورىٰ هـبـاءٌ وسُـكّـانُ الـبـلادِ ذُبَـابُ[3]

وكلَّفْتَنِي ـ أعزَّكَ اللَّهُ ـ أنْ أصنِّفَ[4] لك رسالةً في صِفَةِ الحبِّ ومعانيه وأسبابِهِ وأعراضِهِ، وما يقع فِيهِ وَلَهُ[5] على سبيلِ الحقِيقَةِ، لا مُتَزَيِّداً ولا مفنِّناً، لكن مُورِداً لما يَحضُرُني علىٰ وَجْهِهِ وبحَسْبِ وقُوعِهِ، حيثُ انتهىٰ حفظي، وسَعَةُ

= الجمهرة: ١٠٣ إن للمغيرة عقباً من قبل عبيدالله بن عبدالرحمٰن بن المغيرة؛ وهذا هو صديقه الذي يذكره هنا في «الطوق»، وقوله «رحمه الله» يدلُّ على أنه كان قد توفي قبل تأليف «طوق الحمامة»، ولكنه خلَّف عقباً كان ابن حزم يعرفهم أيضاً (ع).

وأمير المؤمنين الناصر، هو: الناصر لدين الله، أبو المطرِّف عبدالرحمٰن بن محمَّد المرواني الأمويّ، باني مدينة الزّهراء، أعظم أمراء بني أُمية بالمغرب سلطاناً، وأطولهم في الخلافة مدة وزماناً، دامت دولته خمسين سنة، وكان لا يمل من الغزو، افتتح سبعين حصناً من أعظم الحصون، فيه سؤدد وحزم وإقدام، وسجايا حميدة، وكان ينطوي على دين، وحسنِ خُلقٍ ومُزاح. توفي في رمضان (٣٥٠هـ)، وله اثنتان وسبعون عاماً؛ رحمه الله. ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٨ /الترجمة: (٦٢) و١٥/الترجمة: (٣٣٦).

(١) خ: «وأَمْحَضْتُكَ»، وغيّرها (ع).

(٢) خ: «هواك»، وغيّرها برشيه وتبعه (ع).

(٣) علّق (ع) هنا بقوله: يعارض ابن حزم هنا ـ في هذه الأبيات ـ المتنبي وأبا فراس، وبيته هذا الأخير يذكُر بقول أحدهما:

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق التُّراب تُرابُ

(٤) خ: أصِفَ. وهكذا أثبتها بتروف وفي الطبعات اللاحقة كما أثبتنا.

(٥) يقع فيه وله: أي يحدث أثناءه ومن أجله وبسببه. ومن قرأ: «يحدث فيه [من] ولهٍ» فإنّما يوجه العبارة وجهة خاصة، إذ ليس كل ما يحدث في الحب ولهاً (ع). قلت: في (خ) كما أثبتنا من غير زيادة (من).

باعي فيما أذكره. فبَدَرْتُ[1] إلىٰ مرغوبكَ، ولولا الإيجابُ لك لَما تكلَّفْتُهُ، فهذا من العَفْوِ، والأولىٰ بنا مع قِصَرِ أعمارِنا ألا نَصرِفَها إلا فيما نرجُو به رَحْبَ المُنْقَلَبِ، وَحُسْنَ المآب غَداً، وإنْ كانَ القاضي حُمام بن أحمد[2] حدّثني عن يحيىٰ بن مالك بن عائذ[3] بإسنادٍ يرفعه إلىٰ أبي الدَّرداءِ [رضي الله عنه] أنَّه قالَ: أجِمُّوا النُّفوسَ بشيءٍ مِنَ الباطل ليكونَ عوناً لها علىٰ الحق[4]. ومن بَعْضِ أقوالِ الصَّالحينَ من السَّلف المرضيِّ: مَنْ لم يُحْسِنْ يتفتَّىٰ؛ لم يُحْسِنْ يتقرَّا[5]. وفي

---

(١) كذا في (خ) و(ب)، وجعلها برشيه: فبادرتُ. وهما بمعنًى.

(٢) حمام بن أحمد بن عبدالله: كان ـ في رأي ابن حزم ـ واحد عصره في البلاغة وسعة الرواية، ضابطاً لما قيّده، وَلِيَ قضاء يابرة وشنترين والأشبونة وسائر الغرب أيام عبدالملك المظفر ابن المنصور وأخيه عبدالرحمٰن، وتوفي بقرطبة (٤٢١)؛ (انظر ترجمته في الصلة: ١٥٣، والجذوة: ١٨٧؛ والبغية رقم: ٦٧٧) (ع).

(٣) خ: يحيىٰ بن مالك، عن عائذ. والصَّواب ما أثبتناه وهو: يحيىٰ بن مالك بن عائذ بن كيسان، الإمام المجوِّد، الحافظ المحقِّق، أبو زكريا الأندلسيّ، من أهل طرطوشة، سمع ببلده، ورحل إلى المشرق (٣٤٧هـ) فحجَّ، وكتب عن طبقات من المحدِّثين بمصر، وبغداد، والبصرة، والأهواز. وعاد إلى بلده، وأملىٰ بجامع قرطبة. صعد المنبر ليخطب يوم الجمعة فمات في الخطبة في شعبان (٣٧٦هـ) فأُنزل، وطُلب في الحال مَن يخطب. كان صحيح الكتاب، وكان حليماً، كريماً، جواداً، صوّاماً، قوّاماً؛ رحمه الله. ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ١٦ /الترجمة: (٣٠٧)، و«تاريخ الإسلام» (حوادث ووفيات: ٣٥١ ـ ٣٨٠ /ص: ٥٨٣ و٦٠٢).

(٤) روى الدُّوريُّ في: «تاريخ ابن معين» (٥٤٠٥) عنه؛ قال: حدَّثنا أبو مُسْهِر (عبدالأعلىٰ بن مسهر)، قال: حدَّثني صَدقة (بن خالد الأمويُّ)، عن (عبدالرحمٰن بن يزيد) بن جابر قال: كان عُمَيْرُ بن هانيءٍ يضحك؛ فأقول: يا أبا الوليد ما هذا؟ قال: بلغني أنَّ أبا الدَّرداءِ كانَ يقول: إنِّي لأَسْتَجِمُّ ليكون أنشطَ لي في الحقِّ.
وهذا إسناد صحيح إلا أنَّ عمير بن هانيء ـ وهو تابعيٌّ ثقةٌ، قُتل سنة ١٢٧هـ؛ رحمه الله ـ لم يسمعه من أبي الدرداء؛ بل بلغه عنه. والأثر ـ بتمامه كما أورده المصنِّفُ؛ لكن بلفظِ إخبارِ أبي الدَّرداء عن نفسه ـ يَرِدُ ـ من غير إسنادٍ ـ عند ابن قتيبة في: «تأويل مختلف الحديث» ٢٩٥/١، والجاحظ في: «البخلاء»، وابن الجوزي في: «الحمقىٰ والمغفَّلين»، وابن عبدالبر في: «بَهْجة المجالس»، والغزَّاليِّ في: «إحياء علوم الدِّين»؛ وغيرهم.

(٥) خ: يتقوّىٰ. وهكذا أثبتها بتروف. وقرأها برشيه: يتقرّىٰ. وفي (ع) كما أثبتنا، وقال: =

بعض الأثَر: أَرِيحُوا النُّفُوسَ فإنَّها تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحَدِيدُ[1].

والذي كلَّفْتَنِي فلا بدَّ فيه من ذكر ما شاهَدَتْهُ حَضْرَتي، وأدركته عِنَايَتِي، وحدّثني به الثِّقاتُ من أهلِ زماني، فاغتفِرْ لي الكِنايةَ عن الأسماءِ فهي إمَّا عورةٌ لا نستجيزُ كَشْفَها، وإمَّا نحافظُ في ذلك صديقاً ودوداً، ورجلاً جليلاً، وبحَسْبي أن أُسمِّي من لا ضَرَرَ في تسميته، ولا يَلحقنا والمسمَّىٰ عيبٌ في ذِكْرِهِ؛ إمَّا لاشتهارٍ لا يُغني عنه الطيُّ وتركُ التَّبيين، وإمَّا لرضىً من المخبَرِ[2] عنه بظهورِ خبره، وقلةِ إنكارٍ منه لنَقْلِهِ.

وسأُورد في رسالتي هذه أشعاراً قُلْتُها فيما شاهدته، فلا تنكرْ أنتَ ـ ومَنْ رءَاها ـ عليَّ أنِّي سالكٌ فيها مسلكَ حاكي الحديثِ عن نفسه، فهذا مذهبُ المتحلِّينَ بقولِ الشِّعْرِ. وأكبرُ[3] ذلك؛ فإنَّ إخواني يجشِّمُوني القولَ فيما يَعْرِضُ لهم علىٰ طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أنِّي ذاكرٌ لكَ ما عَرَضَ لي مِمَّا يشاكل ما نحوتُ نحوه، وناسِبُهُ إليَّ.

والتزمتُ في كتابي هذا الوقوفَ عند حدِّكَ، والاقتصارَ علىٰ ما رأيتُ أو صحَّ عندي بنقل الثِّقَاتِ، ودَعْني من أَخبارِ الأعراب المتقدِّمينَ، فسبيلُهم

= وهي بالألف الطويلة: يتقرّا. لأنها مخففة عن: «يتقرّأ» أي: يتنسّك. والمتقرِّىء: المتنسِّك. وفي أخبار أبي عمرو ابن العلاء أنه لمَّا تقرَّأ طمر كتبه. والمعنىٰ: إذا لم يحسن المرء أن يَتَفَنَّىٰ في فترة الفتوة؛ لم يستطع أن يتنسَّك حين يقع في دور النُّسك.

(1) ذكره القاضي عِياض في مقدِّمة: «ترتيب المدارك، وتقريب المسالك» منسوباً لعليٍّ ـ رضي الله عنه ـ؛ بلفظ: «سلُوا النُّفُوس ساعةً...»، ونسبه ابن عبدالبر في: «بهجة المجالس» ١/١١٦ لبعضِ العلماء؛ بلفظ: «حادثوا هذه القلوب فإنَّها...». وورد مرفوعاً: «إنَّ للقلوب صَدأً كصَدَىءِ الحديد؛ وجلاؤها الاستغفار» أورده الألباني في: «الضَّعيفة» (٢٢٤٢)؛ وحكم عليه بالوضع.

(2) خ: المحتقر.

(3) في الأصل غير منقوطة. وأثبتها بتروف: «وأكثر»، وجعلها برشيه: «وأكثر من ذلك» وتبعه (ع). وما أثبته هو الصَّواب كما يظهر بالتَّأمُّل.

غيرُ سبيلنا، وقد كَثُرَت الأخبارُ عنهم، وما مَذهبي أنْ أُنضِيَ مطيةَ سواي، ولا أتحلّىٰ بحَلْيِ مستعارٍ، والله المستغفَرُ والمستعانُ لا ربَّ غيره.

[أبواب الرسالة]

وقسَّمْتُ رسالتي هذه علىٰ ثلاثينَ باباً:

منها في أصول الحُبِّ عشرةٌ:

فأوَّلها هذا الباب[1].

[ثُمَّ] في علامات الحبِّ.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ مَنْ أحبَّ في النَّوم.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ مَنْ أحبَّ بالوصف.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ من أحبَّ مَنْ نظرةٍ واحدةٍ.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ من لا تَصِحُّ محبته إلاَّ مع المُطاوَلة.

ثُمَّ بابُ التَّعرِيضِ بالقَوْلِ.

ثُمَّ بابُ الإِشارةِ بالعَيْنِ.

ثُمَّ بابُ المراسَلَةِ.

ثُمَّ بابُ السَّفِيرِ.

ومنها في أَعراضِ الحُبِّ وصفاته المَحْمُودةِ والمَذْمُومَةِ اثنا عَشَرَ باباً ـ وإنْ

(١) يعني: «أولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في ماهية الحب»، فالكلام في ماهية الحب جزء من الباب الأول يسبقه جزءان اخران هما فاتحة الكتاب وذكر الأبواب (ع).

كانَ الحبُّ عَرَضاً؛ والعَرَضُ لا يَحْتَمِلُ الأَعْراضَ[1]، وصفةً؛ والصّفةُ لا تُوصَفُ، فهذا علىٰ مجاز اللُّغة في إقامة الصِّفَةِ مقام الموصوف، وعلىٰ معنىٰ قولنا: وجُودُنا[2] عَرَضاً أقلُّ في الحقيقة من عَرَض غيره، وأكثرُ وأحسنُ وأقبحُ في إداركنا لها علمنا[3] أَنَّها متباينةٌ في الزيّادة والنُّقْصان[4] من ذاتها المَرْئيَّةِ والمعلومة، إذ لا تقع فيها الكَمِّيَةُ ولا التَّجزِّي، لأنَّها لا تُشْغِلُ مكاناً ـ وهي:

باب الصَّديقِ المساعد.

ثُمَّ بابُ الوَصْل.

ثُمَّ بابُ طَيِّ السِّرِّ.

ثُمَّ بابُ الكَشْفِ والإِذاعَةِ.

ثُمَّ بابُ الطَّاعةِ.

ثُمَّ بابُ المخالفة.

ثُمَّ بابُ مَنْ أحبَّ صفةً لم يُحبَّ بعدها غيرها مِمَّا يخالفها.

ثُمَّ بابُ القُنُوعِ.

ثُمَّ بابُ الوفاءِ.

ثُمَّ بابُ الغَدْرِ.

---

(١) يقول ابن حزم (الفصل ٥:١٠٨) ولسنا نقول إن عرضاً يحمل عرضاً إلى ما لا نهاية له. قلت: وفي هذا إيماء إلى أن العرض قد يحمل عرضاً، وقد صرّح في موضع ءاخر (الفصل ٥:٤٧) أن بعض الأعراض قد يحمل الأعراض كقولنا: حمرة مشرقة وحمرة كدرة وعمل سيء وعمل صالح وقوة شديدة وقوة دونها في الشدة، ومثل هذا كثير (ع).

(٢) خ: ووجودنا.

(٣) جعلها (ع): وعلمنا. مع التنبيه على زيادة الواو.

(٤) قولنا... والنقصان: عبارة تبدو مضطربة (ع).

ثُمَّ بابُ الضَّنىٰ.

ثُمَّ بابُ المَوْتِ.

ومنها في الآفات الدَّاخلة علىٰ الحبِّ ستةُ أبوابٍ؛ وهي:

بابُ العاذِلِ.

ثُمَّ بابُ الرَّقيب.

ثُمَّ بابُ الواشي.

ثُمَّ بابُ الهَجْرِ.

ثُمَّ بابُ البَيْنِ.

ثُمَّ بابُ السُّلُوِّ.

[و]من هذه الأبواب السِّتَّةِ بابانِ[1]؛ لكلِّ واحدٍ منهما[2] ضدٌّ من الأبواب المتقدِّمة الذِّكر، وهما[3]:

باب العاذل، وضدُّه بابُ الصَّديق المُسَاعِدِ.

بابُ الهَجْرِ، وضدُّه باب الوصل.

ومنها أربعةُ أبوابٍ لا ضدَّ لها من معاني الحبِّ وهي:

باب الرَّقيبِ، وباب الواشي، ولا ضدَّ لهما إلا ارتفاعُهُما ـ وحقيقة الضِّدِّ ما إذا وقعَ ارتفعَ الأوَّلُ، وإنْ كانَ المتكلمونَ قد اختلفوا في ذلك،

---

(١) خ: بان.

(٢) خ: منها.

(٣) خ: وهو.

ولولا خوفنا إطالةَ الكلام فيما ليسَ من جنسِ الكتاب لتقصَّيناه[1] ـ.

وبابُ البين وضدُّه تصاقُبُ الدِّيار؛ وليس التَّصاقب من معاني الحبِّ التي نتكلَّم فيها.

وبابُ السُّلُوّ؛ ضدُّه الحبُّ بعينه، إذ معنىٰ السُّلُوّ ارتفاع الحبِّ وعدَمُهُ.

ومنها بابان ختمنا بهما الرِّسالةَ، وهما:

بابُ الكلام في قُبْحِ المعصية، وبابٌ في فَضْل التَّعفُّفِ، ليكون خاتمةَ إيرادنا، وءاخرَ كلامنا الحضُّ علىٰ طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والأمرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر، فذلك مُفْتَرَضٌ علىٰ كلِّ مؤمنٍ.

لكنَّا خالفنا في نَسَقِ بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبةَ المقسَّمَةَ في دَرْجِ هذا الباب الذي هو أوَّلُ أبواب الرِّسالة، فجعلناها علىٰ مباديها إلىٰ منتهاها واستحقاقها في التَّقدُّمِ والدَّرجات والوجود، ومن أوَّلِ مراتبها إلىٰ ءاخرها، وجعلنا الضِّدَّ إلىٰ جنب ضدِّهِ فاختلفَ في المساقِ في أبوابٍ يسيرةٍ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وهيئتها في الإيراد:

[١] أوَّلُها هذا البابُ الذي نحنُ فيه، وفيه صدر الرسالة، وتقسيمُ الأبواب، والكلامُ في ماهِيَّة الحبِّ.

---

(١) تحدَّث ابن حزم عن التضاد في كتاب «التقريب» (ص: ٧١) فقال: والأضداد هي كل نقطتين اقتسم معنياهما طرفي البعد وكانا واقعين تحت مقولة واحدة وكان بينهما وسائط فالسواد والبياض ضدان تحت جنس واحد هو اللون، والجود والشح تحت جنسين هما الفضيلة والرذيلة. وكل ضدين يدركان بحاسة واحدة، وكل ضدين إن كان أحدهما في النفس فالآخر فيها أيضاً... وقال: فالمتضادة هي ما إذا وقع أحدهما ارتفع الآخر وبينهما وسائط وفرق بين المتضادة والمتنافية، بأن المتنافية هي ما إذا ارتفع أحدهما وقع الآخر ولا وسائط بينهما، كالحياة والموت والاجتماع والافتراق (ع).

[٢] ثُمَّ بابُ علامات الحُبِّ.

[٣] [ثُمَّ بابُ من أحبَّ في النَّوم].

[٤] ثُمَّ بابُ من أحبَّ بالوصف.

[٥] ثُمَّ بابُ من أحبَّ مِنْ نظرةٍ واحدةٍ.

[٦] ثُمَّ بابُ مَنْ لا يُحِبُّ إلاَّ مع المُطَاوَلة.

[٧] ثُمَّ بابُ من أحبَّ صفةً لم يحبَّ بعدها غيرها ممَّا يخالفها.

[٨] ثُمَّ بابُ التَّعْرِيضِ بالقول.

[٩] ثُمَّ بابُ الإشارة بالعَيْنِ.

[١٠] ثُمَّ بابُ المراسلة.

[١١] ثُمَّ بابُ السَّفِير.

[١٢] ثُمَّ بابُ طي السِّرِّ.

[١٣] ثُمَّ بابُ إذاعتِهِ.

[١٤] ثُمَّ بابُ الطَّاعة.

[١٥] ثُمَّ بابُ المخالَفَةِ.

[١٦] ثُمَّ بابُ العاذِل.

[١٧] ثُمَّ بابُ المساعد من الإِخوان.

[١٨] ثُمَّ باب الرَّقيب.

[١٩] ثُمَّ بابُ الواشي.

[٢٠] ثُمَّ باب الوصل.

[٢١] ثُمَّ بابُ الهَجْرِ.

[٢٢] ثُمَّ بابُ الوفاء.

[٢٣] ثُمَّ بابُ الغَدْرِ.

[٢٤] ثُمَّ بابُ البَيْن.

[٢٥] ثُمَّ بابُ القُنُوعِ.

[٢٦] ثُمَّ بابُ الضَّنىٰ.

[٢٧] ثُمَّ بابُ السُّلُوّ.

[٢٨] ثُمَّ بابُ الموتِ.

[٢٩] ثُمَّ بابُ قُبْحِ المعصية.

[٣٠] ثُمَّ بابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ.

الكَلامُ في ماهيَّةِ الحُبّ

الحُبُّ ـ أعزّك الله ـ أوَّلُه هَزَلٌ، وءَاخِرُهُ جِدٌّ، دقّتْ معانيه لجلالتها عن أن توُصَفَ، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة.

وليس بمنكَرٍ في الدِّيانة، ولا بمَحْظُورٍ في الشَّريعة، إذ القُلُوبُ بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقد أحبَّ من الخلفاء المهدِيِّين، والأئمةِ[1] الراشدين كثيرٌ، منهم

(١) خ: وأئمة.

بأندلسنا[١]:

عبدُالرحمن بن معاوية[٢]؛ لدَعْجاءَ.

والحكَمُ بن هشام[٣].

وعبدُ الرحمن بن الحكم؛ وشغفه[٤] بطَرُوب[٥] أمِّ عبدالله - ابنه -؛ أشهرُ من الشَّمْسِ.

ومحمَّدُ بن عبدالرحمن[٦]؛ وأمره مع غَزْلانَ - أُمِّ بنيه عثمان والقاسم والمطرِّف[٧] -؛ معلومٌ.

---

(١) عبارة: وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدية (هكذا): وردت عند ابن قيم الجوزية في كتاب الجواب الكافي: ١٦٤، وعند الشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي في منية المحبين (نسخة مكتبة بلدية الإسكندرية) الورقة: ٩ (انظر مقالة غرسيه غومس، مجلة الأندلس (١٩٥١): ٣٢٦؛ إلا أن كليهما لم يذكر أئمة الأندلس، ولعلهما لم يكونا يعتقدان أنهم أئمة راشدون واكتفيا بذكر عشق عُمر بن عبدالعزيز لجارية زوجته (وقد فصل ابن القيم القصة ص: ١٧١ كما وردت في تزيين الأسواق ٢: ٦٥) وذكرا خبر عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (انظر الجواب الكافي: ١٥٨) (ع).

(٢) هو عبدالرحمٰن الداخل صقر قريش أبو المطرف (١٣٨ - ١٧٢هـ).

(٣) الحكم بن هشام حفيد عبدالرحمٰن الداخل (١٨٠ - ٢٠٦هـ) ولم يذكر مَن كان يحبّ؛ وقد ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ٢: ٧٩) أنه كان له خمس جوار قد استخلصهن لنفسه وملكهن أمره؛ ولعلَّ هذه الكثرة في العدد هي التي حالت بين ابن حزم وذكر هذه الحقيقة، لأن هذا التكثُّر يعارض معنى الحبّ كما يفهمه، مما سيجيء تبيانه (ع).

(٤) خ: وشغف.

(٥) عبدالرحمٰن بن الحكم أبو المطرف (٢٠٦ - ٢٣٨هـ)؛ وانظر جانباً من أخباره مع طروب عند ابن عذاري (٢: ٩٢) وابن الأبار (الحلّة السيراء ١: ١١٤، ١١٦) ومن غزله فيها:

وإما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروبا

(٦) محمد بن عبدالرحمٰن بن الحكم أبو عبدالله (٢٣٨ - ٢٧٣هـ)، ولد نيفاً وثلاثين ذكراً، وكان جلهم قد انقرض في أيام ابن حزم (الجمهرة: ٩٩) (ع).

(٧) نوّه ابن حزم بالمطرف ابن الأمير محمد وبأنه كان شاعراً مفلقاً عالماً بالغناء، قال: وكان عثمان وإبراهيم ابنا محمد عارفين بالغناء جداً، ولم يذكر شيئاً عن القاسم إلا =

والحكمُ المستنصرُ؛ وافتتانه بصُبْحٍ أمِّ هشامٍ المؤيَّدِ بالله[1] - رضي الله عنه، وعن جميعهم - وامتناعُه عن التَّعرُّضِ للولد من غيرها.

ومثل هذا كثير، ولولا أنَّ حقوقهم على المسلمين واجبةٌ - وإنَّما يجبُ أن نذكرَ من أخبارهم ما فيه الحَزْمُ وأحياءُ الدِّينِ، وإنَّما هو شيءٌ كانوا ينفردونَ بهِ في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإِخبارُ به عنهم[2] - لأوردتُ مِنْ أخبارهم في هذا الشَّأنِ غيرَ قليلٍ.

وأمَّا كِبارُ رجالهم، ودَعائِمُ دولتهم؛ فأكثرُ من أنْ يُحْصَوْا، وأحدثُ

= أنه كان يعرف أن رجلاً واحداً من عقبه ربما بقي حتى أيامه (الجمهرة: ٩٩)؛ وترجم الحميدي (الجذوة: ٣٧٧) لمن اسمه أبو القاسم من أبناء الأمير محمد، وقال: إنَّه كان يُعرف بابن غزلان؛ وكان القاسم قد اختصَّ الشاعر العتبيَّ وله معه حكايات (المغرب ١: ١٣٤) (ع).

(١) الحكم المستنصر أبو المطرف بن عبدالرحمٰن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) الخليفة العالم؛ تزوج جارية بشكنسية اسمها صبح (Aurora) ورزق منها بابنه هشام الذي تولى الخلافة من بعده، ولم يكن له فيها إلا الاسم إذ قام بالأمر الحاجب المنصور بن أبي عامر؛ أمّا هشام فكان حكمه الاسمي (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ومرة ثانية: (٤٠٠ - ٤٠٣هـ)؛ وقد ذهب بعضهم إلى تصوُّر علاقة عاطفية بين صبح والمنصور، دفعت بهذا إلى تحقيق طموحه؛ ولكن المصادر تشير إلى أنه استمالها بالهدايا والألطاف، وانتهى تضارب المصالح إلى كراهية عميقة (ع). وقال ابن حزم في: «نُقَط العروس» (الرسائل: ٢/٦٨): ويقول قائلون: إنَّ أم هشام المؤيد استحلَّها ابنُ أبي عامر بنكاح سرٍّ، والله أعلم.

(٢) يُنبِّهُ ابنُ حزم - رحمه الله - بكلمته هذه إلى قاعدة هامَّة في التعامل مع المادة التاريخية المتعلِّقة بخلفاء المسلمين وأمرائهم. إذ ينبغي الفَصْلُ بين حياتهم الخاصَّة؛ وإنْ كانتْ قد تضمَّنَتْ معاصيَ ومخالفاتٍ كانوا لا يجاهرون بها، وربما كانوا يشركون بها معهم خواصَّهم، وبين حياتهم العامَّة بما قاموا به من حفظ الدِّين، وإقامة أحكامه، والذَّبِّ عنه، وتحمُّل مسؤوليات الرَّعية. ومن نظر إلى هذا الجانب وجد فيهم ولهم من الخير العظيم ما يرجح بدرجات كبيرة جدّاً بما كان في حياتهم الخاصة من تقصير. ولهذه القاعدة أثرٌ هامٌّ في ترسيخ مفهوم الانتماء للأُمَّة الإسلامية، واحترام تاريخها، وأعلامها، ورجالاتها.

ذلك ما شاهدناه بالأمس من كَلَفِ المظفّر عبدالملك بن أبي عامر[1] بواجدٍ - بنتِ رجلٍ من الجنّانين[2] - حتّىٰ حمله حُبّها أنْ يتزوَّجها، وهي التي خَلَفَ عليها بعد فناء العامرِيِّين[3] الوزيرُ عبدالله بن مَسلمة[4]، ثم تزوجها بعد قتله رجلٌ من رؤساء البربر.

ومِمَّا يُشْبِهُ هذا أنَّ أبا العَيْشِ بن ميمون القُرَشيَّ الحُسَيْنِيَّ[5] أخبرني أن نزار بن مَعْدٍ - صاحبَ مصرَ - لم يرَ ابنه منصور بن نزار - الذي وَلِيَ المُلْكَ بعده، وادَّعىٰ الإلهية[6] - إلا بعدَ مدةٍ من مولده، مساعدةً لجارية كان يحبّها

---

(١) الحاجب عبدالملك المظفر بن المنصور (٣٩٢ ـ ٣٩٨هـ) خلف أباه المنصور في الحجابة، وكانت السلطة الفعلية بيده، وفي أيامه أخلد الأندلسيون إلى الراحة وتنافسوا في زخرف الدنيا (انظر الذخيرة ١/٤: ٧٨ وما بعدها) (ع).
قلت: وفي خ: المظفّر بن عبدالملك. وهو خطأ، فكلمة (المظفر) لقب لعبدالملك.

(٢) خ: الجبانين. وهكذا أثبتها بتروف. والجبَّان والجبَّانة: المقبرة. وقرأها بروفنسال - وتبعه (ع) وغيره -: «الجنَّانين»، والجنَّان: البستاني. وهذا هو الصَّواب، فقد ذكر المصنِّف هذا الخبر في: «نقط العروس» ٢/ ٧٠؛ فقال: «عبد الرحمن [هكذا سمَّاه هناك] بن أبي عامر؛ تزوَّج واجد بنت رجلٍ بستاني»، و«واجد» اسم الجارية، وقد استعمل الأندلسيون هذا الاسم، وكان لابن الشرح زوجة بهذا الاسم (البيان المغرب: ٣/ ٨٠).

(٣) والمقصود بالعامِرِيِّينَ: دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده. وفي (خ): العامر بن. وهكذا أثبتها بتروف، وهو خطأ صُحّح في الطبعات الشرقية، إذ ليس لعبدالله ولد اسمه عامر، والعبارة لا تستقيم بذلك.

(٤) عبدالله بن مسلمة: لعله الذي كان صاحب مدينة الزاهرة عندما ثار محمَّد بن هشام بن عبدالجبار لينتزع الخلافة من هشام المؤيد (ابن عذاري: ٣/٥٨)، وقد اتصل به صاعد البغدادي أول دخوله الأندلس، ثم نُكِبَ عبدالله، فكان صاعد يستعطف له أبا جعفر بن الدب، ليشفع به لدىٰ سليمان المستعين (الذخيرة: ١/٤/ ١٠ ـ ١١) (ع).

(٥) أغلب ظنِّي أنَّه حسني لا حُسَيْني، وإن كنت لم أجده بين أسماء الطارئين على الأندلس (ع).

(٦) نزار بن معد: هو أبو منصور العزيز بالله بن المعزّ لدين الله العُبيدي الرافضي الباطني، ولد سنة (٣٤٤هـ)، وقام بالخلافة بعد أبيه سنة (٣٦٥هـ)، وهلك في سنة (٣٨٦هـ)، وقام بعده ابنه منصور ـ هذا ـ وتلقَّب بالحاكم بأمر الله، وكان ـ كما وصفه الذهبي ـ =

حُبّاً شديداً، هذا ولم يكن له ذَكَرٌ، ولا من يرثُ ملكه، ويُحيي ذِكرَهُ سواه.

ومن الصَّالحينَ والفقهاءِ ـ في الدُّهورِ الماضية، والأزمانِ القديمة ـ مَنْ قد استغْنِيَ بأشعارهم عن ذِكْرهم؛ وقد وردَ من خبرِ عُبيدالله بن عبدالله بن عُتْبةَ بن مسعود[1] وشعرِه ما فيه الكفاية[2]، وهو أحد فقهاء المدينة

= شيطاناً مريداً، جبَّاراً عنيداً، فرعون زمانه. وقتل الزنديق سنة (٤١١هـ). وترجمتهما وسيرتهما مبسوطة في كتب التاريخ والتراجم التي تناولت تلك الفترة.

(١) الإمام الفقيه، مفتي المدينة وعالِمُها، ولد في خلافة عمر أو بُعَيْدها. وحدَّث عن عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس ـ ولازمه طويلاً ـ، وابن عمر؛ وغيرهم من الصحابة. وكان ثقة، مأموناً، إماماً، كثير الحديث والعلم بالشعر. مات سنة (٩٨هـ) على خلافٍ. ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٤/(١٧٩).

(٢) يُشِيرُ إلىٰ ما رواه الفاكهيُّ في: «أخبار مكَّة» ٣/٥ (١٦٩٤)، والمعافىٰ بن زكريا النَّهروانيُّ في: «الجليس الصَّالح»، وابن عبدالبر في: «التَّمْهيد» ٩/١٠؛ كلُّهم من طريق: إسماعيل بن يعقوبِ التَّيْميِّ، عن عبدالرَّحمٰن بن أبي الزِّناد، عن أبيه؛ قال: قَدِمَتْ امرأةٌ من هُذَيْلٍ ـ مِنْ ناحية مكَّة ـ المدينةَ، وكانتْ جميلةً، ومعها صبيٌّ، فَرغِبَ النَّاسُ فيها؛ فخَطَبُوها، وكادتْ تَذْهَبُ بعقول أكثرهم، فقال فيها عُبيد الله بن عبدالله بن عتبة:

أحبُّكِ حُبّاً لا يحبُّكِ مثلَه ... قريبٌ ولا في العاشقين بعيد
أحبك حباً لو شعرتِ ببعضه ... لَجُدْتِ ولم يَصْعُب عليك شَديد
وحبك يا أم الصَّبيِّ مُدَلِّهي ... شَهِيدي أبو بكرٍ فنِعْمَ شهيد
ويعلم وَجْدي قاسمُ بن محمَّدٍ ... وعروةُ ما ألقىٰ بكم وسَعِيدُ
ويعلم ما ألقىٰ سليمانُ علمه ... وخارجة يُبْدي بنا ويُعِيد
متىٰ تسألي عَمَّا أقولُ فَتَخَيَّري ... فللحُبِّ عندي طارفٌ وتليد

فقالَ سعيد بن المسيِّب: أمَّا أنتَ ـ والله!ـ لقد أمنتَ أنْ تسألنا، وما رجوتَ إن سألتنا أن نشهد لك بزورٍ!

قلت: يريد بأبي بكرٍ، وقاسم، وعروة، وسعيد، وسليمان، وخارجة؛ الفقهاء السُّتَّة، وهو سابعهم، انظر التَّعليق التالي.

نعم؛ وإسناد هذه الحكاية ضعيف، إسماعيل التيميُّ، قال عنه أبو حاتم الرَّازي: ضعيف الحديث (الجرح والتعديل: ٢/٢٠٤)، وعلىٰ فرض صِحَّتها فليس فيها ما يعضد ما ذهب إليه المصنِّف، فإنَّ عبيدَ الله ـ وهو الإمام الفقيه العابد ـ ما قال تلك الأبيات إلا علىٰ سبيل الظَّرف؛ علىٰ طريقة أهل الحجاز، وممَّا يوضح هذا ما جاء في الرواية الأخرىٰ=

السَّبعة[1]، وقد جاء من فُتْيا ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ما لا يُحتاجُ معه إلىٰ غيره حينَ يقول: هذا قتيلُ الهوىٰ لا عَقْلَ ولا قَوَد[2].

وقد اختلفَ الناسُ في ماهِيَّتِهِ، وقالُوا وأطالُوا، والذي أذهب إليه أنَّه: «اتصال بين أجزاء النُّفُوسِ المَقْسُومَةِ في هذه الخَلِيقَةِ في أصْلِ عُنصِرِها الرَّفِيعِ»، لا علىٰ ما حكاه محمد بن داود[3] ـ رحمه الله ـ عن بعض أهل

= عند ابن عبدالبر: «فبلغ عبيدَ الله امتناعُها فعرَّض للقوم، فقال: . . .»، وهذا يناسب ما ذكروا في ترجمته؛ من أنَّه كان ذهب بصره.

قلت: والمقصود أنَّ أبا محمَّد ـ رحمه الله ـ أخطأ في نسبة الحبِّ إليه، وما كان ينبغي له التَّساهل في الجزم به؛ فالرَّجُل من الأئمَّة الكبار، الذين يقتدىٰ بهم، وتَسْمُوا منزلتهم عن سفاسف الأمور، والله أعلم.

(١) الفقهاء السَّبعة: عروة بن الزُّبير بن العوَّام (٩٤هـ)، وسعيد بن المُسَيَّب (مات بعد التسعين)، وسليمان بن يَسَار الهلالي (مات بعد المئة)، وعبيدالله بن عتبة، والقاسم بن محمَّد بن أبي بكرٍ الصِّدِّيق (١٠٦هـ)، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (١٠٠هـ)، وأبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث المخزومي (٩٤هـ) وكان هؤلاء هم المُفتون بالمدينة من التابعين، وقد نظمهم القائل فقال ـ فيما أورده ابن القيم في: «إعلام الموقعين» ـ:

إذا قِيلَ مَنْ في العِلْمِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ... رِوَايَتُهم ليسَتْ عَنِ العِلْمِ خَارِجَهْ
فَقُلْ: هم عُبَيْدُالله، عروة، قاسم ... سعيدٌ، أبو بكرٍ، سُلَيمانُ، خَارِجَهْ

وأورد ابن خلِّكان في: «وفيات الأعيان» ٢٨٣/١، بيتين ءاخرين في تضمين أسمائهم.

(٢) رواه ـ مقترناً بقصَّته ـ الفاكهيُّ في: «أخبار مكَّة» (٢٧٣٣)، وابن الجوزي في: «ذمِّ الهوى» ص: ٣٧٣؛ بإسنادٍ ضعيفٍ. ونقله ابن القيم في: «الجواب الكافي» عن ابن حزمٍ مصرِّحاً باسمه.

(٣) محمد بن داود بن علي الظَّاهري، العلامة، البارع، ذو الفنون، كان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً، سار على نهج والده في القول بالظاهر وإنكار القياس، ونشر فقهه ومذهبه. قال ابن حزم: كان ابن داود من أجملِ الناس، وأكرمهم خُلُقاً، وأبلغهم لساناً، وأنظفهم هيئةً، مع الدِّين والورع، وكلُّ خلَّةٍ محمودةٍ، محبَّباً إلى الناس، حفظ القرءان وله سبع سنين، وذاكر الرِّجال بالآداب والشِّعر وله عشر سنين، وكان يشاهد في مجلسه أربع مئة صاحب محبرة. توفي سنة (٢٩٧هـ) رحمه الله تعالىٰ «سير أعلام النبلاء»: ١٣/(٥٦).
وهو صاحب كتاب: «الزّهرة»، وهو في جزءين؛ أحدهما في الحب، وقد طبع بتحقيق نيكل وطوقان (١٩٣٢)، والثاني في التقوى، وقد طبع في بغداد (١٩٧٥) بتحقيق =

الفلسفة: الأرواحُ أُكَرٌ مقسومةٌ لكنْ علىٰ سبيل مناسبة قُوَاها في مقرِّ عالَمِها العُلْويِّ، ومجاورتها في هَيْئَةِ تركيبها[1].

وقد علمنا أن سرَّ التَّمازُجِ والتَّبايُنِ في المخلوقات إنَّما هو الاتِّصالُ والانفصال، والشَّكْلُ دأَباً[2] يستدعي شَكْلَهُ، والمثْلُ إلىٰ مِثْله سَاكِنٌ، وللمجانَسَةِ عَمَلٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهَدٌ، والتَّنافرُ في الأضداد، والموافقة في الأنداد، والنزاعُ فيما تشابه؛ موجودٌ فيما بيننا، فكيفَ بالنَّفْسِ وعالَمُها العالَمُ الصَّافي الخفيف، وجوهرها الجوهرُ الصَّعَّاد المُعْتَدلُ، وسِنْخُها[3] المهيَّأُ لقبول الاتِّفاقِ والمَيلِ والتَّوْقِ والانحرافِ والشَّهوةِ والنِّفَارِ ـ كلُّ ذلكَ معلومٌ بالحضرةِ[4] في أحوالِ تصرُّف الإنسان ـ فَيَسْكُنُ إليها[5]، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

= الدكتورين إبراهيم السامرائي، ونوري حمودي القيسي ـ رحمه الله ـ.

(١) هذا القول مأخوذ من كتاب «الزهرة» ونصه هنالك «وزعم بعض المتفلسفين أنَّ الله ـ جلَّ ثناؤه ـ خلق كلَّ روح مدوَّرة الشَّكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً، وكلُّ جسدٍ لقيَ الجسدَ الذي فيه النِّصفُ الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة» (الزهرة ١: ١٥ وانظر محاضرات الراغب ٢: ٤٠)؛ والفرق بين رأي ابن حزم ورأي ابن داود هو في القسمة نفسها، فبينا يذهب ابن حزم إلى أن النفوس تجزَّأت عدة أجزاء، يرى ابن داود أن الكرة انقسمت نصفين وحسب، كل منهما يطلب صاحبه، وفي نهاية المطاف نجد ابن حزم الذي لا يؤمن بالتكثُّر، يأخذ برأي ابن داود من وجهة عملية؛ لماذا رفض ابن حزم الشكل الكري للأرواح؛ هذا ما لا يقدم تفسيراً له؛ هل كان ابن حزم يرى تعدد التوق إلى ائتلاف الأقسام في مراحل مختلفة من العمر؟ (ع).

(٢) «روضة المحبين»: فالشكل إنما. وقضية انجذاب المثل إلى مثله (أو كما قال المتنبي: وشبه الشيء منجذب إليه) موجودة في مأدبة أفلاطون ص: ٦٨، وتتردَّد في مواضع مختلفة، انظر «روضة المحبين»: ٦٧ (ع).

(٣) السِّنْخ: الأصل.

(٤) كذا في (خ) وعند بتروف، والمعنى: معلوم بالمشاهدة والحضور. وفي الطبعات الشرقية: بالفِطْرة. وهو تحريف.

(٥) الضمير في «إليها» مبهم، ولعلَّ هنا سقطاً في النص؛ وربما كانت عبارة «فيسكن =

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعلَ علَّةَ السُّكونِ أنَّها منه. ولو كانَ علةَ الحبِّ حُسْنُ الصورةِ الجسديّةِ لوجبَ ألا يُسْتَحْسَن الأَنْقَصُ من الصُّور[١]، ونحنُ نَجِدُ كثيراً مِمَّنْ يُؤْثِرُ الأدنىٰ ويعلَمُ فَضْلَ غيره ولا يجدُ مَحِيداً لقلبه عنه[٢]. ولو كان للموافقة في الأخلاق لَمَا أحبَّ المرءُ مَنْ لا يُساعِدُهُ ولا يُوافقُهُ، فعَلِمْنا أنّه شيءٌ في ذاتِ النَّفْسِ.

وربَّما كانت المحبَّةُ لسببٍ من الأسباب، وتلك تفنىٰ بفناءِ سببها، فمَنْ ودَّكَ لأمرٍ ولَّىٰ مع انقضائه، وفي ذلك أقول: [من الطويل]

وِدادي لكَ الباقي علىٰ حَسْب كونِهِ ... تَنَاهَىٰ فلم يَنْقصْ بشيءٍ ولَمْ يَزِدْ
وليستْ له غيرَ الإرادَة[٣] عِلَّةٌ ... ولا سببٌ حاشَاهُ يعلمُهُ أحَدْ
إذا ما وجَدْنَا الشيءَ عِلَّةَ نفسِهِ ... فذاك وجودٌ لَيْسَ يَفْنَىٰ علىٰ الأبَدْ
وإمَّا وجَدْناه لشيءٍ خِلافَهُ ... فإعدامُهُ[٤] في عَدْمنا ما لَهُ وُجِدْ

وممَّا يؤكِّدُ هذا القولَ أنَّنا علمنا أنَّ المحبَّةَ ضُروبٌ[٥]، فأفضلها: مَحَبَّةُ

= إليها» زائدة لا ضرورة لها لأن ما بعدها يغني عنها. أو لعلنا أن نقرأ «ليجد النفس التي هي شطرٌ منه فيسكن إليها»؛ وقد سقطت العبارة «كل ذلك... إليها» من «روضة المحبين» (ع).

(١) كذا في (خ)، وهكذا وردت في: «روضة المحبين»، وجعلها بتروف: من الصورة. وعند (ع): في الصُّورة.

(٢) قارن بقول ابن الجوزي: وإذا كان سبب العشق اتفاقاً في الطباع بطل قول من قال: إن العشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة، وإنما يكون العشق لنوع مناسبة وملاءمة ثم قد يكون الشيء حسناً عند شخص، غير حسن عند ءاخر. (ذم الهوى: ٣٠٠) (ع).

(٣) تعبير «الإرادة» هنا لا أظنه يعني «الإرادة الإنسانية» وإنما التقدير الإلهي، أي أن ذلك شيء مرتَّب في طبيعة النفس، حسب التوفيق الإلهي، ولهذا عبّر عن هذا الموقف بقوله: «الشيء علّة نفسه» (ع).

(٤) في (خ): بإعدامه.

(٥) هنا يوسع ابن حزم في مفهوم «الحب»، حتى يصبح معنى الاتصال بين أجزاء النفوس=

المتحابّين في الله عز وجل، إما لاجتهادٍ في العَمَلِ، وإما لاتِّفاقٍ في أصل النِّحْلَةِ والمَذاهِبِ[١]، وإما لفضلِ علمٍ يُمْنَحُهُ الإنسانُ، ومحبَّةُ القَرابة، ومحبَّةُ الأُلْفَةِ؛ والاشتراك في المطالب، ومحبَّةُ التَّصاحُبِ والمعرفة، ومَحَبَّةٌ لبِرٍّ[٢] يضعه[٣] المرءُ عند أخيه، ومَحَبَّةٌ لطَمَعٍ[٤] في جاهِ المحبوب، ومحبَّةُ المتحابَّيْنِ لسِرٍّ يجتمعانِ عليه يلزمهما سَتْرُهُ، ومحبةٌ لِبُلُوغِ[٥] اللَّذَّةِ وقضاءِ الوَطَرِ، ومحبةُ العشقِ؛ الَّتي لا عِلَّةَ لها إلا ما ذكرنا من اتِّصالِ النُّفوسِ.

وكُلُّ هذه الأجناس فَمُنْقَضِيَةٌ[٦] مع انقضاء عِلَلِها، وزائدةٌ بزيادتها، وناقصةٌ بنقصانها، متأكدةٌ بدُنُوِّها، فاترةٌ ببُعْدِها، حاشا محبةَ العشْقِ الصَّحِيحِ المُتَمَكِّنِ من النَّفس فهي التي لا فناءَ لها إلا بالموت. وإنَّكَ لَتجدُ الإنسانَ السَّالي بزعمه، وذا السِّنِّ المتناهيةِ، إذا ذَكَّرته تذكَّر وارتاحَ وصَبَا، واعتادَهُ الطَّرَبُ، واهتاجَ له الحَنِينُ.

ولا يَعْرِضُ في شيءٍ من هذه الأجناسِ المذكورة، من شُغل البالِ والخَبَلِ والوسواس وتبدُّلِ الغرائز المَرَكَّبَةِ، واستحالَةِ السَّجَايا المطبوعة، والنُّحُولِ[٧]، والزَّفير، وسائر دلائل الشَّجَا، ما يعرضُ في العِشْقِ.

= ليس اتصالاً بين ذكر وأنثى، وإنما هو اتصال بين الأجزاء المتشابهة في كل صعيد، وعلى هذا الفهم، سيمضي في كل رسالته؛ فجهة العشق التي علّتها اتصال النفوس ليست إلا وجهاً واحداً من وجوه المحبة، وقارن بما ورد في: «رسالة في مداواة النفوس» (ع).

(١) في «روضة المحبين»: في أصل المذهب.

(٢) كذا في (خ)، و«روضة المحبِّين» وجُعلت في الطبعات الشرقية: ومحبَّةُ البِرِّ.

(٣) في (خ): يضعها.

(٤) كذا في (خ) و«روضة المحبين»، وجُعِلَت: ومحبَّةُ الطَّمع.

(٥) كذا في (خ) و«روضة المحبين»، وجُعِلَت: ومحبَّةُ بلوغ.

(٦) كذا في (خ) و«روضة المحبِّين»، وجُعلت: منقضية.

(٧) في (خ): والتَّحول. وعند (ع) كما أثبتُّ.

فصحَّ بذلك أنَّه استحسان روحانيٌّ، وامتزاجٌ نَفْسَانيٌّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: لو كانَ هذا كذلكَ لكانتِ المحَّبةُ بينهما مُسْتَوِيَةً، إذ الجُزْءانُ مُشْتَرِكانِ في الاتِّصال، وحظُّهُما منه واحدٌ.

فالجوابُ عن ذلكَ أنْ نقولَ: هذه - لعمري! - معارَضَةٌ صَحِيَحةٌ، ولكنَّ نفسَ الذي لا يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ مُكْتَنَفَةُ الجهاتِ ببعض الأعراض السَّاتِرة، والحُجُبِ المُحيطة بها من الطَّبائع الأرضية؛ فلم تُحِسَّ بالجزء الذي كانَ مُتَّصِلاً بها قبل حُلُولها حيثُ هي، ولو تخلَّصَتْ لاستويا في الاتِّصال والمحبة. ونفس المحبِّ متخلِّصَةٌ عالِمَةٌ بمكانِ ما كانَ يُشْرِكُها في المجاورة، طالبةٌ له، قاصدةٌ إليه، بَاحثَةٌ عنه، مُشْتَهِيةٌ لملاَقاته، جاذبةٌ له لو أمكنها؛ كالمَغْنِيطِسِ والحديد.

فَقُوَّةُ[1] جوهر المغنيطس المتَّصِلَة بقوَّةِ جوهر الحديد لم تَبْلُغْ من تحكُّمِها، ولا من تصفِيَتِها أن تَقْصُدَ إلىٰ الحديد علىٰ أنَّه من شَكْلِها وعنصرها، كما أنَّ قوة الحديد - لشِدَّتها - قصدت إلىٰ شَكْلها وانجذبَتْ نحوه، إذ الحَرَكَةُ أبداً إنَّما تكونُ من الأقوىٰ، وقوَّةُ الحديد متروكةُ الذَّات غيرُ ممنوعَةٍ بحابِسٍ، تطلبُ ما يُشْبِهُها وتَنْقَطِعُ إليه، وتنهض نحوه؛ بالطبع والضَّرورة، [وليس] بالاختيار والتَّعَمُّدِ. وأنتَ متىٰ أمسكتَ الحديد بيدك لم ينجذبْ، إذ لم يبلغ من قوَّته - أيضاً - مغالبةَ المُمْسِكِ له ممَّا هو أقوى منه. ومتىٰ كثرتْ أجزاءُ الحديد اشتغَلَ بعضها ببعضٍ، واكتفتْ بأشكالها عن طلبِ اليسير من قُواها النَّازِحَةِ عنها، فمتىٰ عَظُمَ جِرْمُ حَجَرِ المغنيطس، ووازتْ قُواه جميعَ قوىٰ جِرْم الحديد، عادتْ[2] إلىٰ طبعها المَعْهُودِ.

---

(١) خ: قوَّة، وكذا عند بتروف. وما أثبتناه فمن الطبعات الشرقية.

(٢) خ: عاد.

وكالنَّار في الحَجَرِ لا تبرُزُ علىٰ قوَّة النَّار في الاتِّصَال والاستدعاء لأجزائها حيث كانتْ إلا بعد القَدْحِ، ومجاورة الجُزمَيْنِ بضَغْطِهما واصطِكاكِهِما، وإلاَّ فهي كامنةٌ في حَجَرها لاَ تبدو ولا تظهر[1].

ومن الدليل علىٰ هذا ـ أيضاً ـ أنك لا تجد اثنين يتحابَّان إلاَّ وبينهما مشاكلةٌ واتِّفاقٌ في بَعْضِ الصِّفاتِ الطَّبيعيَّةِ، لا بدَّ مِنْ هذا وإن قلَّ، وكلَّما كثرت الأشباه؛ زادتِ المجانسةُ، وتأكدتِ المودَّةُ، فانظر هذا تَرَهُ عِياناً، وقولُ رسولِ الله ﷺ يؤكِّدُهُ: **«الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة فما تعارَف منها ائْتَلَفَ وما تناكَرَ منها اختلَفَ»**[2]، وقولٌ مَرْوِيٌّ عن أحد الصَّالحينَ: أرواح المؤمنين تتعارف.

ولهذا ما اغتمَّ بقراطُ حينَ وُصِفَ له رجلٌ من أهلِ النُّقْصان يُحبُّه، فقيل له في ذلك فقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقِه[3].

---

(١) هذا التمثيلُ إنما يصحُ اعتماداً على نظرية «الكمون» التي كانت سائدةً حينئذ؛ أي أنَّ النار كامنة في الحجر، ومهمة القدح أن يستخرجها (انظر الحيوان للجاحظ ٥: ١٠ وما بعدها)؛ وتشبيه الحبِّ بالنار الكامنة، ورد على لسان جارية في قصة في «الموشَّىٰ»: ٧١ «له كمونٌ ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى»؛ وفي ديوان الصبابة: ١٠ (ع).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٣٣٦) ـ معلَّقاً ـ عن الليث ويحيى بن أيوب، عن يحيى بن سعيد، عن عَمرة بنت عبدالرحمٰن، عَن عائشة رضي الله عنها؛ مرفوعاً بهذا اللَّفظ، ووصله في: «الأدب المفرد» (٩٠٠)، ورواه أبو يعلى في: «مسنده» (٤٣٨١) من طريقٍ أخرى عن يحيى بن أيوب، قال: حدَّثني يحيى بن سعيد، عن عمرة، قالت: كان بمكَّة امرأةٌ مزَّاحة، فنزلت على امرأةٍ مثلها، فبلغ ذلك عائشة؛ فقالت: صدق حِبِّي؛ سمعتُ رسول الله ﷺ. . . فذكر مثله، وإسناده صحيح. ورواه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بالمتن دون القصَّة.

(٣) أقرب الأقوال إلى هذا قول منسوب إلى أنطيانس، إذ مدحه رجل شرير فقال له: ما أحوجني أن أكون قد فعلت شرّاً إذ كنت قد استحسنت مني شيئاً (صوان الحكمة: ٢٤٧) وقول أبقراط هذا قد نقله ابن أبي حجلة في كتابه ديوان الصبابة: ٤٩ وابن القيم=

وذكر أفلاطونُ أنَّ بعضَ الملوك سَجَنَهُ ظُلْماً، فلم يَزَلْ يحتجُّ عن نفسه حتَّى أظهر براءته، وعلم الملكُ أنَّه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولَّى إيصال كلامه إليه: أيُّها الملك! قد استبانَ لك أنه بريءٌ فما لكَ وله؟ فقال الملكُ: لعَمْرِي! ما لي إليه سبيلٌ غيرَ أنِّي أجدُ لنفسي استثقالاً لا أدري ما هو. فأُدِّيَ ذلك إلىٰ أفلاطون. قال: فاحتجتُ أن أُفَتِّشَ في نفسي وأخلاقي شيئاً أقابلُ به نَفْسَهُ وأخلاقه مِمَّا يُشْبِهُهَا، فنظرتُ في أخلاقه فإذا هو محبٌّ للعدل كارهٌ للظُّلْمِ، فميَّزْتُ هذا الطَّبْعَ فيَّ، فما هُوَ إلا أنْ حرَّكْتُ هذه الموافقةَ وقابلتُ نَفْسَهُ بهذا الطَّبْعِ الذي بنفسي[1] فأَمَرَ بإطْلاقي، وقالَ لوزيره: قد انحلَّ كلُّ ما أجدُ في نفسي له.

وأمَّا العِلَّةُ التي تُوقِعُ الحبَّ أبداً في أكثرِ الأمر علىٰ الصُّورةِ الحَسَنَةِ، فالظَّاهرُ[2] أنَّ النفسَ حَسَنةٌ تولَعُ بكلِّ شيءٍ حَسَنٍ، وتَمِيلُ إلىٰ التَّصاوير المُتْقَنَةِ، فهي إذا رأتْ بعضها تَثَبَّتَتْ فيه[3]، فإنْ مَيَّزَتْ وراءها شيئاً من أشكالها اتصلتْ وصَحَّتِ المحبةُ الحَقِيقِيَّةُ، وإنْ لم تُمَيِّزْ وراءَها شيئاً من

= في روضة المحبين: ٧٣؛ وانظر: دراسات عن ابن حزم للدكتور الطاهر مكي (القاهرة ١٩٧٧) ص٣٢٤ ـ ٣٣٩ (ع).

(١) في الأصل: بنفسه.

(٢) في الأصل: الظَّاهر.

(٣) قارن هذا بقول علي بن ربن الطبري: «فإن من شأن النفس الولوع والعجب بكل شيء حسن من جوهر أو نبت أو دابة، فإذا اتفق مثل ذلك الحسن في شيء هو من جنس الإنسان ومما في غريزته الحبّ له اهتاجت الشهوة حينئذ وحرصت النفس على مواصلته وقربه» (فالنصان متشابهان إلى حدّ بعيد، وابن ربن توفي سنة ٢٤٧هـ). ويقول ابن الجوزي: العشق شدّة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها فإذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها وتمنّت ذلك (ذم الهوى: ٢٩٣ وانظر أيضاً: ٢٩٦) (ع).

أشكالها لم يتجاوز حُبُّها[1] الصُّورة، وذلكَ هو الشَّهْوَةُ. وإنَّ للصُّوَرِ لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية.

وقرأتُ في السِّفر الأوَّلِ من: «التوراة»[2]: أنَّ النبيَّ يعقوبَ ـ عليه السَّلام ـ أيامَ رَعيه غنماً للابان[3] خاله مَهراً لابنته؛ شارَطَهُ علىٰ المشاركة في إنسالها، فكلُّ بَهيم ليعقوبَ وكلُّ أغرَّ للابان، فكان يعقوب ـ عليه السلام ـ يَعْمَدُ إلىٰ قضبان الشَّجَرِ يسلخُ نُصْفاً ويتركُ نصفاً بحاله، ثُمَّ يلقي الجميعَ في الماء الذي تَرِدُهُ الغَنَمُ، ويتعمَّدُ إرسالَ الطَّرُوقَةِ في ذلك الوقتِ فلا تَلِدُ إلا نصفَيْن؛ نصفاً بُهماً، ونصفاً غُرّاً.

وذُكِرَ عن بعض القافة أنه أُتيَ بابنِ أسودَ لأَبيضَيْنِ، فنظر إلىٰ أعلامه فرءاهُ لهما غير شكٍّ، فرغب أن يُوقَف علىٰ الموضع الذي اجتمعا عليه، فأُدخل البيت الَّذي كانَ فيه مَضْجَعُهُما، فرأىٰ فيما يوازي نَظَرَ المرأة صورةَ أسودِ في الحائطِ، فقال لأبيه: مِن قِبَلِ هذه الصورة أُتيتَ في ابنك!

وكثيراً ما يُصَرِّفُ شعراءُ أَهل الكلام هذا المعنىٰ في أَشعارهم، فيخاطِبُونَ المرئيَّ[4] الظَّاهر خطابَ المعقولِ الباطِنِ، وهو المستفِيضُ في شِعْرِ النظَّام إبراهيم بن سيَّار[5]، وغيره من المتكلمين، وفي ذلك أقول شعراً منه: [من البسيط]:

---

(1) في الأصل: أحبابها.
(2) انظر سفر التكوين؛ الإصحاح: ٣٠/٢٥ ـ ٤٣.
(3) في الأصل: لابن.
(4) في الأصل: المر في.
(5) إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام، أبو إسحاق البصري المتكلِّم، شيخ المعتزلة، تكلَّم في القدر، وانفرد بمسائل، وهو شيخ الجاحظ. مات سنة بضع وعشرين ومئتين. قال الذهبي رحمه الله: ولم يكن النَّظَّام مِمَّن نفعه العلم والفهم، وقد كفَّره جماعة. «السِّير»: ١٠/(١٧٢).

ما عِلَّةُ النَّصْرِ في الأعداء نَعرفها[1] وعلَّةُ الفَرِّ منهم إذ يَفرُّونا
إلَّا نِزاعُ نُفوسِ النَّاسِ قاطبةً إليكَ يا لُؤلؤاً في النَّاسِ مَكْنونا
مَن كنتَ قدَّامه لا ينثني أبداً فهُم إلىٰ نُورك الصَّعَّاد يَعشُونا
ومَن تَكُنْ خلفَه فالنَّفْسُ تَصرفُهُ إليكَ طَوْعاً فهم دَأْباً يَكُرُّونا

وفي ذلكَ أقولُ: [من الطويل]

أمِنْ عالم الأمَلاكِ[2] أنتَ أم انْسيُّ أبنْ لي فقد أزْرَى بتمييزيَ العِيُّ
أرىٰ هيئةً إنسيَّةً غيرَ أنَّه إذا أُعْمِلَ التفكيرُ فالجِرْمُ عُلويُّ
تباركَ مَن سَوَّىٰ مذاهبَ خَلْقِه علىٰ أنَّكَ النُّورُ الأنيقُ الطبيعيُّ
ولا شكَّ عندي أنَّكَ الرُّوحُ ساقَهُ إلينا مثالٌ في النُّفوسِ اتصاليُّ
عَدِمنا دليلاً في حُدوثك شاهداً نَقيسُ عليه غيرَ أنَّكَ مَرْئيُّ
ولولا وقُوعُ العينِ في الكون لم نَقُلْ سِوىٰ أنَّكَ العقلُ الرَّفيعُ الحقيقيُّ

وكان بعضُ أصحابنا يُسمِّي قصيدةً لي: «الإدراكَ المتوهَّم» منها: [من المتقارب].

تَرىٰ كُلَّ ضِدٍّ بهِ قائِماً فكيف تَحُدُّ اختلافَ المَعَاني
فيا أيُّها الجسمُ لا ذا جهاتٍ ويا عَرضاً ثابتاً غيرَ فانِ
نَقَضْتَ علينا وجُوهَ الكَلامِ فما هو مُذ لُحْتَ بالمُستبانِ

---

(١) في الأصل: تعرفها.
(٢) المعروف أن «أملاك» جمع ملك ـ بكسر اللام ـ ولكنه استعملها هنا جمعاً لملك ـ بفتح اللام ـ، مفرد ملائكة؛ ولا بأس من قراءتها «الأفلاك» لتحدثه من بعد عن «الجرم العلويّ» (ع).
و«الأملاك» واضحة في الأصل.

وهذا بعينه موجودٌ في البغضة، ترىٰ الشَّخْصَيْنِ يتباغضان لا لمعنىً ولا علَّةٍ، ويستثقل بعضهما بعضاً بلا سَبَبٍ.

والحبُّ ـ أعزَّكَ الله ـ داءٌ عَياءٌ، وفيه الدواءُ منه علىٰ قَدْرِ المعاملة[1]، ومقامٌ[2] مُسْتَلَذٌّ، وعلَّةٌ مشتهاةٌ لا يودُّ سليمُها البرءَ، ولا يتمنَّىٰ عليلها الإفاقةَ؛ يُزيِّنُ للمرء ما كانَ يأنَفُ منه، ويسهِّلُ عليه ما كانَ يصعبُ عنده حتَّىٰ يُحِيلَ الطبائعَ المركَّبة، والجِبِلَّة المَخْلوْقَة، وسيأتي كلُّ ذلكَ ملخصاً في بابه إن شاءَ الله.

خَبَرٌ:

ولقد علمتُ فتىً من بعض معارفي قد وَحِل في الحبِّ، وتورَّطَ في حبائله؛ وأضرَّ به الوَجْدُ، وأَنْصَبَهُ[3] الدَّنَفُ، وما كانتْ نفسهُ تَطِيبُ بالدُّعاء إلىٰ الله ـ عزّ وجلّ ـ في كَشْفِ ما به، ولا يَنْطَلِقُ به لسانُهُ، وما كانَ دعاؤُه إلاَّ بالوَصْلِ، والتَّمَكُنِ مِمَّن يُحِبُّ؛ علىٰ عظيمِ بلائه، وطويل هَمِّهِ! فما الظنُّ بسقيمٍ ولا يريدُ فَقْدَ سُقْمه؟! ولقد جالَسْتُهُ يوماً فرأيتُ من اكتئابه[4]، وسوءِ حاله، وإطراقه ما ساءَني، فقلتُ له ـ في بعض قولي ـ: فرَّجَ الله عنكَ! فلقد رأيتُ أثر الكراهيةِ في وَجْهِهِ. وفي مِثْلِهِ أقولُ ـ من كلمةٍ طويلةٍ ـ: [من البسيط]

---

(١) كذا في الأصل واضحة. وجعلها برشيه: المعاناة، وتبعه (ع).

(٢) كذا في الأصل واضحة، وجعلها (ع): سقام.

(٣) هذه هي قراءة برشيه. وفي الأصل: وأنضحه. وهكذا أثبتها بتروف. وليس في معاني لفظ: «أنضح» ما يمكن توجيهه نحو هذا المعنى، ويمكن أن تقرأ ـ على بعدٍ ـ: أنضجه.

(٤) في الأصل: إكبابه.

وأَسْتَـلِـذُّ بـلائـي فـيـكَ يـا أَمَـلـي ولـسـتُ عـنـك مـدَىٰ الأيَّام أَنْـصَـرِفُ
إن قـيـلَ لـي تَـتَـسَـلَّىٰ عـن مـودَّتِـهِ فـمـا جَـوابـيَ إلاَّ الـلامُ والألـفُ

خَبَرٌ:

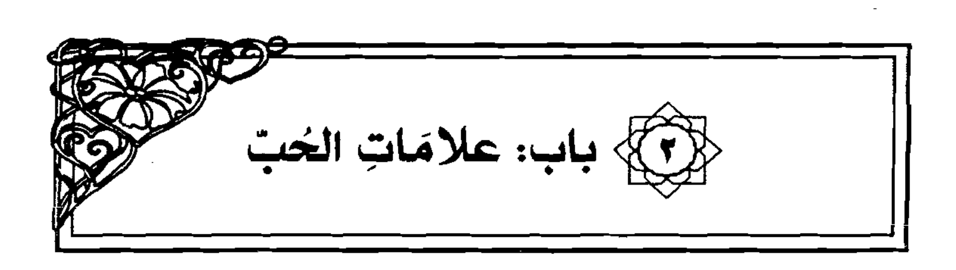
وهذه الصِّفاتُ مخالفةٌ لما أخبرني به عَنْ نَفْسِهِ؛ أبو بكرٍ محمَّدُ بن قاسم بن محمَّد القرشيُّ، المعروفُ بالشَّبَانْسِيِّ[1]، مِنْ وَلَدِ الإمام هشام بن عبدالرحمن بن معاوية؛ أنَّهُ لم يُحِبَّ أحداً قطُّ، ولا أَسِفَ علىٰ إلْفٍ بانَ منه، ولا تجاوزَ حدَّ الصُّحبة والألْفةِ إلىٰ حدِّ الحُبِّ والعِشْقِ؛ مُنْذُ خُلِقَ!

* * *

---

(١) محمد بن قاسم بن محمد بن إسماعيل بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن هشام الرضى بن عبدالرحمٰن بن معاوية القرشي المرواني المعروف بالشبانسي، كان عالماً بالآداب متقدماً في البلاغة والكتابة، استقر بعد الفتنة بطليطلة كاتباً للرسائل بها، وتوفي سنة ٤٤٧ (التكملة ١: ٣٨٩) ولأبيه القاسم بن محمد الشبانسي ترجمة في «الجذوة»: ٣١٠ «والبغية» رقم: ١٢٩٦ وكان الأب أيضاً أديباً شاعراً، سجن في أيام المنصور فكتب إليه بقصيدة يستعطفه فيها فرقَّ له وأطلقه؛ ولأخيه عبدالرحمٰن ترجمة في «التكملة» رقم: ١٥٤٩؛ وقد تصحفت كلمة «الشبانسي» في طبعات «الطوق» وتنبّه لها غرسيه غومس (انظر ترجمته للطوق: ١٠٣ الحاشية رقم: ٢) (ع).
قلت: وأصل التحريف من المخطوط، إذ فيه: الشلشي. وهكذا أثبتها بتروف.





٢ باب: علامَاتِ الحُبّ

وللحبِّ علاماتٌ يَقفوُها الفَطِنُ[١]، ويهتدي إليها الذكيُّ:

فأوَّلها: إدمانُ النَّظَرِ؛ والعينُ بابُ النَّفْسِ الشَّارعُ، وهي المُنَقِّبةُ عن سرائرها، والمُعَبِّرةُ لضَمائِرِها، والمُعْرِبةُ عن بواطنها. فترىٰ الناظرَ لا يَطْرِفُ، ينتقلُ بتنقُّلِ المحبوبِ، ويَنْزوي بانزوائه، ويميلُ حيثُ مالَ، كالحِرْباء مع الشَّمْسِ، وفي ذلك أقولُ شِعْراً منه: [من الطويل]

---

(١) بعض هذه العلامات قد نقله الحنبلي عن ابن حزم؛ انظر مجلة الأندلس (١٩٥١) ص: ٣٢٧؛ وورد مثله في ديوان الصبابة: (١٠، ١٢ ـ ١٣) وما بعدها، وقارن بما ذكره الوشَّاء من علامات (الموشى: ٤٨، ٥١، ٥٢) أما ابن القيم في روضة المحبين (٢٦٢ وما بعدها) فقد تصرَّف بعبارات ابن حزم، ومثال ذلك قوله: فمنها إدمان النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه، فإن العين باب القلب وهي المعبِّرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره... فترى ناظر المحب يدور مع محبوبه كيف دار، ويجول معه في النواحي والأفكار... ومنها الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكلف لمن يرمقه... ومنها البهت والروعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره، ولا سيما إذا رءاه فُجاءةً أو طلع عليه بغتة... ومنها بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه... ومنها حب الوحدة والأنس بالخلوة والتفرُّد عن الناس... إلخ. قلت: رغم اعتماد ابن القيم على ما جاء في طوق الحمامة، فإنه يستنكر هذا النوع من الحب الذي يحمل هذه العلامات ويعده حبّاً حيوانياً (ع).

قلت: ابن القيم يتوسَّع في ذكر الآراء والأفكار حول ما يعرضه من المسائل، ثم يذكر رأيه وترجيحه، وهذا من سعة علمه واطِّلاعه وتجرُّده؛ رحمه الله.

فَلَيسَ لِعَيْني عندَ غيرك موقفٌ كأنَّكَ ما يَحْكُونَ من حَجَرِ البَهْتِ[1]
أُصرِّفها حيثُ انصَرَفْتَ وكيف ما تقلَّبْتَ كالمنعوتِ في النَّحْوِ والنَّعْتِ

ومنها: الإِقبالُ بالحديث؛ فما يكادُ يُقْبِلُ على سوى محبوبه ولو تعمَّدَ ذلك، وإنَّ التَّكَلُّفَ ليستبينُ لمَنْ يرمقُه فيه، والإِنصاتُ لحديثه إذا حدَّث، واستغراب كلِّ ما يأتي به ولو أنَّهُ عَيْنُ المُحَالِ، وخَرْقُ العاداتِ، وتصديقُهُ وإنْ كَذَبَ، وموافقتُه وإن ظَلَم؛ والشهادةُ له وإن جار، واتّباعُهُ كيف سَلَكَ وأيَّ وجهٍ من وُجُوهِ القولِ تناول.

ومنها: الإِسْراعُ بالسَّيْرِ نحو المكانِ الَّذي يكون فيه؛ والتعمّدُ للقعود بقُرْبه والدُّنُوِّ منه، وَاطّراحُ الأشغالِ الموجبة للزَّوال عنه، والاستهانةُ[2] بكلِّ خَطْبٍ جليلٍ داعٍ إلى مفارقته؛ والتباطُؤُ في الشيءِ عن[3] القيامِ عنه؛ وفي ذلك أقولُ شِعْراً: [من الخفيف]

وإذا قُمتُ عَنكَ لم أمْشِ إلا مَشْيَ عانٍ يُقادُ نَحْوَ الفَناءِ
في مَجيئي إليكَ أحتثُّ لِلْبَدْ رِ إذا كانَ قاطِعاً لِلشُّعاءِ[4]

---

(١) حجر يوجد في ساحل المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وهو مشهور عند أهل المغرب الأقصى، ويباع الحجر منه بقيمة جيدة لا سيما في بلاد لمتونة، وهم يحكون عن هذا الحجر أن من أمسكه وسار في حاجة قضيت له بأوفى عناية، وهو جيد عندهم في عقد الألسنة على زعمهم (الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان، تحقيق دوزي ودي خويه، ليدن ١٩٦٩ ص٢٨ ـ ٢٩ وانظر ملحق المعجمات العربية لدوزي مادة «بهت») (ع).

(٢) خ: والاستهابة.

(٣) هكذا في الأصل. وجعله (ع): المشي عند. وقال: والمشي يؤكده قوله في الشعر:
وإذا قمت عنك لم أمشِ إلاَّ مشي عانٍ... البيت
وكذلك وردت: «المشي» في ديوان الصبابة والحنبلي.

(٤) «للبدر»؛ أثبته (ع): «كالبدر». و«للشُّعاء» أثبته: «للسَّماء».

وقِيامي إنْ قُمْتُ كالأنْجُمِ العا لِيةِ الثَّابِتاتِ في الإبطاءِ

ومنها: بَهْتٌ يَقَعُ، وروعةٌ تبدو على المحبِّ؛ عند رؤيةِ من يُحِبُّ فُجَاءَةً، وطلوعِهِ بغتةً.

ومنها: اضطرابٌ يبدو على المُحبِّ عند رؤية من يُشْبِهُ مَحْبُوبَه، أو عند سَماعِ اسمه فجاءَةً. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

إذا مَا رَأَتْ عينايَ لابسَ حُمْرةٍ تقطَّع قَلْبي حَسْرَةً وتَفَطَّرا

غدا لدماءِ النّاسِ باللَّحْظِ سَافِكاً وضُرِّجَ منها ثوبُهُ فَتَعَصْفَرا

ومنها: أنْ يَجُودَ المرءُ ببَذْلِ كلِّ ما كانَ يَقْدِرُ عليه مِمَّا كانَ يَمْتَنِعُ به قبلَ ذلكَ، كأنَّهُ هو المَوْهُوبُ له، والمَسْعِيُّ في حَظِّه، كلُّ ذلكَ ليُبديَ محاسِنَهُ، ويُرغِّبَ في نفسه؛ فكَمْ بَخيلٍ جادَ، وقَطُوبٍ تَطَلَّقَ، وجبانٍ شَجُعَ، وغليظِ الطَّبْعِ تطرَّب[1]، وجاهِلٍ تأدَّبَ، وتَفِلٍ[2] تَزيَّن، وفَقِيرٍ[3] تَجمَّلَ، وذي سِنٍّ تفتَّىٰ، وناسِكٍ تفتَّكَ[4]، وَمَصُونٍ تهتَّكَ[5].

وهذه العلاماتُ تكونُ قَبْلَ استعارِ نارِ الحُبِّ؛ وتأجُّجِ حَرِيقِهِ، وتَوَقُّدِ شُعَلِهِ، واسْتِطَارةِ لَهَبِهِ. فأمَّا إذا تَمَكَّنَ وأخذَ مَأْخَذَهُ فحينئذٍ ترىٰ الحديثَ سِراراً، والإعراضَ عن كلِّ ما حَضَرَ إلَّا عن المَحْبُوبِ جهاراً.

ولي أبياتٌ جمعتُ فيها كثيراً من هذا العلامات، منها: [من البسيط]

أَهوىٰ الحَديثَ إذا ما كانَ يُذْكَرُ لي فيه ويَعْبَقُ لي عن عَنْبَرٍ أرِجِ

(١) كذا في الأصل وعند بتروف، وعند (ع): تظرَّف.
(٢) التفل: هو الذي ترك استعمال الطِّيب.
(٣) في الأصل: وفقر.
(٤) في الأصل: فتك.
(٥) في الأصل: تمسك، ولا وجه لها. وعند مكي: تبذَّل. وعند (ع) كما أثبت.

إنْ قالَ لم أستمعْ ممَّن يُجالِسُني … إلىٰ سوَىٰ لَفظِهِ المُستَظْرَفِ[1] الغَنِجِ
ولو يكونُ أميرُ المُؤمنينَ معي … ما كنتُ مِنْ أجلِه عنه بمُنعَرِجِ
فإنْ أَقُمْ عنه مضطراً فإنِّيَ لا … أزالُ مُلْتَفِتاً والمشيُ مشيُ وَجي[2]
عيناايَ فيه وجِسْمي عنهُ مرتحِلٌ … مثلُ ارتقابِ[3] الغَريقِ البَرَّ في اللُّجَجِ
أَغَصُّ بالماء إنْ أذكرْ تباعُدَهُ … كمن تَشاءَبَ وَسَطَ النَّقْعِ والرَهَجِ[4]
وإن تَقُل مُمْكِنٌ قصْدُ السَّماء أقُلْ … نَعمْ وإنِّي لأدري موضِعَ الدَّرجِ

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكُلِّ ذي بَصَرٍ: الانبساطُ الكَثِيرُ الزَّائِدُ، والتَّضَايقُ في المكان الواسِعِ، والمجاذبةُ علىٰ الشَّيءِ يأخذه أحدُهُما، وكثرةُ الغَمْزِ الخَفِيِّ، والمَيْلُ بالاتِّكاءِ، والتَعَمُّدُ لمسِّ اليد عند المُحَادَثَةِ، ولَمْسِ ما أمكنَ من الأعضاء الظَّاهِرَةِ، وشُرْبُ فَضْلَةِ ما أبقىٰ المَحْبُوبُ في الإناءِ، وتَحَرِّي المكان الذي قابَلَ فِيهِ[5].

ومنها: علاماتٌ متضادَّةٌ، وهي علىٰ قَدْرِ الدَّواعي والعوارض الباعثة، والأَسْبابِ المُحَرِّكَةِ، والخواطِرِ المُهَيِّجَةِ. والأضدادُ أندادٌ، والأشياءُ إذا أفرطتْ في غاياتِ تضادِّها، ووقفتْ في انتهاءِ حُدودِ اختلافها؛ تشابَهَتْ، قُدْرَةً مِنَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تَضِلُّ فيها الأوهامُ. فهذا الثَّلْجُ إذا أُدْمِنَ حَبْسُهُ في اليد؛ فَعَلَ فِعْلَ النَّارِ، ونَجِدُ الفَرَحَ إذا أَفْرَطَ قَتَلَ، والغمّ إذا أَفْرَطَ قَتَلَ، والضَّحِكَ إذا كَثُرَ واشتدَّ؛ سالَ الدَّمْعُ من العينين. وهذا في العالم كثيرٌ،

(١) في الأصل: المستطرف، بالطاء المهملة.
(٢) الوجي: الذي يجد وجعاً في قدمه.
(٣) خ: التفات، وهكذا أثبتها بتروف. وما أثبته فعن: (ع) و(مكي).
(٤) في الأصل: الوهج. ويرىٰ (ع) أنه لا معنىٰ لها في هذا المقام. والرَّهج: الغبار؛ وهو كالنَّقع.
(٥) فيه؛ أي: فَمه.

فنَجِدُ المُحِبَّيْنِ إذا تكافيا في المحبَّةِ، وتأكدت بينهما تأكُداً شديداً كَثُرَ تَهاجُرُهُما[1] بغيرِ مَعْنىً، وتضادُّهما في القولِ تعمّداً، وخروجُ بعضهما[2] علىٰ بعضٍ في كلِّ يَسِيرٍ من الأمور، وتتبُّعُ كلٌّ منهما لفظةً تقع من صاحبه[3]، وتأوُّلها علىٰ غيرِ معناها، كلُّ هذه تجربةٌ ليبدو ما يَعْتَقِدُهُ كلُّ واحدٍ منهما في صاحبه.

والفرقُ بين هذا وبين حقيقةِ الهِجْرةِ والمضادَّةِ المتولِّدةِ عن الشَّحْناء ومحارجة[4] التَّشاجر؛ سرعةُ الرضىٰ، فإنَّكَ بينما[5] ترىٰ المُحِبَّيْنِ قد بلغا الغايةَ من الاختلافِ الذي لا تُقَدِّرُهُ يَصْلُحُ عند السَّاكِنِ النَّفْسِ السَّالم من الأحقادِ في الزَّمنِ الطَّويل، ولا يَنْجَبِرُ عند الحقودِ أبداً، فلا تلبثُ أن تراهُما قد عادا إلىٰ أجمل الصُّحْبَةِ، وأُهْدِرَتْ المُعَاتَبَةُ، وسَقَطَ الخِلافُ، وانصرفا في ذلك الحين بَعْينِهِ إلىٰ المُضاحَكَةِ والمُدَاعَبَةِ، هكذا في الوقت الواحد مِراراً. وإذا رأيتَ هذا من اثْنَيْنِ فلا يخالجْكَ شَكٌّ، ولا يدخلنَّكَ ريبُ البتةَ، ولا تَتَمارَ في أنَّ بينهما سرّاً مِنَ الحُبِّ دَفيناً، واقْطَعْ فيه قَطْعَ من لا يَصْرِفُهُ

---

(١) في الأصل: أكثر بهما جدُّهما. وقد تأملتُ العبارة كثيراً؛ فلم يظهر عندي في توجيهها شيء، وما أثبته فعن (ع) وقال: تعرَّضتِ اللَّفظة لتصحيفٍ طريفٍ في مختلف الطَّبعات، فجاءت: «بهما جدهما»، والتهاجر ليس هجرة، ويقول ابن حزم بعد قليل: «والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة، والمضادَّة المتولِّدة عن الشحناء... إلخ».
قلت: وهذا تصحيح وتوجيه جيد، لكن ما وقع في الطبعات التي أشار إليها الدكتور؛ إنما يرجع إلى ما في المخطوط، والدكتور لم يطَّلع عليه.

(٢) خ: بعضها.

(٣) خ: وتتبع كل لفظةٍ تقع منهما صاحبه. وقد أثبتها بتروف مصحَّحة، وتابعته الطبعات الشرقية، وهو تصحيح لا بدَّ منه.

(٤) تقرأ في الأصل: ومخارجة. ولعل الصواب ما أثبتُّ، والمحارجة: تبادل الإحراج، وهو إثارة التضايق بالمماحكة.

(٥) خ: بينهما.

عنه صارِفٌ، ودونكها تجربةً صحيحةً، وخِبرةً صادقةً. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودَّةِ، وائتلافٍ صَحيحٍ، وقد رأيتُهُ كثيراً.

ومن أعلامه: أنَّكَ تجدُ المحبَّ يستدعي سماعَ اسم مَنْ يُحِبُّ، ويستلذُّ الكلامَ في أخباره ويَجْعَلُها هِجِّيراهُ، ولا يرتاحُ لشيءٍ ارتياحَهُ لها، ولا يُنَهْنِهُهُ عن ذلك تخوُّف أن يفطنَ السَّامعُ، ويفهَم الحاضِرُ، و: «حبُّكَ الشَّيءَ يُعمي ويُصمُّ»[1]. فلو أمكنَ المحبَّ أن لا يكونَ حديثٌ في مكانٍ يكون فيه إلا ذِكْرُ من يُحِبُّهُ لما تعدَّاه.

ويعرض للصَّادِق المودَّةِ أن يبتدىء في الطَّعام وهو له مُشتهٍ فما هو إلاَّ وقتَ ما يَهتاجُ[2] له مِنْ ذكرِ مَنْ يُحِبُّ؛ صارَ الطَّعامُ غُصّةً في الحَلْقِ؛ وشجىً في المريء، وهكذا في الماء، وفي الحَدِيثِ، فإنه يفاتحُكَهُ مبتهجاً، فتعرضُ له خطْرةٌ من خَطَراتِ الفِكْرِ فيمن يُحِبُّ، فتستَبِينُ الحَوالةُ[3] في مَنْطِقِهِ، والتَّقْصيرُ في حديثه، وءَايةُ ذلك الوُجومُ والإِطراقُ وشدَّةُ الانغلاقِ فبينما هو طَلْقُ الوجهِ خفيفُ الحركاتِ صار مُنطبقاً متثاقلاً حائرَ النَّفْسِ، جامدَ الحركة، يَبْرَمُ بالكلمةِ، ويضجرُ من السُّؤال.

ومِنْ علاماته: حُبُّ الوَحْدَةِ، والأُنْسُ بالانفراد، ونُحُولُ الجسم دون

---

(١) تضمين لحديث ضعيف؛ رواه أحمد ١٩٤/٥، ٤٥٠/٦، وأبو داود (٥١٣٠) والبخاري في: «التاريخ الكبير» ٢ /الترجمة: (١٨٥٣)، وغيرهم عن أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ به. وهو في: «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (١٨٦٨).

(٢) خ: تهتاج.

(٣) الحوالة: يريد بها الانتقال من حال إلى أخرى، والتغير، وقد استعملها ابن قزمان في أحد أزجاله (رقم: ٧٨) فقال:

ولا بد للخبز من فرن إذا ما اختمر — إن لم يعتريه حوالة وَيُفْرَنْ فطير

ويفرن: بمعنى يخبز في الفرن؛ وإلى هذا أشار الدكتور عبدالعزيز الأهواني، انظر مجلة المعهد المصري، المجلد: ١٨ (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) ص٧٢ (ع).

حَرٌّ[1] يكونُ فيه، ولا وَجَعٍ مانعٍ من التقلّبِ والحركةِ والمشي؛ دليلٌ لا يكذبُ، ومُخْبِرٌ لا يَخُونُ؛ عن عِلَّةٍ[2] في النَّفْسِ كامِنَةٍ.

والسَّهَرُ من أعراض المُحبِّينَ، وقد أكثر الشُّعراء في وصفه وحَكَوْا أنَّهم رُعاةُ الكواكب، وَوَصَفُوا طولَ[3] اللَّيْل؛ وفي ذلكَ أقولُ - وأذكر كتمانَ السِّرِّ، وأنَّه يتوسَّمُ بالعلامات -: [من الوافر]

تَعَلَّمَتِ السَّحَائبُ من شؤُوني ... فعمَّتْ بالحيَا السَّكْبِ[4] الهَتُونِ
وهذا اللَّيْلُ فيكَ غدا رَفيقي ... بذلك أم على سَهري مُعيني
فإنْ لم يَنْقَضِ الإظلامُ إلاَّ ... [إذا] ما أُطبقَتْ نوماً جُفُوني
فليسَ إلىٰ النَّهار لنا سَبِيلٌ ... وسُهْدٌ زائدٌ في كلِّ حِينِ
كأنَّ نُجُومَهُ والغَيمُ يخفي ... سَنَاها عن مُلاحظةِ العُيونِ
ضَميري في وِدَادكَ يا مُنَايَ ... فليسَ يَبينُ إلاَّ بالظُّنُونِ

وفي مثل ذلك قطعةٌ منها: [من الكامل]

أرعىٰ النُّجومَ كأنَّني كُلِّفتُ أن ... أرْعَى جَميعَ ثُبُوتِها والخُنَّسِ
فكأنَّها والليلُ نِيرانُ الجوَى ... قد أُضْرِمتْ في فِكْرتي مِنْ حِنْدِسِ

---

(١) وردت في الطبعات المختلفة (ما عدا برشيه): حدّ، ولا معنى لها؛ والحرّ كان يقترن بالنحول عند علماء الطب، كما أنَّ كثرة الشحم تقترن بالبرد، قال علي بن ربن الطبري (في فردوس الحكمة: ٨٤) نقلاً عن جالينوس: «ومما يدل على حرارة المزاج ويبسه نحافة البدن... ويدل على برد المزاج ورطوبته كثرة الشحم...» (ع).
قلت: نعم في المخطوط: حد. وما رجّحه الدكتور هو الصّواب.

(٢) في الأصل تقرأ: كلة.

(٣) كذا في الأصل، وعند (مكي) و(ع): وَوَاصِفُو طولِ. وهذا تصحيح وجيه، ولكنهما لم يشيرا إلى ما فيه من مخالفة للمخطوط ولطبعة بتروف!

(٤) خ: السَّكيب. ويترجّح عندي ما في طبعة بتروف، والطّبعات اللاحقة.

وكـأنَّـنـي أَمـسـيْـتُ حـارسَ روضـةٍ خَـضـراء وُشِّـحَ نَـبـتـهـا بـالـنَّـرجـسِ
لـو عـاش بَـطْـلِـيـمُـوسُ أيـقـنَ أنَّـنـي أقوىٰ الـوَرى في رَصْدِ جَرْيِ الكُنَّسِ

والشيء قد يذكر لما يوجبه: وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئَيْنِ بشيئين في بيتٍ واحدٍ، وهو البيتُ الذي أوله: «فكأنَّها والليل»، وهذا مستغربٌ في الشِّعر، ولي ما هو أكملُ منه، وهو تشبيه ثلاثةِ أشياءَ في بيتٍ واحدٍ، وتشبيهُ أربعةِ أشياءَ في بيتٍ واحدٍ، وكلاهما في هذه القطعة أُوردها؛ وهي: [من الطويل]

مَـشُـوقٌ مُـعَـنَّـى مـا يـنَـامُ مُـسَـهَّـدُ بـخَـمْـرِ الـتَّـجَـنِّـي مـا يـزالُ يُـعـربـدُ
فـفـي سـاعـةٍ يُـبـدي إلـيـكَ عـجَـائـبـاً يَـمُـرُّ ويَـسـتـحـلـي[1] ويُـدنـي ويُـبـعـدُ
كأنَّ النَّوىٰ والعَتْب والهَجْر والرِّضى قِـرانٌ وأفـذاذ[2] ونـحـسٌ وأَسْـعُـدُ
رَثَـى لـغَـرَامـي بـعـد طُـول تَـمَـنُّـعٍ وأصبَحْتُ مَحْسُوداً وقد كُنتُ أَحْسُدُ
نَـعِـمْـنـا عـلـى نـوْرٍ مـن الـرَّوضِ زاهـرٍ سقـتـه الـغَـوادي فـهـو يـثـني ويَـحـمـدُ
كـأنَّ الـحـيـا والـمُـزنَ والـرَّوضَ عـاطـراً دمـوعٌ وأجـفـانٌ وخـدٌّ مـورَّدُ

ولا ينكر عليَّ مُنكرٌ قولي: «قران» فأهلُ المعرفةِ بالكواكب يسمّوْنَ التقاء كوكبين في درجةٍ واحدةٍ قراناً.

ولي ـ أيضاً ـ ما هو أتمُّ من هذا، وهو تشبيهُ خمسةِ أشياءَ في بيتٍ واحدٍ في هذه القطعة؛ وهي: [من الطويل]

---

(١) هذه قراءة (مكي) و(ع)، وفي الأصل: يَغْدُو يستخلي. وأثبتها بتروف: (وَ) يَغجُو ويستحلي.

(٢) في الأصل: وَانذَارٌ. وهذا لا يستقيم مع السياق، واختار بتروف: وأنداذٌ، وتبعه (مكي)، أما (ع) ـ تبعاً للعلامة محمود محمد شاكر رحمه الله ـ فقد اختار: (أفذاذ)؛ وهذا أحسن لما سيأتي من تفسير المصنِّف لـ: «قران».

خَلوتُ بها والرَّاحُ ثالثةٌ لنا[1] ... وجُنحُ ظلام اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ وأَثْلَج[2]
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلاَّ بقُرْبها ... فهل في ابتغاءِ العَيْشِ ويحكَ من حَرَج
كأنيِّ وهِي والكاسُ والخمرُ والدُّجىٰ ... ثَرىٰ وحَيا والدُّرُّ والتِبْرُ والسبَج

فهذا أمرٌ لا مزيدَ فيه، ولا يقدرُ أحدٌ علىٰ أكثرَ منه، إذ لا يَحتمل العَروضُ ولا بِنية الأسماءِ أكثرَ من ذلك.

ويَعْرض للمحبِّ القلقُ عند أحد أمرين:

أحدهما عند رجائه لقاءَ مَنْ يحبّ فيعرض عند ذلك حائل.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعلمُ بعضَ من كان محبوبُه يَعِدُهُ الزِّيارة، فما كنتُ أراه إلا جائياً وذاهباً لا يَقَرُّ به القرارُ، ولا يثبت في مكانٍ واحدٍ، مقبلاً مدبراً قد استخفَّه السُّرورُ بعد رَكانةٍ، وأشاطه[3] بعد رزانةٍ.

ولي في معنىٰ انتظار الزِّيارة: [من الطويل]

أقمتُ إلىٰ أنْ جاءني اللَّيلُ راجياً ... لِقاءَك يا سُؤْلي ويا غايَةَ الأمَلْ
فأيأسني الإظلامُ عَنْكَ ولم أكُن ... لأيأسَ يوماً أنْ بدا اللَّيلُ يتَّصلْ
وَعِندي دليلٌ ليسَ يَكْذِبُ خُبْرهُ ... بأمثالِه في مُشكِلِ الأمرِ يُستدل

---

(١) خ: لها.

(٢) قَدْ مَدَّ وأثلج: كذا في الأصل مضبوطة، وهكذا أثبتها بتروف. وجعلها (ع): مذ مدَّ ما انبلج. وقال: هذه هي القراءة التي أختارها؛ وفي بعض الطبعات: قد مدّ وانبلج وهو كلام متناقض؛ لأن «انبلج» تعني أسفر وأشرق؛ وقرأ برشيه: قد مدّ واتلج؛ والاتلاج: الولوج والدخول، وهي قراءة فيها شطط.

(٣) أي: أخرجه عن حدّ الاعتدال. والكلمة واضحة في الأصل، وقال العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله: ظنّي أن صوابه: «واستشاطه».

لأنَّكَ لو رُمْتَ الزيارةَ لم يَكُنْ ظلامٌ ودامَ النُّورُ فينا ولم يزل[1]

والثاني: عندَ حادثٍ يحدُث بينهما من عتابٍ لا تُدرىٰ حقيقته إلا بالوصف؛ فعند ذلكَ يشتدّ القلقُ حتَّى يُوقَفَ علىٰ الجَلِيَّةِ[2]، فإمَّا أن يذهَبَ تحامُلُه[3] إنْ رجا العفو، و[إمَّا] أن يصيرَ القلق حُزْناً وأسَفاً؛ إن تخوَّفَ الهَجْرَ.

ويعرضُ للمُحِبِّ الاستكانَةُ لجفاءِ المحبوب عليه، وسيأتي مفسّراً في بابه؛ إن شاء الله تعالى.

ومن أعراضه: الجزَعُ الشَّديدُ، والحُمْرَةُ المُقَطِّعَةُ[4]؛ تغلب عندما يرىٰ من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه، وءَايةُ ذلكَ الزَّفِيرُ، وقلَّةُ الحركةِ، والتأوّهُ، وتنفُسُ الصُّعَداء. وفي ذلك أقول شعراً منه:

وَدُمُوعُ العَيْنِ سَارِحَةٌ وجَمِيلُ الصَّبْرِ مَسْجونُ[5]

---

(١) علّق (ع) هنا بقوله: لا تعدو هذه الأبيات أن تكون «محاكمة استدلالية» ـ على طريقة أهل الجدل ـ مأخوذة من قول المتنبي:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء

(٢) خ: الجليلة، وهكذا أثبتها بتروف، والتصحيح عن برشيه و(ع).

(٣) خ: تحمّله، وهكذا أثبتها بتروف. وما أثبته هو اختيار (ع)، وهذا أقرب، لكن تبقىٰ العبارة مشكلة.

(٤) كذا في الأصل، وعند بتروف، وجعلها برشيه: والحيرة المقطعة. وعند (ع): والحَسْرَة المفظعة!

(٥) أقدّر أنهما بيتان حذف عجزاهما وما يلي من أبيات أو أنه بيت واحد اضطرب الناسخ في إيراده اضطراباً لا يجدي معه تغييره كما فعل الأستاذ حسن كامل الصيرفي إذ جعله:

جميل الصبر مسجون ودمع العين مسفوح

فهو تصحيح للوزن لا غير، لكنا لا ندري كيف كان البيت على وجه الحقيقة؛ وأرجح أنه هو البيت الذي سيرد في الباب الثاني عشر:

دموع الصب تنسفك وستر الصب ينهتك

(على أن نقرأ: وستر الصبر منهتك). (ع).

ومن علاماته: أنَّكَ ترىٰ المُحِبَّ يُحِبُّ أهلَ محبوبه، وقرابتَهُ وخاصَّتَهُ حتَّىٰ يكونُوا أحظىٰ لديه من أهله، ونفسه، ومن جميع خاصَّتِهِ.

والبكاءُ من علامات الحبِّ، ولكن النَّاسَ يتفاضلون فيه، فمنهم غزيرُ الدَّمْعِ، هامِلُ الشُّؤُون، تُجيبه عَيْنُهُ، وتحضُره عَبْرَتُهُ إذا شاءَ، ومنهم جَمودُ العين عديمُ الدَّمْعِ، وأنا منهم. وكانَ الأصل في ذلك إدماني أَكْلَ الكُنْدَر[1] لخَفقانِ القَلْبِ، وكانَ عرَضَ لي في الصِّبا، فإنِيّ لأُصابُ بالمصيبة الفادِحَةِ فأَجِدُ قلبي يتفطَّر ويتقَطَّعَ، وأحِسُّ في قلبي غُصَّةً أمرَّ من العلقم تَحول بيني وبين توفية الكلام حقَّ مخارجه، وتكاد تشرقُني[2] بالنَّفَس أحياناً؛ ولا تجيبُ عيني ـ البتةَ ـ إلاَّ في النُّدْرةِ بالشيءِ اليسير من الدَّمْعِ.

خَبَرٌ:

ولقد أذكرني هذا الفَصْلُ يَوْمَ وَدَّعْتُ ـ أنا وأبو بكر محمَّدُ بن إسحاقٍ[3]؛ صاحبي ـ أبا عامرٍ محمَّدَ بن [أبي] عامرٍ صديقَنا[4] ـ رحمه الله

---

(١) الكندر بالفارسية هو اللبان بالعربية، وقد قال ابن سينا: إنَّه مقوٍّ للروح الذي في القلب والذي في الدماغ، وقال الرازي إنَّه ينفع الخفقان (انظر مادة كندر في مفردات ابن البيطار ٤: ٨٣ ـ ٨٦) (ع).

(٢) هذه قراءة برشيه؛ وهي أصوب ممَّا في الأصل: تشوقني بالنفس.
والشَّرَق: ما يعترض في الحلق؛ فلا يمكن إساغته وابتلاعه. وهو الغُصَّة والشَّجا، وهذه الثلاث مترادفة، لكن الشَّرق أخصّ بالشراب، والغُصّة بالطعام، والشَّجا بالعظم.

(٣) محمد بن إسحاق المهلبي أبو بكر الإسحاقي الوزير، كان من أهل الأدب والفضل، وهو الذي خاطبه ابن حزم برسالته في فضل الأندلس «الجذوة» (٢٣).

(٤) في الأصل: بن أبي عامر محمد بن عامر صديقاً. وهذا لا يستقيم، وقد أثبته بتروف هكذا: أبا عامر محمد بن عامر صديقاً. وما أثبته فعن (ع)، وزيادة (أبي) منه؛ باعتبار محمد ابناً لابن أبي عامر؛ وهو: عبدالملك المظفّر، وعلّق عليه بقوله: أكد ابن حزم أنه لا عقب لعبدالملك المظفر (الجمهرة: ٤١٩) فمحمد هذا ليس ابناً للمظفر، وإنما هو ـ إن كان من أسرة العامريين ـ محمد بن عبدالله بن المنصور العامريّ (وقد مات في حياة ابن =

- في سفرته إلىٰ المشرق[1] التي لم نَرَه بعدها[2]، فجعل أبو بكر يبكي عند وداعه ويُنشد متمثّلاً بهذا البيت: [من الطويل]

ألا إنَّ عيناً لم تَجُد يومَ واسِطٍ ... عليك بباقي دَمْعِها لَجَمُودُ[3]

وهو في رثاءِ يزيد بن عمر بن هبيرة[4] - رحمه الله -، ونحنُ وقوفٌ علىٰ ساحل البحر بمالقة[5]، وجعلتُ أنا أُكثرُ التفجُّعَ والأسفَ ولا تساعدني

= حزم) وتخلَّف ابناً اسمه عبدالملك نهض إلى الحج ومات هنالك؛ ووالد محمد هذا - أي: عبدالله - كان قد قتله المنصور والده سنة ٣٨٠هـ (انظر نقط العروس: ٧٩ تحقيق د. شوقي ضيف) وقد أشارت إلى ذلك إحدى الرسائل التي وُجِّهت إلى المعتضد حين قُتل ابنه إسماعيل (الذخيرة ٣/١: ١٦٠؛ وتفصيل الحادثة عند ابن عذاري ٢: ٢٨٤) وسيذكر ابن حزم من بعد أنه كانت بين والده ووالد أبي عامر هذا منافسة في صحبة السلطان ووجاهة الدنيا (٤ - باب من أحبَّ بالوصف)، وهذا يبعد أن يكون أبو عامر هذا من الأسرة العامرية المشهورة، فالتنافس لا يكون بين وزير وبين ابن الحاجب الأعلى نفسه.
قلت: واحتفظ الدكتور مكي بنص بتروف، وعلّق عليه بقوله: «ثمّة احتمال بأنه يعني: أبا عامر محمد بن عبدالله بن يحيىٰ بن أبي عامر، وقد عرض له الضَّبيُّ في: «البغية» دون تفصيل، وخصَّه بالترجمة رقم (١٧١)، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره. أو أننا بصدد حفيد المنصور بن أبي عامر؛ الابن الوحيد للحاجب العامري الثاني: المظفّر عبدالملك بن أبي عامر...» وذكر شيئاً من ترجمته.

(١) كذا في الأصل واضحة. علّق عليه (ع) بقوله: قرأها بروفنسال (الأندلس: ٣٥٢) إلى الشرق (يعني شرق الأندلس)؛ وبها أخذ غومس في ترجمته (انظر ص: ١١٢)؛ وليس من دليل على ذلك، وهذا ابنه عبدالملك يتوجه حاجّاً إلى المشرق أيضاً ولا يعود، انظر الحاشية السابقة.

(٢) خ: بَعْدُ.

(٣) البيت لأبي عطاء السندي (انظر الشعر والشعراء: ٦٥٣ والسمط: ٦٠٢ وأمالي القالي ١: ٢٦٨ والحماسة بشرح التبريزي ٢: ١٥١) وورد في أمالي المرتضى ١: ٢٢٣ منسوباً لمعن بن زائدة. وفي مقتل يزيد انظر تاريخ الطبري ٣: ٦٨ - ٧٠ وفيه الشعر أيضاً. (ع).

(٤) هو أمير العراقين؛ أبو خالد الفزاري؛ نائب مروان الحمار. كان بطلاً شجاعاً، سائساً جواداً، فصيحاً بليغاً. قُتل سنة (١٣٢هـ) بعد انتصار العباسيين على الأمويين، وسعىٰ في قتله أبو مسلم الخراساني الفارسي. ترجمته ومصادرها في: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ١٤) و«السير» ٦/ (١٠٣).

(٥) مالقة (Malaga) مدينة على شاطئ المتوسط: كانت مركزاً تجاريّاً هامّاً في العصور =

عيني، فقلت مُجيباً لأبي بكر: [من الطويل]

وإنَّ امرءاً لم يَفْنَ[1] حُسْنُ اصطبارِهِ عليكَ وقد فارقْتَه لجَلِيدُ

وفي المَذْهَبِ الذي عليه النَّاسُ أقولُ ـ من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم ـ أوَّلها: [من الطويل]

دليلُ الأسىٰ نارٌ علىٰ القلب تلفَحُ ودمعٌ على الخدَّيْن يَهْمي ويَسفحُ

إذا كتم المشغوفُ سرَّ ضُلوعِهِ فإنَّ دموعَ العين تُبدي وتَفضح

إذا ما جُفونُ العين سالَتْ شُؤونها ففي القلب داءٌ للغرام مُبرِّح

ويعرضُ في الحُبِّ سوءُ الظنِّ، واتهامُ كلِّ كلمةٍ من أحدهما وتَوْجيهُهَا إلىٰ غير وَجْهها، وهذا أصلُ العِتابِ بين المحبَّيْنِ. وإنِّي لأعلمُ من كانَ أحسنَ النَّاسِ ظنَّاً، وأوسَعَهم نفساً، وأكثرَهُمْ صَبْراً، وأشدَّهم احتمالاً، وأرحَبهم صَدْراً، ثم لا يحتملُ ممَّن يُحبُّ شيئاً، ولا يقع له معه أيسرُ مخالفةٍ حتَّىٰ يبديَ من التَّعْدِيدِ[2] فنوناً، ومن سوء الظَّنِّ وجوهاً. وفي ذلك أقول شعراً منه: [من المنسرح]

أُسِيءُ ظَنِّي بكلِّ مُحْتَقرِ تأتي به والحقيرُ من حَقَرَه

كي لا يُرَى أصلُ هِجْرَةٍ وقِلى فالنَّارُ في بَدء أمرها شَرَرَه

= الإسلامية (انظر في التعريف بها: الروض: ٥١٧ والترجمة: ٢١٣ والزهري: ٩٣ وياقوت (مالقة) والموسوعة الإسلامية). (ع).

(١) خ: يغن. وهو خطأ.

(٢) كذا في الأصل واضحة، وجعلها (ع) ـ تبعاً للعلامة محمود محمد شاكر رحمه الله ـ: التعربد. من غير إشارة ولا تعليل. والمقصود بالتَّعْديد: ذكر الأخطاء والزلات على وجه الإحصاء والتتبُّع؛ إمَّا للعتاب، وإمَّا للخصام. وهذا معنىٰ ظاهر؛ يساعده السياق. وقارن بما سيذكره المصنِّف لاحقاً في النوع الثالث من أنواع: «الهجر»، وسيستعمل هذه اللفظة في (٨ ـ باب التَّعريض بالقول).

وأضـلُ عُـظـم الأمـورِ أهـونـهـا   ومِـن صـغـيـر النَّـوىٰ تـرىٰ شَـجَـرَه

وترى المحبَّ إذا لم يَثِق بنقاءِ طويَّةِ محبوبه له؛ كثيرَ التَّحَفُّظِ ممَّا لم يكنْ يتحفَّظُ [مِنْهُ] قبل ذلك، مثقِّفاً لكلامه، مزيِّناً لحركاته، ومرامي طرفه، ولا سيما إن دُهي بمتجَنٍّ، وبُلي بمَعربدٍ.

ومن ءاياته: مراعاةُ المُحبُ لمحبوبه، وحفظُهُ لكلِّ ما يقعُ [مِنْهُ]، وبحثُهُ عن أخباره حتَّىٰ لا يَسقط عنه دقيقُه ولا جليله، وتتبُّعُهُ لحركاته. ولعمري! لقد ترىٰ البليدَ يصيرُ في هذه الحالةِ ذكِيّاً، والغافلَ فَطِناً.

خَبَرٌ:

ولقد كنتُ يوماً بالمَرِيَّة قاعداً في دُكَّان إسماعيلَ بنِ يونسِ الطبيبِ الإِسرائيليِّ[1]، وكانَ بصيراً بالفِراسَةِ مُحْسِناً لها، وكنّا في لمَّةٍ، فقالَ له مجاهد بن الحُصَيْنِ القيسيُّ: ما تقولُ في هذا؟ ـ وأشار إلىٰ رجلٍ مُنتَبِذٍ عنَّا ناحيةً اسمه حاتم، ويكنىٰ: أبا البقاء ـ فنظر إليه ساعةً يسيرةً، ثمَّ قالَ: هو رجلٌ عاشقٌ. فقالَ له: صدقت، فمن أين قلت هذا؟ قال: لِبَهْتٍ مُفرطٍ

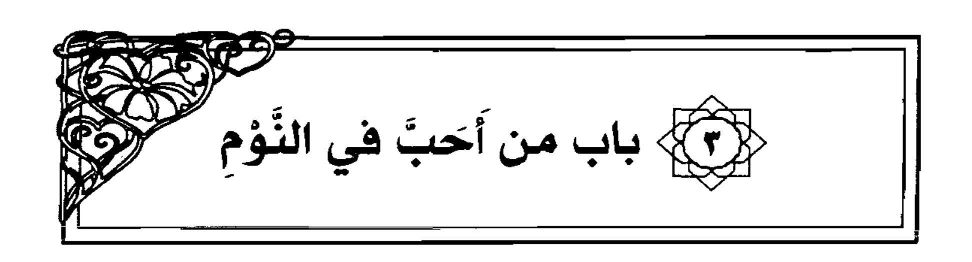
(١) كان ابن حزم يلابس يهود الأندلس، إما للسؤال أو للجدل أو لغير ذلك، ولهذا عندما نشب الخلاف بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة عيَّره هذا بأنه أصبح بين شيعته وأنصاره «رئيس مدارسهم». وقال ابن حيان: ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود. . . مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة» (انظر الذخيرة ١/١: ١٦٣، ١٧٠ ومقدمتي على رسالة الرد على ابن النغريلة). وإسماعيل بن يونس الطبيب اليهودي ذكره ابن حزم في الفصل ٥: ١٢٠ ووصفه بـ«الأعور» واستدلَّ على أنه كان في أقواله ومناظرته ينصر مذهب تكافؤ الأدلة، لاجتهاده في نصر هذه المقالة دون أن يصرِّح بذلك. وأضاف أبو محمد قوله: «وكان إسماعيل ابن القراد (لعلها: القراء) الطبيب اليهودي يذهب إلى هذا القول يقيناً وقد ناظرنا عليه مصرحاً به، وكان يقول ـ إذا دعوناه إلى الإسلام وحسمنا شكوكه ونقضنا علله ـ: الانتقال في الأديان تلاعب» (ع).

ظاهرٍ علىٰ وجهه فقط دون سائر حركاته، فعلمتُ أنَّه عاشقٌ وليسَ بمُريب[1].

***

(١) كذا في الأصل واضحة، وجعلها برشيه: بمريض.





٣ باب من أَحبَّ في النَّوْمِ

ولا بُدَّ لكلِّ حُبٍّ من سببٍ يكونُ له أصلاً، وأنا مبتدىءٌ بأبعد ما يمكن أن يكونَ من أسبابه ليجريَ الكلامُ على نَسَقٍ، وأنْ يُبتدأ أبداً بالسَّهل والأهون.

فمن أسبابه: شيءٌ لولا أنِّي شاهدته لم أذكره لغرابته.

خَبَرٌ:

وذلكَ أنِّي دخلتُ يوماً علىٰ أبي السَّرِيِّ عمَّار بن زياد ـ صاحبنا مولىٰ المؤيِّدِ[1] ـ فوجدته مفكِّراً مُهْتمّاً فسألته عمَّا به، فتمنَّع ساعةً، ثمَّ قال لي: أعجوبةٌ ما سُمِعَتْ قطُّ. قلتُ: وما ذاك؟ قال: رأيتُ في نَومي الليلةَ جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبي فيها، وَهِمْتُ بها، وإنِّي لفي أصْعَبِ حالٍ من حُبِّها. ولقد بقي أياماً كثيرةً تزيد على الشَّهر مغموماً، مَهْمُوماً، لا يَهْنئُهُ شيءٌ وَجْداً، إلىٰ أن عذلته، وقلتُ له: من الخطأ العظيم أن تشغلَ نفسك بغير حقيقةٍ، وتعلِّقَ وَهْمَكَ بمعدومٍ لا يوجدُ، هل تعلم مَن هي؟ قال: لا والله! قلتُ: إنَّكَ لَفَائِلُ[2] الرأي، مصاب البصيرة؛ إذ تُحِبُّ مَن لم تره

(١) المؤيِّد: هشام الثاني بن الحكم المستنصر.

(٢) رجل فائل الرأي؛ وفِيله، وفاله، وفيِّلُه: أي ضعيف الرأي (النهاية واللسان: فيل). وفي الأصل: لقايل. وجعلها بتروف: لقليل. وقرأها برشيه على الصَّواب: لفائل. وعند (ع): لفِيل.

قطُّ، ولا خُلِقَ، ولا هو في الدُّنيا، ولو عشقتَ صورةً من صُور الحمَّامِ[1] لكنتَ عندي أعذرَ. فما زلتُ به حتَّىٰ سلا وما كاد.

وهذا عندي من حديث النَّفْسِ وأضغاثها، وداخلٌ في بابِ التَّمَنِّي، وتخييل[2] الفكر، وفي ذلك أقول شعراً منه[3]: [من البسيط]

يا ليْتَ شِعريَ من كانتْ وكيفَ سَرَتْ	أَطلَعَةَ الشَّمْسِ كانتْ أم هي القمرُ
أظنّه العقلَ أبداه تدبُّره	أو صورةَ الرُّوحِ أبدَتْها ليَ الفِكَرُ
أو صورةً مُثِّلَتْ في النَّفْسِ مِن أملي	فقد تخيَّل[4] في إدراكِها البصرُ
أو لم يكُن كلُّ هذا فهي حادثةٌ	أتىٰ بها سبباً في حَتفِيَ القَدَرُ

---

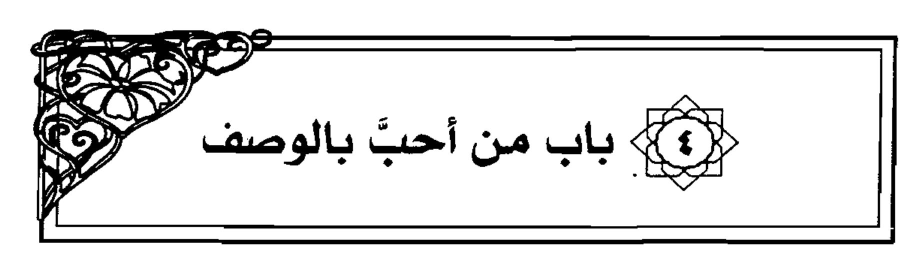
(١) هذا يدلُّ على أن جدران الحمامات في الأندلس كانت تزيَّنُ بالصُّور (كما كان الحال في بعض حمامات المشرق) ـ انظر: نفح الطيب: ٣٤٨/٣ و٧٣/٢. وهنالك حكايات عن فتنة بعض الأندلسيين بالتماثيل؛ وفي: «الموشىٰ» (ص: ٥٦): وبلغنا أن منهم من عَشِقَ صورةً في حمَّام، وخيالاً في منام، وكفًّا في حائطٍ، ومثالاً في ثوبٍ.
قلت: تحريم الصور والتماثيل مَن الأمور القطعية في الإسلام، وقد ورد النهي الشديد عنها، والوعيد الغليظ لأصحابها، وليس هذا حكماً تشريعيّاً مجرَّداً؛ بل له صلة أكيدة بسلامة العقيدة، وصلاح القلوب. وهذا لم يكن خافياً على العلماء والصَّالحين ـ بل ولا على عامّة المسلمين ـ لا في الأندلس ولا في غيرها من بلاد الإسلام.
وما ذُكِرَ من تزيين الحمامات بالصُّور؛ يمكن حمله على أن تلك الحمامات كانت لأهل الذِّمَّة من اليهود والنصارى، أو أنَّها كانت لهم ثُمَّ ءالت إلى المسلمين بعد الفتح الإسلامي، وتساهلوا في إزالتها. وممَّا يدلُّ على هذا أبيات قالها أبو تمَّام بن رباح الحجَّام؛ في وصف تمثالٍ لمريم بنت عمران؛ تحمل المسيح بين يديها ـ عليهما السَّلام ـ؛ كان موضوعاً في حمَّامِ الشَّطَّارة في إشبيلية (أفاده د. مكي في تعليقه على هذا الموضع: ١١٦، وأحال إلىٰ: نفح الطِّيب: ٧٣/٢).
وممَّا تجدر الإشارة إليه هنا؛ أن ابنَ حزم ـ رحمه الله ـ إنَّما ذكر هذا على سبيل الحكاية لا الإقرار، وإلا فقد نصَّ على تحريم اتخاذ الصُّوَر وبيعها، وفصَّل القول في ذلك في كتابه: «المحلَّىٰ» (المسألة: ١٥٣٨).

(٢) هذه قراءة العلامة محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ، وفي الأصل: «تخيل».

(٣) وردت الأبيات في: «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة الحموي: ٥٢ (دون نسبة) (ع).

(٤) ديوان الصَّبابة: تحيَّر.





٤ باب من أحبَّ بالوصف

ومن غريب أصول العِشقِ أن تقعَ المحبَّةُ بالوصفِ دون المُعاينة، وهذا أمر يُترقَّىٰ منه إلىٰ جميع الحُبِّ، فتكونُ المراسلةُ، والمكاتبةُ، والهمُّ والوَجْدُ، والسَّهرُ؛ على غير الإبصار، فإنَّ للحكاياتِ ونعت المحاسن، ورصف الأخبار؛ تأثيراً في النَّفْسِ ظاهراً وأن تُسمع نَغمتها من وراء جدارٍ، فيكون سبباً للحبِّ، واشتغال البال.

وهذا كلُّه قد وقعَ لغير ما واحدٍ، ولكنه عندي بُنيان هارٍ على غير أسٍّ، وذلك أنَّ الذي أفرغ ذهنه في هوىٰ مَن لم يرَ لا بد له إذ يخلو بفكره أن يُمثِّلَ لنفسه صورةً يتوهمها، وعيناً يقيمها نُصبَ ضميره، لا يتمثَّلُ في هاجسه غيرها، قد مالَ بوَهْمِهِ نحوها، فإن وقعتِ المعاينةُ يوماً ما فحينئذٍ يتأكَّدُ الأمرُ، أو يبطلُ بالكليّة[1]، وكلا[2] الوجهَيْنِ قد عَرَضَ وعُرِفَ، وأكثر ما يقع هذا في ربَّاتِ القُصُور[3]، المحجوبات ـ من أهل البيوتات ـ مع أقاربهن من الرِّجال، وحبُّ النِّساء في هذا أثبت من حبِّ الرجال لضعفهنَّ، وسرعةِ إجابة طبائعهنَّ إلىٰ هذا الشَّأن، وتمكنه منهنَّ؛ وفي ذلكَ أقول شعراً منه[4]: [من الهزج]

---

(١) خ: بالكُلِّ.
(٢) خ: وكلٌّ.
(٣) في الأصل: الخدور القصور. وضرب النَّاسخ على كلمة: (الخدور).
(٤) انظر «ديوان الصبابة»: ٥١؛ حيث أورد هذه الأبيات ونسبها للمدني (!) (ع).

ويـا مَـن لامَنِـي فـي حُـبِّ مَـن لـم يَـرَهُ طَـرْفِـي
لقد أفرطْتَ في وصفِكَ لي في الحُبِّ بالضَّعفِ
فـقُـل هـلْ تُـعْـرَفُ الـجنَّـةُ يـومـاً بـسِـوىٰ الـوَصْـفِ

وأقولُ شعراً في استحسان النَّغمة، دونَ وقوع العَيْنِ علىٰ العيان منه:

[من مخلع البسيط]

قـد حَـلَّ جَـيْـشُ الـغـرام[1] سَـمْـعـي   وَهُــو عــلــىٰ مُــقــلــتــيَّ يَــبْــدُو

وأقولُ ـ أيضاً ـ في مخالفةِ الحقيقة لظنِّ المحبوب عند وقوعِ الرُّؤْية:

[من الكامل]

وَصَـفُـوكَ لـي حـتَّـىٰ إذا أبـصَـرتُ مـا   وَصَــفُــوا عــلــمــتُ بــأنَّــهُ هَــذَيــانُ
فـالـطَّـبـلُ جـلْـدٌ فـارغٌ وطـنِـيـنُـهُ   يــرتــاعُ مِــنــهُ ويَــفْــرَقُ الإنــســانِ

وفي ضدِّ هذا أقول:

لَـقَـد وَصَـفُـوكَ لـي حـتَّـىٰ الـتَـقَـيْـنـا   فـصـارَ الـظَّـنُّ حَـقَّـاً فـي الـعِـيـانِ
فـأوصـافُ الـجِـنـانِ مُـقـصِـراتٌ   عـلـى الـتَّـحْـقِـيـقِ عَـن قَـدْرِ الـجِـنـانِ

وإنَّ هذه الأحوال لَتحدُث بين الأصدقاء والإخوان، وعنِّي أُحدِّثُ:

خَبَرٌ:

أنِّي كانَ بيني وبين رَجُلٍ من الأشراف ودٌّ وكيدٌ، وخطابٌ كثيرٌ، وما تراءينا قطُّ، ثم منحَ الله لي لقاءه، فما مرَّتْ إلاَّ أيامٌ قلائلُ حتَّىٰ وقعتْ لنا

(١) حلول جيش الغرام في السمع استعارة قبيحة، هذا إذا لم نقدِّر أن في اللفظة تصحيفاً. وقد تصرَّف ابن القيم بهذه الصورة (روضة المحبين: ٢٤١) فقال: وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر (ع).

منافرةٌ عظيمةٌ، ووحشةٌ شديدةٌ متّصلةٌ إلىٰ الآن، فقلتُ في ذلكَ قطعةٌ منها: [من البسيط]

أبدلت أشخاصنا كُرهاً وفَرط قِلىً ... كما الصَّحائفُ قد يُبدَلْنَ بالنَّسْخِ

ووقع لي ضدُّ هذا مع أبي عامرِ بن أبي عامرٍ - رحمةُ الله عليه - فإنّي كنتُ له علىٰ كَراهةٍ صحيحةٍ وهو لي كذلك، ولم يرني ولا رأيته، وكانَ أصلُ ذلك تنقيلاً يُحْمَلُ إليه عنّي وإليَّ عنه، يؤكِّدُهُ انحرافٌ بين أبوينا لتنافسهما فيما كان فيه من صُحْبة السلطان ووجاهة الدُّنيا، ثُمَّ وفَّقَ الله الاجتماعَ به فصار لي أوَدَّ النَّاس، وصرتُ له كذلك، إلىٰ أن حالَ الموتُ بيننا؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من المتقارب]

أخٌ لـيَ كـسَّـبـنـيـهِ الـلـقـاءُ ... وأوجـدَنـي فـيـه عِـلْـقـاً شـريـفـا

وقـد كـنـتُ أكْـرَهُ مـنـه الـجِـوارَ ... ومـا كـنـتُ أرغـبُـهُ لـي أَلِـيـفـا

وكـانَ الـبـغـيـضَ فـصـارَ الـحَـبـيـبَ ... وكـانَ الـثَّـقِـيـلَ فـصَـارَ الـخـفـيـفـا

وقـد كـنـتُ أُذمِـنُ عـنـه الـوَجِـيـفَ ... فـصِـرْتُ أديـمُ إلـيـه الـوَجـيـفـا

وأمَّا أبو شاكر عبدُالرَّحمٰنِ[1] بن ....

(١) كذا في الأصل، والذي في كتب التَّراجم: عبدالواحد. قال (ع): في الأصل: عبدالرحمٰن؛ وهو عبدالواحد بن محمد بن موهب بن محمد التجيبي أبو شاكر، يعرف بابن القبري، كان فقيهاً محدِّثاً خطيباً شاعراً، نشأ بقرطبة، ويبدو أنه تحوَّل بعد الفتنة إلى شاطبة، وولي الأحكام والمظالم بها، وهنالك رءاه الحميدي، وهنالك توكَّدت الصلة بينه وبين ابن حزم (الجذوة: ٢٧١ والبغية رقم: ١١٠٧) وقد سكن أبو شاكر بلنسية وتقلَّد الصلاة والخطبة والأحكام بها، وكانت وفاته سنة ٤٥٦ بمدينة شاطبة ونقل إلى بلنسية فدفن فيها، وكان ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وسيماً جميلاً حسن الهيئة والخلق، حسن السمت والهدي (الصلة: ٣٦٥ - ٣٦٦)

محمَّدِ القبريُّ[1] فكان لي صديقاً مدةً علىٰ غيرِ رؤيةٍ، ثُمَّ التقينا فتأكَّدَتِ المودَّةُ، واتَّصلتْ، وتَمادتْ إلىٰ الآن[2].

✲ ✲ ✲

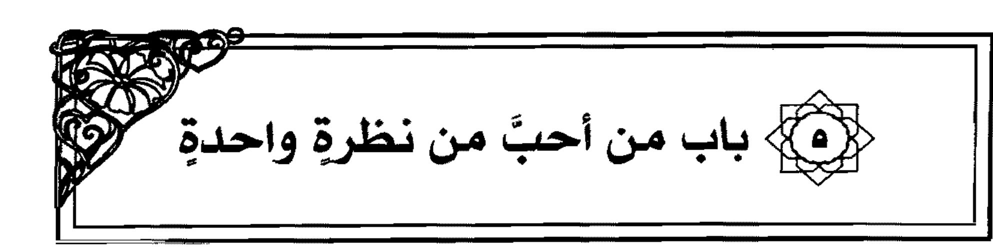
= وله شعر في رثاء قرطبة منه قوله (ترتيب المدارك ٤: ٨١٨).

يا ليت شعري والأيام تجمعنا ... ونأخذ البين مغلوباً فنصفعه
في جنة الأرض أعني أرض قرطبة ... فكل شيء بديع فهي تجمعه
أستودع الله أهليها فإنهم ... كالمسك قد ملأ الدنيا تضوُّعه

(١) نقل هذه الفقرة ابن ناصر الدين الدمشقي في: «توضيح المشتبه» ٧/١٧٨ ـ ١٧٩؛ وسقطت عنده كلمة: (واتصلت) وانظر ما كتبناه في المقدّمة.

(٢) نسبةً إلىٰ: قَبْرة؛ مدينة بالأندلس.





٥ باب من أحبَّ من نظرةٍ واحدةٍ

وكثيراً ما يكونُ لُصوقُ الحُبِّ بالقلب من نظرةٍ واحدةٍ، وهو ينقسم قسمين:

فالقسمُ الواحدُ مخالِفٌ للَّذي قبلَ هذا، وهو أن يعشقَ المرءُ صورةً لا يعلم مَنْ هي، ولا يدري لها اسماً ولا مستقَرّاً، وقد عرض هذا لغير واحد.

خَبَرٌ:

حدَّثني صاحبُنا أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ إسحاقَ، عن ثِقَةٍ أخبره ـ سقط عنيّ اسمه، وأظنه القاضي ابنَ الحذَّاء[1] ـ، أنَّ يوسف بن هارون

(١) ابن الحذاء: هو محمد بن يحيى بن أحمد، أحد رجال الأندلس فقهاً وعلماً وتفنُّناً في العلوم، استقضي ببجانة ثم بإشبيلية، وكان أحد القضاة المشاورين بقرطبة، وتولّى خطة الوثائق السلطانية، وخرج عن قرطبة في الفتنة، واستقضي بمدينة تطيلة في الثغر الأعلى ثم نُقل منها إلى قضاء مدينة سالم ثم إلى سرقسطة وفيها توفي (٤١٦) (الصلة: ٤٧٨ ـ ٤٨٠ وترتيب المدارك ٤ :٧٣٣) والنصّ هنا قد ينطبق عليه وعلى ابنه أحمد ويكنى بأبي عمر، فقد بدأ سماعه سنة ٣٩٣ وجلا عن وطنه في الفتنة وسكن سرقسطة وتقلَّد القضاء بطليطلة، وانصرف في ءاخر عمره إلى قرطبة، وتوفي سنة ٤٦٧ (الصلة: ٦٥ ـ ٦٦). (ع).
قلت: وهذه القصّة رواها عن ابن حزم؛ الحميديُّ في «جذوة المقتبس» (في ترجمة يوسف الرَّمادي: ٧٧٨)، وقال ابنُ حزم هناك: أخبرني أبو بكرٍ محمَّد بن إسحاق المهلبيُّ، عن بعض إخوانه، وأظنُّه أبو الوَليد ابن الفرضيّ...

الشاعر المعروف بالرماديّ[١] كانَ مجتازاً عند باب العطَّارِينَ[٢] بقرطبة - وهذا الموضع كان مجتَمَعَ النِّساءِ - فرأىٰ جاريةً أخذتْ بمجامع قلبه[٣]، وتخلَّل حبُّها جميعَ أعضائه[٤]، فانصرفَ عن طريق الجامع، وجعل يَتبعها، وهي ناهضةٌ نحو القنطرة[٥]، فجازَتْها إلىٰ الموضع المعروف بالرَّبَضِ. فلمَّا صارت بين رياض بني مروان - رحمهم الله - المبنيةِ على قبورهم في مقبرة الرَّبَضِ خَلْفَ النَّهر؛ نظرتْ منه منفرداً عن النَّاس لا همَّةَ له غيرها، فانصرفتْ إليه، فقالت له: مالكَ تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليَّته بها. فقالتْ له: دَعْ عنك هذا، ولا تطلُبْ فضيحتي، فلا مطمع لك فِي - البَّتةَ -[٦] ولا إلىٰ ما ترغبه سبيل. فقالَ: إنِّي أقنع بالنَّظَرِ. فقالتْ له: ذلك

(١) يوسف بن هارون الرمادي (أبو جنيش)؛ ربما كان أبرز شعراء الأندلس في عصره، وقد توفي في الفتنة (حوالي ٤٠٣)؛ انظر ترجمته في الجذوة: ٣٤٦ والبغية رقم: ١٤٥١ والصلة: ٦٣٧ والمطرب: ٤ والمغرب ١: ٣٩٢ والمطمح: ٦٩ واليتيمة ١: ٤٣٥ وابن خلكان ٧: ٢٢٥ ومسالك الأبصار ١١: ١٧٥، والمقتبس (ط. بيروت) ٧٤، ٧٥ ومعجم الأدباء ٢٠: ٦٢، وله أشعار في البديع للحميري، وكتاب التشبيهات للكتاني، ونفح الطيب وشرح الشريشي على المقامات، وعنه دراسة في كتابي تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ٢٠٥ (ط. ثانية)، وقد جمع شعره السيد ماهر زهير جرّار ونشرته مؤسسة الدراسات العربية، بيروت ١٩٨٠. (ع).

(٢) ذكر ابن بشكوال أن أبواب قرطبة سبعة: باب القنطرة إلى جهة القبلة، وباب الحديد ويعرف باب سرقسطة، وباب ابن عبدالجبار وهو باب طليطلة، وباب رومية، وباب طلبيرة، ثم باب عامر القرشي، ثم باب الجوز ويعرف بباب بطليوس، ثم باب العطارين وهو باب إشبيلية، ومن دونه تجارة العطور ودكاكين العطارين (انظر: النفح ١: ٤٦٥). (ع).

(٣) خ: قلبي.

(٤) خ: أعضائي.

(٥) قنطرة قرطبة تقع شمالي باب قرطبة الجنوبي (المسمى بها أي باب القنطرة)، وهو الباب الذي يصل بين المدينة وربض شقندة، وقد بناها أغسطس قيصر، وكانت تتثلم بسبب مدِّ النهر فيتم إصلاحها وترميمها، فقد رمّمها الحكم المستنصر سنة ٣٦٠ (انظر عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية ١: ١٩٧ - ٢٠١ ومصادره هنالك). (ع).

(٦) تصحَّفت في الأصل إلىٰ: النيَّة.

مُباح لك. فقالَ لها: يا سَيِّدَتي! أحُرّةٌ أم مملوكة؟ قالت: مملوكة. فقالَ لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة. فقال لها: ولمن أنت؟ فقالت له: عِلْمُكَ والله بما في السَّماءِ السَّابعة أقربُ إليك مما سألتَ عنه، فدع المحالَ. فقالَ لها: يا سيِّدتي! وأينَ أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتَني اليومَ في مثل تلك السَّاعة من كلِّ جمعة. فقالت له: إما تنهضُ أنت وإمَّا أنهض أنا[1]. فقال لها: انهضي في حفظ الله. فنهضتْ نحو القنطرة، ولم يُمْكِنْهُ اتِّباعها، لأنَّها كانتْ تَلْتَفِتُ نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلمَّا تجاوزت باب القنطرة أتىٰ يقفوها فلم يقع لها علىٰ مسألةٍ.

قال أبو عمر ـ وهو يوسف بن هارون ـ: فوالله لقد لازمتُ باب العطَّارين والرَّبَضَ مُذْ ذلك الوقت إلىٰ الآن فما وقعتُ لها على خبرٍ، ولا أدري أسماءٌ لحَسَتها أم أرض بَلَعَتْها، وإنَّ في قلبي منها لأحرَّ من

(١) فقالت له: إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا؛ يبدو أنَّ هنا سقطاً؛ والرواية نفسها عن ابن حزم عند الحميدي: «فلما قرب وقت صلاة العصر، انصرفت فجعلت أقفو أثرها، فلما بلغت القنطرة قالت: إما أن تتأخّر وإما أن تتقدّم فلست والله أخطو خطوة وأنت معي، فقلت لها: أهذا ءاخر العهد بك؟ قالت: لا، قلت لها: فمتى اللقاء؟ قالت: كل يوم جمعة في هذا الوقت في هذا المكان، قلت لها: فما ثمنك إن باعك من أنت له؟ قالت: ثلاث مئة دينار، قال: فخرجت جمعة أخرى فوجدتها على العادة الأولى فزاد كلفي بها» ثم يقص كيف ارتحل إلى سرقسطة ومدح عبدالرحمٰن بن محمد التجيبي صاحبها، وذكر له قصته مع خلوة وأخذ منه ثلاث مئة دينار سوى نفقة الطريق، قال: «وعدت إلى قرطبة فلزمت الرياض جمعاً لا أرى لها أثراً وقد انطبقت سمائي على أرضي، وضاق صدري إلى أن دعاني يوماً رجل من إخواني فدخلت إلى داره وأجلسني في صدر مجلسه ثم قام لبعض شأنه، فلم أشعر إلا بالستارة المقابلة لي قد رفعت وإذا بها، فقلت: خلوة، فقالت: نعم، قلت: ألأبي فلان أنت مملوكة؟ قالت: لا والله ولكني أخته، قال: فكأن الله تعالى محا حُبَّها من قلبي، وقمت من فوري، واعتذرت إلى صاحب المنزل بعارض طرقني وانصرفت» (الجذوة: ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

الجمر. وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سَرَقُسْطة[1] في قِصَّةٍ طويلةٍ.

ومثلَ ذلك كثير، وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من البسيط]

عيني جَنَتْ في فُؤادي لوعَةَ الفِكَر ... فأرسَلَ الدَّمْعَ مُقتصّاً من البَصرِ

فكيف تُبصرُ فعلَ الدَّمْعِ مُنتصِفاً ... منها بإغراقها في دَمعها الدِّرَرِ[2]

لم ألقها قبل إبصاري فأعرِفَها ... وءاخرُ العهد مِنها سَاعةُ النَّظرِ

والقسم الثاني: مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب - إن شاء الله -، وهو: أن يَعْلَقَ المرءُ من نظرةٍ واحدةٍ جاريةً معروفةَ الاسم والمكان والمنشأ، ولكنَّ التفاضُلَ يقعُ في هذا في سرعة الفناء وإبطائه، فمن أحبَّ من نظرةٍ واحدةٍ وأسرعَ العلاقةَ من لَمْحَةٍ خاطرةٍ فهو دليلٌ على قلَّة الصَّبْرِ، ومُخْبِرٌ بسرعةِ السُّلوِّ، وشاهدُ الطَّرافةِ[3] والملل. وهكذا في جميع الأشياء: أسرعُها نموّاً أسرعها فَناءً، وأبطؤها حُدُوثاً أبطؤها نفاداً.

خبر:

إنّي لأعلم فتىً من أبناء الكُتَّاب، رأته امرأةٌ سَرِيَةُ النَّشْأة، عالية

(١) سرقسطة (Zaragoza) مدينة الثغر الأعلى، وكانت ءاهلة حسنة الديار والمساكن، حكمها بنو هود في أيام ملوك الطوائف، وسقطت في يد النصارى سنة ٥١٢ (الروض: ٣١٧ والترجمة: ١١٨ والعذري: ٢٢ والزهري: ٢٢٦ والإدريسي (دوزي) ١٩٠) (ع).

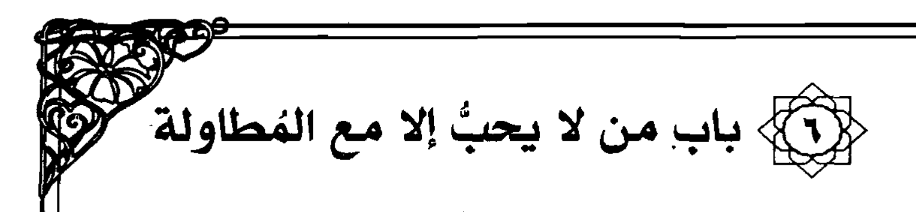
(٢) قرأها برشيه: دفعها؛ والدرر هنا كما تقول: سماء درر أي ذات درر، وفي حديث الاستسقاء: «دِيماً دِرَراً» وقيل الدرر: الدارُّ، وعندئذ يكون القول على النعت المباشر أي بإغراقها في دمعها الدارّ (ع).
قلت: (دمعها) واضحة في الأصل.

(٣) في الأصل: الظّرافة؛ بالظاد. والتَّصحيح من (ع)؛ وقال: الطَّرافة: من قولك فلانٌ طَرِفٌ؛ أي: سريع الملل، لا يثبت على عهدٍ.

المنصب، غَلِيظَةُ الحجاب، وهو مجتازٌ، ورأته في موضع تَطَّلِعُ منه كانَ في منزلها، فَعَلَقَتْهُ وعَلَقَها، وتهاديا المراسلةَ زماناً علىٰ أدقَّ من حَدِّ السَّيْفِ.

ولولا أنّي لم أقصدْ في رسالتي هذه كشفَ الحِيَلِ، وذكرَ المكايد؛ لأوردتُ مِمَّا صَحَّ عندي أشياءَ تحيِّرُ اللبيبَ، وتُذْهِشُ العاقلَ، أسبل الله علينا سِتْره، وعلىٰ جميع المسلمين بمَنِّه، وكفانا.

❋ ❋ ❋



٦ باب من لا يحبُّ إلا مع المُطاولة

ومن النَّاس من لا تَصِحُّ محبَّته إلا بعد طُولِ المخافتة، وكثير المُشاهدة، ومُتَمادي الأُنسِ، وهذا الَّذي يوشك أن يدومَ ويثبتَ ولا يُحَيِّكُ[1] فيه مرُّ الليالي، فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً، وهذا مذهبي.

وقد جاء في الأثر: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال للرُّوحُ ـ حين أمره أن يدخلَ جسدَ ءادم، وهو فخَّار، فهاب وجزع ـ: ادخلْ كَرْهاً واخرجْ كَرهاً. حُدِّثناه عن شيوخنا[2].

ولقد رأيتُ من أهل هذه الصِّفَة مَنْ إنْ أحسَّ من نفسه بابتداء هوىً، أو تَوجَّسَ[3] من استحسانه ميلاً إلى بعضِ الصُّوَرِ؛ استعمل الهَجْرَ، وتركَ الإِلمام، لئلَّا يزيدَ ما يجدُ فيخرجَ الأمرُ عن يده، ويحالُ بين العَيْرِ والنَّزَوان[4]. وهذا يدلُّ على لصوق الحبِّ بأكباد أهلِ هذه الصِّفَةِ، وإنَّه إذا

---

(١) أي: يؤثِّر.

(٢) لم أقف عليه. وكأنَّ ابن حزم ـ رحمه الله ـ يشير إلى عدم صحَّته، ولعله من الإسرائيليَّات؛ والله أعلم.

(٣) خ: توحش.

(٤) وقد حيل بين العير والنزوان: مثل؛ من قول صخر أخي الخنساء:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

فصل المقال: ٧٢ (ع).

تمكَّنَ منهم لم يَحُلْ أبداً. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الوافر]

سأُبعِدُ عن دواعي الحُبِّ إنِّي ... رأيتُ الحَزْمَ من صفةِ الرَّشيد
رأيتُ الحُبَّ أوّله التَّصَدِّي ... بعينكَ في أزاهيرِ الخُدودِ
فبينا أنت مُغتبطٌ مُخَلًّىٰ ... إذا قد صِرتَ في حَلَقِ القُيود
كمُغترٌّ بضَحضاحٍ قَريبٍ ... فزلَّ فغابَ في غَمْرِ المدُود

وإني لأُطيلُ العَجَبَ من كلِّ من يدّعي أنَّه يحبّ مِن نظرةٍ واحدةٍ، ولا أكادُ أصدِّقه، ولا أجعلُ حُبَّه إلا ضرباً من الشَّهْوة، وأمَّا أن يكون ـ في ظنِّي ـ متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حِجاب القلب فما أقدِّر ذلك، وما لصِق بأحشائي حُبٌّ قطُّ إلا مع الزَّمَنِ الطَّويل، وبعدَ ملازمة الشَّخْصِ لي دهراً، وأخذي معه في كلِّ جدٍّ وهزلٍ، وكذلك أنا في السُّلوِّ والتَّوْقِ[1]، فما نسيتُ ودّاً لي قطُّ، وإنَّ حَنيني إلىٰ كلِّ عهدٍ تقدَّمَ لي ليغصُّني بالطعام ويشْرقُني بالماء[2]، وقد استراحَ من لم تكنْ هذه صفتَهُ. وما مللتُ شيئاً قطُّ بعدَ معرفتي به، ولا سَرُعْتُ إلىٰ الأُنْسِ بشيءٍ قطُّ أولَ لقائي له، وما رغبتُ الاستبدالَ إلىٰ سببٍ من أسبابي مذ كنتُ، لا أقولُ في الأُلاَّفِ والإخوانِ وحدهم؛ لكنْ في كلِّ ما يَستعملُهُ الإنسانُ من ملبوسٍ ومركوبٍ ومطعومٍ وغير ذلك، وما انتفعتُ بعيشٍ ولا فارقني الإطراقُ والانغلاقُ مذ ذقتُ طعمَ فراق الأحبَّةِ، وإنَّه لشَجىً يعتادني، وولوعُ همٍّ ما ينفكُّ يَطْرقني، ولقد نَغَّص تذكُّري ما مضىٰ كلَّ عيشٍ أستأنفه، وإني لَقتيلُ الهمومِ في عداد الأحياء، ودفينُ الأَسىٰ بينَ أهلِ الدُّنيا. والله المحمودُ على

(١) أي: الشَّوق.
(٢) خ: ليغصُّني بالماء، ويشرقني بالطَّعام. وهذا قلب في العبارة، فإنَّ الغصَّة تكون بالطَّعام، والشَّرقة تكون بالماء.

كلِّ حالٍ لا إله إلاَّ هو. وفي ذلك أقولُ شعراً منه: [من الطويل]

محبةُ صدقٍ لم تكُنْ بنتَ ساعةٍ ... ولا وَرِيَتْ حين ارتيادٍ[1] زنادُها
ولكِنْ علىٰ مَهْلٍ سَرَتْ وتولَّدَتْ ... بطُولِ امتزاجٍ فاستقرَّ عمادُها
فلم يَدْنُ منها عزمُها وانتقاضُها[2] ... ولم يَنْأَ عنها مَكثُها وازديادها
يؤكِّد ذا أنَّا نرىٰ كلَّ نشأةٍ ... تَتِمُّ سريعاً عن قريبٍ نهادها[3]
ولكِنَّني أرضٌ عَزَازٌ صَلِيبةٌ ... مَنيعٌ إلىٰ كلِّ الغُروسِ انقيادُها
فما نفذتْ منها لديها عُروقها ... فليست تُبالي أن تَجُودَ عِهادُها

ولا يظنَّ ظانٌّ ولا يتوهَّمْ متوهِّمٌ أنَّ كلَّ هذا[4] مخالفٌ لقولي المسطَّر في صدر الرسالة: إن الحبَّ اتِّصالٌ بين النُّفوُس في أصل عالمها العُلْوي. بل هو مؤكِّد له، فقد علمنا أنَّ النَّفسَ في هذا العالم الأدنىٰ قد غَمَرَتها الحُجُبُ، ولَحِقَتْها الأعراضُ، وأحاطتْ بها الطبائعُ الأرضِيَّةُ الكُورِيَّةُ[5]، فسترتْ كثيراً من صفاتها، وإنْ كانتْ لم تُحِلْهُ، لكن حالَت دونه، فلا يُرجىٰ[6] الاتصالُ علىٰ الحقيقة إلا بعد التَّهَيُّءِ من النَّفس والاستعداد له،

(١) كذا في الأصل، وأثبتها (ع): ارتفاد، وقال: الارتفاد هو الاستعانة في القدح بحجر القدح عند استعمال الزناد.

(٢) كذا في الأصل واضحة، وعلَّق (ع) هنا بقوله: (عزمها وانتقاضها): قرأها برشيه: غربها وانتقاصها. وكلمة (انتقاصها) تقابل: (ازديادها)، ولكن (غربها) لا تقابل: (مكثها). ولكن الأستاذ محمود محمد شاكر يرىٰ: (انتقاصها) صحيحةً. وقال شاكر: لأن «الغرْب» هو الذهاب والتنحي عن الناس، وهو أيضاً النوىٰ والبعد، ومنه: «غربة النَّوىٰ».

(٣) كذا في الأصل واضحة، وأثبتها (ع): نفادها. وعند مكي: معادها.

(٤) في الأصل: كلاً من هذا.

(٥) كذا في الأصل وعند بتروف وبرشيه. وأثبتها (ع) و(مكي): الكونية. والصَّواب ما في الأصل كما هو ظاهر من السياق.

(٦) هكذا أثبتها (مكي) و(ع)، وهي قراءة جيدة. وفي الأصل: بَرِحَ.

وبعد إيصالِ المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع الَّتي خَفَت[1] بما يُشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذٍ يتَّصلُ اتصالاً صحيحاً بلا مانعٍ.

وأمَّا ما يقعُ من أوَّلِ وَهْلةٍ ببعضِ أَعراضِ الاستحسان الجسديِّ، واستطرافِ البصر الذي لا يجاوزُ الألوان، فهذا سرُّ الشهوة[2] ومعناها علىٰ الحقيقة، فإذا فَضَلتِ[3] الشهوةُ وتجاوزت هذا الحدَّ، ووافق الفَضْلَ[4] اتصالٌ نفساني تشتركُ فيه الطبائع مع النَّفس؛ تسمَّى: عِشْقاً. ومن هذا دخلَ الغلَط علىٰ من يزعُم أنه يحبُّ اثنين، ويعشقُ شخصَيْنِ متغايرين، فإنَّما هذا من جهة الشَّهوة الَّتي ذكرنا ءانفاً، وهي علىٰ المجاز تسمَّىٰ محبةً، لا علىٰ التحقيق، وأما نفسُ المُحِبِّ فما في المَيْلِ[5] به فضلٌ يصرفه من أسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحبِّ ثانٍ؟! وفي ذلك أقول[6]: [من الخفيف]

كَذبَ المُدّعي هوىٰ اثنين حتماً مثلَ ما في الأصولِ أُكْذِبَ ماني[7]

---

(١) جعلها (ع) و(مكي): خفيت.

(٢) من الجائز أن تكون هذه العبارة: «وأما ما يقع من أول وهلة، فبعضُ أعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، وهذا سر الشهوة» ويكون جواب «أما» هو «فبعض» (ع).

(٣) فضلت: هذه قراءة (ع)، وفي الأصل بالصَّاد المهملة.

(٤) الفضل: هذه قراءة (ع)، وفي الأصل بالصَّاد المهملة.

(٥) هكذا في الأصل، وهكذا وردت في: «روضة المحبِّين» (الباب: ٢١/ص: ٢٠٦)؛ إذ نقل ابن القيم كلام ابن حزم من قوله: ومن هذا دخل الغلط... حتَّىٰ ءاخر الأبيات النونية. وقرأها العلامة محمود شاكر: أما نفس الحب فما في المبتلىٰ به فضل؟

(٦) أورد ابن أبي حجلة هذه الأبيات (ما عدا الأول) في «ديوان الصَّبابة»: ٤١، وجعل الرابع منها ءاخراً. وأوردها ابن القيم في «روضة المحبِّين»: ٢٩٠ (ع).

(٧) ماني مؤسس مذهب المانوية، وهو قائم على الأثينية إذ يقول: إنَّ مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة، كل واحد منهما منفصل عن الآخر (انظر تفصيلاً لمذهبه عند ابن النديم في الفهرست: ٣٩٢ ـ ٤٠٢) (ع).

لـيسَ فـي الـقـلـب مـوضـعٌ لـحـبـيـبَـيـ ـنِ ولا أحــدَثَ الأمــور اثــنــان[1]
فـكـمـا الـعـقـلُ واحـدٌ لـيـس يَـدري خــالـقــاً غــيــر واحــدٍ رَحــمــان
فـكـذا الـقـلـبُ واحـدٌ لـيـس يـهـوى غـــيـــر فـــردٍ مُـــبـــاعَـــدٍ أو مُـــدان
هــو فــي شــرعــة الــمـودَّةِ ذو شَـكـ ـكٍ[2] بـعـيـدٍ مـن صِـحَّـةِ الإيـمـان
وكــذا الــدِّيــن واحــدٌ مــســتــقــيــمٌ وكَــفــورٌ مَــن عَــقْــدُهُ[3] دِيــنــان

وإني لأعرف فتىً من أهل الجِدَةِ والحَسَبِ والأدبِ؛ كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصَّدْرِ من حُبِّه، وأكثر [مِنْ] ذلك كارهةٌ له لقلَّة حلاوةِ شمائلَ كانت فيه، وقُطوبٍ دائمٍ كان لا يفارقه، ولا سيَّما مع النساء، فكان لا يلبثُ إلا يسيراً ريثما يصلُ إليها بالجماع؛ ويعود ذلك الكُرهُ حُبّاً مُفرطاً، وكَلَفاً زائداً، واستهتاراً مَكْشُوفاً، ويتحوَّلُ الضَّجَرُ لصُحبته ضَجَراً لفراقه. صَحِبَهُ هذا الأمرُ في عدَّةٍ منهنَّ، فقالَ بعض إخواني: فسألته عن ذلك، فتبسَّم نحوي، وقال: إذاً - والله! - أخبرك، أنا أبطأ النَّاس إنزالاً، تقضي المرأةُ شهوتها - وربَّما ثنَّتْ - وإنزالي وشهوتي لم ينقَضِيا بعدُ، وما فترتُ بعدها قطُّ، وإنِّي لأبقىٰ بحسبي[4] بعد انقضائها الحينَ الصالحَ، وما لاقىٰ صدري صدرَ امرأةٍ قطُّ عند الخُلْوة إلا عند تعمُّدي المعانَقَةَ، وبحسبِ ارتفاع صدري نزولُ مؤخري.

فمثل هذا وشبهه إذا وقَعَ؛ وافقَ أخلاقَ النَّفْسِ، وولَّد المحبَّةَ، إذ الأعضاءُ الحسَّاسةُ مسالكُ إلىٰ النُّفوسِ ومؤدياتٌ نحوها.

---

(١) في الأصل: بثاني. والتَّصحيح من: «روضة المحبِّين» و«ديوان الصَّبابة»، وعلىٰ الصَّواب قرأها العلامة محمود شاكر رحمه الله.
(٢) شَكٌ: كذا في الأصل واضحة، وفي: «روضة المحبِّين»، وفي «ديوان الصبابة»: شِرْكٍ.
(٣) كذا في الأصل، وفي «روضة المحبِّين»، و«ديوان الصبابة»: عنده.
(٤) كذا في الأصل واضحة، وهكذا أثبتها بتروف. وقرأها برشيه: بحبسي. وجعلها الصَّيرفي: بمُنَّتي. وتبعه (مكي) و(ع).





باب: من أحبَّ صِفةً لم يَستحسنْ بعدها غيرها ممَّا يخالفها

واعلم ـ أعزَّكَ الله! ـ أنَّ للحُبِّ حُكْماً علىٰ النُّفوس ماضياً، وسلطاناً قاضياً، وأمراً لا يخالَفُ، وحدّاً لا يُعصَىٰ، وملكاً لا يُتَعَدَّىٰ، وطاعةً لا تُصرفُ، ونَفاذاً لا يُرَدُّ، وأنه يُنَغِّصُ المِرَرَ[1]، ويُحِيلُ[2] المُبْرَم، ويُحلِّلُ الجامدَ، ويخل[3] الثابتَ، ويَحُلُّ الشغافَ، ويُحيِلُ الممنوعَ. ولقد شاهدتُ كثيراً من النَّاس لا يُتَّهمون في تَمْييزهم، ولا يُخافُ عليهم سقوطٌ في معرفتهم، ولا اختلالٌ بحسُنِ اختيارهم، ولا تقصيرٌ في حَدْسهم؛ قد وَصَفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليسَ بمُستحسن عند الناس، ولا يُرْضِي[4] في الجمال، فصارتْ هجِّيراهم، وعُرضةً لأهوائهم، ومنتهىٰ استحسانهم، ثم مضىٰ أولئك إمّا بسُلُوٍّ، أو بِبَيْنٍ، أو هَجْرٍ، أو بعضِ عوارض الحبِّ، وما فارقهم استحسان تلك الصفاتِ، ولا بَانَ عنهم تفضيلها علىٰ ما هو أفضلَ منها في الخليقة[5]، ولا مالوا إلىٰ سواها؛ بل صارتْ تلك الصفات

---

(١) مرر جمع المِرَّة: مزاج من أمزجة البدن، وقوةُ الخَلْقِ وشِدَّته. و(يُنَغِّصُ) أي: يُكَدِّر. وجعلها (ع): يَنْقُضُ. وهذا يتناسب مع المعنى الثاني للمرَّة.

(٢) جعلها (ع): ويحُلّ.

(٣) في الأصل بالحاء المهملة.

(٤) هكذا في الأصل، ويمكن أن تقرأ: يُرْضَىٰ.

(٥) هكذا في الأصل، وغيَّرهما برشيه إلىٰ «الحقيقة»، وقرأها العلامة محمود شاكر: «الخِلْقة».

المُستجادة عند النَّاسِ مهجورةً عندهم وساقطةً لديهم إلىٰ أن فارقوا الدنيا، وانقضتْ أعمارُهُم، حنيناً منهم إلىٰ مَن فقدوُهُ، وأُلفةً لمن صَحِبُوهُ، وما أقولُ إنَّ ذلك كان تصنّعاً، لكن طبعاً حقيقيّاً، واختياراً لا دَاخلةَ فيه، ولا يرون سواه، ولا يقولون في طَيِّ عَقْدِهِمْ بغيره.

وإنّي لأعرفُ من كانَ في جِيدِ حبيبه بعضُ الوَقَصِ[1] فما استحسنَ أَغْيدَ، ولا غيداءَ بعد ذلكَ، وأعرفُ مَن كان أولُ علاقته بجاريةٍ مائلةٍ إلىٰ القِصَر فما أحبَّ طويلة بعد هذا. وأعرفُ ـ أيضاً ـ من هَوِيَ جاريةً في فمها فَوَهٌ[2] لطيفٌ فلقد كان يتقذَّرُ كلَّ فمٍ صغير، ويذُمُّهُ، ويكرهُهُ الكراهية الصَّحيحة. وما أصفُ عن منقوصي الحُظوظِ في العلم والأدب لكن عن أوفرِ النَّاسِ قِسْطاً في الإدراك، وأحقهم باسم الفهم والدِّراية.

وعنّي أخبركَ: أنّي أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراءَ الشَّعْرِ فما استحسنتُ من ذلك الوقتِ سوداءَ الشَّعْر، ولو أنّه علىٰ الشَّمْسِ، أو علىٰ صورة الحُسْنِ نفسِهِ، وإنّي لأجدُ هذا في أصل تركيبي مُذْ ذلكَ الوقتِ، لا تواتيني نفسي علىٰ سواه، ولا تُحِبُّ غيره البتَّةَ. وهذا العارضُ بعينه عَرض لأبي ـ رضي الله عنه ـ وعلىٰ ذلك جرىٰ إلىٰ أن وافاه أجلُه.

وأما جماعةُ خلفاءِ بني مروانَ ـ رحمهم الله ـ ولا سِيَّما ولدُ النَّاصر[3] منهم، فكلُّهم مجبولونَ علىٰ تفضيل الشُّقْرةِ، لا يختلف في ذلك منهم مختلفٌ، وقد رأيناهم ورأينا مَنْ رءَاهم مِنْ لَدُن دولةِ النَّاصر إلىٰ الآن فما منهم إلاّ أشقر، نزاعاً إلىٰ أمهاتهم، حتّىٰ قد صار ذلك فيهم خِلْقةً، حاشا

---

(١) الوقص: قصر العنق.

(٢) الفَوَهُ: سعة في الفم.

(٣) يعني: عبدالرحمٰن الناصر، وقد رزق أحد عشر ذكراً (انظر: الجمهرة: ١٠٠، ففيه تفصيل لمن أعقب من هؤلاء الأولاد، وصورة لاتصال النسب حتى أيام ابن حزم) (ع).

سليمان الظَّافر[1] ـ رحمه الله ـ، فإني رأيته أسود اللمَّة واللِّحية. وأما النَّاصر والحكم المُستنصر ـ رضي الله عنهما ـ فحدّثني الوزير أبي ـ رحمه الله[2] ـ وغيره أنَّهما كانا أشقَرين أشهَلَيْنِ، وكذلك هشام المؤيَّد، ومحمَّد المهدي[3]، وعبدالرَّحمن المرتضى[4] ـ رحمهم الله ـ، فإنِّي قد رأيتهم مراراً، ودخلتُ عليهم فرأيتهم شُقْراً شُهلاً، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أذلك استحسانٌ مركَّبٌ في جميعهم، أم لروايةٍ كانتْ عند أسلافهم في ذلك فَجَرَوْا عليها. وهذا ظاهرٌ في شعر أبي عبدالملك مروان بِن عبدالرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين النَّاصر وهو المعروف بالطَّلِيقِ[5]،

(١) هو نفسه سليمان الملقب بالمستعين وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، الذي استعان بالبربر في الفتنة، وحين فتح قرطبة وبويع بالخلافة (٤٠٠) تلقَّب أيضاً بـ«الظافر بحول الله» (الحلّة السيراء ٢: ٧) ومن المفارقة أن يترحَّم عليه ابن حزم هنا وأن يقول فيه في موطن ءاخر: «وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم قومه، وهو الذي سلَّط جنده من البرابرة فأخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة ـ حاشا المدينة وطرفاً من الجانب الشرقي ـ وأخلوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن وأفنوا أهلها بالقتل والسَّبي، وهو لا ينكر ولا يغيِّر عليهم شيئاً» (الجمهرة: ١٠٢) وأخبار سليمان في ابن عذاري (ج٣) والذخيرة (ج: ١) (ع).

(٢) كان والد ابن حزم وزيراً في الدولة العامرية، وتوفي سنة ٤٠٢ (الجذوة: ١١٧ ـ ١١٩ والبغية رقم: ٤١١ والصلة: ٣١) وسيذكر ذلك ابن حزم (ع).

(٣) محمد المهدي: وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار، ءاخر من ولي الأمر من بني مروان بالأندلس ولاية تامَّة (٣٩٩ ـ ٤٠٠) يعزل فيها ويولي من ءاخر شرقها إلى ءاخر غربها وكذلك في كثير من بلاد البربر، وفي أيامه ابتدأ فساد الأندلس ولم يعقب إلا ابنة وابناً، قتل بقرطبة (الجمهرة: ١٠١) (ع).

(٤) عبدالرحمٰن المرتضى: هو ابن محمد بن عبدالملك بن الناصر، وكان عبدالرحمٰن رجلاً صالحاً مائلاً إلى الفقه (انظر محاولته لانتزاع الأمر من بني حمود في الذخيرة ١/١: ٤٥٣ والإحاطة ٣: ٤٦٦) (ع).

(٥) هو أحد فحول الشُّعراء الأشراف المشهورين، ذكره الحميديُّ في: «الجذوة» ٣٢١، وقال: كان أديباً شاعراً مُكْثِراً، وأكثر شعره في السِّجن، قال لي أبو محمَّد عليُّ بن أحمد ـ يعني: ابن حزم ـ: أبو عبدالملك ـ هذا ـ في بني أميَّة كابن المعتزِّ في بني العباس؛ ملاحةَ شعرٍ، وحُسْنَ تشبيهٍ. سجن وهو ابن ستِّ عشرةَ سنة، ومكث في=

وكان أشعرَ أهلِ الأندلس في زمانهم، وأكثرُ تغزُّلِهِ فَبِالشُّقر، وقد رأيته وجالسته.

وليس العَجَبُ فيمن أحبَّ قبيحاً ثمَّ لم يَصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك، ولا في مَنْ طبع مُذْ كانَ علىٰ تفضيل الأَدنىٰ، ولكنْ في من كان ينظرُ بعينِ الحقيقة ثمَّ غلبَ عليه هوىً عارضٌ بعد طول بقائه في الجمام[1] فأحاله عمَّا عهدَتْهُ نفسه حوالةً صارت له طبعاً، وذهبَ طبعه الأوَّلُ وهو يعرفُ فضل ما كان عليه أوّلاً، فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبَىٰ إلاَّ الأدنىٰ، فاَعجبْ لهذا التغلُّب الشديدِ، والتَّسْليطِ العظيم. وهو أصدقُ المحَبةِ حقاً؛ لا مَن يتحلَّىٰ بشِيَم قومٍ ليس منهم، ويدَّعي غريزةً لا تقبله، فيزعم أنه يتخيَّرُ من يحبُّ. أما لو شغلَ الحبُّ بصيرتَهُ، وأجاح[2] فكرته، وأجحفَ بتمييزه؛ لحال بينه وبين التَّخَيُّر والارتياد. وفي ذلك أقول شعراً منه: [من البسيط]

منهم فتىً كانَ في مَحْبُوبه وقَصٌ ... كأنَّما الغِيدُ في عَيْنيه جِنَّانُ

وكان مُنبسطاً في فَضْلِ خِيرته[3] ... بحُجَّةٍ حقّها في القول تِبْيان

إنَّ المَها ـ وبها الأمثالُ سائرةٌ ـ ... لا ينكرُ الحسنَ فيها الدَّهرَ إنسان

= السجن ست عشرة سنة، (ثم أخرج ولُقِّب بالطَّليق)، وعاش بعد إطلاقه من السجن ست عشرة سنة، ومات (كهلاً) قريباً من الأربع مئة. انتهى، وما بين القوسين فمن: «تاريخ الإسلام» للإمام الذهبي (الطبقة: ٣٩/ص: ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

ووقع في المخطوط: عبدالملك بن مروان. وهكذا أثبته بتروف و(ع)، وهو تحريف؛ صحَّحته من المصدرين السابقين، و«الحلَّة السِّيراء» ١/٢٢٠ (٨٦)، و«المغرب في حُلىٰ المغرب» ١٩١ (١٢٤). وأثبته علىٰ الصَّواب الدكتور الطَّاهر أحمد مكي، وأحال إلى ترجمته لكتاب غرسيه غومث: «مع شعراء الأندلس والمتنبي» ص: ٥٨؛ وما بعدها، ط٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

(١) في الأصل: الجماعة.

(٢) جعلها (ع): وأطاح.

(٣) قرأها (ع) بالباء الموحَّدة، وهي في الأصل بالياء.

وُقْصٌ فليسَ بها عَنقاءُ واحدةٌ ... وهل تُزَانُ بطولِ الجِيدِ بُغْران
وءَاخَرٌ كان في مَحبوبِه فَوَهٌ ... يقول حَسْبيَ في الأفواهِ غِزلان
وثالثٌ كانَ في مَحبوبه قِصَرٌ ... يقولُ: إنّ ذواتَ الطُّولِ غِيلان

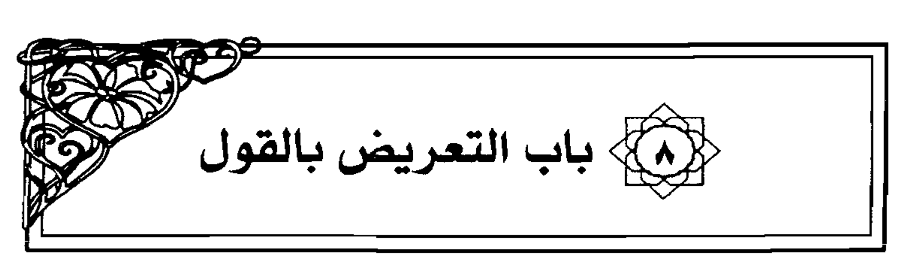
وأقولُ ـ أيضاً ـ: [من الطويل]

يَعيبونَها عندي بشُقرةِ شَعرها ... فقلتُ لهم هذا الذي زانَها عندي
يَعيبون لونَ النُّور والتِّبْر ضَلَّةً ... لرأيِ جَهولٍ في الغوايةِ ممتدِّ
وهل عابَ لونَ النَّرجِسِ الغَضِّ عائِبٌ ... ولونَ النُّجوم الزَّاهرات على البُعد
وأبعدُ خَلق الله من كُلِّ حكمةٍ ... مُفضِّلُ جُرْمٍ فاحِمِ اللَّوْنِ مُسودِّ
به وُصِفَتْ ألوانُ أهل جهنَّمَ ... ولِبسةُ باكٍ مُثْكَلِ الأَهلِ محتدِّ
ومُذ لاحت الرَّاياتُ سُوداً تيقنتْ ... نفوسُ الورىٰ أن لا سبيلَ إلىٰ الرُّشد[1]

※ ※ ※

(١) علّق الدكتور إحسان عباس هنا بقوله: يحسن التوقف هنا عند كراهية ابن حزم للرايات السود، وهي شعار العباسيين، ليعرف مدى تعلقه بالأموية، حتى لقد اتهم بالتعصُّب للأمويين من رجلٍ مثل ابن حيان (راجع مقدمة جوامع السيرة).
قلت: على فرض صحّة هذا التَّوجيه؛ فإنَّ ابنَ حزم ـ رحمه الله ـ لم يكن ليبني فكره وموقفه على أساس كراهيةٍ لجهةٍ، وتعلُّقٍ بجهةٍ أخرىٰ؛ وإنَّما على فقهه الواعي للتأريخ الإسلامي والتَّغيُّرات الجذرية فيه. إذ لا يخفىٰ ما نتج عن سقوط الدَّولة الأمَويَّة من توسُّع لنشاط الحركات الباطنية، وتسلُّطٍ للأعاجم، وانحسارٍ لدور العرب في قيادة الأُمة الإسلامية.





٨ باب التعريض بالقول

ولا بدَّ لكلِّ مطلوبٍ من مَدْخَلٍ إليه، وسبب يُتوصَّلُ به نحوه، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطةٍ إلاَّ العليمُ الأوّلُ ـ جلَّ ثناؤه ـ.

فأولُ ما يَستعمل طُلابُ الوصل، وأهلُ المحبةِ في كشف ما يجدونه إلىٰ أحبتهم: التعريضُ بالقول، إمَّا بإنشادِ شِعْرٍ، أو بإرسالِ مَثَلٍ، أو تعمية بيتٍ، أو طَرْحِ لُغزٍ، أو تسليطِ كلامٍ.

والنَّاسُ يختلفونَ في ذلك علىٰ قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أَحِبتهم من نِفارٍ أو أُنسٍ أو فطنةٍ أو بَلادةٍ. وإنِّي لأعرفُ من ابتدأ كشفَ محبَّته إلىٰ من كان يحبُّ بأبياتٍ قلتُها. فهذا وشبهه يبتدىء به الطالبُ للمودَّة، فإن رأىٰ أُنساً وتسهيلاً زادَ، وإن يعاينْ شيئاً من هذه الأمور[١] في حين إنشاده لشيءٍ ممَّا ذكرنا، أو إيرادِهِ لبعض المعانيِ التي حدَّدنا، فإنَّ انتظاره[٢] الجوابَ، إمَّا بلفظٍ أو بهيئة الوجه والحركاتِ؛ لموقِفٌ بين الرَّجاء واليأس هائِلٌ ـ وإن كانَ حيناً قصيراً ـ لأنَّهُ[٣] إشرافٌ علىٰ بلوغِ الأملِ أو انقطاعِهِ.

---

(١) في الأصل: الأمر.

(٢) فإنَّ انتظاره؛ في الأصل: وانتظاره. وما أثبته فقراءة العلامة محمود شاكر رحمه الله.

(٣) في الأصل: ولكنَّه. والتَّصحيح عن العلامة شاكر، وهو تصحيح لسياق الكلام، مرتبط بما قبله.

ومن التَّعريض بالقول جنسٌ ثانٍ، ولا يكون إلاً بعد الاتفاق ومعرفةِ المحبَّةِ من المحبوب، فحينئذٍ يقعُ التَشكِّي وعقدُ المواعيد، والتَّعْدِيدُ[1]، وإِحكامُ الموداتِ بالتَّعْريض، وبكلامٍ يَظْهَرُ لسامعه منه معنىً غيرُ ما يذهبان إليه، فيجيبُ السامعُ عنه بجوابٍ غير ما يتأدَّىٰ إلىٰ المقصود بالكلام، علىٰ حسب ما يتأدّى إلىٰ سَمْعِه ويسبقُ إلىٰ وَهْمِهِ، وقد فَهِمَ كلٌّ منهما عن صاحبه، وأجابه بما لا يفهمه غيرهما، إلاً مَنْ أُيِّدَ بحِسٍّ نافذٍ، وأُعِينَ بذكاءٍ، وأُمِدَّ بتجربةٍ، ولا سيَّما إنْ أحسَّ من معانيهما بشيءٍ؛ وقلَّما يغيبُ عن المتوسِّمِ المُجِيدِ، فهنالكَ لا خفاءَ عليه فيما يريدان.

وأنا أعرف فتىً وجاريةً كانا يتحابَّان، فأرادها في بعض وَصْلها على بعضٍ ما لا يَجمل[2]، فقالت: والله لأشكونَّكَ في المَلَإِ علانيةً، ولأفضحنَّكَ فضيحةً مستورةً. فلمَّا كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلسَ بعضَ أكابر الملوك، وأركانِ الدَّولة، وأجلِّ رجالِ الخلافة، وفيه ممَّنْ يُتَوَقَّىٰ أمْرُهُ من النِّساءِ والخدم عددٌ كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتىٰ، لأنَّهُ كانَ بسببٍ من الرَّئيس، وفي المجلس مغنِّياتٌ غيرُها، فلما انتهى الغناءُ إليها سوَّتْ عودها، واندفعت تغنِّي بأبياتٍ قديمةٍ[3]، وهي: [من الوافر]

غَزالٌ قد حكىٰ بدرَ التَّمام ... كشَمْسٍ قد تجلَّتْ من غَمام

(١) كذا في الأصل واضحة، وهكذا أثبتها بتروف، وقد سبق استعمال المصنِّف ـ رحمه الله ـ لهذه اللفظة في: (٢ ـ باب علامات الحب)، وقد تعرَّضت للتحريف هناك، كما تعرَّضت للتحريف في هذا الموضع؛ فجعلها (مكي): والتقرير! وبرشيه: بالتهديد! و(ع) وغيره: بالتَّغرير! وذهب العلامة محمود شاكر إلىٰ أنَّ الصَّواب: «بالتَّورية»، والصَّواب ما في الأصل، والمعنى واضح، وقد أشرتُ إليه في الموضع السابق.

(٢) جعلها (ع): يَحِلُّ، وهو رأي العلامة محمود شاكر، وهذا وإن كان بمعنىً ما في الأصل؛ لكنه مخالف له.

(٣) لم أجد هذه الأبيات بين الأصوات التي كانت ذائعة في المشرق والمغرب.

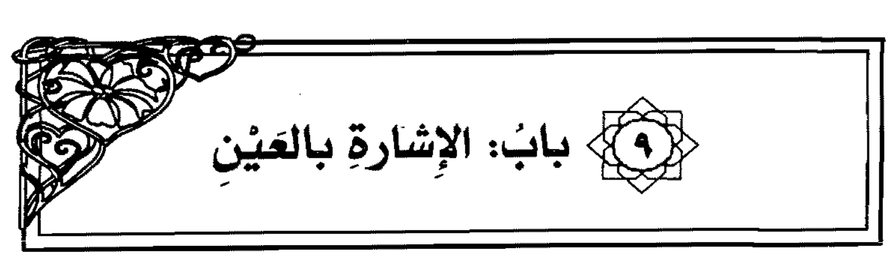
سَبىٰ قلبي بألحاظٍ مِراضٍ وقَدٌّ الغصن في حُسن القَوام
خضعتُ خضوعَ صَبٍّ مستكينٍ له وذَللتُ ذِلَّةَ مستهام
فَصِلني يا فديتُكَ في حَلالٍ فما أهوىٰ وِصَالاً في حَرام

وعلمتُ أنا هذا الأمرَ فقلتُ: [من الوافر]

عِتابٌ واقعٌ وشَكاةُ ظُلْم أتت من ظالمٍ حَكَمٍ وَخَصْمِ
تشكَّتْ ما بها لم يَدر خَلقٌ سوى المشْكوِّ ما كانت تسمِّي

***





٩ باب: الإشارة بالعيْن

ثُمَّ يتلوُ التعريضَ بالقولِ ـ إذا وقع القبولُ والموافقة ـ: الإشارةُ بلَحْظِ العين، وإنَّه ليقومُ في هذا المعنى المقامَ المحمودَ، ويبلغ المبلغَ العجيبَ، ويُقطع به ويُتواصَلُ، وَيُوعَدُ وَيُهَدَّد، ويُنْتهرُ[1] وَيُبْسَط، ويُؤمَرُ وَيُنْهَىٰ، وتُضربُ به الوعود[2]، وَيُنبَهُ على الرَّقيبِ، وَيُضحَكُ وَيُحزَنُ، وَيُسألُ وَيُجاب، وَيُمْنَعُ وَيُعْطَىٰ.

ولكلِّ واحدٍ من هذه المعاني ضَرْبٌ من هيئة اللَّحْظِ لا يُوقَفُ علىٰ تحديده إلا بالرؤية، ولا يمكنُ تصويره ولا وصفُهُ إلا الأقل منه، وأنا واصِفٌ ما تيسَّرَ من هذه المعاني:

فالإشارةُ بمؤخَّرِ العين الواحدةِ؛ نهيٌ عن الأمر.

وتفتيرُهَا إعلامٌ بالقبولِ.

وإدامةُ نظرها دليلٌ على التوجُّعِ والأسَفِ.

وكسرُ نظرها ءايةُ الفرح.

والإشارةُ إلىٰ إطباقها دليلٌ على التَّهديد.

---

(١) جعلها (ع): ويُقْبض.

(٢) خ: وتصرب به الأوغاد. ولم يظهر لي وجهه، وما أثبته فعن (ع).

وَقَلْبُ الحَدَقَةِ إلى جهةٍ ما ثُمَّ صرفها بسرعةٍ تنبيهٌ على مُشارٍ إليه.

والإشارةُ الخَفِيَّةُ بمؤخَّرِ العينين ـ كلتيهما[1] ـ سؤالٌ.

وقلبُ الحدقة من وسط العين إلى المَأَقِ[2] بسرعةٍ شاهدُ المنع.

وترعيدُ الحَدَقَتين من وسط العينين نهيٌ عام.

وسائر ذلك لا يُدْرَكُ إلا بالمشاهدة.

واعلم أن العينَ تنوبُ عن الرُّسُلِ، وَيُدْرَكُ بها المرادُ، والحواسُّ الأربع أبوابٌ إلىٰ القلب ومنافذُ نحو النَّفس، والعينُ أبلغها، وأصحُّها دلالةً، وأوعاها عملاً. وهي رائدُ النفسِ الصَّادقُ، ودليلُها الهادي، ومِرْءاتُها المجلوَّة التي بها تقفُ علىٰ الحقائق، وتحوزُ الصِّفاتِ، وتفهمُ المحسوسات. وقد قيل: «ليس المُخبَرُ كالمعايِن»[3].

وقد ذكر ذلك أفليمونُ[4] ـ صاحبُ الفِراسة ـ وجعلها معتمدةً في الحكم.

---

(١) خ: كلتاهما.

(٢) مَأَقُ العين: طرفها ممَّا يلي الأنف، وهو مجرىٰ الدَّمع من العين.

(٣) وهذا لفظُ حديثٍ صحيح؛ رواه ـ بهذا اللفظ ـ الخطيب في: «تاريخ بغداد» ١٩٩/٣، وابن عدي في: «الكامل في الضعفاء» ٢٩١/٦؛ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ بإسنادٍ حسن. ورواه أحمد ٢٧١/١ (٢٤٤٧)، وابن حِبَّان (٦٢١٣)، والحاكم ٣٢١/٢ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً؛ بلفظ: **«ليس الخَبَرُ كالمُعَايَنَة، إنَّ اللّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَخبَرَ مُوسىٰ بما صَنَعَ قَوْمُهُ في العِجْلِ؛ فَلَمْ يُلْقِ الأَلْواحَ، فلمَّا عايَنَ ما صَنَعُوا؛ أَلْقىٰ الألواحَ فانْكَسَرَتْ»**.

(٤) افليمون (Philemon) صاحب الفراسة، انظر في إمتحان قدرته على الفراسة ابن أبي أصيبعة ١: ٢٧، وذكره صاحب صوان الحكمة وأورد له قوله في العشق: هو مرض يحدث في الروح جالبه النظر ومسكنه القلب ومهيِّجه الفكر (صوان: ٢٤٥) وقال القفطي: فاضل كبير عالم في فن من فنون الطبيعة وكان معاصراً لبقراط وأظنه شامي الدار، كان خبيراً بالفراسة عالماً بها. . . وله في ذلك تصنيف مشهور خرج من اليونانية إلى العربية (تاريخ الحكماء: ٦٠) (ع).

وبحسبك من قوةِ إدراكِ العين أنَّها إذا لاقىٰ شعاعُها شعاعاً مجليّاً[١] صافياً، إمَّا حديداً مصقولاً[٢]، أو زجاجاً، أو ماءً، أو بعض الحجارة الصافية، أو سائرَ الأشياءِ المجلوَّة البراقة ذوات الرَّفيف والبصيص واللَّمعان؛ يتّصلُ أقصىٰ حدوده بجسم كثيفٍ ساتر منَّاعٍ كَدِرٍ؛ انعكسَ شعاعها فأدركَ الناظرُ نفسَهُ ومَازَها عياناً. وهو الذي ترى في المرءَاةِ، فأنت حينئذ كالنَّاظر إليكَ بعين غيرك. ودليلٌ عيانيٌ علىٰ هذا أنَّك تأخذ مرءَاتَيْنِ كبيرتين فتُمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك، والثانيةَ بيسارك قبالة وجهك، ثم تزويها قليلاً حتَّىٰ يلتقيا بالمقابلة، فإنَّك ترىٰ قَفَاك وكلَّ ما وراءك، وذلك لانعكاس ضَوْءِ العين إلىٰ ضوءِ المرءاة التي خلفك، إذ لم تجد مَنْفَذاً في الَّتي بين يديك، ولمَّا لم يجد وراء هذه الثَّانيةِ منفذاً انصرفَ إلىٰ ما قابله من الجسم، وإن كانَ صالحٌ ـ غلامُ أبي إسحاق النظّام[٣] ـ خالفَ في الإدراكِ، فهو قولٌ ساقطٌ لم يوافقه عليه أحدٌ.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أنَّ جوهرها أرفعُ الجواهر وأعلاها مكاناً، لأنها نوريَّةٌ لا تُدَركُ الألوانُ بسواها، ولا شيءَ أبعد مرمىً ولا أنأىٰ غايةً منها، لأنَّها تدركُ بها أجرامُ الكواكب الَّتي في الأفلاك البعيدة، وَتُرَىٰ بها السماءُ علىٰ شدَّة ارتفاعها وبُعدها، وليس ذلك إلاَّ لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرءاة، فهي تدركها وتصلُ إليها بالطَّفْرِ، لا علىٰ قطعِ الأماكنِ، والحلولِ في المواضعِ، وتنقُّلِ الحركاتِ، وليسَ هذا لشيءٍ من

---

(١) (شعاعاً مجليّاً): كذا في الأصل، وجعلها برشيه: (شيئاً ما مجلُوّاً).

(٢) خ: مفصولاً.

(٣) لم أجد تعريفاً بصالح غلام النظام إلا أن الأشعري أورد قولاً في الرؤية: «الذي يرى الرائي في المرءاة إنما هو إنسان مثله اخترعه الله» وأضاف: وهذا قول صالح. قلت: وهو يناسب ما يذكره ابن حزم من مخالفة صالح لمن عداه في مسألة الإدراك. (ع).

الحواسِّ مثل الذَّوقِ واللَّمْسِ؛ لا يُدركان إلا بالمجاورة، والسَّمعُ والشَّمُّ؛ لا يدركان إلاَّ من قريبٍ. ودليلٌ علىٰ ما ذكرناه من الطَّفر[1]؛ أنَّكَ ترىَ المُصوِّتَ قبلَ سماع الصَّوت، وإن تعمدْتَ إدراكهما معاً، ولو كان إدراكهما واحداً لَمَا تقدَّمت العينُ السَّمْعَ.

***

(١) الطَّفر: في الأصل (الظفر) وهكذا أثبتها بتروف، وما أثبته فعن (ع)، وعلَّق عليه بقوله: بالطفر: هذه هي القراءة الصحيحة (التي اقترحها برشيه) وفي سائر القراءات: بالنظر، وإنما حكمت بصحتها اعتماداً على رأي ابن حزم في الطفرة وعلاقة حاسة البصر بها. فالطفرة في رأي النظام هي أن المارّ على سطح جسم من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المارّ ولا مرَّ عليها؛ وخطَّأ ابن حزم هذا الرأي ثم قال: «هذا ليس موجوداً البتة إلا في حاسة البصر فقط وكذلك إذا أطبقت بصرك ثم فتحته لاقى نظرك خضرة السماء والكواكب التي في الأفلاك البعيدة بلا زمان؛ كما يقع على أقرب ما يلاصقه من الألوان، لا تفاضل بين الإدراكين في المدة أصلاً». ثم قارن بين حاسة السمع وحاسة البصر (كما فعل هنا) وقال: إن الصوتي يقطع الأماكن وينتقل فيها وإن البصر لا يقطعها ولا ينتقل فيها (أي أن إدراكه المرئيات طفرة) انظر الفصل ٥: ٦٤ ـ ٦٥.





١٠ باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا: المراسلةُ بالكتب. وللكتب ءافاتٌ[١]، ولقد رأيتُ أهلَ هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتبِ، أو بحَلِّها في الماء وبمحو أثرها، فرُبَّ فضيحةٍ كانتْ بسببِ كتابٍ، وفي ذلك أقول: [من الطويل]

عزيزٌ عليَّ اليومَ قطعُ كتابكم ... ولكنَّهُ لم يُلْفَ للوُدِّ قاطِعُ
فآثرتُ أن يبقىٰ ودادٌ ويمَّحي[٢] ... مِدادٌ فإن الفَرْعَ للأصلِ تابعُ
فكم من كِتابٍ فيه مِيتةُ ربِّه ... ولم يَدْرِهِ إذ نمَّقَتْهُ الأصابع

وينبغي أن يكونَ شَكْلُ الكتاب ألطفَ الأشكال، وجنسُه أملحَ الأجناس؛ ولعمري إنَّ الكتابَ لَلِسَانٌ في بعض الأحايين، إما لحَصَرٍ في الإنسان، وإما لحياءٍ، وإما لهيبة. نعم؛ حتَّىٰ إنَّ لوصول الكتاب إلىٰ المحبوب، وعلم المُحبِّ أنَّهُ قد وقعَ بيده ورءَاهُ؛ للذةً يَجِدُها المحبُّ عجيبةً تقومُ مقامَ الرُّؤية، وإنَّ لرَدِّ الجواب، والنَّظَر إليه سروراً يعْدِلُ اللقاءَ، ولهذا ما ترىٰ العاشقَ يَضعُ الكتابَ على عينيه وقلبه ويُعانقه.

ولعهدي ببعض أهل المحبَّةِ، ممَّنْ كانَ يدري ما يقولُ، ويحسنُ

---

(١) خ: ءايات. والتصحيح عن (ع)، وجعلها (مكي): ءافاق!
(٢) هذه قراءة العلامة محمود شاكر، وفي الأصل: يمتحي.

الوصف، ويعبِّر عمَّا في ضميره بلسانه عبارةً جيِّدةً، ويُجيدُ النَّظَرَ، ويدّقِقُ في الحقائق؛ لا يَدَعُ المُراسلةَ وهو مُمْكِنُ الوصلِ، قريبُ الدار، داني المزار، ويَحكي أنها من وجوه اللَّذَّةِ.

ولقد أُخبرت عن بعض السُّقَاطِ الوُضعاء أنَّه كانَ يضعُ كتابَ محبوبه علىٰ إحليله. وإنَّ هذا النَّوع من الاغتلام قَبيحٌ، وضَربٌ من الشَّبَقِ فاحِشٌ.

وأما سقيُ الحِبْرِ بالدَّمع؛ فأعرفُ مَن كان يفعل ذلك، ويُقارضه محبوبه بِسَقْيِ الحبر بالرِّيق، وفي ذلك أقول: [من الطويل]

جوابٌ أتاني عن كِتابٍ بعثتُهُ ... فسكَّن مُهتاجاً وهيَّج ساكنا
سقيتُ بدَمعِ العينِ لمَّا كتبتُه ... فِعالَ مُحبٍّ ليسَ في الودِّ خائنا
فما زال ماءُ العينِ يَمْحو سُطُورَه ... فيا ماءَ عيني قد محوتَ المحاسنا
غَدا بدُموعي أوَّلُ الخطِّ بيِّناً ... وأضحىٰ بدمعي ءَاخرُ الخطِّ بائنا

خَبَرٌ:

ولقد رأيتُ كتاباً لمحبٍّ[1] إلىٰ محبوبه، وقد قطَعَ في يده بسِكِّينٍ له، فسالَ الدَّمُ واستمدَّ منه، وكتب به الكتابَ أجمعَ. ولقد رأيتُ الكتابَ بعد جُفوفه فما شَكَكْتُ أنَّه بِصِبْغِ اللَّكِّ[2].

❋ ❋ ❋

(١) تحرَّف عند بتروف إلى: «كتابَ المحبِّ»، وتابعته الطَّبعات اللاحقة، وصحَّحه العلامة محمود شاكر ـ رحمه الله ـ إلىٰ ما أثبتناه؛ موافقاً في ذلك ما في النسخة الخطية التي لم يطَّلع عليها، وذلك فضل الله ـ سبحانه ـ، يؤتيه من يشاء!

(٢) اللَّكُّ: نبات يستخرج منه صبغ أحمر؛ يصبغ به جلود المِعْزىٰ.





١١ باب: السَّفير

ويقع في الحبِّ بعدَ هذا ـ بعد حلولِ الثِّقةِ، وتمام الاستئناس ـ: إدخَالُ[١] السَّفير.

ويَجِبُ تخيُّره وارتياده واستجادته واستفراهه، فهو دليلُ عقلِ المرء، وبيده حياتُهُ وموتُهُ، وَسَتْرُهُ وفَضِيحَتُه؛ بعدَ الله ـ تعالىٰ ـ. فينبغي أنْ يكونَ الرَّسُولُ ذا هيئةٍ، حاذقاً؛ يكتفي بالإشارة، ويُقَرْطِسُ[٢] عن الغائب، وَيُحَسِّنُ[٣] مِنْ ذاتِ نفسِهِ، ويَضَعُ مِنْ عَقله ما أغفله باعِثُهُ، ويؤدِّي إلىٰ الَّذي أرسله كلَّ ما يشاهِد علىٰ وجهه، كاتِماً للأسرار، حافظاً للعَهْدِ، وفيّاً قَنوعاً ناصحاً.

ومَنْ تعدَّىٰ[٤] هذه الصِّفاتِ كانَ ضرَرُهُ علىٰ باعثه بمقدار ما نقَصَهُ منها. وفي ذلك أقولُ شعراً منه: [من الطويل]

رَسُولُكَ سَيْفٌ في يَمينكَ فاستجدْ حُسَاماً ولا تضربْ به قبل سَقْلِهِ[٥]

---

(١) جعلها (ع): إرسال. وما في الأصل أجود.
(٢) يقرطس: يصيب المرمىٰ.
(٣) هكذا ضبطها العلامة محمود شاكر، وضبطها (ع): ويُحْسِنُ.
(٤) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وقرأها برشيه: تعوزه. وذهب العلامة شاكر إلىٰ أنَّ الصَّواب: «ومَنْ تعرَّىٰ من هذه. . .».
(٥) السَّقْلُ: أي الصَّقْلُ. فهما بمعنًى واحدٍ.

فمن يكُ ذا سيفٍ كَهَام فضُرُّهُ يَعُودُ علىٰ المعنيِّ منه بجهله

وأكثرُ ما يستعملُ المحبُّون في إرسالهم إلىٰ من يُحبُّونَهُ؛ إمَّا خامِلاً لا يُؤَبُه له، ولا يُهتدَى للتَّحفُّظِ منه لصباه أو لهيئة رثَّةٍ أو بذاذةٍ في طلعته؛ وإمَّا جليلاً لا تَلْحَقُهُ الظِّنَنُ لنُسْكٍ يُظهره، أو لسّنٍ عاليةٍ قد بلغها. وما أكثر هذا في النِّساء، ولا سِيَّما ذواتِ العكاكيز والتَّسابِيحِ والثَّوبَيْنِ الأحْمَرَيْن[1] - وإنِّي لأذكرُ بقُرطبة التحذيرَ للنِّساء المُحْدَثاتِ من هذه الصفات حيثما رَأَيْنَها - أو ذواتِ صناعة يُقَرِّب بها من الأشخاص، فمن النِّساء: كالطَّبيبة، والحَجَّامة، والسَّراقة[2]، والدَّلالة، والماشطة، والنَّائحة، والمُغَنِّية، والكاهنة، والمعلمة، والمُسْتَخِفَّةِ[3]، والصَّنَاعِ في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك؛ أو ذا قرابةٍ من المُرْسَلِ إليه لا يشح بها عليه.

فكم منيعٍ سُهِّلَ بهذه الأوصاف، وعسيرٍ يُسِّرَ، وبعيدٍ قُرِّبَ، وجَمُوحٍ أُنِّسَ، وكم داهيةٍ دَهَيَتِ الحُجُبَ المصونةَ، والأستارَ الكثيفةَ، والمقاصيرَ المحروسة، والسُّدَدَ المضبوطةَ؛ لأرباب هذه النُّعوت، ولولا أنْ أنبِّه عليها لما ذكرتها[4]، ولكن لقطع النَّظَر فيها وقلة الثِّقةِ بكلِّ أحدٍ. «والسعيدُ من

(١) حين تكون المرأة العجوز ذات عكازة وتسابيح، فذلك أمر مفهوم؛ أما أن تكون ذات ثوبين أحمرين فذلك زيّ أندلسي، فيما يبدو (ع).

(٢) السراقة: لا أدري أية حرفة هي هذه، وجعلها «برشيه»: السواقة، كأنه عدّها مأخوذة من العمل في السوق (ع).

(٣) كذا في الأصل، وقرأها برشيه: والمستخدمة. وتابعه (ع)، وقرأها السَّامرائي: والمستحفة.

(٤) هكذا واضحة في الأصل، وجعلها (مكي) و(ع): لذكرتها. وكأنَّهما فهما من العبارة: أن ابن حزم قد امتنع عن ذكر (تلك الأوصاف) حتىٰ لا يكون (منبهاً عليها)، وعلَّل ذلك بـ(قطع النظر فيها، وقلة الثقة بكلِّ أحدٍ). وهذا توجيه بعيد لها، يدفعها ظاهرها، فإن ابن حزم قد أشار - فعلاً - إلىٰ تلك الأوصاف؛ تنبيهاً وتحذيراً، ليعرفها القارىء ولا يثق بكلِّ أحدٍ. وهذا واضحٌ لا إشكال فيه، ويؤيده استشهاده بالأثر الذي ذكره؛ فتأمَّل.

وُعِظَ بغيره»[1]؛ وبالضِّدِّ[2].

أسبلَ الله علينا وعلىٰ جميع المسلمين سِتَرَهُ، ولا أزالَ عن الجميع ظلَّ العافية.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ من كانتِ الرَّسُولَ بينهم حَمَامةٌ مؤدَّبةٌ، ويُعْقَدُ الكتابُ في جناحِها، وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

تخَيَّرها نوحٌ فما خابَ ظَنُّه ... لَدَيْها وجاءتْ نَحوَه بالبشائِر

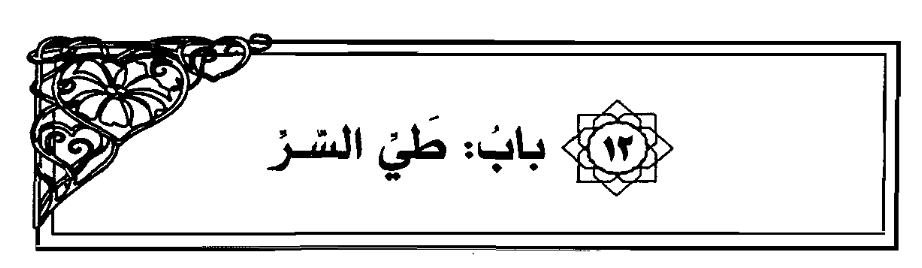
سأودِعها كتبي إليكَ فَهَاكِهَا ... رَسائلَ تُهْدىٰ في قوادِمِ طائرِ

***

(1) تضمين لبعض أثرٍ عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه مسلم (٢٦٤٥)، وابن حبَّان (٦١٧٧)؛ وغيرهما عنه موقوفاً.

(2) أي: والشَّقيُّ مَن وُعِظَ به غيرُهُ. وزاد (مكي)، وكذا (ع): وبالضِّدِّ تتميَّزُ الأشياءُ!! وهذه زيادة لم ترد في المخطوط؛ ولا في طبعتَي: بتروف وبرشيه.





١٢ باب: طَيّ السّرّ

ومن بعض صفاتِ الحبِّ: الكتمانُ باللِّسان، وجحودُ المحبِّ إن سُئِلَ، والتَّصنّعُ بإظهار الصَّبْرِ، وأن يُري أنه عِزهاةٌ[١] خليٌّ.

ويأبىٰ السِّرُّ الدَّفِينُ[٢]، ونارُ الكَلَفِ المتأجِّجَةُ في الضُّلُوعِ؛ إلاَّ ظهوراً في الحركاتِ والعين[٣]، ودَبِيباً كدبيب النَّار في الفحم، والماء في يَبِيسِ المَدَرِ. وقد يمكنُ التمويهُ في أوّلِ الأمر علىٰ غير ذي الحسِّ اللَّطيفِ، وأمَّا بعدَ استحكامه فمُحَالٌ.

وربَّما يكونُ السَّبَبَ في الكتمان تَصاونُ المحبِّ عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السِّمَةِ عند النَّاسِ، لأنَّها ـ بزعمه ـ من صفاتِ أهل البطالة، فيفرُّ منه، ويتفادى منه[٤]، وما هذا وَجْهُ التَّصْحِيحِ[٥]، فَبحَسْب المرءِ المسلم[٦] أن يعفَّ عن محارم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي يأتيها باختياره، ويحَاسَبُ عليها يوم

(١) العزهاة: العازف عن النساء واللَّهو.
(٢) خ: الدَّقيق؛ وهو تحريف، والتَّصحيح عن برشيه.
(٣) قارن هذا بما في: «الموشىٰ» (ص: ٤٨): ولن يخفىٰ المُحِبُ إنْ تستَّر، ولا ينكتم هواه وإنْ تصبَّر.
(٤) كذا في الأصل، ولعل الصَّواب: فيفرُّ منها، ويتفادىٰ منها.
(٥) جعلها (ع): الوجهُ بصحيحٍ.
(٦) في الأصل: المسلم المرء. وهذا مقلوب.

القيامة؛ وأما استحسانُ الحُسْنِ، وتمكُّنِ الحبِّ؛ فطبعٌ لا يُؤمَرُ به، ولا يُنْهى عنه، إذ القلوبُ بيد مُقَلِّبها. ولا يَلزمه[1] غيرُ المعرفة والنَّظَرِ في فَرْق ما بينَ الخطأ والصواب، وأن يعتقدَ الصحيحَ باليقين؛ وأما المحبَّةُ فخِلْقَةٌ، وإنَّما يملكُ الإنسانُ حركاتِ جوارِحهِ المكتسبة؛ وفي ذلك أقول: [من الطويل]

يلومُ رجالٌ فيك لم يَعرفوا الهوىٰ ... وسَيَّانِ عندي فيكَ لاحٍ وساكتُ
يقولونَ جانبتَ التَّصاونَ جُملةً ... وأنتَ عليمٌ[2] بالشَّريعةِ قانِت
فقلتُ لهم هذا الرِّياءُ بعَينه ... صُراحاً وَزَيٌّ[3] للمُرَائينَ ماقت
متىٰ جاءَ تحريمُ الهوىٰ عن محمَّدٍ ... وهل مَنْعُهُ في مُحْكَمِ الذِّكْر ثابت
إذا لم أواقِعْ مَحْرَماً أتَّقي به ... مَجِيئي يومَ البَعْثِ والوجهُ باهت
فلستُ أبالي في الهوىٰ قولَ لائمٍ ... سواءٌ لعمري جاهرٌ أو مُخافت
وهل يَلزمُ الإنسانَ إلا اختيارُه ... وهل بخَبايا اللفظِ يُؤخَذُ صامت

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ بعضَ من امتُحن بشيءٍ من هذا فَسَكَن الوجدُ بين جوانحه، فرام جَحْدَه إلىٰ أنْ غَلُظَ الأمرُ، وَعَرَفَ ذلك في شمائله مَنْ تعرَّضَ للمعرفة ومن لم يتعرَّضْ. وكانَ مَن عَرَّضَ له بشيءٍ نَجَهَهُ[4] وقَبَّحَهُ، إلىٰ أن كانَ من أرادَ الحَظْوَة لديه من إخوانه؛ يُوهِمُهُ تصديقَهُ في إنكاره، وتكذيبَ من ظنَّ به غير ذلك، فَسُرَّ بهذا. ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعضُ من كان يُعَرِّضُ له بما في ضَميره، وهو ينتفي غايةَ الانتفاء،

---

(١) في الأصل: يلزمها.
(٢) في الأصل: عليهم. والتَّصحيح عن (ع).
(٣) جعلها (ع): وربُي.
(٤) نجهه: ردَّه ردّاً قبيحاً.

إذ اجتازَ بهما الشَّخْصُ الَّذي كان يُتَّهمُ بعلاقته؛ فما هو إلاَّ أن وقعتْ عينُهُ علىٰ محبوبه حتَّىٰ اضطربَ وفارقَ هَيْأَتَهُ الأولىٰ، واصفرَّ لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسْن تَثْقِيفٍ، فقطعَ كلامَه المتكلمُ معه ـ فلقد استدعىٰ ما كانَ فيه من ذكره[1] ـ فَقِيلَ له: ما عدا عمَّا بدا؟ فقال: هو ما تَظُنُّونَ، عَذَرَ مَنْ عذر، وعَذَلَ مَنْ عذل. ففي ذلكَ أقولُ شعراً منه:
[من البسيط]

مـا عـاشَ إلا لأنَّ الـموتَ يـرحـمُـهُ ... ممَّا يَرَىٰ من تباريحِ الضَّنىٰ فيه[2]

وأنا أقولُ: [من الهزج]

دمــوعُ الــصَّــبِّ تَــنْــسَــفِــكُ ... وسِــتــرُ الــصَّــبِّ يَــنْــهَــتِــكُ
كــأنَّ الــقَــلْــبَ إذْ يَــبْــدُو ... قَــطَــاةٌ ضَــمَّــهــا شَــرَكُ[3]
فَــيَــا أصــحــابَــنــا قُــولُــوا ... فــإنَّ الــرأيَ مُــشْــتَــرَكُ
إلــىٰ كَــمْ ذا أُكــاتِــمُــهُ ... ومــا لــي عَــنْــهُ مُــتَّــرَكُ

وهذا إنَّما يَعرض عند مقاومةِ طَبْعِ الكتمان والتَّصَاوُنُ؛ لطبع المحبِّ وغلبته، فيكونُ صاحبه متحيِّراً بين نارَيْنِ مُحْرِقَتَيْنِ.

وربَّما كانَ سببُ الكتمان إبقاءَ المحبِّ علىٰ محبوبه، وإنَّ هذا لَمِنْ

---

(١) هكذا في الأصل، وقال العلامة محمود شاكر: أظنُّ الصَّواب: «فقطع كلامه المتكلِّم معه، فانكفأ واستدعىٰ ما كان فيه...»؛ ويدلُّ علىٰ هذا ما بعده. انتهىٰ.
(٢) واضح أن البيت وحده لا يمثل لبَّ المعنى الذي تدور عليه الفقرة السابقة، فلعلّ أبياتاً أسقطها الناسخ كانت تفي بذلك (ع).
(٣) علّق (ع) هنا بقوله:
تشبيه القلب بالقطاة، من الصور التي تتردّد في أشعار العذريين، من ذلك قول قيس ليلى:
كـأن الـقـلـب لـيـلـة قـيـل يـغـدى ... بـلـيـلـى الـعـامـريـة أو يـراح
قـطـاة عـزهـا شـرك فـأضـحـت ... تـقـلـبـه وقـد عـلـق الـجـنـاح

دلائل الوفاء[1]، وكرم الطَّبع، وفي ذلك أقول: [من المتقارب]

دریٰ النَّاسُ أنِّي فتىً عاشقٌ ... كئيبٌ مُعنًّىً ولكن بمَنْ
إذا عاينوا حالتي أيْقَنُوا ... وإن فَتَّشُوا رجَّموا[2] في الظُّنَنْ
كخَطٍّ يُرىٰ رَسمُه ظاهِراً ... وإنْ طلبوا شرحَهُ لم يَبِنْ
كصَوْتِ حَمامٍ علىٰ أيكةٍ ... يرجِّع بالصَّوتِ في كلِّ فَنْ
تلذُّ بنجواهُ[3] أسماعُنا ... ومعناه مُسْتَعْجِمٌ لم يَبِنْ
يقولُونَ باللهِ سَمِّ الَّذي ... نفىٰ حُبُّهُ عَنْكَ طيبَ الوَسَنْ
وهَيْهاتَ دونَ الَّذي حاولوا ... ذَهابُ العُقولِ وخوضُ الفِتَنْ
فَهُمْ أبداً في اختلاجِ الشُّكوكِ ... بظَنٍّ كقَطْعٍ وقَطْعٍ كظَنْ

وفي كتمان السِّرِّ أقولُ قطعةً منها: [من البسيط]

للسِّرِّ عندي مكانٌ لو يَحِلُّ به ... حيٌّ إذاً لاهتدىٰ ريبُ المَنون له
أُميتُهُ[4] وحَياةُ السِّرِّ مِيتَتُه[5] ... كما سرورُ المُعنَّىٰ في الهوىٰ الولَه

وربَّما كانَ سببُ الكتمان توقِّيَ المُحبِّ علىٰ نفسه من إظهار سِرِّهِ، لجلالة قَدْرِ المحبوب.

خَبَرٌ:

ولقد قالَ بعضُ الشُّعراءِ بقرطبةَ شعراً تغزَّلَ فيه بصُبْحٍ ـ أمِّ المؤيَّد؛

---

(١) في الأصل: لمن هو دلائل الوفاء. و(هو) زائدة لا معنىٰ لها.
(٢) في الأصل: رجعوا. والتصحيح عن برشيه و(ع).
(٣) في الأصل: بفحواه. وأثبتُّ قراءة (ع).
(٤) خ: أمنيه.
(٥) خ: ميته.

رحمه الله ـ فغنَّتْ به جاريةٌ أُدْخِلَتْ علىٰ المنصور مُحَمَّدِ بن أبي عامر ليبتاعَها، فأمَرَ بقتلها.

خَبَرٌ:

وعلىٰ مثل هذا قَتْلُ أحمدُ بنُ مُغيث، واستئصالُ ءَالِ مغيثٍ[1]، والتسجيلُ عليهم ألا يُستخدمَ بواحدٍ منهم أبداً حتَّىٰ كان سبباً لهلاكهم، وانقراضِ بيتهم، فلم يبقَ منهم إلاَّ الشَّريدُ الفالُّ[2]. وكانَ سببَ ذلك تغزُّلُهُ بإحدى بناتِ الخلفاءِ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ[3].

ويُحكىٰ عن الحسن بن هانىءٍ[4] أنَّه كانَ مغرماً بحبِّ محمَّدِ بن هارون المعروف بابن زُبيدة[5]، وأحسَّ منه ببعض ذلكَ فانتهره علىٰ إدامة

---

(١) ينتسبون إلى مغيث الرومي فاتح قرطبة، وكان مع طارق، وقد نجبوا في قرطبة وسادوا وعظم بيتهم وتفرَّعت دوحتهم وكان منهم عبدالرحمٰن بن مغيث حاجب عبدالرحمٰن الداخل (النفح ٣: ١٢ وانظر صفحات أخرى متفرقة) ومنهم عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث الذي كان حاجباً للحكم الربضي، كما كان أخوه عبدالملك من قوّاد الأمير هشام الرضى (الحلة ١: ١٣٥) (ع).

(٢) الفالُّ: المهزوم.

(٣) يقص صفي الدين الحلي قصة مماثلة ذات لون أسطوري عن وشاح مغربي عشق رميلة أخت عبدالمؤمن الأموي [كذا] ملك الأندلس، ونظم فيها موشحة تسمّى «العروس» وكان أن قتله الخليفة لذلك (العاطل الحالي: ١٤ ـ ١٥).

(٤) هو الشاعر العباسيّ المعروف بأبي نُواس (ـ ١٩٨هـ).

(٥) هو الخليفة الأمين؛ أبو عبدالله محمد بن الرشيد هارون الهاشمي العباسي. وأمّه: زُبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور. تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه، وقتل سنة (١٩٨هـ) في صراعه مع أخيه المأمون، وكانت خلافته دون الخمس سنين. وقد وصفه الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ بقوله: كان مليحاً، بديعَ الحُسْنِ، أبيضَ وَسيماً طويلاً، ذا قوّةٍ وشجاعةٍ، وأدبٍ وفصاحةٍ، ولكنَّه سيءُ التَّدبير، مُفْرِطُ التبذير، أزعَنَ لعَّاباً، مع صِحَّة إسلام ودين. سامحه الله وغفر له «السِّير»: ٩/ (١١٠).
ولم أقف على الحكاية التي ذكرها ابن حزم ـ رحمه الله ـ ولكن ألمح ابن خلكان في: «وفيات الأعيان» ٩٩/٢ إلى شيءٍ منها.

النَّظَر إليه، فذُكِرَ عنه أنَّه قالَ: أنَّه كانَ لا يقدرُ[1] أنْ يُديمَ النَّظرَ إليه إلا مع غَلَبَة السُّكْرِ علىٰ محمَّدٍ.

وربَّما كانَ سببُ الكتمان ألا يَنْفِرَ المحبوبُ، أو يُنفَّرَ به. فإنِّي أدري من كانَ محبوبه له سَكَناً وجَليساً، لو باحَ بأقلِّ سببٍ من أنَّه يهواه لكانَ منه: «مناطَ الثُّريَّا قد تعلَّتْ نجومُها»[2]؛ وهذا ضرب من السِّياسة. ولقد كانَ يبلُغ من انبساط هذا المذكورِ مع محبوبه إلىٰ فوق الغاية، وأبعد النِّهاية، فما هو إلا أن باحَ إليه بما يجد فصار[3] لا يَصِلُ إلىٰ التَّافه اليسير، مع التِّيهِ ودالَّةِ الحبِّ، وتمنُّعِ الثِّقة بملك الفُؤَاد، وذهبَ ذلك الانبساطُ، ووقع التَّصنُّعُ والتَّجَنِّي، فكانَ أخاً فصار عبداً، ونظيراً فعادَ أسيراً، ولو زادَ في بَوْحِهِ شيئاً إلىٰ أن يعلَم خاصّةُ المحبوب ذلك لما رءاهُ إلاَّ في الطَّيفِ، ولانقطعَ القليلُ والكثير، ولَعادَ ذلكَ عليه بالضَّرَرِ.

وربَّما كانَ من أسباب الكتمان الحياءُ الغالبُ علىٰ الإنسان.

وربَّما كانَ من أسباب الكتمانِ أنْ يرىٰ المحبُّ من محبوبه انحرافاً وصدًّاً، ويكونُ ذا نَفْسٍ أبيَّةٍ، فيستَتِرُ بما يَجِدُ لئلا يُشَمِّتَ به عَدُوّاً، ويُرِيَهُمْ[4] ـ ومَن يُحبُّ ـ هَوَانَ ذلك عليه.

❋ ❋ ❋

---

(١) في الأصل: يقدم.

(٢) هذا من قول الأحوص الأنصاري (١٠٥هـ):

وإنَّ بني حَرْبٍ كما قد علمتُم ... مناط الثُّريَّا قد تعلَّت نجومها

(٣) خ: صار.

(٤) في الأصل: عدوًا وعدو يريهم. وأثبتها بتروف: يشمَتَ به عدوٌ أو يريهم. وجعلها (ع): عدوٌ، أو ليريهم. وقرأها السَّامرائي: لئلا يشمتَ به عدوُّه، أو عدوُّ مَن يحبُّه.





١٣ باب: الإِذاعة

وقد تَعْرِضُ في الحُبِّ الإِذاعةُ، وهو من مُنْكَرِ ما يحدُث من أعراضه، ولها أسبابٌ:

منها: أن يُريدَ صاحبُ هذا الفعلِ أن يَتزَيَّنَ بزيِّ المحبِّينَ، ويدخُلَ في عِدادهم، وهذه خِلابةٌ[١] لا تُرْضىٰ، وتجليحٌ[٢] بَغِيضٌ، ودعوىً في الحبِّ زائفةٌ.

وربَّما كانَ من أسباب الكشفِ غلبةُ الحبِّ، وتسوُّر الجَهْرِ علىٰ الحياءِ، فلا يملكُ الإِنسانُ حينئذٍ لنفسه صَرْفاً ولا عَدْلاً. وهذا من أبعدِ غايات العشق، وأقوىٰ تحكُّمِهِ علىٰ العقلِ، حتَّىٰ يُمثِّلَ الحَسنَ في تمثال القبيح، والقبيحَ في هَيْأةِ الحسن، وهنالك يرىٰ الخيرَ شرّاً، والشَّرَّ خيراً. وكم مَصونِ السِّتْرِ، مُسبَلِ القِناع، مسدولِ الغِطاء؛ قد كشفَ الحبُّ سِترَهُ، وأباحَ حَرِيمَهُ، وأهمل حِماهُ، فصار بعد الصِّيانةِ عَلَماً، وبعد السُّكونِ مَثَلاً، وأحبُّ شيءٍ إليه الفضيحةُ فيما لو مَثَلَ له قبل اليوم لاعتراه النافِضُ[٣] عند ذكره، ولطالتْ استعاذتُهُ منه، فَسَهُلَ ما كانَ وَعِراً، وهانَ ما كانَ عَزيزاً، ولانَ ما كانَ شَدِيداً.

---

(١) الخلابة: المخادعة. وفي الأصل: خلافة. ولعلَّه تحريف.
(٢) التجليح: المكالحة، والمجلح: هو الذي يركب رأسه في الأمر، ويجاهر به مكاشفاً دون تستُّرٍ.
(٣) النَّافضُ: حمَّىٰ الرِّعدة.

ولعهدي بفتىً من سَرَواتِ الرِّجال، وعِلْية إخواني، قد دُهِي بمحبَّةِ جارَيةٍ مَقْصُورَةٍ؛ فَلُمَّ بها[1]، وقَطَعَهُ حبُّها عن كثير من مصالحه، وظهرتْ ءاياتُ هواه لكلِّ ذي بَصَرٍ، إلىٰ أن كانتْ هي تَغذِلُهُ علىٰ ما ظهر منه ممَّا يقودُهُ إليه هواها[2].

خَبَرٌ:

وحدّثني موسىٰ بن عاصم بن عمرو؛ قالَ: كنتُ بين يدي أبي الفتح - والدي؛ رحمه الله - وقد أمرني بكتابٍ أكتبه، إذ لمحتْ عيني جاريةً كنتُ أكلَفُ بها، فلم أمْلِكْ نفسي، ورميتُ الكتابَ عن يدي، وبادرتُ نحوها. وبُهتَ أبي، وظنَّ أنَّه عرضَ لي عارِضٌ؛ ثم راجعني عقلي، فمسحتُ وَجْهي، ثُمَّ عُدتُ واعتذرتُ بأنَّهُ غَلبني الرُّعافُ.

واعلم أنَّ هذا داعيةُ نِفارِ المحبوبِ، وفسادٌ في التَّدبير، وضعفٌ في السِّياسة؛ وما شيءٌ من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنَّةٌ وطريقةٌ متىٰ تعدَّاها الطالبُ أو خَرُقَ[3] في سلوكها انعكس - بِعَمَلِهِ - عليه، وكانَ كَدُّهُ عناءً، وتعبُهُ هباءً، وبَحْثُهُ وباءً. وكلَّما[4] زادَ عن وجه السِّيرةِ انحرافاً، وفي تجنبها إغراقاً، وفي غير الطَّريق إيغالاً؛ ازدادَ عن بلوغِ مراده بُعْداً. وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

ولا تَسْعَ في الأمر الجَسِيم تهازُءاً ... ولا تسعَ جَهراً في اليَسِير تُريدُهُ

---

(١) لَمَّ بها: أصابه مسٌّ أو جنون بِسَبَبِها. وقال الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله -: لعلَّ الصَّواب: «فتام بها» أو: «فتيِّم بها».

(٢) كذا في الأصل، ويمكن أن تُقرأ: هواه.

(٣) خَرُق بالشَّيء - ككَرُمَ -: جَهِلَهُ. «القاموس».

(٤) خ: وبحثه زيادة وكلفاً. والتصحيح عن (مكي) و(ع).

وقـابـلْ أفـانـيـنَ الـزَّمـانِ مـتـىٰ يَـرِدْ — عـلـيـكَ فـإنَّ الـدَّهْـرَ جَـمٌّ ورودُهُ
بِأَشْكالها[1] من حُسْنِ سَعيك يَكْفك الـ — يـسـيـرَ يـسـيـرٌ والـشـديـدَ شـديـدُهُ[2]
ألـم تُـبْـصـر الـمِـصـبـاحَ أوَّلَ وَقْـده — وإشـعـالِـه؛ بـالـنَّـفْـخِ يُـطـفـا وَقُـوده
وإنْ يَـتَـضَـرَّمْ لـفـحُـهُ ولَـهِـيـبُـهُ — فـنـفـخُـكَ يُـذْكِـيـه وتـبـدو مُـدُوده

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ من أهل قُرطُبَةَ، من أبناء الكُتَّاب، وجِلَّةِ الخَدَمَة من اسمه: أحمد بن فتح، كنتُ أعهده كثيرَ التَّصَاونِ، من بُغاة العلم وطلاَّب الأدب، يبذُّ[3] أصحابه في الانقبَاضِ، ويفوقهم في الرِّعَة[4]، لا يَظْهَرُ إلا في حَلقةِ فَضْلٍ، ولا يُرىٰ إلاَّ في محفلٍ مَرْضيٍّ، محمودَ المذاهب، جميلَ الطَّريقة، بائناً بنفسه، ذاهباً بها، ثم أبعدتِ الأقدارُ داري من داره، فأوَّلَ خَبرٍ طرأ عليَّ بعد إطاءَتي شاطبةَ أنه خلع عِذارَهُ في حبِّ فتىً من أبناء الفتَّانينَ[5] يسمَّىٰ إبراهيمَ بنَ أحمدٍ ـ أعرفه؛ لا تستأهِلُ صفاته محبَّةَ[6] مَنْ بيتُه خيرٌ وخَدَمٌ وأموالٌ عريضةٌ ووفرٌ تالِدٌ ـ وصحَّ عندي أنَّه كشَفَ رأسه، وأبدىٰ وجهه، ورَمىٰ رَسَنه، وحَسَر مُحيّاه، وشمَّر عن ذراعيه، وصَمَدَ صَمْدَ

---

(١) في الأصل: فأشكالها، والتَّصحيح عن (ع)؛ وقال: بأشكالها: متعلِّقة بالفعل: «وقابل» أي: وقابل أفانين الزمان بأشكالها.

(٢) في الأصل: اليسير بغير والشريد شريده. والتَّصحيح عن (ع)؛ وقال: هذا الشطر شديد التصحيف في معظم الطبعات: والمعنى أنك إذا قابلت أفانين الزمان بأشكالها، فإن اليسير من حسن سعيك يواجه اليسير من أفانين الزمان، والشديد يقف في وجه الشديد من أفانينه.

(٣) تقرأ في الأصل: يبزُّ.

(٤) في الأصل: ويفوت في الدِّعة. والتَّصحيح من (ع)، إذ الرِّعة تقارن الانقباض.

(٥) جمع الفتَّان؛ وهو الصَّائغ.

(٦) خ: المحبَّة.

الشَّهْوةِ، فصار حديثاً للسُّمَّار، ومدافَعاً[1] بين نَقَلة الأخبار، وتُهودِيَ ذِكرُهُ في الأقطار، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتَّعَجُّبِ، ولم يحصل من ذلك إلاَّ على كشف الغِطَاء، وإذاعةِ السِّرِّ، وشُنعةِ الحديثِ، وقُبْحِ الأُحْدُوثَة، وشرُوُد محبوبِهِ عنه جملةً، والتَّحْظِيرُ عليه من رؤيته البتَّةَ، وكانَ غَنِيّاً عن ذلكَ، وبمندوحةٍ واسعةٍ، ومَغْزِلٍ رَحْبٍ عنه، ولو طوى مكنونَ سِرِّهِ، وأخفى بَلِيَّاتِ[2] ضَمِيره؛ لاستدامَ لباسَ العافية، ولم يُنْهِجْ بُرْدَ الصِّيانة[3]، ولكانَ له في لقاء من بُلي به، ومحادثته، ومجالسته؛ أَمَلٌ من الآمال، وتعلّلٌ كافٍ، وإنَّ حَبْلَ العُذْرِ لَيُقْطَعُ به، والحُجّةُ عليه قائمةٌ؛ إلا أن يكونَ مختلطاً في تمييزه، أو مصاباً في عقله بجليل ما فدَحه، فربَّما ءَالَ ذلكَ لعُذْرٍ صَحيحٍ، وأمَّا إنْ كانتْ بقيةٌ، أو ثَبيتُ مُسكةٍ[4]؛ فهو ظالمٌ في تعرّضِهِ ما يعلم أنَّ محبوبَهُ يكرهُهُ، ويتأذَّى به.

هذا غيرُ صِفَةِ أهلِ الحُبِّ، وسيأتي هذا مُفَسَّراً في باب الطَّاعة، إنْ شاء الله تعالى.

ومن أسباب الكشف وَجْهٌ ثالثٌ، وهو عند أهلِ العقول وجهٌ مرذولٌ

---

(١) هكذا في الأصل، وضبطها النَّاسخ بكسر الفاء. وقرأها برشيه: مضاغة. وقال العلامة محمود شاكر: وهي قراءة جيدة جداً.
(٢) جعلها (ع): بُنَيَّات.
(٣) ضُبِطت في الأصل هكذا: يَنْهَجْ بِرَدُ الصيانة.
(٤) هكذا في الأصل، لكن: (ثبيتُ) تصحَّفت إلى: (ثبتت)، وجعلها (ع) في طبعته الأولى: (له بقية [من عقل] أو ثبتت ثبيتُ مُسكةٍ. . . .)، وأسقط ما بين المعقوفتين من طبعته الثانية، لكنه أبقى (له) و(ثبتت). وقال العلامة محمود شاكر ـ رحمه الله ـ: لا معنى لزيادة «من عقل»، يقال: في فلان بقية، وفي كتاب الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ [هود: ١١٦]؛ أي فهم وحسن نظر؛ ويكون الذي بعده «أو ثَبيت مُسْكةٍ» هكذا الصواب إن شاء الله.

وفعلٌ ساقط؛ وذلك: أن يرىٰ المُحِبُّ من محبوبه غَدْراً أو مَلَلاً أو كراهةً؛ فلا يجدُ طريقَ الانتصاف منه إلا بما ضررُهُ عليه أعودُ منه علىٰ المقصودِ من الكَشْفِ والاشْتِهارِ، وهذا أشدُّ العار، وأقبحُ الشَّنار، وأقوىٰ شواهدِ[1] عدم العقل، ووجودُ السُّخْفِ.

وربَّما كانَ الكَشْفُ من حديثٍ يَنتشر، وأقاويلَ تَفْشُوَ؛ تُوافِقُ[2] قلَّةَ مبالاةٍ من المُحِبِّ بذلك، ورضىً بظُهور سِرِّه، إمَّا لإِعجابٍ، أو لاستظهارٍ علىٰ بعض ما يؤمله؛ وقد رأيتُ هذا الفعلَ لبعض إخواني من أبناء القوَّاد.

وقرأتُ في بعضِ أخبار الأعراب أنَّ نساءهم لا يَقْنَعْنَ ولا يُصَدِّقْنَ عِشْقَ عاشقٍ لهنَّ حتَّىٰ يشتهرَ؛ ويَكْشِفَ حُبَّهَ، ويُجاهِرَ، ويُعْلِنَ، وينوِّهَ بذكرهنَّ. ولا أدري ما معنىٰ هذا، علىٰ أنه يُذْكَرُ عنهنَّ العفافُ، وأيُّ عفافٍ مع امرأةٍ؛ إذ أقصىٰ مُناها وسرورها الشُّهْرةُ في هذا المعنىٰ؟!

❊ ❊ ❊

(١) خ: بشواهد.

(٢) خ: وتوافق.





١٤ باب: الطَّاعَةِ

ومن عجيب ما يقعُ في الحبِّ طاعةُ المحبِّ لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قَسْراً إلىٰ طباع من يُحِبُّهُ. وربَّما يكونُ المرءُ شَرِسَ الخُلُقِ، صَعْبَ الشَّكيمة، جَموحَ القيادِ، ماضيَ العزيمة، حَمِيَّ الأنف، أَبِيَّ الخَسْفِ، فما هو إلا أن يتنسَّمَ نسيمَ الحُبِّ، ويتورَّطَ غَمْرَهُ، ويعومَ في بحره؛ فتعودَ[١] الشَّراسةُ ليِاناً، والصعوبةُ سهالةً[٢]، والمضاءُ كلالةً، والحمية استسلاماً. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من المتقارب]

فهل للوصالِ إلينا مَعادٌ ... وهل لتصاريفِ ذا الدَّهرِ حَدْ

فقد أصبحَ السَّيفُ عبدَ القَضِيبِ ... وأضحىٰ الغزالُ الأسيرُ أسَدْ

وأقولُ شعراً منه: [من الطويل]

وإنِّي وإن تعتبُ لأَهونُ هالِكٍ ... كذَائِبِ نَقْرٍ ذَلَّ في يدِ جَهْبَذِ[٣]

علىٰ أنَّ قتلي في هواكَ لذاذةٌ ... فيا عَجَباً من هالكٍ متلذِّذِ

---

(١) خ: عادت.

(٢) خ: سهلة.

(٣) أي: كالفضة السائلة تدافعت في يد الجهبذ. وقرأها (ع): كزائفِ نقدٍ ذَلَّ في يدِ جهبذ؛ وقال: ويضعف من الأخذ بهذا المعنىٰ (يعني الذي في الأصل) أن الجهبذ صيرفيٌّ للدَّنانير والدَّراهم، فهو يميِّزُ خالصها من زائفها، ولذلك أرجحُ القراءة التي أثبتُّها.

ومنها:

ولـو أبـصـرتْ أنـوارَ وجـهـكَ فـارسٌ لأغـنـاهـمُ عـن هُـرْمـزانَ ومُـوبَـذِ[1]

وربَّما كانَ المحبوبُ كارهاً لإظهار الشَّكْوىٰ متبرِّماً بسماع الوَجْدِ، فترىٰ المُحبَّ حينئذٍ يكتمُ حزنَهُ، ويكظِمُ أسفه، ويَنطوي علىٰ علّته، وإنَّ الحبيبَ مُتَجَنٍّ، فعندها يقعُ الاعتذارُ عن[2] كلّ ذَنْبٍ، والإقرارُ بالجريمة، والمرءُ منها بريءٌ، تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته. وإنِّي لأعرفُ من دُهي بمثلِ هذا، فما كانَ ينفكّ من توجيه الذُّنُوبِ نحوه؛ ولا ذنب له، وإيقاعِ العتاب عليه والسَّخْطِ؛ وهو نقيُّ الجِلْد.

وأقولُ شعراً إلىٰ بعض إخواني، وَيقْرُبُ ممَّا نحن فيه، وإن لم يكن منه: [من الطويل]

وقـد كـنـتَ تَـلْـقـانـي بـوجـهٍ لـقُـربـهِ تـدانٍ[3] ولـلـهـجـرانِ عن قُـربـه سَـخْـطُ

ومـا تـكـرهُ الـعَـتْـبَ الـيـسـيـرَ سَـجِـيَّـتي علىٰ أنَّه قد عِيبَ في الشَّعَر الوخْطُ

فقد يُتعب الإنسانُ في الفِكْرِ نفسَهُ وقد يَحسُن الخِيلانُ في الوَجه والنَّقْطُ

تَـزيـن إذا قـلَّـتْ ويَـفْـحُـشُ أمـرهـا إذا أَفرطَتْ يوماً وهل يُحمدُ الفَرْطُ

ومنه:

أعِنْه فـقـد أضْـحىٰ لـفـرْط هُـمُـومِـهِ يُبَكِّي له[4] القِرطاسُ والحِبرُ و الخَطّ

(١) الهُرْمُزان، والهُرْمُز، والهارموز: الكبير من ملوك العجم. والمُوبَذُ للمجوس كالقاضي للمسلمين. وكأنَّ ابن حزم ـ رحمه الله ـ يشير إلى متابعة المجوس لملوكهم وعلمائهم في الاعتقاد بأن النُّور مصدَر الخير؛ فكيف لو رأوا نور وجهها!! نعم: في هذا المعنىٰ بُعْدٌ، والبيت من طرائف أبي محمَّد ـ رحمه الله ـ.

(٢) خ: عند.

(٣) جعلها (ع): تراضٍ.

(٤) في الأصل: إذ. والتَّصحيح عن (ع).

ولا يقولَنَّ قائلٌ إنَّ صبرَ المحبِّ علىٰ ذِلَّةِ المحبوبِ دَناءةٌ في النَّفْسِ فهذا خطأ، وقد علمنا أنَّ المحبوبَ ليسَ كُفْؤاً ولا نظيراً فيقارَضُ بأذاه، وليس سَبَّهُ وجفاه ممَّا يُعَيَّرُ به الإنسانُ، ولا [مِمَّا] يبقىٰ ذكره علىٰ الأحقاب، ولا يقع ذلكَ في مجالسِ الخلفاء، ولا في مقاعد الرؤساء، فيكون الصَّبْرُ مستجِرَّهُ[1] للمَذَلَّةِ، والضَّراعةُ[2] قائِدَهُ[3] للاستهانة؛ فقد ترىٰ الإنسانَ يَكْلَفُ بأمته التي يملكُ رقَّها، ولا يحول حائلٌ بينه وبين التعدّي عليها، فكيفَ الانتصارُ[4] منها. وسُبُلُ الامتعاضِ من السَّبَبِ[5] غير هذه، إنَّما ذلك بين عِلية الرِّجال الذين تُحْصَىٰ[6] أنفاسهم، وتُتَبَّعُ معاني كلامهم، فتُوَجَّه لها الوجوه البعيدة، لأنَّهم لا يُوقعونها سدىً، ولا يُلقونها هملاً، وأما المحبوبُ فصَعْدةٌ ثابتةٌ، وقضيبٌ مُنآدٌ، يَجْفو ويرضىٰ متى شاءَ لا لمعنىً؛ وفي ذلكَ أقول: [من الكامل]

لـيسَ الـتذلُّلُ في الـهوىٰ يُستنكَرُ ... فـالـحُبُّ فـيه يـخضَـعُ الـمُسْتَكْبِرِ

لا تـعـجَـبـوا مـن ذِلَّـتي فـي حـالـةٍ ... قـد ذلَّ فـيهـا قبـلـيَ الـمُسْتَبْصِر[7]

لـيسَ الـحـبيبُ مـماثـلاً ومُكـافياً ... فـيـكـونَ صـبـرُكَ ذِلَّـة إذْ تَـصْـبِـرِ

(١) كذا في الأصل بالهاء، وقرأها بتروف: مستجرة. وجعلها (ع): مُسْتَجرّاً.

(٢) في الأصل: وضراعة.

(٣) كذا في الأصل بالهاء، وقرأها بتروف: قائدةً.

(٤) جعلها (ع): الانتصافُ.

(٥) جعلها (ع): السَّبِّ.

(٦) خ: تحصل. والتصحيح من (مكي) و(ع).

(٧) واضحة في الأصل، وجعلها برشية: (المستنصر)، قال (ع): ولا بدَّ أن تكون موجهة إلىٰ شخصٍ بعينه حينئذٍ، وهو هنا المستنصر الأموي ابن الناصر، وهذا على سبيل المبالغة في القياس، وإلا فليس لدينا من الأخبار ما يؤكِّد أن المستنصر ذلَّ في الحب. والصواب: (المستَبصر)؛ (كما قال العلامة محمود شاكر رحمه الله).

تُفاحةٌ وَقَعَتْ فآلَم وَقْعُها هل قطْعُها منك انتصاراً يُذكر

خَبَرٌ:

وحدَّثني أبو دُلَفٍ الورَّاقُ عن مَسلمةَ بنِ أحمدِ الفيلسوفِ المعروفِ بالمَجْرِيطيِّ[1]: أنَّه قالَ - في المسجد الَّذي بِشَرْقي مقبرةِ قريشٍ بقُرْطُبةَ، الموازي لدار الوزير أبي عمرٍ أحمدِ بنِ محمَّدِ بنِ حُدَيْرٍ[2]؛ رحمه الله -: في هذا المَسْجِدِ كانَ مَرْبَضُ[3] مقدّمِ بنِ الأصْفَر أيَّام حداثته؛ لعِشْقِهِ بعَجِيبٍ - فتىٰ الوزير أبي عمرٍ المذكور - وكانَ يتركُ الصَّلاةَ في مسجد مسرورٍ - وبها

(١) في الأصل: بالمرجيط؛ وهو خطأ. وهذه النسبة إلىٰ: «مجريط» - ويقال: «مرجيط» -؛ بلدة بالأندلس. وهو: أبو القاسم مسلمة بن أحمد القرطبي، إمام الرياضيين في عصره بالأندلس، كان فلكياً له عناية برصد الكواكب، وشغف بتفهُّم كتاب: «المجسطي» لبطليموس، وله كتاب تمام علم العدد، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني، ومؤلفات أخرىٰ. توفي سنة (٣٩٨هـ). ذكره صاعد في: «طبقات الأمم» ٦٩، وابن أبي أصيبعة في: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وانظر: «كشف الظنون» ٢١٤/١، ٦٨٠، ٨٣٣، ٩٠٤، ٩٢٥.

(٢) أحمد بن محمد بن سعيد بن موسى بن حُدَير، أبو عمر (٢٥٥ - ٣٢٧هـ) قرطبي، وَلِيَ خِطَّة الوزارة، وأحكام المظالم، وكان صلباً في أحكامه مهيباً، حج سنة (٢٧٥). وهو أخو موسى الحاجب (الذي ولد ٢٥٦)؛ أيام الأمير عبدالله، وولاه المدينة سنة (٢٨٧)، ولأحمد ولد اسمه: سعيد وكنيته أبو عثمان (ابن الفرضي: ٤٩/١)، وذكر ابن حزم أن أحمد بن موسى بن حدير صاحب السِّكَّة؛ كان من شيوخ المعتزلة، وبينه وبين منذر بن سعيد البلُّوطي (سيجيء التعريف به) مراسلات (الفصل: ٢٠٢/٤ - ٢٠٣)، وهناك منهم: عبدالرحمٰن بن موسى بن محمد بن حدير، توفي سنة (٣٦٩) (ابن الفرضي: ٣٠٧/١)، وأحمد بن محمد بن حدير؛ وكان خازن العسكر زمن المستنصر (المقتبس: ٢١٠)، ومن بني حدير: موسى بن محمد بنَ حدير المعروف بالزاهد، وكان أخبارياً، ممتعاً، حافظاً لأخبار بني أمية، ويذاكر الأمير عبدالله بذلك (المقتبس: ٤٥/٤٤، نشر أنطونية). (ع).

(٣) في الأصل: مريض. والتَّصحيح عن برشيه، وتابعه (ع)؛ وقال: وهي الصَّواب، إذ القرينة تدل علىٰ أنه كان يلزم المسجد لرؤية عجيب.

كانَ[1] سكناه ـ ويقصدُ في اللَّيل والنَّهار إلىٰ هذا المسجد بسببِ عجيبٍ، حتَّى أخذَهُ الحَرَسُ غيرَ ما مرَّةٍ في اللَّيل في حين انصرَافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكانَ يَقْعُدُ وينظر منه إلىٰ أن كان الفتىٰ يَغْضَبُ، ويَضْجَرُ، ويقومُ إليه فيُوجعه ضَرْباً، ويلطمُ خَدَّيه وعينَيْه، فَيُسَرُّ بذلكَ، ويقول: هذا والله أقصىٰ أمنيتي، والآنَ قرَّتْ عيني! وكانَ علىٰ هذا زماناً يماشيه.

قال أبو دُلَفٍ: ولقد حدّثنا مسلمةُ بهذا الحديثِ غيرَ مَرَّةٍ بحضرة عجيبٍ عندما كان يَرىٰ[2] من وجاهة مقدَّمِ بن الأصفر، وَعَرْضِ جاهه وعافيته، فكانتْ حالُ مُقَدَّم بن الأصفر هذا قد جلَّت جداً واختصَّ بالمظفَّر بن أبي عامر اختصاصاً شديداً واتَّصَلَ بوالدته وأهله، وجرىٰ علىٰ يديه من بنيانِ المساجدِ والسِّقاياتِ، وتسبيل وجوهِ الخير غيرُ قليل، مع تصرُّفه في كلِّ ما يتصرَّفُ فيه أصحابُ السُّلْطانِ من العناية بالناس، وغير ذلك.

خَبَرٌ:

وأشنعُ من هذا أنَّه كانتْ لسعيدِ بن مُنْذِرِ بن سعيد[3] ـ صاحبِ الصَّلاةِ

(١) لعل الصَّواب: وبه كانت، كما قرأ برشيه.

(٢) جعلها برشيه: يبرم!

(٣) كان منذر بن سعيد البلوطي من أبرز فقهاء عصره، ويميل إلى مذهب الظاهر، وتولّىٰ قضاء الجماعة بقرطبة، وله كتب كثيرة في الفقه والقرءان والردّ، وتوفي سنة ٣٥٥ (ابن الفرضي ٢:١٤٢ والجذوة: ٣٢٦ والبغية رقم: ١٣٥٧) ومن أبنائه: سعيد أبو عثمان وكان خطيباً بليغاً ذكيّاً نبيهاً، قتل ـ كما يقول ابن حزم ـ يوم تغلّب البرابرة على قرطبة، ٦ شوال ٤٠٣ (الصلة: ٢٠٨) ومنهم حكم أبو العاصي وكان من أهل الأدب والذكاء، قديراً في الأدب، توفي بمدينة سالم في نحو ٤٢٠هـ (الصلة: ١٤٦)؛ وثالث الأبناء هو عبدالملك أبو مروان، وَلِيَ خطة الردّ ثم لحقته التهمة التي يشير إليها ابن حزم فصُلب علىٰ باب سدّة السلطان (وهو الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة) سنة ٣٦٨ وهو في حدود الأربعين من عمره (ابن الفرضي ١:٣١٧ والحلة السيرة ١: ٢٧٩ ـ ٢٨٠) (ع).

في جامع قرطبة أيامَ الحكم[1] المستنصر بالله؛ رحمه الله ـ جاريَةٌ يُحِبُّها حبّاً شديداً، فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوَّجها، فقالت له ساخِرَةً به ـ وكان عظيمَ اللِّحْية ـ: إنَّ لِحْيَتَكَ أستبشعُ عِظَمَها، فإن حَذَفْتَ منها كان ما ترغبه. فأعملَ الجَلَمَيْنِ[2] فيها حتَّى لَطُفَتْ، ثم دعا بجماعةٍ شهودٍ وأشهدهم علىٰ عتقها، ثم خطبها إلىٰ نفسه فلم تَرْضَ به، وكانَ في جملة من حَضَر أخوه حَكَم بن مُنذر فقال لمن حَضَرَ: اعرض عليها أنّي أخطبها أنا. ففعلَ فأجابتْ إليه، فتزوَّجَها في ذلك المجلس بعينه، ورضيَ بهذا العار الفادح علىٰ وَرَعه ونُسْكِهِ واجتهاده.

وأنا أدركتُ سعيداً هذا؛ وقَتَلَهُ البربرُ يومَ دخولهم قرطبة عَنوةً؛ وانتهابِهِم إياها، وحكم ـ المذكور ـ أخوه هو رأسُ المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلّمهم وناسِكُهم، وهو مع ذلكَ شاعرٌ، طبيبٌ، وفقيه. وكانَ أخوه عبدالملك بن مُنذر متَّهَماً بهذا المذهب ـ أيضاً ـ، وَلِيَ خُطَّةَ الرَّدِّ أيامَ الحكم رضي الله عنه، وهو الذي صَلبه المنصورُ ابنُ أبي عامرٍ إذ اتَّهمه هو وجماعةً من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يُبايعون سِرّاً لعبدالرحمن بن عبيدالله بن أمير المؤمنين الناصر رضي الله عنهم، فقَتَلَ عبدالرحمن وصَلَبَ عبدالملك بن منذر، وبدَّد شمل جميع من اتُّهِمَ، وكانَ أبوهم قاضيَ القضاةِ منذر بن سعيد متَّهماً بمذهب الاعتزال ـ أيضاً ـ، وكان أخطبَ النَّاسِ وأعلمهم بكلِّ فنٍّ، وأورعهم وأكثرهم هزلاً ودُعابة. وحَكم ـ المذكور ـ في الحياةِ في حين كتابتي إليكَ بهذه الرِّسالة، قد كُفَّ بصره، وأسنَّ جداً.

---

(١) خ: الحاكم. والصَّواب ما أثبته، وهو: الحكم بن النَّاصر لدين الله عبدالرحمٰن بن محمَّد الأُمويّ؛ صاحب الأندلس وابن ملوكها. مات سنة (٣٦٦هـ) رحمه الله.

(٢) الجلمان: المقراضان، واحدهما: جَلَم؛ للذي يُجزُّ به الشَّعر والصُّوف، والجلمان شفرتاه.

خَبَرٌ:

ومن عجيبِ طاعةِ المُحبِّ لمحبوبه أنّي أعرفُ من كانَ سَهرَ الليالِيَ الكثيرةَ، ولقيَ الجهدَ الجاهِدَ، فقطّعَتْ قلبَهُ ضروبُ الوَجْدِ؛ ثمَّ ظفر بمن يُحبُّ وليس به امتناعٌ ولا عنده دَفْعٌ، فحينَ رأىٰ منه بعضَ الكراهة لَما نواه تركه وانصرف عنه؛ لا تعفُّفاً ولا تخوُّفاً لكن توقُّفاً عند مُوافقته رضاه، ولم يجدْ من نفسه مُعيناً علىٰ إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطاً وهو يَجِدُ ما يجد. وإنّي لأعرفُ مَنْ فَعَلَ هذا الفعلَ ثُمَّ تندَّمَ لعذر[١] ظهرَ من المحبوب؛ فقلتُ في ذلك: [من الرمل]

غـافِـضِ الـفُـرْصـةَ واعْـلـم أنَّـهـا كـمُـضـيِّ الـبـرقِ تـمْـضـي الـفُـرَصُ
كـم أمـورٍ أَمْـكَـنَـتْ أُهْـمِـلُـهَـا هـي عـنـدي إذ تـولَّـتْ غُـصَـصُ
بـادرِ الـكَـنْـزَ الَّـذي ألـفَـيـتَـهُ وانْـتَـهِـزْ صَـيْـداً كـبَـازٍ يُـقْـتَـنَـصُ

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبي المطرِّف[٢] عبدِالرحمن بن أحمدَ بن محمودٍ ـ صديقنا ـ، وأنشدته أبياتاً لي فطارَ بها كلَّ مطارٍ، وأخذها منّي فكانت هِجِّيراهُ.

خَبَرٌ:

ولقد سألني يوماً أبو عبدِالله محمَّدُ بنُ كُلَيْبٍ ـ من أهل القيروان؛ أيامَ كوني بالمدينة[٣]، وكانَ طويلَ اللِّسان جداً، مثقفاً للسؤال في كلِّ فنّ ـ فقال

---

(١) تقرأ في الأصل: تعذر. وهكذا أثبتها بتروف.

(٢) خ: المظفَّر. والتصويب من: «جذوة المقتبس» ٢٥١، وهو: أبو المطرِّف عبدالرحمٰن بن أحمد بن بشر، قاضي الجماعة بقرطبة. ولكن لفظة: «محمود» لا ترد في نسبه.

(٣) المدينة: واضحة في الأصل، وليس المقصود بها مدينة القيروان، فإن ابن حزم لم يخرج ـ قطُّ ـ من الأندلس، وإنَّما تدلُّ هذه الكلمة إذا أطلقت في استعمال القرطبيين=

لي، وقد جرىٰ بعضُ ذكر الحبِّ ومعانيه[1]: إذا كره من أحبَّ لقائي وتجنَّبَ[2] قُرْبي فما أصنع؟

قلتُ: أرىٰ أنْ تسعىٰ في إدخال الرَّوْح علىٰ نفسك بلقائه وإنْ كَرِهَ.

فقالَ لي: لكنِّي لا أرىٰ ذلكَ، بل أوثر هواه علىٰ هواي، ومُرادَهُ علىٰ مُرادي، وأَصبرُ، وأصبرُ؛ ولو كانَ في ذلك الحَتْفُ.

فقلتُ له: إنِّي إنَّما أحببته لنفسي، ولإلْتِذاذها بصُورَتِهِ، فأنا أتَّبِعُ قياسي، وأَقُودُ أصلي، وأَقْفُو طريقتي في الرَّغبة في سرورها.

فقالَ لي: هذا ظلمٌ من القياس، أشدُّ من الموت ما تُمُنِّيَ له الموت، وأعزُّ من النَّفْسِ ما بُذِلَتْ له النَّفْسُ.

فقلتُ له: إنَّ بَذْلَكَ نفسك لم يكنْ اختياراً بل كانَ اضطراراً، ولو أمكنَكَ ألا تبذُلَها لَمَا بذَلْتَها، وتركُكَ لقاءَهُ اختياراً منكَ أنتَ فيه مَلُومٌ لإضراركَ بنفسكَ وإدخالِكَ الحَتْفَ[3] عليها.

= على: «الحي القديم» من قرطبة، وهو: «المدينة العتيقة»، وابن حزم لم يسكنها، بل سكن في ضواحي قرطبة، فلعله أقام فيها مدَّة؛ كما يدل عليه قوله: «أيام كوني..». وذهب الدكتور طه الحاجري في: «ابن حزم؛ صورة أندلسية» ـ وتابعه الدكتور الطاهر أحمد مكي في: تحقيقه للكتاب: ١٧٦، وفي: «دراسات عن ابن حزم» ص: ٩ ـ إلى أن الصَّواب في تقويم النصّ هو: «المرية»، لأنها أقرب الألفاظ رسماً إلى كلمة المدينة، وقد سكنها ابن حزم، ولم يسكن الحي القديم من قرطبة (أي: المدينة) أبداً. قلت: لا تلازم بين الكينونة فيها وبين سكنها، والنص بالأمر الأول لا يدل ولا يلزم منه الأمر الثاني. فالأولى إبقاء النص كما ورد.

(١) هذه صورة ممتعة تشير إلىٰ تحوُّل القضايا العاطفية إلىٰ مستوىٰ الجدل العقلي (ع).

(٢) خ: وتجَنَّبتْ.

(٣) قرأها العلامة محمود شاكر: وتركك لقاءَه اختيارٌ... وإدخالك الحَيْفَ عليها.

فقالَ لي: أنتَ رَجُلٌ جدليٌّ ولا جَدَلَ في الحُبِّ يُلْتَفَتُ [إليه].

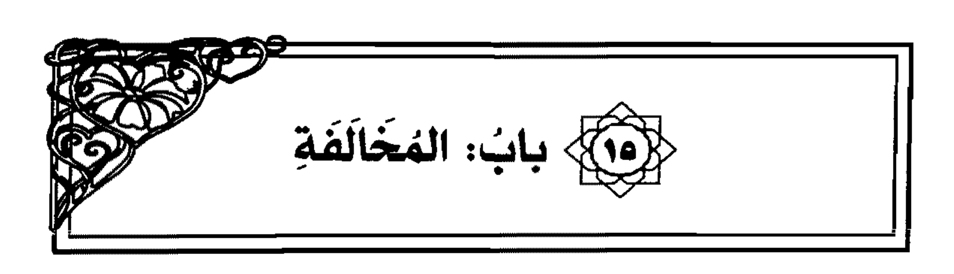
فقلتُ له: إذا كانَ صاحبه مَؤوفاً[1]؟

فقالَ: وأيُّ ءافةٍ أعظمُ من الحبِّ!

❋ ❋ ❋

(١) المَؤُوف: من أصابته عاهةٌ، أو عَرَضٌ مُفْسِدٌ له.





١٥ باب: المُخالَفةِ

وربَّما اتَّبَعَ المُحِبُّ شهوتَه، ورَكِبَ رأسَهُ؛ فَبَلَغَ شِفاءَهُ من مَحْبُوبه، وتعمَّدَ مَسَرَّتَهُ منه علىٰ كلِّ الوجوه، سَخِطَ أو رضي. ومَن ساعده الوقتُ علىٰ هذا، وثبتَ جَنانُهُ، وأُتيحَتْ له الأقدار؛ استوفىٰ لذَّتَهُ جميعَها، وذهبَ غَمُّهُ، وانقطع هَمُّهُ، ورأىٰ أمَلَهُ، وبَلَغَ مرغُوبَهُ. وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه. وفي ذلك أقولُ أبياتاً منها: [من السريع]

إذا أنَا بَلَّغْتُ نفسي المُنىٰ ... مِن رشإٍ ما زالَ لي مُمْرِضا

فما أُبالي الكُرْهَ من طَاعَةٍ ... ولا أُبالي سَخَطاً من رِضىٰ

إذا وجدتُ الماءَ لا بُدَّ أنْ ... أُطْفي به مُشْعَلَ جَمْرِ الغَضا

❊ ❊ ❊





١٦ باب: العَاذِل

وللحُبِّ ءافاتٌ:

فأوَّلها: العاذلُ. والعذَّالُ أقسامٌ:

ـ فأَصْلُهُمْ[١] صَدِيقٌ قد أَسْقَطتَ مؤونة[٢] التحَفُّظِ بينكَ وبينه، فعَذْلُه أفضلُ من كثير المساعدات، وهو بَيْنَ الحَضِّ[٣] والنَّهي، وفي ذلكَ زاجرٌ للنَّفسِ عجيبٌ، وتقويةٌ لطيفةٌ لها غَوْصٌ وعَمَلٌ، ودواءٌ تَسْتَدُّ عليهِ الشَّهوةُ[٤]، ولا سيما إن كانَ رفيقاً في قوله، حَسَنَ التوصُّل إلىٰ ما يُورِدُ من المعاني بلُطْفِه[٥]، عالماً بالأوقات الَّتي يُؤكِّد فيها النَّهي، وبِالأحيان

(١) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها (ع): فأوَّلُهم. وعند (مكي): فأفضلهم.

(٢) في الأصل: مؤونته. وما أثبته فقراءة العلامة محمود شاكر.

(٣) الحضُّ: الحثُّ والتَّشْجيع. وفي الأصل: الحظُّ؛ وهو خطأ. والتَّصحيح عن العلامة شاكر.

(٤) هذه العبارة في الأصل: وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة؛ وفي قراءة برشيه: وتقوية لطيفة لما مرض وعل ودواء لمن تشتدّ عليه الشهوة، وحسب القراءة التي اقترحها يكون معنى العبارة: إن عذل الصديق تقوية لطبيعة قد أنهكها الدنف وغلب عليها الفساد (العمل) وهذا العذل نفسه تستد (من السداد أي تصلح) عليه الشهوة ويعتدل حالها (ع).

(٥) خ: حسن التَّواصل إلى ما يُراد من المعاني بلفظه. وما أثبته فقراءة (ع). وأقرَّه العلامة شاكر غير أنه قرأ: (ما يورد): (ما يوردُهُ).

الَّتي يزيدُ فيها الأَمْر، والسَّاعاتِ التي يكونُ فيها واقفاً[1] بين هَذَيْنِ، علىٰ قَدْرِ ما يرىٰ من تَسَهُّلِ العاشق وتوعُّرِهِ، وَقَبوله وَعِصْيَانِهِ.

ـ ثـمَّ عـاذِلٌ زاجـرٌ لا يـفيـقُ أبـداً مـن الـمَـلامـة، وذلـكَ خَـطْـبٌ شَـدِيـدٌ، وعِبْءٌ ثقيلٌ. ووقَع لي مثلُ هذا ـ وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنَّه يُشبهه ـ وذلكَ أنَّ أبا السَّرِيِّ عمَّارَ بنَ زيادٍ ـ صديقَنا ـ أكثرَ من عَذْلي علىٰ نحوِ نَحَوْتُهُ، وأعانَ عليَّ بعضَ من لامني في ذلك الوجه ـ أيضاً ـ، وكنتُ أظنُّ أنَّه سيكونُ معي؛ مُخطئاً كنتُ أو مصيباً، لوكِيدِ صداقتي معه، وصحيحِ أخوّتي به.

ولقد رأيتُ من اشتدَّ وَجْدُهُ، وَعَظُم كَلَفُهُ حتَّى كانَ العَذْلُ أحبَّ شيءٍ إليه، ليُري العاذلَ عصيانَهُ، ويستلِذَّ مخالفَتَهُ، ويحصِّل مقاومته لِلائِمِهِ[2] وغلبته أيَّاهُ، كالمَلِكِ الهازم لعدوِّه، والمجادل الماهِر الغالبِ لخَصْمه، ويُسَرُّ بما يقعُ منه في ذلكَ، وربَّما كانَ ـ بهذا ـ المستجلبَ لعذل العاذلِ بأشياءَ يوردها توجب ابتداءَ العَذْلِ، وفي ذلكَ أقولُ أبياتاً منها: [من البسيط]

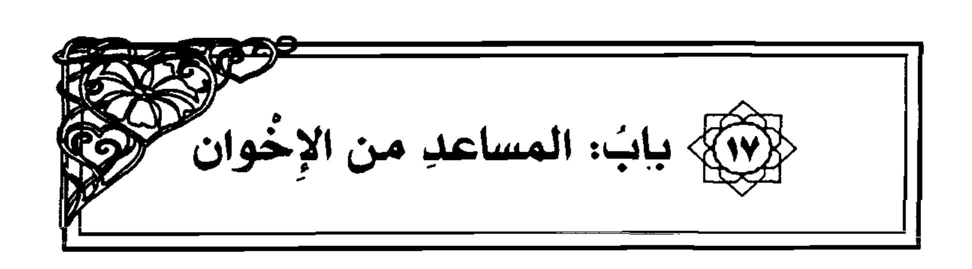
أحـبُّ شـيءٍ إلـيَّ الـلَّـوْمُ والـعَـذَلُ
كـي أسـمـعَ اسـمَ الَّـذي ذِكْـراهُ لـي أمَـلُ
كـأنَّـنـي شـاربٌ بـالـعَـذْلِ صَـافِـيـةً
وبـاسـمَ مَـوْلايَ بـعـدَ الـشُّـرب أنْـتَـقِـلُ[3]

❋ ❋ ❋

---

(١) خ: وقفاً.
(٢) هذه قراءة برشيه، وفي الأصل: اللائمة.
(٣) انتقل: تناول نقلاً مع الشراب أو بعده.





١٧ بابُ: المساعدِ من الإِخْوان

ومن الأسبابِ المتمنَّاة في الحبِّ أنْ يهبَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للإنسان صَديقاً مُخْلصاً ـ لطيفَ القول، بسيطَ الطَّوْل، حَسَنَ المأخذ، دقيقَ المَنْفَذِ، متمكِّنَ البيانِ، مُرْهَفَ اللِّسانِ، جليلَ الحِلْمِ، واسعَ العلمِ، قليلَ المخالَفَةِ، عظيمَ المُسَاعَفَةِ، شديد الاحتمَالِ، صابراً على الإِذلال، جَمَّ الموافقةِ، جميلَ المخالفةِ، مُسْتَوِيَ المطابقةِ، محمودَ الخلائقِ، مكفوفَ البوائقِ، محتومَ المساعدةِ، كارهاً للمباعدةِ، نبيلَ المداخلِ، مصروفَ الغوائلِ، غامضَ المعاني، عارفاً بالأماني، طيِّبَ الأخلاق، سَرِيَّ الأعراق، مكتومَ السِّرِّ، كثيرَ البِرِّ، صحيحَ الأمانةِ، مأمونَ الخيانة، كريمَ النَّفْسِ، نافذ الحِسِّ، صحيحَ الحَدْسِ، مضمونَ العَوْنِ، كاملَ الصَّوْنِ، مشهورَ الوفاء، ظاهِرَ الغَنَاء، ثابتَ القَريحةِ، مبذولَ النَّصِيحَةِ، مستيقَنَ الوداد، سَهْلَ الانقياد، حَسَنَ الاعتقاد، صادقَ اللَّهْجة، خفيفَ المُهْجة، عفيفَ الطِّباع، رحبَ الذِّراع، واسعَ الصَّدْر، متخلِّقاً بالصَّبْرِ، يألفُ الإمحاض، ولا يعرفُ الإِعراض ـ؛ يستريحُ إليه بِبَلابِلِهِ، ويشاركُهُ ـ في خُلْوَةٍ ـ فكره[1]، ويفاوضه في مَكْتُومَاته.

وإنَّ فيه للمحبِّ لأعظَمَ الرَّاحات، وأين هذا؟! فإنْ ظَفِرتْ به يداكَ

(١) هذه هي قراءة برشيه، وهي قراءة جيدة. وفي الأصل: فقره. وجعلها السّامرائي: حلوه ومرّه.

فشُدَّهما عليه شدَّ الضَّنين، وأمْسِكْ بهما إمساكَ البخيل، وَصُنْهُ بطارِفِكَ وتالدك، فمعه يَكْمُلُ الأُنُس، وتَنْجَلي الأَحزانُ، وَيَقْصُرُ الزَّمانُ، وتطيبُ الأحوالُ.

ولن يفقدَ الإنسانُ مِنْ صاحب هذه الصِّفة عَوْناً جميلاً، ورأياً حسناً، ولذلكَ اتَّخذَ الملوكُ الوزراءَ والدُّخلاءَ كي يخفِّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور، وطُوِّقُوهُ من باهظِ الأحمال، ولكي يستغنوا بآرائهم، ويستمدُّوا بكفايتهم، وإلاَّ فليسَ في قوةِ الطَّبيعة أن تقاوِمَ كلَّ ما يَرِد عليها دونَ استعانةٍ بما يشاكلها، وهو من جِنْسِها.

ولقد كانَ بعضُ المحبِّين ـ لِعُدمِهِ هذه الصِّفَةَ من الإخوان، وقلَّة ثِقَتِهِ منهم لِمَا جرَّبه من النَّاس، وأنَّه لم يَعْدَمْ ممَّن باحَ إليه بشيءٍ من سرِّه أحدَ وجهين: إما إزراءً علىٰ رأيه، وإمَّا إذاعةً لسِرِّه ـ أقامَ الوحدةَ مقامَ الأُنُس، فكانَ ينفردُ في المكان النَّازِحِ عن الأنيس، ويناجي الهواءَ، ويكلِّمُ الأرضَ، ويجدُ في ذلك راحةً كما يجدُ المريضُ في التأوُّه، والمحزونُ في الزَّفير، فإنَّ الهُمومَ؛ إذا ترادَفَتْ في القلب ضاقَ بها، فإنْ لم يَنُصَّ مِنْها شَيْئاً باللِّسان[1]، ولم يَسْتَرِحْ إلىٰ الشَّكْوىٰ؛ لم يلبثْ أن يهلكَ غمَّاً، ويموت أسفاً.

وما رأيتُ الإِسعادَ[2] أكثرَ منه في النِّساء، فعندهنَّ من المحافظة علىٰ هذا الشأن، والتَّواصي بكتمانه، والتَّواطُىءِ علىٰ طيِّه ـ إذا اطَّلَعْنَ عليه ـ ما ليس عند الرِّجال، وما رأيتُ امرأةً كشفتْ سرَّ متحابَّيْن إلا وهي عند النساء مَمْقُوتةٌ مستثقَلَةٌ، مرميّةٌ عن قوسٍ واحدةٍ، وإنَّه ليوجدُ عند العجائز في هذا

(١) أي: يُظهره ويتكلّم به. يقال: نصَّ الحديث إليه، أي: رفعه. والشيءَ: أظهره. وأثبتها بتروف: «ينضّ»، واقترح العلامة شاكر أن تقرأ: لم يفضِ منها شيء باللسان. وقال: فاض صدره بسرِّه امتلأ ولم يطق كتمه فباح به.

(٢) الإسعاد: المساعفة والعون.

الشأنُ ما لا يوجد عن الفتيات، لأنَّ الفتيات منهنَّ ربَّما كشفنَ ما علمن علىٰ سبيل التَّغاير، وهذا لا يكون إلا في النُّدرة، وأمَّا العجائزُ فقد يَئِسْنَ من أنفسِهنَّ فانصرفَ الإشفاقُ ـ مَحْضاً ـ إلىٰ غيرهِنَّ.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعلمُ امرأةً مُوسرةً ذاتَ جَوَارٍ وخَدَم، فشاعَ علىٰ إحدى جواريها أنَّها تعشقُ فتىً من أهلها ويعشقها، وأَنَّ بينهما معانيَ مكروهةً، وقيلَ لها: إنَّ جاريتك فلانةَ تعرفُ ذلكَ، وعندها جليَّةُ أمرها، فأخذتها ـ وكانت غليظَةَ العقوبةِ ـ فأذاقتها من أنواعِ الضَّرْبِ، والإيذاءِ ما لا يَصبرُ علىٰ مثله جُلَداءُ الرِّجال، رجاءَ أن تبوحَ لهَا بشيءٍ مِمَّا ذُكِرَ لها، فلم تفعل البتَّةَ[١].

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعلمُ امرأةً جليلةً حافظةً لكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ناسكةً مُقبلةً علىٰ الخير، وقد ظَفرتْ بكتابٍ لفتىً إلىٰ جاريةٍ كان يكلَفُ بها، وكانت في غير مُلْكِها، فعرَّفته الأمرَ، فرامَ الإنكارَ فلم يتهيَّأ له ذلك، فقالت له: ما لكَ! ومن ذا عُصِمَ؟ فلا تُبالِ بهذا، فوالله! لا أَطْلَعْتُ علىٰ سرِّكما أحداً أبداً، ولو أمكنني أنْ أبتاعها لكَ من مالي ـ ولو أحاط به كلِّه ـ لجعلتُها لكَ في مكانٍ تَصِلُ إليها فيه، ولا يَشعرُ بذلك أحدٌ.

---

(١) الجارية التي ضُربت فلم تبح؛ نموذج للنِّساء في التَّكتُّم على المحبِّين، ولكن ما بال سيدتها التي ضربتها ضرباً مبرحاً؛ أليست هي امرأة؟! (ع).
قلتُ: هذا إيرادٌ غير جيِّد، لأنَّ تلك المرأة لم تعاقب جاريتها لمجرد عشق الأخرىٰ، وإنَّما لأمرٍ زائدٍ؛ وهو: ما شاع علىٰ تلك الجارية من الأمور المنكرة، الموجبة لعقوبتها. وكلام ابن حزم في تكتُّم النِّساء إنَّما يتعلَّقُ بالحالة الرَّاتبة المستقرَّة، وليس بالحالة العارضة.

وإنك لترىٰ المرأةَ الصَّالحَة المُسِنَّة المُنقطعةَ الرَّجاءِ من الرِّجال؛ وأَحبُّ أعمالها إِليها وأرجاها للقبول عندها سَعْيُها في تَزويج يتيمةٍ، وإِعارةُ ثيابها وحُلِيِّها لعروسٍ مُقِلَّةٍ. وما أعلمُ علَّةَ تمكُّن هذا الطَّبْعِ من النِّساء إلا أَنَّهُنَّ متفرِّغاتُ البالِ من كلِّ شيءٍ إلا من الجماعِ ودواعيه، والغَزَلِ وأسبابه، والتآلُفِ ووجوهِهِ، لا شُغْلَ لهنَّ غيره، ولا خُلِقْنَ لسواه؛ والرِّجال مُقْتَسَمُونَ في كَسْب المال، وصحبةِ السُّلطانِ، وطَلَب العلم، وحياطَةِ العيال، ومُكابدة الأسفار، والصَّيدِ، وضُروب الصِّناعاتِ، ومُباشرةِ الحُروب، ومُلاقاةِ الفِتَن، وتحمُّلِ المخاوفَ، وعمارةِ الأرض، وهذا كلُّهُ متحيِّفٌ للفراغ، صارِفٌ عن طريق البُطْلِ.

وقرأتُ في سِيَرِ ملوكِ السُّودان أنَّ الملكَ منهم يوكِّل ثقةً له بنسائه يُلقي عليهنَّ ضريبةً من غزل الصُّوفِ يشتغلنَ بها أبدَ الدَّهْر، لأَنَّهم يقولون: إنَّ المرأةَ إِذا بقيتْ بغير شُغْلٍ إنما تتشَوَّفُ إلىٰ الرِّجال، وتحنُّ إلىٰ النِّكاح.

ولقد شاهدتُ النِّساءَ، وعلمتُ من أسرارهِنَّ؛ ما لا يكادُ يعلمه غيري، لأنِّي رُبِّيتُ في حُجُورِهِنَّ، ونشأتُ بين أيديهنَّ، ولم أعرفْ غيرَهنَّ، ولا جالستُ الرِّجالَ إلا وأنا في حَدِّ الشَّباب، وحِينَ تبقَّلَ[1] وجهي؛ وهُنَّ علمنني القُرءَانَ، وروَّينني كثيراً من الأشعار، ودرَّبْنني في الخَطِّ، ولم يكن وَكْدِي وإِعمالُ ذهني مذ أوَّلِ فهمي ـ وأنا في سنِ الطفولة جدّاً ـ إلا تعرُّفَ أسبابِهنَّ، والبحثَ عن أخبارِهِنَّ، وتحصيلَ ذلكَ. وأنا لا أنسىٰ شيئاً مِمَّا أراه مِنهنَّ، وأَصلُ ذلك غَيْرَةٌ شديدةٌ طُبِعْتُ عليها، وسوءُ ظَنّ في جِهَتِهِنَّ فُطِرْتُ به، فأشرفتُ من أسبابهنَّ علىٰ غير قليلٍ. وسيأتي ذلك مفسَّراً في أبوابه، إِن شاء الله تعالى.

---

(١) بقل وجه الغلام: خرج شعره. وفي الأصل: يتقبل؛ وهو خطأ.





١٨ باب: الرَّقِيبِ

ومن ءافات الحُبِّ: الرقيبُ، وإنَّه لَحُمّىً باطنةٌ، وبِرْسامٌ مُلِحٌّ، وفكرٌ مُكِبٌّ.

والرقباءُ أقسام:

- فأوَّلهم: مُثْقِل بالجلوس - غيرَ متعمِّدٍ - في مكانٍ اجتمع فيه المرءُ مع محبوبه، وعَزَمَا علىٰ إظهارِ شيءٍ من سرِّهما، والبوحِ بوَجْدهما، والانفرادَ بالحديث.

ولقد يعرضُ للمُحبِّ من القلق بهذه الصِّفة ما لا يعرضِ له مِمَّا هو أشدُّ منها، وهذا - وإن كان يزولُ سريعاً - فهو عائِقٌ؛ حالَ دون المُراد، وَقَطَعَ مُتَوَفِّرَ[1] الرَّجاء.

خَبَرٌ:

ولقد شاهدتُ يوماً مُحِبَّيْنِ في مكانٍ قد ظنَّا أنَّهما انفردا فيه وتأهَّبا للشَّكْوىٰ، فاستحليا[2] ما هما فيه من الخُلْوة، ولم يكن الموضعُ حِمَىً، فلم يلبثا أنْ طلعَ عليهما من كانا يستثقلانه، فرءاني فَعَدل إليَّ وأطالَ الجلوسَ

(١) جعله (ع): متون.

(٢) تقرأ في الأصل: فاستجلبا.

معي، لو رأيتَ الفتىٰ المحبَّ ـ وقد تمازج الأسفُ البادي علىٰ وجهه مع الغضب ـ لرأيتَ عجباً. وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

يُطيلُ جلوساً وهو أثقلُ جالسٍ ويُبدي حديثاً لستُ أرضىٰ فُنونَهُ
شَمامٌ ورَضوَىٰ والُّلكامُ ويَذبلٌ ولبنانُ والصَّمَّانُ والحَزْنُ[1] دونَهُ

ـ ثُمَّ رقيبٌ قد أحسَّ من أمرهما بطَرْفٍ، وتوجَّسَ من مذهبهما شيئاً، فهو يريدُ أن يستقري[2] حقيقةَ ذلك، فيُدْمِنُ الجلوسَ، ويطيلُ القعودَ، ويَتَقَفَّىٰ الحركاتِ[3]، ويَرْمُقُ الوجُوهَ، ويُحصي[4] الأنفاسَ، وهذا أعدىٰ من الجَرَبِ. وإنِّي لأعرفُ مَن هَمَّ أن يُباطشَ رقيباً هذه صفته. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من مخلع البسيط]

مُواصِلٌ لا يُغِبُّ قَصْداً أغْظِمْ بهذا الوصالِ غَمَّا
صارَ وصِزنا لفَرطِ ما لا يَزوُلُ كالإِسمِ والمُسَمَّى

ـ ثم رقيبٌ علىٰ المحبوب، فذلك لا حيلةَ فيه إلاَّ بترضِّيهِ. وإذا أُرضي فذلكَ غايةُ اللَّذة، وهذا الرَّقيبُ هو الَّذي ذكرتْه الشُّعراء في أشعارها. ولقد شاهدتُ مَن تلطَّفَ في استراضاء رقيبٍ حتَّى صار الرقيبُ عليه رقيباً له، ومتغافلاً في وقتِ التَّغافُل، ودافعاً عنه، وساعياً له. ففي ذلكَ أقول: [من الطويل]

ورُبَّ رقيبٍ أرقَبُوهُ فلم يزلْ علىٰ سيدي عمداً ليبعدني عَنْهُ

---

(١) في الأصل: والحرب. والتَّصحيح عن (مكي)، وتابعه (ع).
(٢) هذه قراءة برشيه و(ع)، وفي الأصل: يستبري. وعند الصَّيرفي و(مكي): يستبين.
(٣) في الأصل: ويتجفىٰ بالحركات.
(٤) خ: ويحصل.

فما زالتِ الألطافُ تُحْكِمُ أمرَهُ إلىٰ أن غدا خوفي له أَمَناً منه
وكانَ حُساماً سُلَّ حتَّىٰ يَهُذَّني[1] فعادَ مُحِبّاً ما لنعمته كُنْه

وأقولُ قطعةً، منها: [من المنسرح]

صارَ حياةً وكانَ سَهْمَ رَدىً وكانَ سُمّاً فصار دِرْياقا

وإنِّي لأعرفُ مَن رَقَّبَ علىٰ مَنْ كان يُشفقُ عليه رقيباً وثِقَ به عند نفسه، فكان أعظمَ الآفة عليه، وأصلَ البلاء فيه.

وأمَّا إذا لم يكن في الرَّقيب حيلةٌ، ولا وُجِدَ إلىٰ تَرَضِّيهِ سبيلٌ؛ فلا طمعَ إلا بالإشارة بالعين هَمْساً، وبالحاجب أحياناً، والتَّعريض اللَّطيف بالقول، وفي ذلك مُتعةٌ وبلاغٌ إلىٰ حينٍ، يَقنعُ به المشتاق. وفي ذلك أقول شعراً أوله: [من الطويل]

علىٰ سيِّدي مِنِّي رقيبٌ محافِظٌ وفيٌّ لمَنْ والاهُ ليسَ بناكثِ

ومنه:

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانة في الهوىٰ ويَفعلُ فيها فِعل بعضِ الحوادث
كأنَّ له في قلبه ريبةَ تُري[2] وفي كُلِّ عينٍ مُخبرٍ بالأحادِثِ

ومنه:

علىٰ كلِّ مَنْ حولي رقيبان رُقَّبا وقد خَصَّني ذُو العَرْشِ منهم بثالثِ

---

(١) خ: يهدني.

(٢) قال العلامة شاكر: سأنظر فيها حتىٰ أهتدي إلىٰ حقِّ صوابها. وعلَّق (ع): يريد برشيه أن يقرأها: رئياً يرىٰ. وهذا لا يستقيم مع الوزن، وقد تقرأ: ربَّة ترىٰ. والربَّة: الجماعة الكثيرة. قلت: (ريبة) ضبطت في الأصل هكذا: (رئيبةً).

وأشنعُ ما يكونُ الرَّقيبُ إذا كانَ مِمَّن امتُحِنَ بالعشق قديماً، ودُهي به، وطالت مُدَّته فيه، ثم عَريَ عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكانَ راغباً في صيانةِ من رُقِّبَ عليه، فتبارَكَ الله! أيُّ رقبةٍ[1] تأتي منه، وأيُّ بلاءٍ مصبوبٍ[2] يَحِلُّ علىٰ أهل الهوىٰ من جهته؟! وفي ذلكَ أقول: [من الوافر].

رقيبٌ طالَما عَرَف الغَراما ... وقاسىٰ الوَجْدَ وامْتَنَعَ المَناما[3]

ولاَقىٰ في الهوىٰ ألماً أليماً ... وكادَ الحُبُّ يُوردُهُ الحِماما

وأتْقَنَ حِيلةَ الصَّبِّ المُعَنَّى ... ولم يُضِعِ الإشارةَ والكلاما

وأعقبه التسلِّي بعد هذا ... وصار يرىٰ الهوىٰ عاراً وذاما

وصُيِّرَ دونَ من أهوىٰ رقيباً ... ليُبعدَ عنه صَبّاً مُستهاما

فأيُّ بليّةٍ صُبّتْ علينا ... وأي مصيبةٍ حَلَّتْ لِماما

ومن طريفِ معاني الرُّقباء أنّي أعرفُ محبَّيْنِ مذهبهما واحدٌ في حُبِّ محبوبٍ واحدٍ بعينه، فلعهدي بهما كُلُّ واحدٍ منهما رقيبٌ علىٰ صاحبه. وفي ذلك أقول: [من السريع]

صَبَّانِ هَيْمانانِ في واحدٍ ... كلاهما عن خِدْنه مُنْحرفْ

كالكَلْبِ في الآريِّ لا يَعْتَلفْ ... ولا يُخلِّي الغَيْرَ أن يَعْتَلِفْ[4]

---

(١) خ: رقيبٍ. وما أثبته فعن (ع) و(مكي).

(٢) خ: منصوب.

(٣) كذا في الأصل، وقال الأستاذ محمود شاكر: صوابه: إذا مُنِعَ المناما.

(٤) قال العلامة شاكر: غريبٌ جداً ولعلها: «العَيْر»، وقال (ع): الآري: محبس الدابة من كلبٍ وغيره، وقوله: كالكلب لا يعتلف ولا يخلِّي غيره يعتلف، مثَل جاء في صور مختلفة عند الأندلسيين والمغاربة، من ذلك: كلب الورد لا يشم ولا يخلِّي أحد يشم؛ (انظر الزجالي ص: ٢٦١ المثل رقم: ١١٢٥) وقد ذكر الأستاذ بنشريفه =

....

= أن المثل ما يزال مستعملاً في تونس، وله صنو في إسبانيا، وقارنه بقول ابن حزم هنا؛ والصورة الإسبانية من المثل أوردها غومس (هامش ص: ١٧٠) واقتبسها مكي (هامش ص: ٨٢).





١٩ باب: الوَاشِي

ومن ءافات الحبِّ الواشي، وهو علىٰ ضربين:

أحدهما: واشٍ يريدُ القطعَ بين المتحابَّيْنِ فقط. وإِنَّ هذا لأفترهما سَوْءَةً، علىٰ أنّه السمُّ الذُّعاف، والصَّابُ الممقرُ[1] والحتفُ القاصدُ، والبلاء الوارد. وربما لم يَنجع تَرْقِيشُهُ.

وأكثر ما يكون الواشي فإلىٰ المحبوبِ، وأمَّا المحبُّ فهيهاتَ، حالَ الجَريضُ دونَ القَرِيضِ[2]، ومنع الحَرَبُ من الطَّربِ، شُغلهُ بما هو مانعٌ له من استماع الواشي. وقد علم الوُشاة ذلكَ، وإنَّما يقصدون إلى الخَليِّ البالِ، الصَّائِلِ بحَوْزَةِ[3] الملك، المتعتِّبِ عند أقلِّ سببٍ.

وإِنَّ للوُشاة ضُروباً من التَّنقِيل.

فمنها: أن يذكرَ للمحبوب عمَّن يُحبُّ أنَّه غيرُ كاتم للسِّرِّ، وهذا مكانٌ

(١) الصَّابُ ـ بتخفيف الباء ـ: عُصارةُ شجرٍ مرٌّ. والمُمْقِرُ: الشديد المرارة.

(٢) حال الجريض دون القريض: هذا مثَل يُضرب للمعضلة تُعرض فتشغل عن غيرها، وهو لعبيد بن الأبرص حين سئل وهو مترقِّب الموت أن يقول شعراً (انظر جمهرة العسكري ١: ٣٥٩ والفاخر: ٢٥٠ والميداني ١: ١٢٩ والمستقصى: ٢٠١ واللسان: جرض، وفصل المقال: ٤٤٤) (ع).

(٣) تقرأ في الأصل: بجوره.

صَعْبُ المُعاناة، بطيءُ البُرءِ إلاَّ أن يوافقَ معارضاً للمُحبِّ في محبَّته، وهذا أمرٌ يوجبُ النِّفار، فلا فرجَ للمحبوب إلا بأن تساعدَه الأقدارُ بالاطّلاع علىٰ بعض أسرار من يُحبُّ، بعد أن يكونَ المحبوب ذا عَقْلٍ، وله حَظٌّ من تمييزٍ، ثم يَدعهِ والمطاولة. فإذا تكَذَّبَ عنده نَقْلُ الواشي مع ما أظهر من الجفاءِ والتَّحفُّظِ، ولم يسمع لسرِّه إذاعةً عَلِمَ أنَّه إنَّما زوَّرَ له الباطلَ، واضمحلَّ ما قامَ في نفسه.

ولقد شاهدتُ هذا بعينه لبعض المُحبِّينَ مع بعض من كانَ يحبُّ، وكان المحبوبُ شديد المراقبة، عظيمَ الكتمان، وكَثُرَ الوُشاة بينهما؛ حتَّىٰ ظَهَرتْ أَعْلامُ ذلكَ في وَجْهِهِ، وحُدِّثَ في حُبٍّ لم يكن[1]، ورَكِبَتْه وَجْمَةٌ[2]، وأظلَّته فِكْرَةٌ، ودَهَمَتْهُ حَيْرَةٌ، إلىٰ أنْ ضاقَ صدره، وباح بما نُقِلَ إليه؛ فلو شاهدتَ مقامَ المحبِّ في اعتذاره لعلمتَ أن الهوىٰ سلطانٌ مُطاعٌ، وبناءٌ مشدودُ الأواخي، وسنانٌ نافِذٌ، وكانَ اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف، والإنكار والتَّوبة، والرَّمي بالمقاليد، فبعدَ لأْيٍ ما صَلُحَ الأمرُ بينهما.

وربَّما ذكر الواشي أنَّ ما يُظْهِرُ المُحبُّ من المحبة ليسَت بصحيحةٍ، وأنَّ مذهبه في ذلكَ شِفاءُ نفسه، وبلوغُ وَطَره؛ وهذا فصلٌ ـ وإنْ كانَ شديداً في النَّقْلِ ـ فهو أيسرُ معاناةً ممَّا قبله، فحالةُ المحبِّ غيرُ حالة المتلذِّذ، وشواهدُ الوَجْدِ متفرقةٌ[3] بينهما. وقد وَقَعَ من هذا نُبَذٌ كافيةٌ في باب الطَّاعة.

ورُبَّما نقل الواشي أنَّ هوىٰ العاشقِ مُشْتَرَكٌ، وهذه النَّارُ المُحرقة، والوجعُ

---

(١) كذا في الأصل، و(وحُدِّثَ في حُبٍّ. .) ضبطها هكذا العلامة شاكر. وقدَّم (ع) هذه الجملة علىٰ التي قبلها من غير إشارة ولا توضيح (!).

(٢) هذه قراءة (ع) وهي قراءة جيدة، وفي الأصل: رحمة.

(٣) جعلها (ع): متفاوتة.

الفاشي في الأعضاء. وإذا وافق النَّاقلُ لهذه المقالة أن يكون المُحبُّ فتىً حَسَنَ الوجه، حُلْوَ الحركاتِ، مرغوباً فيه، مائلاً إلىٰ اللَّذَّات، دُنياويَّ الطَّبْع، والمحبوبُ امرأةٌ جليلةَ القَدْرِ، سَرِيَّة المَنْصِب، فأقربُ الأشياء سَعْيُها في إهلاكه، وتصدِّيها لحَتْفِه، فكم صَريعٍ علىٰ هذا السَّبب، وكم مَنْ سُقِيَ السُّمَّ فقطَّعَ أمعاءَهُ؛ لهذا الوجه، وهذه كانت ميتةَ مروانَ بنِ أحمدَ بنِ حُدَيْرٍ ـ والد أحمدَ المتنسِّكِ، وموسىٰ، وعبدالرحمن المعروفَيْنِ بابنيْ لُبْنىٰ[1] ـ من قِبَلِ قَطْرِ النَّدىٰ جاريته. وفي ذلكَ أقولُ ـ مُحَذِّراً لبعض إخواني ـ قطعةً منها: [من الطويل]

وهل يأمنُ النِّسْوانَ غيرُ مغفَّلٍ جهولٍ لأسباب الرَّدَىٰ متعرِّضِ[2]
وكمْ واردٍ حَوْضاً من الموت أسوداً تَرَشَّفَه من طَيِّبِ الطَّعمِ أبيضِ

والثَّاني: واشٍ يسعىٰ للقطْع بين المُحبَّينَ، لينفردَ بالمحبوب ويستأثِرَ به، وهذا أشدُّ شيءٍ وأقطَعُهُ، وأجزَم لاجتهادِ الواشي، وَاسْتِفَادِهِ لِجَهْدِهِ[3].

ومن الوُشاة جنسٌ ثالثٌ، وهو: واشٍ يَسعىٰ بهما جميعاً، ويكشفُ سرَّهما، وهذا لا يُلْتَفَتُ إليه إذا كانَ المُحِبُّ مساعداً. وفي ذلكَ أقول: [من الطويل]

عَجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكْشِفُ أمرنَا وما بسَوىٰ أخبارنا يتَنفَّس
وماذا عليه من عَنائي ولوْعَتي أنا ءاكلُ الرُّمَّانَ والوُلد تَضْرِسُ[4]

---

(١) تقدَّم التعريف ببعض بني حُدَير، وقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب (أعمال الأعلام: ٢١١) موسىٰ بن مروان بن حُدير؛ ووصفه بالصَّرامة والجرأة، وجَّهه صاحب قرطبة إلىٰ خيران حين انتزىٰ في شرق الأندلس، فدارت بين الاثنين وقعة؛ أسر فيها موسىٰ وقُتل أصحابه (ع).

(٢) هذه قراءة برشيه. وفي الأصل: متأرض.

(٣) يرىٰ (ع) أن تقرأ: واستنفاده جهده.

(٤) هذا اقتباس من عبارة وردت في: «التّوراة» (حزقيال: ١٨: ٣)؛ ونصّها: الآباءُ أكلوا الحِصْرم؛ وأسنان الأبناءِ ضَرِسَتْ.

ولا بدَّ أن أُورد ما يُشبه ما نحنُ فيه، وإنْ كانَ خارجاً منه، وهو شيءٌ في بيان التَّنْقِيلِ والنَّمَائِمِ ـ فالكلامُ يدعو بعضهُ بعضاً كما شرطنا في أوَّل الرِّسالة ـ:

ما في جميع النَّاس شَرٌّ من الوُشاة، وهم النَّمَّامُونَ، وإنَّ النَّميمةَ لطبْعٌ يدلُّ على نَتْنِ الأصْلِ، ورداءَةِ الفَرعِ، وفسادِ الطَّبعِ، وخُبثِ النَّشأة، ولا بدَّ لصاحبه من الكَذِب؛ والنَّميمة فرعٌ من فروع الكذب، ونوعٌ من أنواعه، وكلُّ نمَّامٍ كذَّابٌ، وما أحببتُ كذَّاباً قطُّ، وإنيّ لأسامحُ في إخاءِ كلِّ ذي عَيبٍ ـ وإن كانَ عظيماً ـ وأَكِلُ أمرَهُ إلىٰ خالقه ـ عزّ وجلَّ ـ وءاخُذُ[١] ما ظَهر من أخلاقه؛ حاشا من أعلمه يَكْذِبُ، فهو عندي ماحٍ لكلِّ محاسنه، ومُعَفٍّ علىٰ جميع خِصَاله، ومُذْهِبٌ كلَّ ما فيه، فما أرجو عنده خيراً أصلاً، وذلكَ لأنَّ كلَّ ذنبٍ فهو يتوب عنه صاحبُهُ، وكلَّ ذامٌ فقد يُمْكِنُ الاستتارُ به والتَّوْبةُ منه، حاشا الكَذِبَ فلا سبيلَ إلىٰ الرَّجْعة عنه، ولا إلى كتمانه حيثُ كانَ. وما رأيتُ قطُّ ـ ولا أخبرني من رأىٰ ـ كذَّاباً؛ وتركَ الكَذِبَ ولم يَعُدْ إليه. ولا بدأتُ قطُّ بقطيعةِ ذي معرفةٍ إلا أن أطَّلعَ له على الكذب، فحينئذٍ أكونُ أنا القاصدَ إلىٰ مجانبته، والمتعرِّضَ لمتاركته، وهي سِمَةٌ ما رأيتها قطُّ في أَحدٍ إلاَّ وهو مَزنُونٌ إليه بشرٌّ في نفسه[٢]، مغموزٌ عليه لعاهةِ سوءٍ في ذاته، نعوذ بالله من الخذلان.

وقد قالَ بعضُ الحكماء: ءَاخِ مَنْ شئتَ، واجتنبْ ثلاثةً: الأحمقَ؛ فإنَّه يريد أنْ ينفعك فيضرُّك، والملولَ؛ فإنَّه أوثقَ ما تكونُ به لطول الصُّحْبة وتأكُّدها؛ يخذلك، والكذّاب؛ فإنَّه يَجْنِي عليكَ ءَامَنَ ما كنتَ فيه من حيثُ لا تشعر.

---

(١) خ: وءاخر.

(٢) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: وهو مزنونٌ في نفسه إليه بشق.

وحديثٌ عن رسولِ الله ﷺ: «**حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإيمانِ**»[1].

وعنه ـ عليه السَّلام ـ: «**لا يُؤمِنُ الرَّجُلُ بالإيمان كلِّه حتَّى يَدَعَ الكَذِبَ في المُزاح**»[2].

حَدَّثنا بهذا أبو عُمَرَ أحمدُ بن محمَّدٍ[3]، عن محمَّدِ بن عيسىٰ بن

---

(١) رواه الحاكم: ١/١٥ ـ ١٦ (٤٠)، والبيهقي في: «شعب الإيمان» ٦/٥١٧ (٩١٢٢)، والقضاعي في: «مسند الشهاب» ٢/١٠٢ (٩٧١)، وابن عبد البر في: «الاستيعاب» ٤/١٨١٠ من طريق صالح بن رستم، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة؛ قالت: جاءتْ عجوزٌ إلى النَّبي ﷺ ـ وهو عندي ـ فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أنتِ؟**» قالتْ: أنا جَثَّامة المُزَنِيَّة. فقال: «**بل أنتِ حَسَّانة المُزَنِيَّة! كيفَ أنتم؟ كيفَ حالكم؟ كيفَ أنتم بعدنا؟**» قالتْ: بخيرٍ بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فلمَّا خرجتْ قلتُ: يا رسولَ الله تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال! فقالَ: «**إنَّها كانتْ تأتينا زَمَنَ خديجةَ، وإنَّ حُسْنَ العهد مِنَ الإيمان**». وإسناده حسن، وهو في: «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة» (٢١٦).
قالَ أبو عُبَيْد: العهدُ ـ هنا ـ رعاية الحرمة. وقالَ عِياض: هو الاحتفاظ بالشَّيء والملازمة له. وقال الرَّاغب: حفظُ الشَّيء ومراعاته حالاً بعدَ حالٍ، وعهدُ الله تارةً يكونُ بما رَكَزَهُ في العقل، وتارةً بما جاءتْ به الرُّسُل، وتارةً بما يلتزمه المكلَّفُ ابتداءً كالنَّذرِ. ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ وأمَّا لفظُ العهد فيُطْلَقُ بالاشتراك بإزاءِ معانٍ أخرىٰ؛ منها: الزَّمان، والمكان، واليمين، والذِّمة، والصُّحْبة، والميثاق، والإيمان، والنَّصيحة، والوصيَّة، والمطر، ويقال له: العهاد ـ أيضاً ـ. (كذا في: «فتح الباري» كتاب الأدب، باب: حسن العهد من الإيمان ١٠/٥٣٥).

(٢) رواه مِنْ حديث عمرَ ـ رضي الله عنه ـ أبو يعلىٰ في: «المسند الكبير»، كما في: «المقصد العلي» (٢٣)، و«المطالب العالية» (٣٢٠٦، ط: قرطبة)؛ بلفظ: «**لا يبلغُ عبدٌ صَرِيحَ الإيمانِ؛ حتَّى يَدَعَ المزاحَ والكَذِبَ، ويَدَعَ المِراءَ؛ وإنْ كانَ مُحِقّاً**»، وفي إسناده مجهولان وضَعِيفٌ. ولم أقف عليه من حديث ابن عمر، لكن رواهُ أحمد ٢/٣٥٢ ـ ٣٥٣ و٣٦٤ (٨٦٣٠، ٨٧٦٦)، والطَّبرانيُّ في: «الأوسط» (٥١٠٣)، عن أبي هريرة قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا يُؤمنُ العبدُ الإيمانَ ـ كلَّه ـ حتَّىٰ يتركَ الكذبَ في المُزاحة، ويتركَ المراءَ وإنْ كانَ صادقاً**» وإسناده ضعيفٌ؛ لانقطاعه وجهالة أحد رواته.

(٣) الإمام المحدِّث الثِّقةُ الأديب أبو عمر أحمد بن محمد بن أحمد؛ المعروف بابن الجَسُور الأُموي القرطبي، هو أكبرُ شيخٍ لابن حزم؛ قالَ: «وهو أوَّلُ شيخٍ سمعتُ عليه قبلَ الأربع مِئَةٍ» وكانَ خيِّراً صالحاً شاعراً، عالي الإسناد، واسع الروايَة، صدوقاً. وتوفي سنة (٤٠١هـ) ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ١٧/ (٩٠)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤١ /ترجمة: ٦).

رفاعة[١]، عن عليِّ بن عبدالعزيز[٢]، عن أبي عُبَيْدٍ القاسم بن سلاَّم[٣]، عن شيوخه. والآخِرُ منهما مُسندٌ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب، وابنه عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وعن رسولِ الله ﷺ أنَّه سُئِلَ هل يكونُ المؤمنُ[٤] بَخيلاً؟ فقال: «**نعم**». قيل: فهل يكونُ المؤمنُ جَباناً؟ فقالَ: «**نعم**». قيل: فهل يكونُ المؤمن كذَّاباً؟ قال: «**لا**»[٥].

حدَّثناه أحمدُ بنُ محمَّدِ بن أحمدَ، عن أحمدِ بنِ سعيدٍ[٦]، عن عُبيدِالله بنِ يحيىٰ[٧]، عن أبيه[٨]، عن مالكِ بنِ أنسٍ، عن صفوانَ بن

---

(١) هو: أبو عبدالله الخولاني، المعروف بابن القلَّاس القرطبي، توفي سنة (٣٣٧هـ)، وكان متَّهماً بالكذب «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٤ /ترجمة: ٢٣٥)، و«ميزان الاعتدال» ٦٧٩/٣، و«لسانه» ٣٣٤/٥ ـ ٣٣٥. وابن حزم ـ رحمه الله ـ لا يذكر من حديث ابن الجسور، عن شيخه هذا؛ إلا نادراً.

(٢) الإمام الحافظ علي بن عبدالعزيز، أبو الحسن البغوي، مات سنة (٢٨٦هـ). ترجمته ومصادرها في: «السِّير» ١٣/(١٦٤).

(٣) الإمام الحافظ المجتهد ذو التَّصانيف الشَّهيرة أبو عُبيد القاسم بن سلَّام (١٥٧ ـ ٢٢٤هـ). ترجمته ومصادرها في: «السِّير» ١٠/ (١٦٤).

(٤) خ: الرجل. والتَّصحيح من: «الموطأ»، وهو الذي يقتضيه السِّياق.

(٥) رواه مالك في: «الموطأ» (١٧٩٥)؛ عن صفوان بن سُليم مرسلاً. ولم يوجد موصولاً.

(٦) الحافظ المؤرِّخ أحمد بن سعيد بن حزم، أبو عمر الصَّدَفي القرطبي، كان أحد أئمَّة الحديث، له عناية تامَّة بالآثار. توفي سنة (٣٥٠هـ) مترجم في: «السِّير» ١٦/(٧١).

(٧) الفقيه الإمام أبو مروان عُبيدالله بن يحيى بن يحيى اللَّيثي القرطبي، مسند قرطبة، كان كبير القدر، وافر الجلالة، توفي سنة (٢٩٨هـ). مترجم في: «السِّير» ١٣/(٢٦٤).

(٨) الإمام الكبير يحيى بن يحيى الليثي المصمودي القرطبي، ارتحل إلى المشرق في أواخر أيام مالك الإمام؛ فسمع منه: «الموطأ» سوىٰ أبوابٍ من الاعتكاف؛ شكَّ في =

سُلَيْمٍ[1].

وبهذا الإسناد؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: **«لا خيرَ في الكَذِبَ»** ـ في حديث سُئِلَ فيه[2] ـ.

وبهذا الإسناد؛ عن مالكٍ أنَّه بلغه عن ابنِ مسعودٍ أنَّه كانَ يقولُ: لا يزالُ العَبد يكْذب، ويُنْكَتُ في قلبه نُكْتةٌ سوداءُ حتَّىٰ يَسوَدَّ القلبُ فيُكتبَ عند الله من الكذَّابين[3].

وبهذا الإسنادِ؛ عن ابنِ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: عليكم بالصِّدق؛ فإنَّه يهدي إلىٰ البِرِّ، والبرُّ يهدي إلىٰ الجنة، وإيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّه يهَدي إلىٰ الفجور، والفجورُ يهدي إلىٰ النَّار[4].

ورُويَ أنَّه أتاه ﷺ رجلٌ فقالَ: يا رسولَ الله! إنِّي أَسْتَتِرُ بثلاثٍ: الخَمْرِ، والزِّنا، والكَذِبِ. فمُرْني أيَّها أتركُ! قالَ: **«اتركِ الكذبَ»**. فذهبَ عنه، ثُمَّ أرادَ الزِّنا ففكَّرَ، فقالَ: ءَاتي رسولَ الله ﷺ فيسألني: أزنيتَ؟ فإنْ قلتُ: نعم؛ حدَّني، وإن قلتُ: لا؛ نقضتُ العهد. فتركه، ثُمَّ كذلكَ في

= سماعها منه. توفي سنة (٢٣٤هـ). مترجم في: «السِّير» ١٠/(١٦٨).

(١) الإمام الثقة صفوان بن سُليم القرشي (١٣٢هـ)، أخرج له الستة.

(٢) رواه مالك (١٧٩١) عن صفوان بن سليم: أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ الله ﷺ: أكذبُ امرأتي يا رسول الله؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: **«لا خير في الكذب»** فقالَ الرَّجُلُ: يا رسولَ الله أَعِدُها، وأَقُولُ لها؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: **«لا جُنَاحَ عَلَيْكَ»**. وهذا مُرْسَلٌ ـ أيضاً ـ ولم يثبت موصولاً.

(٣) هو في: «الموطأ» (١٧٩٤) هكذا بلاغاً.

(٤) «الموطأ» (١٧٩٢) بلاغاً. وهو عند البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) وغيرهما؛ مِنْ حديثِ ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ؛ عن النَّبيِّ ﷺ مرفوعاً. فالعجبُ مِنَ المصنِّف؛ كيف اكتفىٰ بالموقوف مع شُهرة المرفوع وصحَّته!

الخمر، فعادَ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالَ: يا رسول الله! إنِّي تركتُ الجميع[1].

فالكَذِبُ أصلُ كلِّ فاحشةٍ، وجامعُ كلِّ سوءٍ، وجالبٌ لمَقْتِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ؛ أنَّه قال: لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له[2].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ؛ أنَّه قالَ: كلُّ الخِلال يُطْبَعُ عليها المؤمنُ إلا الخيانةَ والكَذِبَ[3].

وعن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: **«ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيه كانَ منافقاً: مَنْ إذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»**[4].

---

(١) لم أعثر عليه في كتب الحديث، وقد أشار المصنِّف ـ رحمه الله ـ إلى عدم صحَّته بتصديره بـ: «رُوي». نعم؛ ذكره ـ هكذا من غير إسنادٍ ـ الجاحظُ في: «المحاسن والأضداد»، والمبرِّد في: «الكامل في اللُّغة والأدب»، وأبو سعدٍ منصور بن الحسين الآبيُّ في: «نثر الدُّرر»، وابنُ حمدون في: «التَّذكرة»، والزَّمخشريُّ في: «ربيع الأبرار»؛ وغيرهم من أهل الأدب والأخبار؛ ممَّن لا معرفة لهم بعلوم الرِّواية، وتفرُّدهم بذكره يدلُّ علىٰ أنَّه لا أصل له. وقد كنتُ وقفت عليه في بعض كتب أهل العلم؛ حكايةً عن بعض الصَّالحين، لكن فاتني تقييده، والله أعلم.

(٢) لم أعثر عليه، وقد ثَبَتَ هذا مرفوعاً؛ أخرجه ابن أبي شَيْبة في: «المصنَّف» (٣٠٣١١ ـ ط: بيروت)، وأحمد ٣/١٣٥، ١٥٤، ٢١ (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣٦٣٧، ١٣١٩٩)، وابن حِبَّان (١٩٤)، والبيهقيُّ في: «السُّنن الكبرىٰ» ٤/٩٧، والبغويُّ في: «شرح السُّنة» (٣٨)؛ وقال: حديثٌ حسنٌ، وغيرهم؛ مِنْ طرقٍ من حديث أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ؛ قالَ: قلَّما خَطَبنا رسولُ الله ﷺ إلاَّ قالَ: **«لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ لَهُ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ»**.

(٣) صحيحٌ: أخرجه ابن أبي شيبة في: «المصنَّف» (٢٥٥٩٤، ٣٠٣٣١) بلفظ: «المؤمن يُطْوىٰ علىٰ الخلال....». وأخرجه ـ أيضاً ـ (٢٥٥٩٥، ٣٠٣٣٠)؛ عن سعد بن أبي وقَّاصٍ ـ رضي الله عنه ـ؛ موقوفاً بإسنادٍ صحيح أيضاً. ورُوي مرفوعاً؛ ولا يصحُّ.

(٤) حديثٌ صحيحٌ مشهورٌ، رواهُ ـ بهذا اللَّفظ ـ أحمد ٢/٥٦٣ (١٠٩٢٥)، ومسلم (٥٩ ـ =

وهل الكفرُ إلاَّ كَذِبٌ علىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟! والله الحقُّ، وهو يحبُّ الحقَّ، وبالحقِّ قامتِ السَّموات والأرضُ. وما رأيتُ أخزىٰ من كذّاب، وما هلكتِ الدُّولُ، ولا هلكتِ الممالك، ولا سُفِكَتِ الدماءُ ظُلْماً، ولا هُتِكَتِ الأستارُ بغير النَّمائم والكَذِبِ، ولاَ أُكِّدت البغضاءُ والإِحَنُ المُرْدِيَةُ إلا بنمائِمَ لا يحظىٰ صاحبها إلاَّ بالمَقْتِ، والخِزْيِ، والذُّلِّ، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه ـ فضلاً عن غيره ـ بالعَيْنِ التي ينظرُ بها مِنَ[1] الكلب.

والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١] ويقولُ ـ جلَّ مِنْ قائل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] فسمَّىٰ المنقّلَ باسم الفسوق. ويقولُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٣].

والرَّسول ـ عليه السَّلام ـ يقولُ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[2]. ويقولُ: «**وإيَّاكُمْ وقاتِلَ الثَّلاثةِ**»[3] ـ يعني: المنقّلَ، والمَنْقُولَ إليه، والمنقولَ عنه ـ.

= ولم يسق لفظه)، وابن حِبَّان (٢٥٧)، وأبو عوانة ٢١/١، والبيهقيُّ ٢٨٨/٦ من طريق سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو مُنَافِقٌ؛ وإنْ صَامَ وصَلَّىٰ وزَعَمَ أنَّه مُسْلِمٌ**: . . .» فذكره. ورواهُ ـ بهذا اللَّفظ أيضاً ـ أبو يعلىٰ (٤٠٩٨) مِنْ حديثِ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩)؛ وغيرهما من طريق: مالك بن أبي عامرٍ، عن أبي هريرة به؛ بلفظ: «**ءاية المنافق ثلاث**: . . .».

(١) لعل الأصح: إلى. بل هذا هو الصَّواب عند العلامة محمود شاكر.

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)؛ من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ. والقتَّات هو: النَّمامُ. والنَّميمة هي: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعضٍ على جهة الإفساد بينهم.

(٣) لا يصحُّ؛ ذكره الديلمي في: «الفردوس» (١٥٣٠) من حديث أنس؛ بلفظ: «**إياكم وقاتل الثلاثة، فإنه من شرار خلق الله عز وجل رجل سلَّم أخاه إلى سلطانه فقتل نفسه وقتل أخاه وقتل سلطانه**». ورَوىٰ البيهقيُّ ١٦٧/٨؛ عن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام؛ قال: سمعتُ أسقفاً من أهل نجران يكلِّم عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، يقول: يا أمير المؤمنين احْذَرْ قاتلَ الثَّلاثة. قالَ عمرُ: ويلكَ وما قاتلُ الثَّلاثة؟ قالَ: الرَّجُلُ يأتي الإمامَ =

والأحنفُ[1] يقولُ: الثِّقَةُ لا يُبَلِّغ[2].

وحُقَّ لذي الوَجْهَيْنِ ألا يكونَ عند الله وَجِيهاً؛ وهو ما يَجْعَلُهُ من أخسِّ الطَّبائع وأرذلها.

ولي إلىٰ أبي[3] إسحاقَ إبراهيمَ بنِ عيسىٰ الثَّقفيِّ الشاعر ـ رحمه الله ـ وقد نَقَلَ إليه رجلٌ من إخواني عنِّي كَذِباً علىٰ جهة الهَزَلِ، وكانَ هذا الشَّاعر كثيرَ الوَهْمِ؛ فأَغْضَبَهُ وصَدَّقَهُ، وكلاهما كانَ لي صَديقاً، وما كان النَّاقل إليه من أهل هذه الصِّفة؛ ولكنَّه كانَ المَزَّاحَ[4]، جمَّ الدُّعابة، فكتبتُ إلىٰ أبي إسحاقَ ـ وكانَ يقولُ بالخَبَرِ[5] ـ شعراً منه: [من الطويل]

ولا تَتَبَدَّلْ قَالَةً قد سَمِعْتَها تُقالُ ولا تدري الصَّحِيحَ بما تَدْرِي

كَمَنْ قد أراقَ الماءَ لِلآلِ أَنْ بدا فلاقىٰ الرَّدىٰ في الأَفِيحِ المَهْمَهِ القَفْر

وكتبتُ إلىٰ الَّذي نقلَ عنِّي شعراً منه: [من الطويل]

ولا تزعُماً[6] في الجِدِّ مَزْحاً كَمُولِجٍ

فَسادَ عِلاجِ النَّفْسِ طيَّ صَلاحِها

= بالكَذِبِ؛ فيقتلُ الإمامُ ذلكَ الرَّجُلَ بحديثِ هذا الكذَّاب، فيكونُ قد قتلَ وصاحبه وإمامه.

(١) العالم النَّبِيلُ الأحنفُ بن قيس التَّميمي، أحدُ مَن يُضرَبُ بحلمه وسُؤْدُدِهِ المَثَلُ. أسلم في حياة النَّبي ﷺ، وَوَفَدَ علىٰ عُمَرَ. ماتَ سنة (٦٧)، أو (٧١)؛ علىٰ خلافٍ. مترجم في: «السِّير» ٤/(٢٩).

(٢) لم أقف عليه. وفي الأذكياء لابن الجوزي: غَضِبَ رَجُلٌ على رَجُلٍ؛ فقالَ له: ما أغضبكَ؟ قالَ: شيءٌ نقله إليَّ الثِّقَةُ عَنْكَ. فقال: لَوْ كانَ ثِقَةً؛ ما نَمَّ!

(٣) في الأصل: ءال أبي.

(٤) كذا في الأصل، وجعلها برشيه ـ وتابعه (مكي) و(ع) ـ: كثير المُزاح.

(٥) يعني: أنَّه كانَ علىٰ مَذْهَبِ المصنِّف ـ رحمه الله ـ في اتباع الأثر، وإنكار القياس والرَّأي والتَّقليد.

(٦) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف. وعند برشيه: تمزجن. وقرأها (ع): تدغمَن.

ومَـن كـانَ نَـقْـلُ الـزُّورِ أمـضـىٰ سـلاحِـهِ

كـمِـثْـلِ الـحُـبـارىٰ تَـتَّـقـي بِـسُـلاحِـهـا[1]

وكانَ لي صديقٌ مَرَّةً، وكَثُرَ التَّذْخِيلُ[2] بيني وبينه حتَّىٰ كدَحَ ذلك فيه، واستبانَ في وجهه، وفي لَحْظِهِ، وطُبعتُ علىٰ التَّأنِّي والتربُّصِ والمسالمة ما أَمكَنَتْ، ووجدتُ بالانخفاضِ سبيلاً إلىٰ معاودة المودَّة، فكتبتُ إليه شعراً، منه: [من الطويل]

ولـي فـي الَّـذي أُبـدي مـرامٍ لَـو أَنَّـهـا　　بَدَتْ ما ادَّعىٰ حَسَنَ الرِّمايةِ وِهْرِزُ[3]

وأقولُ مخاطباً لعُبيد الله بنِ يحيىٰ الجَزِيريِّ[4] - الَّذي يحفظُ لعمِّه الرسائلَ البليغة[5] - وكانَ طَبعُ الكَذِبِ قد استولىٰ عليه، واسْتَحْوَذَ علىٰ عقله، وألِفَهُ أُلْفَةَ النَّفْسِ الأَمَلَ، ويؤكِّدُ نقلَه وكذبه بالأيمان المؤكَّدةِ المغلَّظة،

---

(١) يشير إلى قولهم في المثل: اسلح (أو أذرق) من حبارىٰ. انظر: الدرّة الفاخرة: **٢٣٣**، وجمهرة العسكري: **١/٥٣٤**، والميداني: **١/٣٥٤**، والمستقصى: **١/١٧٠**.

(٢) [جعلها] برشيه: التّذجيل؛ ولا أراه صواباً. والتّذْخيل: مصدر دَخَلَ، وهو وإن لم يكن جارياً على القياس؛ فإنه بمثابة: «الدُّخال»، والمقصود به هنا: الدُّخول بين اثنين للوقيعة والدَّسّ (ع).

(٣) كان وهرز قائد الجيش الفارسي الذي أرسله كسرى لمعاونة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش وكان حاذقاً في الرماية (انظر مروج الذهب **٣:١٦٣** وما بعدها) (ع).

(٤) الجَزيريُّ: نسبة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس، وهي على ساحل البحر عند الحجاز إلى سبتة وغيرها من بلاد المغرب. «توضيح المشتبه» **٢/٢٨٥**.

(٥) قوله: يحفظ لعمه الرسائل البليغة، الأرجح أنه يقصد بهذا العم عبدالملك بن إدريس الجزيري (انظر الذخيرة **٤/١:٤٦** ومراجع ترجمته مذكورة في الحاشية) أما ابن أخيه عبيدالله فمن العبث مساءلة المصادر عن أخبار من كان مثله سقوطاً وخسة؛ ولكن الأمر الذي يستحق التنبُّه هو: لماذا لم يحاول ابن حزم أن يخفي اسمه كما أخفى أسماء كثيرين غيره؟ وجعله مرمى لسهام هجائه، حتى كأنه كان مباءة لشتى ضروب الرذائل (انظر **٢٩** - باب قبح المعصية) (ع).

مجاهراً بها؛ أكذبَ من السَّراب، مستهتراً بالكَذِبِ مشغوفاً به، لا يزالُ يحدِّث من قد صَحَّ عنده أنَّه لا يصدِّقه، فلا يزجره ذلك عن أنْ يحدِّث بالكذب: [من الطويل]

بدا كلُّ ما كَتَّمْتَهُ بينَ مُخْبِرِ   وحَالِ أرتْني قُبْحَ عَقْدِكَ بيْنَنَا
وكم حالةٍ صارتْ بَياناً بحالةٍ   كما تُثْبِتُ الأحكامَ بالحَبَلِ الزِّنا

وفيه أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

أَنَمُّ من المِرءاةِ في كلِّ ما دَرىٰ   وأقطعُ بين النَّاسِ من قُضُبِ[1] الهِنْدِ
أظنُّ المَنايا والزمانَ تعلَّما   تَحيُّلهُ بالقَطعِ بين ذوي الودِّ

وفيه ـ أيضاً ـ أقولُ من قصيدةٍ طويلةٍ: [من الطويل]

وأكذبُ من حُسْنِ الظُّنون حديثُه   وأقبحُ من دَيْنٍ وفَقْرٍ مُلازِمِ
أوامرُ ربِّ العرشِ أضيعُ عندهُ   وأهونُ من شكوىٰ إلىٰ غَيْر راحم
تجمَّع فيه كلُّ خِزْيٍ وَفَضْحَةٍ   فلم يُبْقِ شَتْماً في المقالِ لشاتم
وأثقلُ من عَذْلٍ علىٰ غير قابلٍ   وأبرَدُ برداً مِنْ مدينةِ سَالِمِ[2]
وأبغضُ من بَيْنٍ وهَجْرٍ ورقْبةٍ   جُمِعْنَ علىٰ حَرَّانَ حيرانَ هائم

وليس مَنْ نبَّه غافلاً، أو نَصَحَ صديقاً، أو حفَّظ مُسْلماً، أو حكىٰ عن فاسقٍ، أو حدَّث عن عدوٍّ ـ ما لم يَكْذِبْ، ولا يكذِّب، ولا تعمَّدَ الضَّغائن ـ منقِّلاً. وهل هلكَ الضُّعفاء، وسَقَطَ من لا عقل له إلا في قلَّةِ المعرفة

(١) تقرأ في الأصل: قصب.

(٢) مدينة سالم: (Medinacelli): تقع على بُعد ١٣٥ كيلومتراً على الطريق من مدريد إلى سرقسطة، وقد توفي المنصور بها ودُفن هنالك؛ وهي في منطقة شديدة البرودة شتاءً، فلذلك ضرب بها المثل هنا (انظر الإدريسي (دوزي): ١٨٩) (ع).

بالنَّاصح من النَّمام، وهما صفتان متقاربتان في الظَّاهر متفاوتتان في الباطن، إحداهما داءٌ والأخرى دواء. والثَّاقِبُ القريحة لا يخفىٰ عليه أمرهما، لكنَّ المُنَقِّلَ من كان تَنْقِيلُهُ غير مرضيٍّ في الدِّيانة، ونوىٰ به التشتيتَ بَيْنَ الأولياء، والتضريبَ بين الإِخوانِ، والتَّحْرِيشَ والتَّوْبِيشَ[1] والتَّرْقِيشَ. فمن خافَ إن سلكَ طريقَ النَّصِيحَةِ أن يقعَ في طريق النَّميمة، ولم يثقْ لنفاذ تمييزه، ومَضَاءِ تقديره فيما يَرده من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه؛ فليجعلْ دينَهُ دليلاً له، وسراجاً يستضِيءُ به؛ فحيثما سلكَ به سلكَ، وحيثما أوقفه [وَقَفَ]، وكفيلاً له بالنَّظَرِ، وزعيماً بالإِصابة، وضماناً للفلج والخلاص[2].

فشارع الشَّريعة، وباعثُ الرَّسول ـ عليه السَّلام ـ ومرتِّبُ الأوامرِ والنَّواهي؛ أعلمُ بطريق الحقِّ، وأدرىٰ بعواقب السَّلامة، ومغبَّاتِ النَّجاة من كلِّ ناظرٍ لنفسه بزَعْمِهِ، وباحثٍ بقياسِهِ في ظَنِّهِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) التَّوبيش: لعلها من وَبَش الكلام، وهو الرديء منه. وقرأ برشيه: «والتوحيش». وقال العلامة محمود شاكر: صوابه ـ بلا ريب ـ: التقريش.

(٢) في الأصل: وحيث ما أوقفه كفلا له بالنَّظَر رغماً بالإصابة ضمان الفلح. . .، والتصحيح عن (ع)، وهو تصحيح جيد. وقد تخلَّص الصيرفي، ومكي، والطبعة البيروتية من هذه العبارة؛ من غير تنبيه ولا إشارة!





٢٠ باب: الوَصْلِ

ومن وُجُوه العِشْق الوَصْلُ.

وهو حَظٌّ رَفيعٌ، وَمَرْتَبَةٌ سَرِيَّةٌ، ودَرجةٌ عاليةٌ، وسَعْدٌ طالِعٌ، بل هو الحياةُ المجدَّدة، والعيشُ السَّنِيُّ، والسُّرور الدَّائم، ورحمةٌ من الله عظميةٌ، ولولا أنَّ الدُّنيا دار مَمرٍّ ومِحْنَةٍ وكَدَرٍ، والجنَّة دارُ جزاءٍ وأمانٍ من المكاره؛ لقلنا إنَّ وَصْلَ المحبوبِ هو الصَّفاءُ الذي لا كَدَرَ فيه، والفرحُ الذي لا شائبةَ فيه ولا حُزْنَ معه، وكمالُ الأَماني، ومنتهىٰ الأراجي.

وقد جرَّبتُ اللَّذاتِ علىٰ تَصرُّفها، وأدركتُ الحُظُوظ علىٰ اختلافها، فما للدُّنُوِّ من السُّلْطان، ولا لِلْمالِ المُسْتَفادِ، ولا الوجودِ بعدَ العَدَم، ولا الأَوْبةِ بعدَ طولِ الغَيْبَة، ولا الأمْنِ من بعد الخوف، ولا التَّرَوُّحِ(١) علىٰ المال؛ من المَوْقِعِ في النَّفسِ(٢) ما للوصل، لا سِيَّما بعدَ طولِ الامتناع، وحُلُول الهَجْر، حتَّىٰ يتأجَّجَ عليه الجوىٰ، ويتوقَّدَ لهيبُ الشَّوْقِ، وتتضرَّمَ نارُ الرَّجاء.

---

(١) التروح: أراد هذه الصيغة بمعنى الراحة، ولو كانت «التريح» لكانت بمعنى الشعور بالأريحية، وقرأ برشيه: ولا الأمن من بعد الخوفِ والنزوح عن الآل؛ وعلى تعسفه في القراءة فإنه يلمِّح إلى الحال النفسية لدى ابن حزم في فقدانه الأمن ونزوحه عن وطنه وءاله بعيد الفتنة (ع).

(٢) أخطأ الناسخ فقدَّم هذه الفقرة على التي قبلها.

وما إصنافُ النَّباتِ[1] بعد غِبِّ القَطْرِ، ولا إشراقُ الأزاهير بعد إقلاع السَّحاب السَّارياتِ في الزَّمانِ السَّجْسَجِ، ولا خَرِيرُ المياه المُتَخَلِّلة لأفانينَ النُّوَّار، ولا تأنُّقُ القصورِ البِيضِ قد أَحْدَقَتْ بها الرِّياضُ الخُضْرُ؛ بأحسنَ من وَصْلِ حَبيبٍ قد رُضِيَتْ أخلاقه، وحُمِدَتْ غرائزُهُ[2]، وتقابلتْ في الحُسْنِ أوصافه. وَإِنَّه لمُعْجِزٌ ألسنةَ البلغاء، ومُقَصِّرٌ فيه بيانُ الفُصَحاءِ، وعنده تطيشُ الألبابُ، وتَعْزُبُ الأفهام. وفي ذلك أقول: [من البسيط]

وسائلٍ لِيَ عمَّا لي من العُمُرِ ... وقد رأىٰ الشَّيْبَ في الفَوْدَيْنِ والعُذَرِ
أَجَبْتُهُ ساعةٌ لا شيءَ أحسبُه ... عُمراً سواها بحُكْمِ العَقْلِ والنَّظَرِ
فقالَ لي: كيفَ ذا بَيِّنْهُ لي فلقد ... أخبرتَني أشنعَ الأَنْباءِ والخَبَرِ
فقلتُ إنَّ الَّتي قلبي بها عَلِقٌ ... قَبَّلتها قُبْلَةً يوماً علىٰ خَطَرِ
فما أَعُدُّ ولو طالَتْ سِنِيَّ سِوىٰ ... تلكَ السُّوَيْعَةِ بالتَّحْقِيقِ من عُمُري

ومن لذيذِ معاني الوَصْل المواعيدُ، وإنَّ للوعْدِ المنتظَر مكاناً لطيفاً من شِغاف القلبِ؛ وهو ينقسم قسمَيْنِ:

أحدهما: الوَعْدُ بزيارةِ المحبِّ لمحبوبه. وفيه أقول قطعةً منها: [من البسيط]

أُسامِرُ البدرَ لمَّا أبطأتْ وأرىٰ ... في نورهِ من سَنا إشراقِها عَرَضا
فبِتُّ مُشْتَرِطاً والوُدُّ مُخْتَلِطاً[3] ... والوَصْلُ مُنْبَسِطاً والهَجْرُ مُنْقَبِضا

(١) إصناف النبات: بدءُ ظهور إيراقه.
(٢) خ: غوايره.
(٣) كذا هذا الشَّطر في الأصل. وقرأها برشيه: فبتُّ مغتبطاً والودُّ معتبطاً. وقال (ع): والأصل والتَّصحيحُ عليه كلاهما قَلِقٌ، ولم أتبيَّن له وجهاً صحيحاً؛ ولعله لو كان «فبت مختلطاً والود مشترطاً» لكان ذا معنىً.

والثَّاني: انتظارُ الوَعْدِ من المحبِّ أنْ يزورَ محبوبه. وإنَّ لمبادئِ الوصل، وأوائل الإِسعاف؛ لتولُّجاً علىٰ الفؤاد ليسَ لشيءٍ من الأشياء. وإنِّي لأعرفُ مَنْ كان مُمْتَحَناً بهوىً في بعضِ المنازلِ المُصَاقِبَةِ فكانَ يصلُ متىٰ شاءَ بلا مانعٍ، ولا سبيلَ إلىٰ غيرِ النَّظَرِ والمحادثة زماناً طويلاً، ليلاً متىٰ أحبَّ أو نهاراً، إلىٰ أن ساعدته الأقدار بإجابةٍ، ومكَّنَتْهُ بإسعادٍ، بعدَ يأسِهِ لطول المُدَّة، ولعهدي به قد كادَ أنْ يختلطَ عقلُهُ فرحاً، وما كادَ يتلاحَقُ كلامُهُ سروراً، فقلتُ في ذلك: [من البسيط]

برغبةٍ لو إلىٰ ربِّي دعوتُ بها ... لكان ذَنْبِيَ عِنْدَ الله مَغْفُورا
ولَوْ دعوتُ بها أُسْدَ الفَلا لَغَدا ... إضرارُها عن جميع النَّاسِ مَقْصُورا
فجادَ باللَّثْمِ لي مِنْ بَعْدِ مَنْعَتِه ... فاهتاجَ مِنْ لَوْعَتي ما كانَ مَغْمُورا
كشاربِ الماء كي يُطْفِي الغليلَ به ... فَغُصَّ فانصاعَ في الأجْداث مقبورا

وقلتُ: [من المتقارب]

جرىٰ الحُبُّ مِنِّي مَجْرَىٰ النَّفَسْ ... وأعطيتُ عيني عِنَانَ الفَرَسْ
ولي سَيِّدٌ لم يَزَلْ نافراً ... وربَّما جادَ لي في الخُلَسْ
فَقَبَّلْتُهُ طالِباً راحَةً ... فزادَ ألْيَلاً بقَلْبي اليَبَسْ
وكانَ فؤادي كَنَبْتٍ هَشِيمٍ ... يَبِيسٍ رمَىٰ فيه رامٍ قَبَس

ومنها:

ويا جَوْهَرَ الصِّينِ سُحْقاً فَقَدْ ... غَنِيتُ بياقُوتةِ الأندلُسْ[1]

---

(١) الجواهر الفاخرة ثلاثة: الياقوت والزمرد واللؤلؤ، وليس واحد منها موطنه الصين، وأقربها إلى تلك البلاد الياقوت فإن موطنه سرنديب (انظر الجماهر للبيروني: ٨١، ٣٢ =

خَبَرٌ:

وإنّي لأعرفُ جاريةً اشْتَدَّ وَجْدُها بفتىً من أبناءِ الرُّؤَسَاءِ، وهو لا عِلْمَ عنده، وكَثُرَ غَمُّها به، وطالَ أسفها إلىٰ أنْ ضَنِيتْ بحُبِّه، وهو بغرارة الصِّبا لا يشعرُ؛ ويمنعها مِنْ إبداءِ أمرها إليه الحياءُ مِنْهُ لأنَّها كانتْ بِكْراً بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تَدْري لعلَّهُ [لا] يوافقه، فلمَّا تمادىٰ الأمرُ ـ وكانا إلْفَيْنِ[1] في النَّشْأة ـ شَكَتْ ذلكَ إلىٰ امرأةٍ جَزْلةِ الرَّأي، كانتْ تَثِقُ بها لتَوَلِّيها تربيتها، فقالتْ لها: عَرِّضي له بالشِّعْر. ففعلتِ المَرَّةَ بعدَ المرَّةِ، وهو لا يَأْبَهُ في كلِّ هذا. ولقد كانَ لَقِناً ذكِيّاً، ولكنَّه لم يظنَّ ذلكَ فيميلَ إلىٰ تَفْتِيشِ الكلام بوَهْمِهِ، إلىٰ أنْ عِيلَ صبرُها، وضاقَ صَدْرُها، ولم تُمْسِك نَفْسَها في قَعْدَةٍ كانتْ لها معه في بعض اللَّيالي مُنْفَرِدَيْن، ولقدْ كانَ ـ يعلمُ الله ـ عَفِيفاً مُتصاوِناً بَعيداً عن المعاصي، فلمَّا حَانَ قيامُها عنه بَدَرَتْ إليه فقبَّلَتْه في فمه، ثُمَّ وَلَّتْ في ذلكَ الحين، ولم تكلِّمه بكلمةٍ، وهي تتهادىٰ في مَشْيِها؛ كما أقولُ في أبياتٍ لي: [من البسيط]

كأنَّها حينَ تَخْطُو في تأوُّدِهَا ... قَضِيبُ نَرْجِسَةٍ في الرَّوْضِ مَيَّاسُ

كأنَّما خَطْوُها[2] في قلبِ عاشِقِها ... ففيه مِنْ وَقْعِها خَطْرٌ[3] وَوَسْواسُ

كأنَّما مَشْيُها مَشْيُ الحَمامَةِ لا ... كدٌّ يُعابُ ولا بُطْءٌ به بَاسُ

= وصفحات أخرى) وقال التيفاشي: من جزيرة خلف سرنديب بأربعين فرسخاً، وهذا يقرب أن تكون الصين أو بعض الجزائر القريبة منها موطناً له (أزهار الأفكار: ٦٣) ومهما يكن من شيء فإن الشاعر إنما يومىء إلى النفاسة التي تجعل التجّار يحملون الجواهر من مكان سحيق (ع).

(١) تحرَّف في الأصل إلى: وكان اليقين.

(٢) خ: خطرها. وجعلها بتروف: خلدها. وما أثبته فقراءه (ع).

(٣) هذه قراءة (مكي) و(ع)، وفي الأصل: حفر.

فبُهِتَ وسُقِطَ في يده، وفُتَّ في عَضُدِه، ووَجَدَ في كَبِدِه، وَعَلَتْهُ وَجْمَةٌ، فما هو إلا أن غابتْ [عن] عَيْنِهِ، ووقعَ في شَرَكِ الرَّدَىٰ، واشتعلتْ في قلبه النَّارُ، وتَصَعَّدَتْ أنفاسُهُ، وترادَفَتْ أَوْجَالُه، وكَثُرَ قَلَقُهُ، وطالَ أَرَقُه، فما غَمَضَ تلكَ اللَّيلةَ عَيْناً، وكانَ هذا بدءَ الحُبِّ بينهما دَهْراً، إلىٰ أنْ جَذَّتْ حَبْلَيْهما[1] يدُ النَّوىٰ.

وإنَّ هذا لَمِنْ مصايد إبليسَ، ودواعي الهوىٰ الَّتي لا يَقِفُ لها أحدٌ إلا من عَصَمَهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ومن النَّاسِ من يقولُ: إنَّ دوامَ الوَصْلِ يُودي بالحُبِّ. وهذا هَجِينٌ من القول، إنَّما ذلكَ لأهل المَلَلِ، بل كلَّما زادَ وَصْلاً زادَ اتِّصالاً.

وعنِّي أخبركَ أنِّي ما رويتُ قطُّ من ماءِ الوَصْلِ، ولا زادني إلا ظَمَأً، وهذا حكمُ من تداوىٰ بِدَائِهِ؛ وإنْ رَفَهَ عَنْهُ شَيْئاً ما[2]. ولقد بلغتُ من التَّمَكُّنِ بمَنْ أحبُّ أبعدَ الغايات الَّتي لا يَجِدُ الإنسانُ وراءها مَرْمَىً فما وجدتُني إلا مُسْتَزِيداً، ولقد طالَ بي ذلكَ فما أحْسَسْتُ بسَآمةٍ، ولا رهقَتْني فَتْرَةٌ.

وقد ضمَّني مجلسٌ مع بعض من كنتُ أحبُّ فلم أُجِلْ خاطري في فنٍّ من فنون الوَصل إلا وجدتُهُ مُقَصِّراً عن مرادي، وغيرَ شافٍ وَجْدي، ولا قاضٍ أَقلَّ لبانة من لباناتي، ووجدتُني كلَّما ازددتُ دُنُوّاً ازددتُ تَلَوُّذاً[3]، وقدحتْ زنادُ الشَّوق نارَ الوَجْدِ بين ضُلُوعي، فقلتُ في ذلك المجلس: [من الطويل]

---

(١) خ: جملتها. والتصحيح للأستاذ محمود شاكر رحمه الله.

(٢) هذه قراءة برشيه، وتبعه (ع)؛ وهي قراءة جيدة، وفي المخطوط: (تداوى برأيه، وإن رفه عنه سريعاً).

(٣) غُيِّرت عند (مكي) و(ع) إلى: وُلُوعاً.

وَدِدْتُ بأنَّ القَلْبَ شُقَّ بِمُدْيَةٍ وأُدْخِلْتِ فيه ثم أُطْبِقَ في صَدْري

فأصبحتِ فيه لا تَحِلّينَ غيرَه إلىٰ مُقْتَضَىٰ[1] يوم القيامة والحَشْر

تَعِيشِينَ فيه ما حَيِيتُ فإنْ أَمُتْ سَكَنْتِ شِغافَ القَلْبِ في ظُلَمِ القَبْرِ

وما في الدُّنيا حالةٌ تعدِلُ مُحِبَّين إذا عدما الرقباءَ، وأَمِنَا الوشاةَ، وسَلِما من البَيْنِ، ورغبا عن الهَجْر، وبَعُدا عن المَللِ[2]، وفقدا العُذَّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المَحَبَّة، وأتاحَ الله لهما رِزْقاً دارّاً، وعيشاً قارّاً، وزماناً هادياً، وكانَ اجتماعُهما علىٰ ما يُرْضِي الربَّ من الحَال[3]، وطالتْ صُحبتهما، واتَّصَلَتْ إلىٰ وقتِ حُلول الحِمام الذي لا مردَّ له ولا بدَّ منه. هذا عطاءٌ لم يحصل عليه أحدٌ، وحاجةٌ لم تُقْضَ لكلِّ طالبٍ، ولولا أنَّ مع هذه الحال الإشفاقَ من بغتات المقادير المُحْكَمَة في غيب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من حُلول فراقٍ لم يكتَسَب، واخترام مَنِيَّةٍ في حال الشَّباب، أو ما أشبهَ ذلكَ، لقلتُ إنَّها حالٌ بعيدةٌ من كلِّ ءافةٍ، وسليمةٌ من كلِّ داخلةٍ.

ولَقد رأيتُ من اجتمعَ له هذا كلُّه، إلا أنَّه كانَ دُهِيَ في من كانَ يُحِبُّه بشَراسةِ أخلاقٍ، ودالةٍ علىٰ[4] المَحَبَّة، فكانا لا يتهنَّيان العَيْش، ولا تَطْلُعُ الشَّمْسُ في يومٍ إلا وكانَ بينهما خلافٌ فيه، وكلاهما كانَ مطبوعاً بهذا الخُلُق، لثقةِ كلِّ واحدٍ منهما بمحبَّة صاحبه، إلىٰ أن دبَّتِ النَّوىٰ بينهما فتفرَّقَا بالموتِ المرتَّبِ لهذا العالم. وفي ذلكَ أقول: [من المنسرح]

كَيْفَ أَذُمُّ النَّوىٰ وأَظْلِمُها وكُلُّ أَخْلاقِ مَنْ أُحِبُّ نَوىٰ

---

(١) هذه قراءة (مكي) و(ع)، وفي الأصل: منقضي.

(٢) خ: الملك.

(٣) جعلها (ع): من الحلال.

(٤) خ: علم.

قــد كــانَ يَــكــفــي هــوىً أضــيــقُ بــهِ   فــكــيــفَ إذْ حَــلَّ بــي نــوىً وهــوىٰ

وَرُوي عن زيادِ بنِ أبي سفيانَ[1] ـ رحمه الله ـ أنَّه قالَ لجُلسائه: مَن أنعمُ الناس عِيشَةً؟ قالوا: أميرُ المؤمنين. فقالَ: وأينَ ما يلقىٰ من قريشٍ؟ قيل: فأنتَ. قال: أينَ ما ألقىٰ من الخَوارج والثُّغُور؟ قيلَ: فَمَنْ أيُّها الأمير؟ قال: رجلٌ مسلمٌ له زوجةٌ مسلمةٌ، لهما كفافٌ من العَيْشِ، قد رَضِيَتْ به ورضيَ بها، لا يعرفنا ولا نعرفه[2].

وهل فيما وافَقَ إعجابَ المَخْلُوقِينَ، وجَلا القُلُوبَ، واستمالَ الحواسَّ، واستهوىٰ النُّفوسَ، واستولىٰ علىٰ الأهواءِ، واقتطعَ الألبابَ، واختلسَ العقولَ؛ مُسْتَحْسَنٌ يعدِلُ إشفاقَ مُحِبٍّ علىٰ محبوبٍ! ولقد شاهدتُ من هذا المعنىٰ كثيراً، وإنَّه لمِنَ المناظر العجيبةِ الباعثةِ علىٰ الرِّقَّةِ الرَّائِقَةِ المعنىٰ، لا سِيَّما إنْ كانَ هوىً يَكْتَتِمُ به. فلو رأيتَ المحبوبَ حينَ يَعْرِضُ بالسُّؤال عن سَبَبِ تَغَضُّبِ[3] بمُحِبِّه، وخَجْلَتَهُ في الخُروجِ مِمَّا وقعَ فيه

(١) ويقال له: زياد بن أبيه، وهو: زياد بن سُمَيَّة؛ وهي أُمُّه، واستلحقه معاوية ـ رضي الله عنه ـ بأنَّه أخوه. وكان تابعيّاً خيِّراً فاضلاً، ولد عام الهجرة، وأسلم زمن الصِّدِّيق وهو مراهق، استكتبه أبو موسىٰ الأشعري، واستعمله على شيء من البصرة؛ فأقرَّه عمر، ثم صار مع عليٍّ، فاستعمله على فارس، وولَّاه معاوية إمرة المِصْرَيْن: الكوفة والبصرة، ولم يُجمعا قبله لغيره، وأقام في ذلك خمس سنين، وكان من نبلاء الرِّجال؛ رأياً، وعقلاً، وحَزماً، ودهاءً، وفطنةً. كان يضرب به المثل في النُّبل والسُّؤدُد. توفي سنة: (٥٣هـ). ترجمته ومصادرها في: «السِّير» ٣/(١١٢).

(٢) رواه الخطَّابيُّ في: «العزلة» ٦٩ من طريق: الأصمعي، قال: حدثنا محمد بن حرب الزيادي، قال حدثني أبي، قال: قال زياد لجلسائه: من أغبط النَّاس عيشاً؛ قالوا: الأمير وجلساؤه، فقال: ما صنعتم شيئاً إن لأعواد المنبر هيبة، وإن لقرع لجام البريد لفزعة، ولكن أغبط الناس عندي رجل له دار لا يجري عليه كراؤها، وله زوجة صالحة قد رضيته ورضيها فهما راضيان بعيشهما، لا يعرفنا ولا نعرفه، لأنَّه إن عرفنا وعرفناه أتعبنا ليله ونهاره، وأفسدنا دينه ودنياه. وهو في: «بهجة المجالس» ١/١١؛ وفي غيره.

(٣) خ: تغضبه.

بالاعتذار، وتوجيهَه إلىٰ غيرِ وَجْههِ، وتَحَيُّلَهُ في استنباط معنىً يُقيمه عند جُلَسَائه؛ لرأَيتَ عجباً ولذَّةً مَخْفِيَّةً لا تقاومها لَذَّةٌ. وما رأيتُ أجلَبَ للْقُلوبِ، ولا أغوصَ علىٰ حَبَّاتِهَا، ولا أنفذَ للمقاتلِ من هذا الفعلِ. وإنَّ للمُحبِّينَ في الوَصْل من الاعتذار ما عَجَّزَ أهلَ الأذهانِ الذَّكِيَّةِ[1]، والأفكارِ القَوِيَّةِ. ولقد رأيتُ في بعض المَّراتِ هذا؛ فقلت: [من السريع]

إذا مـزجـتَ الـحـقَّ بـالـبـاطـلِ　　جَـوَّزت مـا شِـئْـتَ عـلـىٰ الـغـافـلِ
وفـيـهـمـا فَـرْقٌ صَـحِـيـحٌ لـه　　عـلامـةٌ تـبـدو إلـىٰ الـعَـاقِـلِ
كـالـتِّـبْـرِ إنْ تَـمْـزِجْ بـه فِـضَّـةً　　جـازتْ عـلـىٰ كـلِّ فـتـىً جـاهـلِ
وإن تُـصـادِفْ صـائِـغـاً مـاهِـراً　　مَـيَّـزَ بـيـن الـمَـحْـضِ والـخـائِـلِ[2]

وإنِّي لأعلمُ فتىً وجاريةً: كان يَكْلَفُ كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه، فكانا يَضْطَجِعانِ إذا حضرهما أحدٌ وبينهما المُسْنَدُ العظيمُ من المساند الموضوعة عند ظهور الرُّؤَساء علىٰ الفُرُشِ، ويلتقي رأساهما وراء المسند ويقبِّلُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ولا يُريان، وكأنَّهما إنَّما يتمدَّدانِ من الكَلَل؛ ولقد كان بلغا[3] من تكافِيهما في المودَّة أمراً عظيماً، إلىٰ أن كانَ الفتىٰ المُحبُّ ربَّما استطال عليها. وفي ذلكَ أقول: [من السَّريع]

ومـن أعـاجـيـب الـزَّمَـان الَّـتـي　　طَـمَّـتْ عـلـىٰ الـسَّـامِـعِ والـقَـائِـل
رَغْـبـةُ مَـرْكـوبٍ إلـىٰ راكـبٍ　　وذِلَّـةُ الـمَـسْـؤُول لـلـسَّـائـل
وَطَـوْلُ مَـأْسُـورٍ إلـىٰ ءاسِـرِ　　وصَـوْلَـةُ الـمَـقْـتـولِ لـلـقـاتـل

---

(١) خ: الزَّكيَّة.
(٢) الخائل: المشتبه الأمر.
(٣) خ: بلغ.

ما إن سَمِعْنا في الورىٰ قبلها خضوعَ مَأْمُولٍ إلىٰ ءامل
هل ها هنا وَجْهٌ تراه سِوىٰ تواضعِ المَفْعُولِ للفاعل

ولقد حدَّثَتْني امرأةٌ ـ أَثِقُ بها ـ أنَّها شاهدتْ فتىً وجاريةً كان يَجِدُ كلّ واحدٍ منهما بصاحبه فَضْلَ وَجْدٍ، قد اجتمعا في مكانٍ على طَرَبٍ، وفي يدِ الفتىٰ سِكينٌ يقطع بها بعضَ الفواكه، فجرَّها جرّاً زائداً فقَطَعَ إبهامَهُ قطعاً لطيفاً ظَهَر فيه دَمٌ، وكانَ علىٰ الجارية غَلالَةُ قَصَبٍ خَزائِنِيَّةٌ، لها قِيمةٌ، فَصَرَّفَتْ يدها وخَرَقَتْها، وأخرجتْ منها فضلةً شَدَّ بها إبهامه.

وأما هذا الفعل للمحبّ فقليلٌ في ما يَجِبُ عليه، وفَرْضٌ لازمٌ، وشريعةٌ مؤدّاةٌ، وكيفَ لا وقد بَذَلَ نفسه ووَهَبَ رُوحَه، فما يَمْنَعُ بعدهما؟!

خَبَرٌ:

وأنَا أدركتُ بنتَ زكريَّا بنِ يحيىٰ التَّميميِّ، المعروفِ بابنِ بَرْطال[1]، وعمُّها كانَ قاضيَ الجماعةِ بقرطبة: محمَّدُ بنُ يحيىٰ[2]، وأخوها[3] الوزيرُ

(١) زكريا بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال، كان فقيهاً نبيلاً في الفتيا وعقد الشروط، تصرَّف في القضاء ببطليوس وباجة أيام الناصر والمستنصر وتوفي سنة ٣٥٩ (ابن الفرضي ١:١٧٨ وترتيب المدارك ٤:٥٦١) وأخته بريهة هي أم المنصور بن أبي عامر (الحلة السيراء ١:٢٧٥) (ع).

(٢) محمد بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال (أخو زكريا المتقدّم ذكره والخال الثاني للمنصور) له رحلة إلى المشرق وسماع كثير، ولما عاد إلى الأندلس ولاّه الناصر قضاء كورة رية، وتولّى في صدر دولة المؤيد هشام قضاء كورة جيان وأحكام الشرطة فلما توفي ابن زرب (٣٨١) تولّى قضاء الجماعة بقرطبة، وبقي حتى سنة ٣٩٢ وقد علت سنُّه وتفلّت ذهنه، فعُزل عن القضاء ونُقل إلى الوزارة وتوفي ٣٩٤ (وعمره ست وتسعون سنة) (ابن الفرضي ٢: ١٠٧ ـ ١٠٩ والنباهي: ٨٤ وترتيب المدارك ٤:٥٦٢) (ع).

(٣) في الأصل: وأخوه. والتَّصويب من عمل بروفنسال استناداً إلى الوقائع التاريخية.

القائدُ الَّذي كانَ قَتَلَهُ غالبٌ، وقائدَيْنِ له[1] في الوقعة المشهورة بالثُّغور، وهما: مروانُ بنُ أحمدَ بنِ شهيدٍ، ويوسفُ بنُ سعيدِ العكِّيُّ[2]، وكانتْ متزوجةً بيحيىٰ بن محمَّدِ بن الوزير يحيىٰ بن إسحاق[3]، فعاجلته المنيَّةُ[4]؛ وهما في أغضِّ عيشهما، وأنْضَرِ سُرورهما، فبلغ من أسفها عليه أنْ باتَتْ معه في دِثارٍ واحدٍ ليلةَ ماتَ، وجعلته ءاخر العهدِ به وبِوَصْلِهِ، ثُمَّ لم يفارقها الأسفُ بعده إلىٰ حين موتها.

وإنَّ للوَصْل المُخْتَلَس الَّذي يُخاتَلُ به الرُّقباءُ، وَيُتَحَفَّظُ به من الحُضَّر ـ مثلَ الضَّحكِ المستورِ، والنَّحْنَحة، وجولان الأيدي، والضَّغْط بالأجناب، والقَرْصِ باليد والرِّجل ـ لموقعاً من النَّفْسِ شَهِيَّاً. وفي ذلك أقولُ: [من المديد]

إنَّ لِلْوَصْلِ الخَفِيِّ مَحَلاًّ ... ليسَ لِلْوَصْلِ المكينِ الجَلي

لَذَّةٌ تَمْزُجُها بارْتِقابِ ... كَمَسيرٍ في خُلال النَّقِي

---

(١) في الأصل: إليه.

(٢) كانت هذه الوقعة سنة ٣٧٠هـ بين المنصور وغالب بن عبدالرحمٰن (انظر البيان المغرب ٢: ٢٧٩)؛ وقد كان مروان بن أحمد بن شهيد من رجالات الدولة أيام الحكم، أرسله سنة ٣٦٣ إلى العسكر المقيم بالعدوة خازناً على أوقار الأموال التي وجبت للجند وغيرهم، وعاد في ذي الحجة من العام نفسه (المقتبس، ط. بيروت، ص: ١٦٨، ١٨٣) ولم أجد ذكراً ليوسف بن سعيد العكي؛ ولكن ابن الفرضي ترجم لمن اسمه سعيد بن مرشد العكي وجعل وفاته سنة ٣٧٣ (ابن الفرضي ١: ٢٠٤) (ع).

(٣) يحيىٰ بن إسحاق الوزير ـ فيما ذكر ابن حزم نفسه ـ أديب فاضل غلب عليه الطب فبرع فيه وذكر به، وله في ذلك كتب نافعة يعتمد عليها (الجذوة: ٣٥١ والبغية رقم: ١٤٦) ولم أجد ذكراً لابنه محمد ولا لحفيده يحيىٰ الذي يدور الخبر حوله وحول زوجه بنت ابن برطال (ع).

(٤) في الأصل: المنايا.

خَبَرٌ:

ولقد حدَّثني ثِقَةٌ من إخواني ـ جليلٌ من أهل البيوتاتِ ـ أنَّه كانَ عَلِقَ في صباه جاريةً كانتْ في بَعْضِ دور ءالِهِ، وكانَ ممنوعاً منها، فهامَ عَقْلُهُ بها؛ قال لي: فتنزَّهْنا يوماً إلىٰ بعض ضياعنا بالسَّهلْةِ غربيّ قرطبةَ مع بعض أعمامي، فتمشَّيْنا في البساتين، وأبعَدْنا عن المنازل، وانْبَسَطْنا علىٰ الأنهار، إلىٰ أن غيَّمَتِ السَّماء، وأقبل الغَيْثُ، فلم يكن بالحَضْرة من الغطاء ما يكفي الجميع؛ قال: فأمر عمِّي ببعضَ الأغطية فأُلْقيَ عليَّ وأمرها بالاكْتِنانِ معي. فظنَّ بما شِئْتَ من التَّمَكُّنِ علىٰ أعين الملأ وهم لا يشعرون، ويا لكِ مِن جَمْعٍ كخَلاءٍ، واحتفالٍ كانفراد! قال لي: فوالله لا نَسِيتُ ذلكَ اليومَ أبداً. ولعهدي به ـ وهو يحدِّثُني بهذا الحديث ـ وأعضاؤُهُ كلُّها تضحكُ، وهو يهتزُّ فرحاً على بُعْدِ العَهْدِ، وامتدادِ الزَّمَان. ففي ذلكَ أقولُ شعراً منه: [من الخفيف]

يَضحكُ الرَّوْضُ والسَّحَائِبُ تَبْكي ... كحَبِيبٍ رءَاهُ صَبٌّ مُعَنَّى

خَبَرٌ:

ومن بديع الوَصْلِ ما حدَّثني به بعضُ أخواني: أنَّه كانَ في بعض المنازلِ المصاقبةِ له هَوىً، وكانَ في المَنْزِلَيْنِ موضِعٌ مطَّلِعٌ من أحدهما علىٰ الآخر، فكانتْ تقفُ له في ذلك المَوضع، وكان فيه بعضُ البُعْدِ، فتُسَلِّمَ عليه ويدها ملفوفةٌ في قميصها. فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك، فأجابته: إنَّه ربَّما أُحِسَّ من أمرنا شيءٌ، فوقفَ لكَ غيري، فسلَّم عليكَ فرددتَ عليه فصحَّ الظَّنُّ، فهذه علامةٌ بيني وبينكَ، فإذا رأيتَ يداً مكشوفةً تشيرُ نحوكَ بالسَّلام فليستْ يدي، فلا تجاوب.

وربَّما استحليَ الوصالُ، واتَّفَقَتِ القلوبُ حتَّى يقعَ التَّجْليح[1] في

---

(١) التجليح: ركوب الرأس والمكاحة.

الوصال، فلا يُلْتَفَتُ إلىٰ لائمٍ، ولا يُسْتَتَرُ من حافظٍ، ولا يُبالَىٰ بناقلٍ، بل العَذْلُ ـ حينئذٍ ـ يُغري.

وفي صفةِ الوصل أقول شعراً منه: [من السريع]

كـم دُرتَ حَوْل الـحُـبِّ حتَّى لـقـد   حَـصَـلْـتَ فـيـه كـحُـصـوُلِ الـفَـراشْ

ومنه:

تَـغْشُـو إلىٰ الـوَصْـلِ دواعـي الـهَـوىٰ   كـمـا سَـرَى نَـحْـوَ سَـنـا الـنَّـارِ عـاشْ

ومنه:

عَـلَّـلَـنـي بـالـوَصْـلِ مـنْ سَـيِّـدي   كـمِـثْـلِ تـعـليـلِ الـظَّـمـاءِ الـعِـطـاشْ

ومنه:

لا تُـوقِـفِ الـعَـيْـنَ عـلـىٰ غَـايَـةٍ   فـالـحُـسْـنُ فيه مُـسْـتَـزِيـدٌ وفَـاش[1]

وأقولُ من قصيدةٍ لي: [من السريع]

هـل لـقَـتـيـلِ الـحُـبِّ مـن وادي[2]   أم هَـلْ لـعـانـي الـحُـبِّ مـن فـادي

أمْ هـل لـدَهْـري عَـوْدةٌ نَـحْـوَهـا   كـمِـثْـلِ يـومٍ مَـرَّ فـي الـوادي

ظـلِـلْـتُ فـيـه سَـابِـحَـاً صَـاديَـاً   يـا عـجـبـاً لـلـسَّـابـحِ الـصَّـادي

ضَـنِـيـتُ يـا مـولايَ وَجْـداً فـمـا   تُـبـصِـرُنـي ألـحـاظُ عُـوَّادِي

كـيـفَ اهـتـدَىٰ الـوَجْـدُ إلىٰ غـائـبٍ   عـن أعـيـنِ الـحـاضِـرِ والـبـادِي

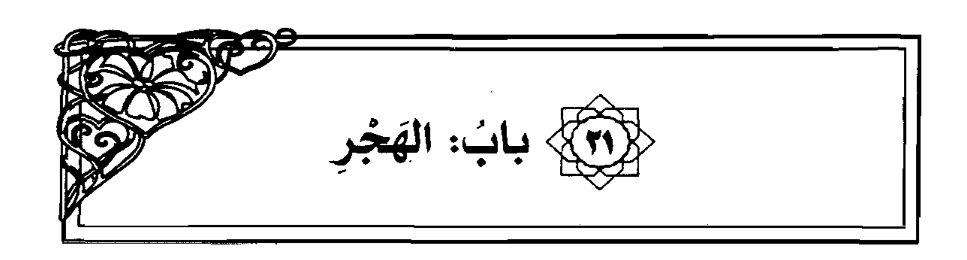
مَـلَّ مُـداواتـي طَـبِـيـبـي فَـقَـدْ   يَـرْحَـمُـنِـي لـلـسُّـقْـمِ حُـسَّـادي

---

(١) هذه قراءة برشيه وتبعه (ع)، وفي الأصل: وباش.

(٢) وادي: اسم فاعل من «ودىٰ» بمعنىٰ: دافع الدِّية.





٢١ باب: الهجر

ومن ءافاتِ الحُبِّ ـ أيضاً ـ الهَجْرُ، وهو علىٰ ضروب:

ـ فأوّلها: هَجْرٌ يُوجِبُه تحفُّظٌ من رقيبٍ حاضرٍ. وإنَّه لأَحْلَىٰ من كلِّ وَصْلٍ، ولولا أنَّ ظاهرَ اللَّفْظِ، وحكمَ التَّسميةِ؛ يوجبُ إدخالَهُ في هذا الباب لَرَجَأْتُ به عنه، ولأَجْللته عن تسطيره فيه، فحينئذٍ ترىٰ الحبيبَ منحرفاً عن مُحبِّه، مقبلاً بالحديثِ علىٰ غيره، مُعْرِضاً كمعرِّضٍ[1] لِئَلَّا تلحقَ ظِنَّتُهُ أو تَسْبِقَ استرابَتهُ، وترىٰ المُحِبَّ ـ أيضاً ـ كذلكَ، ولكنَّ طَبْعَهُ له جاذبٌ، ونفسه له صارِفةٌ بالرَّغمِ، فتراهُ ـ حينئذٍ ـ مُنْحَرِفاً كمُقبِلٍ، وساكتاً كناطِقٍ، وناظراً إلىٰ جهةٍ نَفْسُهُ في غيرها؛ والحاذِقُ الفَطِنُ إذا كَشَفَ بوَهْمِهِ عن باطنِ حديثهما عَلِمَ أنَّ الخافيَ غيرُ البادي، وما جَهَرَ به غيرُ نفس الخَبَرِ، وإنَّه لمن المشاهد الجالبة للفِتنِ، والمناظرِ المحرِّكة للسَّواكن، الباعِثَة للخواطِر، المهَيِّجة للضَّمائر، الجاذبة للفُتُوَّةِ. ولي أبياتٌ في شيءٍ من هذا ـ أوردتها؛ وإنْ كانَ فيها غير هذا المعنىٰ علىٰ ما شرطنا ـ منها: [من الطويل]

يلومُ أبو العبَّاسِ جَهْلاً بطَبْعِهِ ... كما عيَّرَ الحُوتُ النَّعامَةَ بالصَّدىٰ[2]

---

(١) هكذا في الأصل، وهو الذي صوَّبه العلامة محمود شاكر، وتحرَّف عند بتروف إلىٰ: «معرّضاً لمعرّض».

(٢) الصدى: الظمأ؛ والعرب في أمثالها تقول: أروى من حوت، لأنه لا يفارق الماء. =

ومنها:

وكم صاحِبٍ أكرمتُه غيرَ طائِعٍ ... ولا مُكرَهٍ إلا لأمرٍ تُعُمِّدا
وما كانَ ذَاكَ البِرُّ إلا لغَيْرِه ... كما نَصَبُوا للطَّيْر بالحَبِّ مِصْيَدا

وأقولُ من قصيدةٍ محتويةٍ علىٰ ضروبٍ من الحِكَم، وفنونٍ من الآداب الطبيعية: [من الطويل]

وسَرَّاءُ أَحْشَائي لِمَن أنا مؤثِرٌ ... وسَرَّاءُ أَنْبَائي لِمَنْ أَتَحَبَّبُ
فقد يُشْرَبُ الصَّابُ الكريهُ لِعلَّةٍ ... وَيُتْرَكُ صَفْوُ الشَّهْدِ وهو مُحَبَّبُ
وأُعْذَلُ في إجهادِ نَفْسيَ في الَّذي ... أُريدُ وأَنِّي فيه أشقىٰ وأتعب
هل اللؤلؤُ المكنونُ والدرُّ كلُّه ... رأيتَ بغير الغَوْص في البَحْر يُطْلَبُ
وأَصْرِفُ نَفْسي عن وجوهِ طِباعِها ... إذا في سواها صَحَّ ما أنا أَرغَبُ
كما نَسَخَ اللَّهُ الشَّرائِعَ قبلنا ... بما هو أَدْنَىٰ للصَّلاح وأقربُ
وَأَلْقىٰ سَجَايا كُلِّ خُلقٍ بِمِثْلِها ... وَنَعْتُ سَجَايايَ الصَّحِيحُ المُهَذَّبُ
كما صارَ لونُ الماءِ لونَ إنائه ... وفي الأصلِ لونُ الماء أبيضُ مُعْجِبُ

ومنها:

أقمتُ ذَوي وُدِّي مُقامَ طبائِعي ... حَياتِي بها والمَوْتُ مِنْهُنَّ يُرْهَبُ

ومنها:

وما أَنا مِمَّنْ تَطَّبِيه بشاشَةٌ ... ولا يقتضي ما في ضَمِيري التَجَنُّبُ

= وتقول: أظمأ من حوت وأعطش من حوت. يزعمون بلا بيِّنة أنه يعطش وهو في البحر، وفي الوقت نفسه يقولون: أروى من نعامة (لأنها مستغنية عن الماء)؛ انظر هذه الأمثال في «الدرّة الفاخرة». (ع).

أزيـدُ نِـفَـاراً عـنـدَ ذلـكَ بـاطِـنـاً وفـي ظـاهـري أهـلٌ وسَـهْـلٌ ومَـرْحَـبُ

فإنّي رأيتُ الحَرْبَ يَغْلُو اشتعالُها ومـبـدؤهـا فـي أوّل الأَمْـرِ مَـلْـعـبُ

ولـلـحَـيَّـةِ الـرَّقْـشَـاءِ وَشْـيٌ ولـونُـهـا عَـجِـيبٌ وتـحـتَ الـوَشْـي سُـمٌّ مُـرَكَّـبُ

وإنَّ فِـرِنْـدَ الـسَّـيْـفِ أعـجـبُ مِـنْـظَـراً وفـيـه إذا هُـزَّ الـحِـمـامُ الـمُـذرَّبُ

وأَجـعـلُ ذُلَّ الـنَّـفـسِ عِـزَّةَ أهـلِـهـا إذا هـيَ نـالـتْ مـا بـهـا فـيـه مَـذْهَـبُ

فقد يضعُ الإنسانُ في التُّرْبِ وَجْهَهُ لـيـأتـي غـداً وهـو الـمَـصُـونُ الـمقَـرَّبُ

فـذُلٌّ يَـسُـوقُ الـعِـزَّ أجْـودُ لـلـفـتـىٰ مـن الـعـزِّ يَـتـلـوه مـن الـذُّل مَـرْكَـبُ

وكـم مـأْكَـلٍ أربَـتْ عـواقِـبُ غِـبِّـهِ[1] ورُبَّ طَـوىً بـالـخِـصْـب ءاتٍ ومُـعْـقِـبُ

ومـا ذاقَ عِـزَّ الـنَّـفْـسِ مـن لا يُـذِلّـهـا ولا الـتذَّ طَـعْـمَ الـرَّوْحِ من ليس يَـنـصَـبُ

وُرودُكَ بُـغْـدَ[2] الـمـاءِ من بَـعْـدِ ظَـمْـأَةٍ ألَـذُّ مـن الـعَـلِّ الـمَـكـيـنِ وأعـذبُ

ومنها:

وفـي كـلِّ مَـخـلـوقٍ تـراهُ تَـفَـاضُـلٌ فَـرُدْ طـيِّـبـاً إنْ لـم يُـتَـخ لـكَ أطـيـبُ

ولا تَـرْضَ وِرْدَ الـرَّنْـقِ إلاَّ ضَـرُورةً إذا لـم يكنْ في الأرض حاشاه مَشربُ

ولا تَـقْـرَبَـنْ مِـلـحَ الـمـيـاه فـإنَّـهـا شَـجَـىً والـصَّـدا بـالـحَـرِّ أولـىٰ وأوجـبُ

ومنها:

فَـخُـذْ مِـن جَـداهـا مـا تـيـسَّـرَ واقـتـنـعْ ولا تَـكُ مَـشْـغـولاً بـمَـنْ هـو يَـغْـلِـبُ

فـمـا لـكَ شَـرْطٌ عـنـدَهـا لاَ ولا يَـدٌ ولا هِـيَ إنْ حَـصَّـلْـتَ أُمٌّ ولا أبُ

---

(١) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: غِبّه. وأثبتها بتروف: غِيِّهِ. وعند برشيه: غُبَّةٍ.

(٢) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها برشيه: بعض، و(مكي): نهل. و(ع): نَغْبَ.

ومنها:

ولا تَيْأَسَنْ مِمَّا يُنالُ بِحِيلَةٍ وإن بَعُدتْ فالأمرُ يَنأىٰ ويَصْعُبُ
ولا تأْمَنِ الإظلامَ فالفَجْرُ طالِعٌ ولا تَلْتَبِسْ بالضَّوْءِ فالشَّمْسُ تغربُ

ومنها:

أَلِجَّ[1] فإنَّ الماءَ يكْدَحُ في الصَّفا إذا طالَ ما يأتي عليه وَيذْهَبُ
وكَثِّرْ ولا تَفْشَلْ وَقَلِّلْ كثيرَ ما فَعلْتَ فماءُ المُزْنِ جَمٌّ ويَنْضبُ
فلو يتغذَّىٰ المَرْءُ بالسُّمِّ قاتَهُ وقامَ لَهُ مِنْهُ غِذاءٌ مُجَرَّبُ

ـ ثُمَّ هَجْرٌ يُوجبه التَّدَلُّلُ وهو ألذُّ من كثيرِ الوصَال، ولذلك لا يكونُ إلاَّ عن ثِقَةِ كلِّ واحدٍ من المتحابَّيْنِ بصاحبه، واسْتِحْكام البصيرة في صِحَّةِ عَقْدِهِ، فحينئذٍ يُظْهر المحبوبُ هِجْراناً ليرىٰ صَبْرَ مُحِبِّه، وذلك لئلاَّ يصفوَ الدَّهْرُ البَتَّةَ، وليأسفَ المحبُّ إنْ كانَ مُفرطَ العشق عند ذلك لا لما حَلَّ؛ لكنْ مخافةَ أنْ يترقَّىٰ إلىٰ ما هو أجلُّ فيكونُ ذلكَ الهجرُ سبباً إلىٰ غيره، أو خوفاً من ءافةِ حادثِ مَلَلٍ.

ولقد عَرَضَ لي في الصِّبا هَجْرٌ مع بعضِ من كُنْتُ ءالفُ، علىٰ هذه الصِّفَةِ وهو لا يلبثُ أنْ يَضْمَحِلَّ ثم يعودَ؛ فلما كَثُرَ ذلك قلتُ علىٰ سبيل المُزَاح شعراً بديهياً ختمتُ كلَّ بيتٍ منه بقسيم من أوَّل قصيدةِ طَرَفَةَ بنِ العبد المعلَّقة ـ وهي الَّتي قرأناها مشروحةً علىٰ أبي سعيد الفتىٰ الجعفريِّ، عن أبي بكرِ المقرىءِ، عن أبي جعفرِ النَّحَّاس[2]، رحمهم الله، في المسجد الجامع بقرطبة ـ وهي: [من الطويل]

---

(١) أَلِجَّ: هكذا بالجيم، وجعلها (ع): أَلِحَّ؛ بالحاء.

(٢) هذا هو السند الذي نقلت به «المعلقات التسع» إلى الأندلسيين عن شارحها ابن =

تَـذكَّـرْتُ وُدّاً لـلـحـبـيـبِ كـأنَّـهُ «لـخـولَـةَ أطـلالٌ بـبـرقـةِ ثَـهْـمَـدِ»
وعَـهـدي بعـهـدٍ كـانَ لـي منه ثـابـتٍ «يلـوحُ كـباقي الـوَشْـم في ظاهر اليدِ»
وقـفـتُ بـه لا مُـوقِـنـاً بـرُجُـوعِـهِ «ولا ءَايساً أبكـي وأُبكـي إلىٰ الـغـدِ»
إلىٰ أن أَطالَ النَّاسُ عَذْلي وأكثروا «يقـولُـونَ لا تَـهـلَـكْ أسىً وتـجـلَّـدِ»
كـأنَّ فـنـونَ الـسُّـخْـطِ مِـمَّـنْ أحِـبُّـه «خـلايـا سَفِـينٍ بـالـنَّـواصِـف من دَدِ»
كأنَّ انقلابَ الهَجْرِ والوَصْل مَركَبٌ «يـجـوزُ بـه الـمَـلَّاحُ طَـوراً ويَـهْـتَـدي»
فـوقْـتَ رضـىً يَـتْـلُـوُهُ وَقـتُ تـسـخُّـطٍ «كـمـا قَـسَـمَ الـتُّـربَ الـمـفـايِـلُ بـالـيـدِ»
ويَبْسِمُ نَحْوِي وهـو غَضبانُ مُعْرِضٌ «مُـظـاهـرٌ سِـمـطَـيْ لُـؤْلِـؤٍ وزَبَـرْجَـدِ»

ـ ثُمَّ هَجْرٌ يُوجِبُهُ العتابُ لذَنبٍ يقعُ من المُحِبِّ. وهذا فيه بعضُ الشِّدَّةِ، لكنَّ فَرْحَةَ الرَّجْعَةِ، وسرورَ الرِّضىٰ؛ يعدلُ ما مضىٰ، فإنَّ لرضىٰ المحبوبِ بَعْدَ سَخَطِهِ لذَّةً في القلب لا تَعْدِلُها لذَّةٌ، وموقعاً من الرُّوح لا يفوقُهُ شيءٌ من أسباب الدنيا.

وهل شاهدَ مشاهدٌ، أو رأتْ عينٌ، أو قامَ في فكرٍ؛ ألذُّ وأشهىٰ من

= النحاس؛ أخذها عنه أبو بكر محمد بن علي الأذفوي وعن الأذفوي أخذها أبو سعيد خلف مولى الحاجب جعفر، الفتى المقرىء المعروف بالجعفري؛ وهذا الفتى الجعفري سكن قرطبة، ثم رحل إلى المشرق فسمع بمكة، ولقي الأذفوي بمصر وأخذ عن علماء القيروان، وكان من أهل القرءان والعلم نبيلاً من أهل الفهم، مائلاً إلى الزهد والانقباض، خرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة وتوفي بها سنة **٤٢٥** وقيل **٤٢٩** (فهرسة ابن خير **٣٦٦ ـ ٣٦٩**، وانظر ترجمته أيضاً في الصلة: **١٦٤**) وأما أبو بكر الأذفوي (نسبة إلى أذفو ـ بالذال المعجمة، أو بالدال المهملة ـ بصعيد مصر) فقد كان نحوياً مفسراً مقرئاً ثقة، وكان يتجر بالخشب، وله كتاب التفسير في القرءان في مائة وعشرين مجلَّداً، وكانت وفاته بمصر سنة **٣٨٨** (غاية النهاية **٢: ١٩٨** وعبر الذهبي **٣: ٤١**) قلت: وفي تسمية ابن خير لها «المعلقات التسع» تجوز لأن ابن النحاس أنكر التعليق جملة وسماها القصائد التسع (ع).

مقامٍ قد قامَ عنه كلُّ رقيبٍ، وَبَعُدَ عنه كلُّ بغيضٍ، وغابَ عنه كلُّ واشٍ، واجتمعَ فيه مُحِبَّانِ قد تصارما لذنبٍ وَقَع من المُحِبِّ منهما، وطال ذلك قليلاً، وبدأ نقضُ[1] الهَجْرِ، ولم يكن ثَمَّ مانعٌ من الإِطالةِ للحديث، فابتدأ المُحِبُّ في الاعتذار والخضوع والتذلُّلِ، والادِّلاء[2] بحُجَّتِهِ الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمُّم بما سَلَفَ، فطوراً يدلُّ ببراءته، وطوراً يَرُدُّ بالعفو، ويستدعي المغفرةَ، ويقرُّ بالذنبِ؛ ولا ذَنْبَ له، والمحبوبُ في كلِّ ذلك ناظرٌ إلىٰ الأرضِ، يُسارقُهُ اللَّحظَ الخفيَّ، وربَّما أدامه فيه، ثم يَبْسِمُ مُخْفِياً لتبسُّمِهِ، وذلك علامة الرِّضىٰ، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، وتقبُّل القول، وامتحَّتْ ذنوبُ النَّقْلِ، وذهبتْ ءاثارُ السَّخْطِ، ووقع الجوابُ بنَعْمَ وذنبكُ مغفورٌ؛ ولو كانَ، فكيفَ ولا ذنبَ! وختما أمرهما بالوصل المُمْكِنِ، وسقوطِ العتاب والإسعاد، وتفرَّقا علىٰ هذا؟!

هذا مكانٌ تتَقاصَرُ دونَه الصِّفاتُ، وتتلكَّنُ بتحديده الألْسِنَةُ.

ولقد وطئتُ بساطَ الخلفاء، وشاهدتُ محاضِرَ المُلُوك، فما رأيتُ هيبةً تعدلُ هيبةَ مُحِبٍّ لمحبوبه؛ ورأيتُ تمكُّنَ المُتَغَلِّبينَ علىٰ الرُّؤساءِ، وتحكُّمَ الوزراء، وانبساطَ مُدَبِّري الدُّوَل؛ فما رأيتُ أشدَّ تبجُّحاً، ولا أعظَمَ سُروراً بما هو فيه من محبٍّ أيقنَ أنَّ قلبَ محبوبه عنده، وَوَثِقَ بميله إليه، وصِحَّةِ مودَّته له. وحضرتُ مقامَ المُعْتَذِرينَ بين أيدي السَّلاطين، ومواقفَ المتَّهمين بعظيم الذُّنُوبِ مع المتمرّدين الطَّاغينَ؛ فما رأيتُ أذلَّ من موقفِ محبٍّ هَيمَانَ بينَ[3] يديْ محبوبٍ غضبانَ؛ قد غَمَرَهُ السَّخَطُ، وغلبَ عليه الجَفاءُ.

---

(١) تقرأ في الأصل: بعض. وهكذا قرأها بتروف، والتَّصحيح عن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله، وقال: والسّياق دالٌ عليه.

(٢) في الأصل: الأدلة. والتَّصحيح عن برشيه.

(٣) في الأصل: مع.

ولقد امتحنتُ بِكِلا الأَمْرَين، وكنتُ في الحالةِ الأولىٰ أشدَّ من الحديد وأنفذَ من السَّيْفِ، لا أجيبُ إلىٰ الدَّنيَّةِ، ولا أساعدُ علىٰ الخُضُوع، وفي الثَّانية أذلَّ من الرِّداءِ، وألينَ من القُطْنِ، أُبادرُ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ التَّذَلُّلِ؛ لو نفع، وأغتنمُ فرصةَ الخُضُوع؛ لو نَجَعَ، وأتحلَّلُ بلساني، وأغوصُ علىٰ دقائِقِ المعاني ببياني، وأفْتَنُّ القولَ فنوناً، وأتصدَّىٰ لكلِّ ما يوجب التَّرضِّي.

والتَّجنِّي بعضُ عوارضِ الهِجْران، وهو يقع في أَوَّلِ الحبِّ وءاخره، فهو في أوَّله علامةٌ لصِحَّةِ المحبَّة، وفي ءاخره علامةٌ لفتورها وبابٌ للسُّلُوِّ.

خَبَرٌ:

وأذكرُ في مثل هذا أنِّي كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة من مقبرة باب عامرٍ، في لمَّةٍ من الطُّلاب وأصحاب الحديث، ونحنُ نريدُ مجلسَ الشَّيخ أبي القاسم عبدِالرَّحمن بن أبي يزيدِ المصريِّ[1] بالرُّصافة؛ أستاذي ـ رضي الله عنه ـ، ومعنا أبو بكرٍ عبدُالرَّحمن بنُ سليمانَ البلويُّ[2] من أهل سَبْتَةَ، وكانَ شاعراً مفلقاً. وهو ينشد لنفسه في صفة متجنٍّ معهودٍ أبياتاً له، منها: [من الطويل]

سَريعٌ إلىٰ ظَهْرِ الطَّريق وإنَّه ... إلىٰ نَقْضِ أسباب المودَّةِ أسْرع
يطُولُ علينا أن نرقِّع وُدَّه ... إذا كانَ في تَرْقِيعِهِ يتقَطَّع

(١) أبو القاسم عبدالرحمٰن بن محمد بن أبي يزيد المصري، الصوَّاف النَّسَّابة. دخل الأندلس سنة (٣٩٤)، وكان أديباً حُلْواً، حافظاً للحديث وأسماء الرِّجال، وله أشعار في كلِّ فنٍّ، وسكن قرطبة حتى وقعت الفتنة فعاد إلى مصر، وتوفي سنة (٤١٠) «الصِّلة» ٣٣٧، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة ٤١ /ترجمة: ٣١٧).

(٢) عبدالرحمٰن بن سليمان البلوي، أبو بكر، كان أديباً شاعراً من أهل العلم (الجذوة: ٢٥٤، والبغية: ١٠١٤).

فوافقَ إنشادُ البيتِ الأوَّل من هذين البيتين خطورَ أبي [عليٍّ] الحسينِ بنِ عليّ الفاسيِّ[1] - رحمه الله - وهو يؤمُّ - أيضاً - مجلسَ ابن أبي يزيدٍ، فسمعه فتبسَّم - رحمه الله - نحونا، وطوانا ماشياً، وهو يقول: بل إلى عَقْدِ المودَّةِ إن شاء الله. هذا على جِدِّ أبي عليٍّ - رحمه الله - وَفَضْلِهِ، وتقرِّيه، وبراءته، ونُسْكِهِ، وزُهْده، وعلمه. فقلتُ في ذلك: [من الكامل]

دعْ عنكَ نَقْضَ مَوَدَّتي مُتَعَمِّداً ... واعْقِدْ حِبالَ وصالِنا يا ظالمُ

فلترجَعَنَّ[2] أردْتَهُ أو لم تُرِدْ ... كَرْهاً لما قالَ الفقيهُ العالمُ

ويقع فيه الهَجْرُ والعتاب؛ ولعمري إنَّ فيه - إذا كان قليلاً - للذَّةً، وأمَّا إذا تفاقم فهو فَأْلٌ غيرُ محمودٍ، وأمارةٌ وَبِيئَةُ المصدر، وعلامةُ سُوءٍ، وهي بجملةِ الأمر مطيَّةُ الهِجْران، ورائدُ الصَّريمة، ونتيجةُ التَّجَنِّي، وعنوانُ الثِّقْل، ورسولُ الانفصال، وداعيةُ القِلى، ومقدَّمةُ الصَّدِّ، وإنَّما يُسْتَحْسَنُ إذا لَطُفَ، وكان أصله الإِشفاقُ. وفي ذلك أقول: [من الوافر]

لعلَّكَ بَعْدَ عَتْبِكَ أنْ تَجُودا ... بما منه عَتَبْتَ وأنْ تَزِيدا

فَكَمْ يومٍ رأيَنا فيه صَحْواً ... وأُسْمِعْنَا بآخِرِهِ الرُّعُودا

وعادَ الصَّحْوُ بعدُ كما عَلِمْنا ... وأنتَ كذاكَ نَرْجُو أن تَعُودا

وكانَ سببَ قولي هذه الأبيات عتابٌ وقعَ في يومٍ هذه صفته من أيَّام الرَّبيع؛ فقلتُها في ذلك الوقت.

---

(١) الحسين بن علي الفاسي أبو علي، كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة، قضى عمره في طلب العلم، ومازحه ابن حزم يوماً قائلاً: متى تنقضي قراءتك على الشيخ؟ (يعني عبدالرحمٰن بن أبي يزيد الأزدي) فأجابه: إذا انقضى أجلي (انظر ترجمته في الجذوة: ١٨١، والبغية: ٦٤٨، والصلة: ١٣٨ وسماه «الحسن») (ع).

(٢) جعلها بتروف: (ولترجعنَّ).

وكان لي في بعض الزَّمَنِ صديقان، وكانا أخوَيْنِ، فغابا في سَفَرٍ ثُمَّ قَدِما، وقد أصابني رَمَدٌ فتأخَّرا عن عيادتي، فكتبتُ إليهما - والمخاطبة للأكبر منهما - شعراً منه: [من المتقارب]

وكنتُ أعَدِّد أَيْضَاً علىٰ أَخِيكَ بِمُؤلِمَةِ السَّامِع
ولكنْ إذا الدَّجْنُ غَطَّىٰ ذُكاءَ فما الظَّنُّ بالقَمَرِ الطَّالِع

- ثُمَّ هَجْرٌ يُوجبه الوُشاةُ، وقد تقدَّم القولُ فيهم وفيما يتولَّدُ من دبيبِ عقاربهم، وربَّما كانَ سبباً للمقاطعة البتَّةَ.

- ثُمَّ هَجْرُ المَلَلِ، والمللُ من الأخلاقِ المَطْبُوعَة في الإنسان.

وأحرى لمن دُهي به ألا يصفوَ له صديقٌ ، ولا يَصِحَّ له إخاءٌ، ولا يثبتَ علىٰ عهدٍ، ولا يصبرَ على إلفٍ، ولا تطولَ مساعدته لمُحبٍّ، ولا يُعْتَقَد منه ودٌّ ولا بغضةٌ.

وأولى الأمورِ بالنَّاس ألا يقرِّبوه منهم وأن يَفِرُّوا عن صحبته ولقائه، فلن يَخْلوا منه بطائلٍ، ولذلك أبعدنا هذه الصِّفَةَ عن المُحبِّين وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التَّجَنِّي، والتَّظنِّي، والتَّعرض للمقاطعة؛ وأما من تزيّا باسم الحُبِّ وهو مَلولٌ فليس منهم، ذلكَ حقُّهُ أن يبهرج مذاقُه، ويُنْفىٰ عن أهلِ هذه الصِّفة، ولا يدخل في جملتهم.

وما رأيتُ قَطُّ هذه الصِّفة أشدَّ تغلباً منها علىٰ أبي عامرٍ محمَّدِ بن [أبي] عامرٍ[1] - رحمه الله -، فلو وَصَفَ لي واصفٌ بعضَ ما علمته منه لما صَدَّقْتُهُ.

---

(١) يرد على الخاطر للوهلة الأولى أنه: المنصور بن أبي عامر، ولكن ذلك مستحيل، لأن المنصور توفي وعمر ابن حزم ثماني سنوات، وفي سنٍّ كهذه يستحيل أن يقصَّ عليه =

وأهلُ هذا الطَّبعِ أسرعُ الخَلْقِ مَحَبَّةً، وأقلُّهُم صَبْراً علىٰ المحبوب وعلىٰ المكروه؛ وبالضِّدِّ، وانقلابهم[1] عن الودِّ على قدر تسرُّعهم إليه؛ فلا تَثِقْ بمَلُولٍ، ولا تُشْغِلْ به نفسك، ولا تُعَنِّها بالرَّجاءِ في وفائه. فإن دُفعتَ إلىٰ محبَّته ضرورةً فعُدَّه ابنَ ساعته، واستأنِفْهُ كلَّ حينٍ من أحيانه بحسب ما تراه من تلوُّنه، وقابِلْهُ بما يشاكِلُهُ.

ولقد كانَ أبو عامرٍ ـ المُحدَّثُ عنه ـ يَرَىٰ الجاريةَ فلا يَصبرُ عنها، ويَحيقُ به من الاغتمام والهمِّ ما يكادُ أن يأتيَ عليه حتَّىٰ يملكها، ولو حالَ دونَ ذلكَ شوكُ القتاد، فإذا أيقنَ بتصيُّرها إليه عادتْ المَحبَّةُ نفاراً، وذلك الأنسُ شُروداً، والقلقُ إليها قَلَقاً منها، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها، فيبيعها بأوكسِ الأثمان. هذا كان دأبَهُ حتَّىٰ أتْلَفَ فيما ذكرنا من عشراتِ ألوف الدنانير عِدداً عظيماً.

وكان ـ رحمه الله ـ مع هذا من أهل الأدب، والحَذْقِ، والذَّكاء، والنُّبل، والحلاوة، والتَّوَقُّدِ، مع الشَّرف العظيم، والمنصب الفَخْمِ، والجاه العريض، وأما حُسْنُ وجهه، وكمالُ صورته؛ فشيءٌ تقف الحدودُ عنه، وتَكِلُّ الأوهامُ عن وصف أقلِّه، ولا يتعاطىٰ أحدٌ وصفه. ولقد كانَتْ الشَّوارعُ تخلوُ من السَّيَّارةِ، ويتعمَّدونَ الخُطورَ علىٰ بابَ داره ـ في الشَّارع الآخذِ من النَّهر الصَّغير علىٰ باب دارنا في الجانب الشرقي بقُرطبة إلىٰ الدَّرب المتَّصِل بقصرِ الزَّاهرة، وفي هذا الدَّرْبِ كانتْ داره ـ رحمه الله ـ ملاصِقةً لنا ـ لا لشيءٍ إلا للنَّظْرةِ منه[2].

= الحكايات التي سوف يوردها ابن حزم في ءاخر الباب نقلاً عنه. وأرجِّح ـ على سبيل اليقين ـ أنه ابنٌ لعبدالملك المظفَّر، أي أنه حفيد المنصور بن أبي عامر، وكان يحمل اسم جده (مكي).

(١) قرأها العلامة محمود شاكر: وبالضِّدِّ انقلابهم.

(٢) هذه قراءة العلامة شاكر، وفي الأصل: للنَّظر منه.

ولقد ماتَ من محبَّتِهِ جوارٍ كنَّ عَلَّقْنَ أوهامَهُنَّ به، ووَفَيْنَ[1] له؛ فخَانَهُنَّ مِمَّا أَمِلْنَهُ منه، فصِرْنَ رهائنَ البِلَىٰ، وقَتَلَتْهُنَّ الوحدةُ. وأنا أعرفُ جاريةً منهنَّ كانت تسمَّىٰ عفراءَ، عهدي بها لا تَتَسَتَّرُ بمحبَّتِهِ حَيْثُما جلستْ، ولا تجفُّ دُمُوعها، وكانتْ قد تصيَّرَتْ من داره إلىٰ البركاتِ الخيَّالِ ـ صاحبِ الفتيان[2] ـ.

ولقد كانَ ـ رحمه الله ـ يُخبرني عن نفسه أنَّه يَمَلُّ اسمه فضلاً عن غير ذلك!

وأمَّا إخوانه فإنَّه تبدَّلَ بهم في عُمره ـ على قِصَرِه ـ مراراً، وكانَ لا يثبُتُ على زيٍّ واحدٍ كأبي بَراقِشَ[3]؛ حيناً يَكونُ في ملابسِ المُلوك، وحيناً في ملابس الفُتَّاك.

فيجبُ علىٰ من امْتُحِنَ بمخالطة مَن هذه صِفَتُهُ ـ علىٰ أيِّ وجهٍ كانَ ـ ألاَّ يستفرغَ عامَّةَ جَهْده في مَحَبَّتِه، وأنْ يُقيمَ اليأسَ مِنْ دوامه خَصْماً لنفسه، فإذا لاحَتْ له مخايلُ المَلَلِ قاطَعَهُ أيَّاماً حتَّىٰ يَنْشَطَ بالُه، ويَبْعُدَ به عنه، ثُمَّ يُعاوده، فربَّما دامت المَودَّة مع هذا. وفي ذلك أقول: [من المجتث]

---

(١) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: وريين. وأثبتها بتروف: وزُئِينَ. وجعلها (مكي): ورثين. وعند برشيه: وربين.

(٢) يريد بروفنسال أن يقرأ: إلى أبي البركات الخيالي صاحب البنيان، ذلك لأنه يرى أنه لم تكن هناك خطة تسمى «صاحب الفتيان» ويكون الخيالي نسبة إلى «خيال» زوج الحاجب عبدالملك المظفر (انظر الأندلس: ٣٥٢ وترجمة غومس: ٢٠٠ الحاشية؛ ومكي: ١٠٥) (ع).

(٣) أبو براقش ـ فيما قيل ـ طائر منقَّش بألوان النقوش يتلوّن في اليوم ألواناً ويضرب به المثل للمتلوّن (ثمار القلوب: ٢٤٧) ويبدو أن هذا هو مفهوم المشارقة فقد جاء في (Vocabulista) أنه يقابل (Stellio, drago) وأنه يرادف «حرباء» (انظره ص: ٥٩١ ونبّه إليه بروفنسال في الأندلس: ٣٥٣) (ع).

لا تَـــزجُـــوَنَّ مَـــلُـــولاً لَـــيْـــسَ الـــمَـــلُـــولُ بِـــعُـــدَّهْ
وُدُّ الـــمَـــلُـــولِ فَـــدَعْـــهُ عـــارِيَّـــةٌ مُـــسْـــتَـــرَدَّهْ

- ومن الهَجْرِ ضَرْبٌ يكونُ متولِّيه المُحِبُّ، وذلكَ عندما يرىٰ مِن جَفاءِ محبوبه، والميل عنه إلىٰ غيره، أو لثقيلٍ يلازمه؛ فيرىٰ الموتَ وتَجَرُّعَ غُصَصِ الأَسىٰ، والعضَّ علىٰ نقيفِ الحَنْظَلِ(١)؛ أهونَ من رؤية ما يكره، فينقطعُ وكَبِدَهُ تَتَقَطَّعُ؛ وفي ذلك أقول: [من السريع]

هَـجَـرْتُ مَـنْ أهـواهُ لا عَـنْ قِـلـىً يـا عَـجَـبـاً لـلـعـاشـقِ الـهَـاجِـرِ
لـكـنَّ عَـيْـنـي لـم تُـطِـقْ نَـظْـرةً إلـىٰ مُـحَـيَّـا الـرَّشـأ الـغـادرِ
فـالـموتُ أحـلىٰ مَـطْـعَـماً مِنْ هَـوَىً يُـبـاحُ لـلـواردِ والـصَّـادر
وفـي الـفـؤادِ الـنَّـارُ مَـذكِـيَّـةٌ فـاعـجَـبْ لـصَـبٍّ جَـزِعٍ صَـابِـرِ
وقـد أبـاحَ اللهُ فـي دِيـنـهِ تَـقِـيَّـةَ الـمَـأْسُـورِ لـلآسِـر
وقـد أَحـلَّ الـكُـفْـرَ خَـوْفَ الـرَّدىٰ حـتَّـىٰ تَـرىٰ الـمُـؤمِـنَ كـالـكَـافِـر

خَبَرٌ:

ومن عَجيب ما يكونُ فيها وشنيعِهِ أنِّي أعرفُ مَنْ هامَ قَلْبُه بمتناءٍ عنه، نافرٍ منه، فقاسىٰ الوَجْدَ زَمَناً طَويلاً، ثُمَّ سَنحتْ له الأيَّامُ بسانحةٍ عجيبةٍ من الوَصْلِ، أشرفَ بها علىٰ بلوغ أمله، فحينَ لم يكن بينه وبين غايةِ رجائهِ إلاَّ كـ «لا» و «لا»(٢) عاد الهجرُ والبعدُ إلىٰ أكثر ما كانَ قبل، فقلتُ في ذلك: [من السريع]

---

(١) نقيف الحنظل، أي: حبُّه ولبُّه. والنَّقف: كسر الهامة عن الدِّماغ. ويقال: حنظل نقيف، أي: منقوف، وهو أن جانبي الحنظل ينقُضها بظُفُره، أي: يضربها، فإن صوَّت علم أنَّها مدركة فاجتناها.

(٢) إلاَّ كـ«لا» و«لا»: دلالة على قصر الزَّمن، وهو تعبير مشهور. وفي الأصل: كهاولاء. =

كــانــتْ إلــىٰ دَهْــرِيَ لــي حَــاجَــةٌ مـقـرونـةٌ فـي الـبُـعْـدِ بـالـمُـشـتـري
فـسَـاقَـهـا بـالـلُّـطْـفِ حـتَّـىٰ إذا كانتْ من القُرب علَىٰ مَحْجري[1]
أبْــعــدهــا عــنِّــي فــعَــادَتْ كــأنْ لــم تَـبْـدُ لـلْـعَـيْـنِ ولـم تـظْـهـر

وقلتُ: [من الطويل]

دنَـا أمـلـي حـتَّـىٰ مَـدَدْتُ لأخـذهِ يَـداً فـانْـثَـنَـىٰ نَـحْـوَ الـمَـجَـرَّةِ راحـلا
فأصبحتُ لا أرجوُ وقد كنتُ موقِناً وأضحىٰ مع الشِّعرىٰ وقد كانَ حاصِلا
وقد كنتُ مَحْسُوداً فأصبحتُ حاسِداً وقـد كـنـتُ مأمولاً فـأصـبـحـتُ ءامـلا
كـذا الـدَّهْـرُ فـي كَـرَّاتِـهِ وانـتـقـالـه فـلا يـأمَـنَـنَّ الـدَّهْـرَ مَـنْ كـانَ عـاقـلا

ـ ثُمَّ هَجْر القِلَى، وهنا ضلَّتِ الأسَاطِيرُ[2]، ونَفَدَتِ الحِيَلُ، وعَظُمَ البلاءُ، وهو الذي خلَّى العقولَ ذواهلَ، فمن دُهِيَ بهذه الدَّاهية فليتصدَّ لمَحْبُوبِ مَحْبُوبِهِ، وليتعمَّدْ ما يعرفُ أنَّه يَسْتَحْسِنُهُ، ويجب أن يَجْتنب ما يدري أنَّه يكرهه، فربَّما عَطَفَهُ ذلكَ عليه إن كانَ المحبوبُ مِمَّنْ يدري قَدْرَ المُوافقة والرَّغبَةِ فيه، وأمَّا من لم يعلم قَدْرَ هذا فلا طمعَ في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب. فإن لم يقدِر المرءُ على استصرافه فليتعمَّد السُّلوانَ، وليحاسبْ نفسه بما هو فيه من البلاءِ والحِرْمان، وليسعَ في نَيل رغبته على أيِّ وجهٍ أمكنه. ولقد رأيتُ مَنْ هذه صِفَتُه. وفي ذلك أقول قطعةً أوَّلها: [من الطويل]

= وكأنَّ النَّاسخ قد أشكلت عليه قراءة النسخة التي نقل عنها؛ فأراد تقليد صورة ما ورد فيها مع شيء من التَّحوير.

(١) المحجر: العظم المحيط بالعين، أي قريبة جداً.

(٢) كذا في الأصل، وعند بتروف ومكي. وجعلها (ع): الأساطين. وقال عمَّا في الأصل: لعلَّ معناها: ضلَّت الأقاويل، أما الأشاطر عند برشيه فلا أدري لها توجيهاً. وكأنَّه فهمها بمعنىٰ: «الحذّاق» أو «الشُّطَّار» فكذلك تنبيء ترجمته.

دُهِيتُ بِمَنْ لَوْ أدفعُ الموتَ دُونَهُ لقالَ إذاً يا لَيْتَنِي في المَقَابِرِ

ومنها:

ولا ذَنْبَ لي إذْ صِرْتُ أَحْدُو رَكَائِبي
إلىٰ الوِرْدِ والدُّنيا تُسِيءُ مَصَادِري
وماذا علىٰ الشَّمْسِ المُنيرةِ بالضُّحىٰ
إذا قَصُرَتْ عنها ضِعافُ البَصَائِرِ

وأقولُ: [من مخلع البسيط]

ما أقبحَ الهَجْرَ بَعْدَ وَصْلٍ وأَحْسَنَ الوَصْلَ بَعْدَ هَجْرِ
كالوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ والفَقْرِ يَأْتِيك بَعْدَ وَفْرِ

وأقول: [من السريع]

مَعْهُودُ أخلاقِكَ قِسْمَانِ والدَّهْرُ فيكَ اليومَ صِنْفَانِ
فإنَّكَ النُّعمانُ فيما مضىٰ وكانَ للنُّعمان يومان
يومُ نعيم فيه سَعْدُ الورىٰ ويومُ بأساءٍ وعدوان
فيومُ نُعْمَاكَ لغيري ويَو مي منك ذو بُؤْسٍ وهِجْران
أليسَ حُبِّي لكَ مُسْتَأْهِلاً لأَنْ تُجَازِيه بإحسان

وأقولُ قطعةً منها: [من الكامل]

يا مَن جميعُ الحُسْنِ مُنتظمٌ فيه كنَظْمِ الدُّرِّ في العِقْدِ
ما بالُ حَتْفي مِنْكَ يَطْرُقُني قَصْداً ووجهك طالعُ السَّعْدِ

وأقولُ قصيدةً أولها: [من الطويل]

أساعةُ تَوْدِيعيك أم ساعةُ الحَشر | وليلةُ بَيْني مِنْكَ أم لَيْلَةُ النَّشر
وهَجْرُك تعْذيبُ المُوَحِّدِ يَنْقَضِي | ويَرْجُو[1] التَّلاقي أم عذابُ ذَوِي الكُفر

ومنها:

سقىٰ الله أيّاماً مَضَتْ ولياليا | تحاكي لنا النيلوفَرَ الغضَّ في النَّشر
فأوراقُهُ الأيامُ حُسْناً وبَهْجَةً | وأوسطُهُ الليلُ المُقصِّرُ للعُمر
لهونا بها في غَمْرةٍ وتآلفٍ | تَمُرُّ فلا نَدْرِي وتَأْتِي فلا نَدري
فأعْقبنا مِنْه زَمَانٌ كأنَّه | ولا شَكَّ حُسْنُ العَقْدِ أُعقِبَ بالغدرِ

ومنها:

فلا تيأَسي يا نفْسُ علَّ زَمَانَنا | يُعودُ بوَجْهٍ مُقْبِلٍ غَيْرِ مِزْوَرٍّ[2]
كما صَرَف الرَّحمنُ مُلْكَ أُمَيَّةٍ | إليهم، ولوذي بالتَّجَمُّل والصَّبْرِ

وفي هذه القصيدة أمدحُ أبا بكرٍ هشامَ بنَ محمَّدٍ[3] ـ أخا أمير المؤمنين عبدالرحمن المرتضى[4]؛ رحمه الله ـ، فأقول:

---

(١) برشيه: ويرجىٰ. وهي قراءة جيِّدة.

(٢) جميع الطّبعات (تبعاً لما في الأصل): مدبر. وهذا لا يجوز في حكم التقفية، وابن حزم لا يمكن أن يجهل ذلك (ع).

(٣) هشام بن محمد: لما قطع أهل قرطبة دعوة بني حمود سنة ٤١٧هـ أجمع رأيهم على ردّ الخلافة إلى الأمويين، فاتفقوا على تقديم هشام بن محمَّد بن عبدالله بن عبدالرحمٰن الناصر فبايعوه سنة ٤١٨ وتلقّب المعتد بالله، فدخل قرطبة ٤٢٠ ولم يبقَ إلا يسيراً حتى قامت عليه فرقة من الجند، فخلع، وانقطعت الدولة الأموية واستولى على أمر قرطبة أبو الحزم ابن جهور (الجذوة: ٢٦ ـ ٢٧ والبيان المغرب ٣: ١٤٥ ـ ١٤٨). (ع).

(٤) المرتضى عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالله بن الناصر، قام سنة ٤٠٧ بشرق الأندلس والتفّ حوله الموالي العامريون وغيرهم وزحفوا إلى قرطبة وأميرها القاسم بن حمود، =

أليسَ يُحيطُ الرُّوحُ فينا بكلِّ ما دَنا وتناءىٰ وهُوَ في حُجُبِ الصَّدْرِ
كذا الدَّهْرُ جِسْمٌ وهو في الدَّهر رُوحه مُحِيطٌ بما فيه وإنْ شِئْتَ فاسْتَبْرِي[1]

ومنها:

إتاوتُهُم[2] تُهدَىٰ إليه، ومِنَّةٌ تَقبُّلها منهم تُقاوَمُ بالشُّكْر
كذا كلّ نَهْرٍ في البلادِ وإنْ طَمَتْ غزارتُهُ يَنْصَبُّ في ثَبَجٍ[3] البَحْر

* * *

= وفي الطريق حاولوا الاستيلاء على غرناطة، وفيها زاوي بن زيري، فانهزم أتباع المرتضى وقتل هو (البيان المغرب: ٣: ١٢١، ١٢٥، ١٢٦). (ع).

(١) جعلها (مكي) و(ع): فاسْتقر.

(٢) خ: إتاوتها.

(٣) الثَّبَجُ: وسط الشيء ومعظمه. وأثبتها بتروف: لُجَج. واللُّجُّ: معظم الماء. ولُجُّ البحر: الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه.





(٢٢) باب: الوَفاء

ومن حَميدِ الغَرائز، وكريم الشِّيم، وفاضِلِ الأخلاق في الحبِّ ـ وغيره ـ الوفاءُ.

وإنَّه لَمِنْ أقوىٰ الدَّلائِل، وأوضح البراهين علىٰ طِيبِ الأصلِ، وَصِرْفِ العنصر، وهو يتفاضل بالتَّفاضُلِ اللاَّزم للمخلوقات. وفي ذلك أقول قطعة منها: [من البسيط]

أفعَالُ كلِّ امْرِىءٍ تُنْبِي بِعُنْصُرِهِ والعَيْنُ تُغْنِيكَ عن أنْ تَطْلُبَ الأثرا

ومنها:

وهل ترىٰ قَطُّ دِفْلَىٰ أَنْبَتَتْ عِنباً أو تَذْخَرُ النَّحْلُ في أوْكَارِها الصَّبِرَا

ـ وأوَّلُ مراتب الوفاء: أنْ يَفِيَ الإنسانُ لِمَنْ يفي له، وهذا فَرْضٌ لازِمٌ وحقٌ واجبٌ علىٰ المُحبِّ والمحبوب، لا يحولُ عنه إلاَّ خبيثُ المحتدِ؛ لا خَلاقَ له، ولا خَيْرَ عنده. ولولا أنَّ رسالتنا هذه لم نَقْصُدْ بها الكلامَ في أخلاق الإنسان[١] وصفاته المطبوعةِ، والتَّطَبُّع بها، وما يزيدُ من المطبوع بالتَّطَبُّع، وما يضمحلُّ من التطبُّع بعدم الطبع؛ لزِدْتُ في هذا المكان ما يجبُ أن يُوضَع في مثلِهِ، ولكنَّا إنَّما قصدنا التَّكلم فيما رَغبْتَهُ من أمرِ الحُبِّ

(١) تحرَّف في الأصل إلى: النِّساء.

فقط، وهذا أمرٌ كانَ يطولُ جداً؛ إذ الكلامُ فيه يَتفنَّنُ كثيراً.

خَبَرٌ:

ومِنْ أرفَعِ ما شاهَدْتُهُ من الوفاء في هذا المعنىٰ، وأَهْوَلِهِ شأناً قصَّةٌ رأيتها عياناً، وهو أنّي أعرفُ مَنْ رَضِيَ بقطيعةِ محبوبه، وأعزّ النَّاس عليه، ومن كانَ الموتُ عنده أحلىٰ من هَجْر ساعةٍ؛ في جَنب طَيِّهِ لسرٍّ أُودِعَه، والتزم محبوبُهُ يميناً غليظةً ألا يكلِّمه أبداً، ولا يكونُ بينهما خَبَرٌ أو يفضَح إليه ذلك السِّرَّ؛ علىٰ أنَّ صاحبَ ذلك السِّرِّ قد كانَ غائباً فأبىٰ من ذلك، وتمادىٰ هُوَ علىٰ كِتْمانه، والثَّاني علىٰ هِجْرانه؛ إلىٰ أن فَرَّقَتْ بينهما الأيام.

- ثُمَّ مرتبةٌ ثانيةٌ هو الوفاءُ لمَنْ غَدَرَ، وهي للمُحبِّ دونَ المحبوب، وليسَ للمحبوب هاهنا طريقٌ ولا يلزمه ذلك، وهي خُطَّةٌ لا يُطيقها إلا جَلْدٌ، قويٌّ، واسعُ الصَّدْرِ، حُرُّ النَّفْسِ، عَظِيمُ الحِلْمِ، جليلُ الصَّبْرِ، حَصيفُ العُقدة، ماجِدُ الخُلُقِ، سالم النِّيَّةِ. ومَنْ قابَلَ الغدرَ بمثله فليسَ بمُسْتَأهلٍ للملامة، ولكنَّ الحالَ التي قدَّمْنا تَفُوقها جداً، وتفُوتُها بُعْداً. وغايةُ الوفاء في هذه الحال تركُ مكافأةِ الأذىٰ بمثله، والكفُّ عن سَيِّءِ المقارَضَة بالفعل والقول، والتَّأنِّي في جَرِّ[1] حبل الصُّحْبة ما أمكنَ، ورُجِّيت الألفةُ، وطُمِعَ في الرَّجْعة، ولاحت للعودة أدنىٰ مَخيلةٍ، وشيمتْ منها أقلُّ بارقةٍ، أو تُوُجِّسَ منها أيسرُ علامةٍ. فإذا وقع اليأسُ، واستحكمَ الغيظُ؛ فحينئذٍ [لُذْ] بالسَّلامة مِمَّنْ غرَّك، والأمن مِمَّن ضرَّك، والنَّجاة مِمَّن ءاذاك[2]، وأن يكون ذِكْرُ ما سلف مانعاً من شفاء الغَيْظ فيما وقع، فرَعْيُ الأذِمَّةِ حقٌّ وَكِيدٌ على أهل العقول،

(١) قرأها (ع): جذِّ.

(٢) في الأصل: حينئذٍ والسلامة من غرك والأمن من ضرك والنجاة من أذاك. والتصويب عن برشيه.

والحنينُ إلى ما مضى وألا يُنْسَى ما قد فُرِغَ منه، وفنيت مُدَّتُه؛ أثبتُ الدَّلائل على صِحَّة الوفاء. وهذه الصِّفَة حسنةٌ جدّاً، وواجبٌ استعمالها في كلِّ وجهٍ من وجوهِ معاملات النَّاسِ فيما بينهم على أيِّ حالٍ كانت.

خَبَرٌ:

ولعَهْدِي برَجُلٍ من صَفْوة إخواني قد عَلِقَ بجاريةٍ، فتأكَّدَ الوُدُّ بينهما، ثم غَدَرَتْ بعهده، ونقَضَتْ ودَّهُ، وشاعَ خبرهما؛ فوَجَدَ لذلك وَجْداً شديداً.

خَبَرٌ:

وكانَ لي مَرَّةً صَدِيقٌ، ففَسَدَتْ نيَّتُهُ بعدَ وَكيدِ مودَّةٍ لا يُكْفَرُ بمثلها، وكان عَلِمَ كلُّ واحدٍ مِنَّا سرَّ صاحبه، وسَقَطَتِ المُؤْنَةُ، فلمَّا تَغَيَّرَ عليَّ أفشىٰ كلَّ ما اطَّلع لي عليه ممَّا كنتُ اطّلعتُ منه على أضعافه، ثم اتَّصل به أنَّ قوله فيَّ قد بلغني، فجَزِعَ لذلك، وخشيَ أن أقارضَهُ على قبيحِ فِعْلِهِ[1]؛ وبلغني ذلكَ فكتبتُ إليه شعراً أؤنِّسه فيه، وأُعْلِمُه أنّي لا أقارضه.

خَبَرٌ:

ومِمَّا يدخلُ في هذا الدَّرَج ـ وإن كان ليس منه، ولا هذا الفصل المتقدم من جنسِ الرسالة والباب، ولكنه شبيهٌ له على ما قد ذكرنا وشرطنا ـ وذلك أنَّ مُحَمَّدَ بنَ وليدِ بنِ مكسير الكاتبَ كانَ مُتَّصلاً بي، ومنقطعاً إليَّ أيامَ وزارة أبي ـ رحمة الله عليه ـ فلمَّا وَقَعَ بقرطبةَ ما وقع[2]، وتغيَّرت الأحوالُ؛ خرجَ إلىٰ بعض النَّواحي فاتَّصل بصاحبها، فَعَرُضَ جاهُه، وَحَدَثَتْ

(١) كذا في الأصل، وأثبتها (ع): فعلته.

(٢) يشير إلى اقتحام البربر مدينة قرطبة، وانتهابهم لها عام (٤٠٣هـ).

له وجاهةٌ وحالٌ حسنة. فحَلَلْتُ أنا تلكَ النَّاحية في بعض رِحْلَتي، فلم يُوَفِّني حقِّي، بل ثَقُلَ عليه مكاني، وأساءَ مُعَاملتي وصُحْبَتي، وكلَّفته في خلال ذلك حاجةً لم يقم فيها ولا قَعَدَ، واشتغلَ عنها بما ليسَ في مِثْلِهِ شُغْلٌ، فكتبتُ إليه شعراً أعاتبه فيه، فجاوبني مستعتباً، وعلىٰ ذلك؛ فما كلَّفْتُهُ حاجةً بعدها. ومِمَّا لي في هذا المعنىٰ - وليسَ من جِنْسِ الباب؛ ولكنَّه يشبهه - أبياتٌ قلتها، منها: [من البسيط]

لكنَّ كَتْمَكَ ما أَفْشَاهُ مُفْشيه ... وليسَ يُحْمَدُ كِتمَانٌ لمُكْتَتِمِ

قَلَّ الوُجُودُ له أو ضنَّ مُعْطِيه ... كالجُودِ بالوَفْر أسنىٰ ما يكونُ إذا

- ثُمَّ مرتبةٌ ثالثة، وهي الوفاء مع اليَأْسِ الباتِّ، وبَعْدَ حُلولِ المنايا وفُجَاءات المُنون، وإنَّ الوفاءَ في هذه الحالةِ لأجلُّ وأحسنُ منه في الحياةِ ومع رَجاءِ اللِّقاء.

خَبَرٌ:

ولقد حدَّثتني امرأةٌ - أثقُ بها - أنَّها رأتْ في دار مُحَمَّدِ بن أحمد بن وَهْبِ المعروفِ بابنِ الرَّكِيزَةِ - من وَلَدِ بدرٍ[1] الدَّاخِل مع الإمام عبدِالرَّحمن بن معاوية؛ رضي الله عنه -، جاريةً رائعةً جَمِيلةً كانَ لها مولىً فجاءته المَنِيَّةُ فبِيعَتْ في تركته، فأبتْ أنْ ترضَىٰ بالرِّجال بعده، وما جامعها رجلٌ إلىٰ أن لقيتْ الله - عزَّ وجلَّ -؛ وكانتْ تُحسنُ الغناء فأنكرتْ عِلْمَها به، ورضيتْ بالخدمة، والخروج عن جملة المتَّخَذَاتِ للنَّسْلِ، واللَّذَّةِ، والحالِ الحسنة؛ وفاءً منها لمن دثَر، ووارثه الأرضُ، والتأَمَتْ عليه

(١) أخبار بدر مولى عبدالرحمٰن الداخل وجهوده في خدمته لإقامة الدولة في الأندلس، تراجع في «نفح الطيب» ٣: ٢٧ - ٣١.

الصَّفائح[١]. ولقد رامها سيدها ـ المذكورُ ـ أن يضمَّها إلىٰ فراشه مع سائر جواريه، ويُخْرجَها مِمَّا هي فيه فأبت، فضربها غيرَ مرةٍ وأوقع بها الأدبَ، فصبرتْ علىٰ ذلكَ كلِّه، فأقامتْ علىٰ امتناعها؛ وإنَّ هذا من الوفاء غريبٌ جداً.

واعلم أنَّ الوفاءَ علىٰ المُحِبِّ أوجبُ منه على المحبوب، وشَرْطُهُ له ألزم، لأنَّ المحبَّ هو البادي باللُّصوق والتعرُّضِ لعقد الأذمَّة، والقاصدُ لتأكيدِ المودَّة، والمستدعي صِحَّة العِشْرة، والأوَّلُ في عدادِ طالبي[٢] الأصفياء، والسَّابقُ في ابتغاء اللَّذَّة باكتساب الخُلَّة. والمقيِّدُ نفسه بزمام المَحَبَّةِ؛ قد عَقِلَها بأوثقِ عِقالٍ، وخطمها بأشدِّ خطامٍ، فمن قَسَره علىٰ هذا ـ كلِّه ـ إن لم يُرِدْ إتمامه؟! ومَنْ أجبره علىٰ استجلابِ المقة إنْ لم ينوِ خَتمها بالوفاء لمَنْ أراده عليها؟! والمحبوبُ إنما هو مجلوبٌ إليه، ومقصودٌ نحوه، ومُخَيَّرٌ في القبول أو التَّرك، فإن قبل فغايةُ الرَّجاء، وإن أبىٰ فغيرُ مُسْتَحِقٍّ للذَّمِّ. وليسَ التَّعَرُّضُ للوصل، والإلحاحُ فيه، والتَّأنِّي لكلِّ ما يُستجلب به من الموافقة، وتصفيةِ الحَضْرةِ والمغيب؛ من الوفاء في شيءٍ، فحظَّ نفسه أرادَ الطَّالب، وفي سروره سعىٰ، وله احْتَطَبَ، والحبُّ يدعوه ويَحْدُوه علىٰ ذلك شاءَ أو أبىٰ، وإنَّما يُحمد الوفاءُ مِمَّنْ يَقْدِرُ علىٰ تركه.

وللوفاء شروطٌ علىٰ المُحِبِّينَ لازمةٌ:

فأوَّلها: أن يحفظ عهدَ مَحْبُوبَه، ويرعىٰ غَيْبَتَهُ، وتَسْتَوي علانيته وسَرِيرته، ويَطْوِيَ شرَّهُ ويَنْشُرَ خَيْرَهُ، ويغطِّيَ علىٰ عيوبه، ويُحَسِّنَ أفعاله، ويتغافل عمَّا يقع منه علىٰ سبيل الهَفْوةِ، ويرضىٰ بما حَمَّلَهُ، ولا يُكْثِر عليه بما يَنْفِرُ منه، وألا

(١) قال العلامة محمود شاكر: أظنُّ أنه: «وتلمَّأت عليه الصفائح».

(٢) خ: عدد طالب.

يكونَ طُلَعةَ دَبوباً، ولا مَلَّةَ طَرِفاً[1]. وعلىٰ المحبوبِ[2] إنْ ساواه في المَحَبَّة مثلُ ذلك، وإن كانَ دونه فيها فليسَ للمُحِبِّ أنْ يُكَلِّفه الصعودَ إلىٰ مرتبته، ولا له الاشتطاطةُ عليه بأن يسومَهُ الاستواء معه في درجته. وبِحَسْبِهِ منه ـ حينئذٍ ـ كتمانُ خَبَره، وألا يقابله بما يكره، ولا يُحيِّفه به، وإن كانت الثَّالثة ـ وهي السَّلامة مِمَّا يلقىٰ بالجملة ـ فليقنعْ بما وَجَدَ، وليأخذْ من الأمر ما استدفَّ، ولا يطلب شَرْطاً، ولا يقترح عَقْداً، وإنَّما له ما سَنَحَ بجدِّه، أو ما حَازَ[3] بكَدِّه.

واعلم أنَّه لا يَستبينُ قُبْحُ الفِعْلِ لأهله، وكذلك[4] يتضاعَفُ قُبْحُه عند من ليسَ من ذَوِيه.

ولا أقولُ قولي هذا مُمتدحاً، ولكن ءاخِذاً بأدب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]:

لقد منحني الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الوفاء لكُلِّ من يَمُتُّ إليَّ بِلُقْيَةٍ واحِدَةٍ، ووهبني من المحافظةِ لمَنْ يتذمَّمُ منِّي ولو بِمُحَادَثَةِ ساعةٍ؛ حظّاً أنا له شاكرٌ وحَامِدٌ، ومنه مُسْتَمِدٌّ ومُسْتَزِيدٌ، وما شيءٌ أثقلُ عليَّ مِنَ الغَدْرِ؛ ولعمري! ما سَمَحَتْ نفسي قطُّ في الفكرة في إضرار مَن بيني وبينه أقلُّ ذِمَام؛ وإن عَظُمَتْ جريرتُه، وكَثُرَتْ إليَّ ذنوبه، ولقد دَهَمَني من هذا غير قليلٍ فما جَزَيْتُ علىٰ السُّوءىٰ إلاَّ بالحسنىٰ، والحمدُ لله علىٰ ذلك كثيراً.

وبالوفاء أفتخرُ في كلمةٍ طويلةٍ، ذكرتُ فيها ما مَضَىٰنا من النَّكَبَات،

---

(١) في الأصل: طلعة ثؤوباً ولا ملة طروقاً. والتَّصحيح عن (ع)، وقال: وعلى حسب توجيهي للقراءة، فالطلعة هو الشديد البحث عن حال الآخرين، والدبوب: النَّمَّام. والملة: السريع الملال، ومثله الطرف كذلك. وقرأ برشيه: وألاَّ يكون طله شؤبوباً وظله غروباً. وفي هذا تعسُّفٌ واضحٌ.

(٢) خ: المحب.

(٣) تحرَّفت عند بتروف ـ وفي الطبعات اللاحقة ـ إلىٰ: حان.

(٤) تحرَّفت عند بتروف ـ وفي الطبعات اللاحقة ـ إلىٰ: ولذلك.

وَدهَمَنا من الحَلِّ والتِّرحالِ والتَّجوُّلِ في الآفاق، أوَّلها[1]: [من البسيط]

وَلَّى فولَّى جميلُ الصَّبْرِ يَتْبَعُهُ ... وصَرَّحَ الدَّمْعُ ما تُخْفِيه أَضْلُعهُ

جِسْمٌ مَلُولٌ وقَلْبٌ ءالِفٌ فإذا ... حَلَّ الفراقُ عليه فهو مُوجِعُه

لم تستقرَّ بِهِ دارٌ ولا وَطَنٌ ... ولا تَدفَّأَ مِنْهُ قطُّ مَضْجَعُهُ

كأنَّما صِيغَ من رَهو السَّحاب فما ... تَزالُ ريحٌ إلىٰ الآفاق تَدْفَعُه

كأنَّما هو تَوْحيدٌ تَضيقُ به ... نَفْسُ الكَفُورُ فتأبىٰ حِينَ تُودَعُهُ

أو كوكبٌ قاطِعٌ في الأُفْقِ مُنْتَقِلٌ ... فالسَّيْرُ يُغْربُهُ حِيناً ويُطْلِعُه

أظُنُّه لو جَزَتْه أو تُسَاعِدُه ... ألقتْ عليه انهمال الدَّمْعِ يَتْبعُه[2]

وبالوفاء ـ أيضاً ـ أفتخرُ في قصيدةٍ لي طويلةٍ أوردتها، وإن كان أكثرُها ليسَ من جنس الكتاب، فكان سببَ قولي لها أنَّ قوماً من مخالفيَّ شَرَقُوا بي، فأساءوا العتبَ في وجهي، وقَذَفُوني بأنّي أعضدُ الباطلَ بحُجَّتي، عَجْزاً منهم عن مقاومةِ ما أوردته من نَصْرِ الحقِّ وأهلِهِ، وحَسَداً لي، فقلتُ وخاطبتُ بقصيدتي بعضَ إخواني ـ و[كانَ] ذا فَهْمٍ ـ، منها: [من الطويل]

وخذْني عَصَا موسىٰ وهاتِ جَمِيعَهُم ... ولو أنَّهُم حَيَّاتُ ضَالٌ نَضانِضُ

ومنها:

يُذِيعُونَ في عَيْبِي عَجائِبَ جَمَّةً ... وقَدْ يُتَمَنَّىٰ[3] اللَّيْثُ واللَّيْثُ رَابِضُ

---

(١) يبدو أن ابن حزم كان معجباً بقصيدة ابن زريق البغدادي، فهو يعارضها هنا، كما عارضها بقصيدة أخرى أثبتها في كتابي: تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة (ط. ثانية): ٣٨٥ ـ ٣٨٧ (ع).

(٢) هذا البيت غريب الصلة بما قبله؛ وأظنه مضطرباً في تركيبه (أعني أن الشطر الأول قد جمع إلى شطر من بيت ءاخر) (ع).

(٣) قرأها برشيه: وقد يستهان.

ومنها:

وَيَرجونَ ما لا يَبْلغُوْنَ كَمِثْلِ ما   يُرجِّي مُحَالاً في الإمامِ الرَّوافِضُ

ومنها:

ولو جَلَدي في كلِّ قَلْبٍ ومُهْجَةٍ   لما أَثَّرَتْ فيها العُيُونُ المَرَائِضُ
أَبَت عن دَنيِّ الوَصْفِ ضَرْبَةَ لازبٍ   كما أبتِ الفِعْلَ الحروفُ الخَوافِضُ

ومنها:

ورَأْيي لَهُ في كلِّ ما غابَ مَسْلَكٌ
كما تسلُكُ الجِسْمَ العُروقُ النَّوابضُ
يَبينُ مَدَبُّ النَّمْلِ في غَيْرِ مُشْكِلٍ
وَيُسْتَرُ عَنْهُم للفُيُولِ المَرابِضُ(١)

❋ ❋ ❋

(١) يريد أن نفاذ رأيه وبصيرته يمكنه من رؤية مدب النمل في سهولة ويسر، أما خصومه الأغبياء فإنهم يعجزون عن رؤية الفيول في مرابضها على ضخامة حجمها (ع).





٢٣ باب: الغدر

وكما أنَّ الوفاءَ مِنْ سَرِيِّ النُّعوتِ، ونبيل الصِّفاتِ، فكذلك الغَدْرُ مِنْ ذَمِيمها ومَكْرُوهها. وإنَّما يُسمَّى: غدراً من البادىء به، وأمَّا المُقارِضُ بالغدر علىٰ مِثْله ـ فهو وإنْ استوىٰ معه في حقيقة الفِعْلِ ـ فليسَ بغدرٍ، ولا هو مَعيباً بذلك، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقد علمنا أنَّ الثَّانيةَ ليستْ بسَيِّئةٍ، ولكنْ لمَّا جانستِ الأولىٰ في الشَّبَهِ أُوقِعَ عليها مثلُ اسمها، وسيأتي هذا مُفَسَّراً في باب السُّلُوِّ ـ إن شاء الله ـ ولكثرة وجود الغَدْرِ في المحبوب استُغْرِبَ الوفاءُ منه، فصارَ قليله الواقع منهم؛ يُقاوِمُ الكثيرَ الموجود في سواهم. وفي ذلك أقول: [من الوافر]

قليلُ وَفاءِ مَنْ يُهْوَىٰ يَجِلُّ ... وَعُظْمُ وفاء مَنْ يَهْوَىٰ يَقِلُّ

فنادرةُ الجَبانِ أجَلُّ مِمَّا ... يَجيء به الشُّجاعُ المُسْتَقِلُّ(١)

ومن قبيح الغَدْرِ أن يكونَ للمُحبِّ سفيرٌ إلىٰ محبوبه، يستريحُ إليه بأسراره؛ فيسعىٰ حتَّى يَقْلِبَه إلىٰ نفسه، ويستأثَر به دُونَه. وفيه أقول: [من الطويل]

---

(١) كذا في الأصل، وقال الأستاذ محمود شاكر: صوابه: «المشمعلُّ»، أمَّا «المستقلُّ» فمتكلَّف غير جيِّد.

أَقَمْتُ سَفِيراً قاصداً في مَطالبي وَثِقْتُ بـه جَهْلاً فَضرَّبَ بيننا
وحَلَّ عُرىٰ وُدِّي وأثبتَ وُدَّه وأَبْعَدَ عنِّي كلَّ ما كانَ مُمْكِنا
فصِرْتُ شَهِيداً بَعْدَما كنتُ مُشْهِداً وأصبحَ[1] ضَيفاً بعدما كانَ ضَيْفَنا

خَبَرٌ:

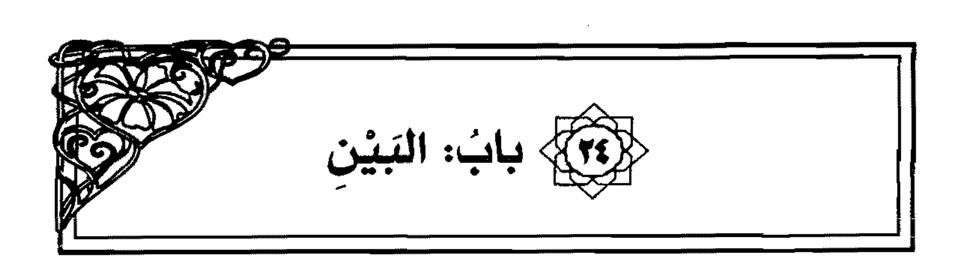
ولقد حدَّثني القاضي يونسُ بنُ عبدالله[2]؛ قالَ: أذكرُ في الصِّبا جاريةً في بعض السُّدَدِ؛ يهواها فتىً من أهل الأدب ـ من أبناء الملوك ـ وتهواه، ويتراسلان، وكانَ السَّفِيرُ بينهما والرَّسُول بكتبهما فتىً من أترابه كان يَصِلُ إليها، فلمَّا عُرِضَتِ الجاريةُ للبيع أرادَ الذي كانَ يُحِبُّها ابتياعها، فبدرَ الذي كانَ رَسُولاً فاشتراها. فدخلَ عليها يوماً فوَجَدَهَا قد فَتَحَتْ دُرجاً لها تطلبُ فيه بعضَ حوائجها، فأتىٰ إليها وجعل يُفَتِّشُ الدُّرج، فخرجَ إليه كتابٌ من ذلك الفتىٰ الذي كان يهواها مضمَّخاً بالغالية، مَصُوناً مُكرَّماً، فغَضِبَ، وقال: من أينَ هذا يا فَاسِقَةُ؟ قالتْ: أنت سُقْتَه إليَّ. فقال: لعلَّه مُحدَثٌ بعدَ ذلكَ الحِين. فقالت: ما هو إلاَّ من قديمِ تلك التي تَعْرِفُ. قال: فكأنَّما أَلْقَمَتْهُ حَجراً، فسُقِط في يديه وسكتَ.

❋ ❋ ❋

(١) في الأصل: وأصبحت. والتَّصحيح عن (ع)، وقال: في جميع الطبعات: وأصبحت؛ والمعنى يأباها؛ هو يقول بعدما تغير السفير فأحبّ من كنت أحب، أصبحت أنا شهيداً على ما يصنع بعدما كنت مشهداً له؛ أما هو فانتقلت حاله فبعدما كان ضَيْفَناً (أي ضيف ضيفٍ) اعتلت به الحال فأصبح ضيفاً. (قلت: والضيفن مذموم لأنه قريب الشبه من الطفيلي).

(٢) يونس بن عبدالله بن محمَّد بن مغيث أبو الوليد المعروف بابن الصفَّار: كان قاضي الجماعة بقرطبة، ومن أعيان أهل العلم، يميل إلى الزهد وله فيه مصنفات وأشعار، وعنه يروي ابن حزم وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي، توفي سنة ٤٢٩ (انظر ترجمة له مطوَّلة نسبياً في «الصلة»: ٦٤٦ وراجع «الجذوة»: ٣٦٢ و«البغية» رقم: ١٤٩٨ «وترتيب المدارك» ٤: ٧٣٩). (ع).





٢٤ باب: البَيْنِ

وقد علمنا أنَّه لا بدَّ لكلِّ مُجْتَمِعٍ من افتراقٍ، ولكلِّ دانٍ من تَنَاءٍ، وتلك عادةُ الله في العباد والبلاد؛ حتَّىٰ يرثَ الله الأرضَ ومن عليها، وهو خيرُ الوارثين.

وما شيءٌ من دواهي الدُّنيا يَعْدِلُ الافتراق، ولو سَالَت الأرواحُ به ـ فضلاً عن الدُّموع ـ كانَ قليلاً. وبعضُ الحكماء سَمِعَ قائلاً يقول: الفِراقُ أخو الموت. فقالَ: بل الموت أخو الفراق[1].

والبَيْنُ ينقَسِمُ أقساماً:

ـ فأوَّلها: مُدَّةٌ يوقَنُ بانصرامِها، وبالعودةِ عن قريبٍ، وإنَّه لشَجىً في القلب، وغُصَّةٌ في الحَلْقِ لا تبرأُ إلا بالرَّجعة. وأنا أعلمُ من كان يَغيبُ من يُحبُّ عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهَلَعِ، والجَزَعِ، وشُغلِ البالِ، وترادُفِ الكُرَب؛ ما يكادُ يأتي عليه.

---

(١) وقد مزج بين المعنَيَيْن الإمام إسماعيل بن إسحاق القاضي (٢٨٢هـ)؛ فقال:

هِمَمُ الموتِ عالياتٌ فمِنْ ثَـ ... ـمَّ تَخَطَّى إلى لُبابِ اللُّبابِ
وَلِهذا قِيلَ: الفِرَاقُ أخُو المَوْ ... تِ لإِقْدامِه علَى الأَحْبابِ

روى البيتين عنه؛ الخطيبُ البغدادي في: «تاريخ بغداد» ٦/ ٢٨٩، وترجمة القاضي ومصادرها في مقدمة تحقيقي لكتابه: «فضل الصَّلاة على النبيِّ ﷺ» (رمادي للنشر، الدَّمَّام: ١٤١٧هـ).

ـ ثُمَّ بَيْنُ مَنعٍ من اللِّقاء، وتَحظيرٍ علىٰ المحبوب من أن يراه مُحِبُّه، فهذا ـ ولو كانَ من تُحِبُّه معكَ في دارٍ واحدةٍ ـ فهو بَيْنٌ، لأنَّه بائِنٌ عنك، وإنَّ هذا ليولِّدُ من الحُزْنِ والأسفِ غيرَ قليل، ولقد جرَّبْناه فكانَ مُرّاً. وفي ذلك أقول: [من الطويل]

أرىٰ دارَها في كلِّ حِينٍ وسَاعةٍ ... ولكنَّ مَنْ في الدَّار عنِّي مُغيَّبُ
وهل نافعي قربُ الدِّيار، وأهلُها ... علىٰ وَصْلهِم مِنِّي رَقيبٌ مُرَقَّبُ
فيا لك جارَ الجَنْبِ أسمعُ حِسَّه ... وأعلم أنَّ الصِّين أدنىٰ وأقرب
كصادٍ يَرى ماء الطَّوِيِّ بعَيْنهِ ... وليسَ إليه مِنْ سَبيلٍ يُسَبَّبُ
كذلك مَن في اللَّحْدِ عنك مُغَيَّبٌ ... وما دونه إلا الصَّفِيحُ المُنصَّبُ

وأقولُ ـ من قصيدةٍ مُطوَّلةٍ ـ: [من الطويل]

متىٰ تشتفي نفسٌ أضَرَّ بها الوَجْدُ ... وتَضْقَبُ دارٌ قد طوىٰ أهلَها البُعْدُ
وعهدي بهِنْدٍ وهي جَارةُ بَيتِنا ... وأقربُ من هِنْدٍ لطالبها الهِنْدُ
بلىٰ إنَّ في قُرْبِ الدِّيار لراحةً ... كما يُمْسِكُ الظمآنَ أن يدْنوَ الوِرْد

ـ ثُمَّ بَيْنٌ يَتَعَمَّدُهُ المُحِبُّ بُعْدَاً عن قولِ الوُشَاة، وخوفاً أن يكونَ بقاؤه سبباً إلىٰ مَنْعِ اللِّقاء، وذريعةً إلىٰ أن يَفْشُو الكلام فيقعَ الحِجَابُ الغَلِيظُ.

ـ ثُمَّ بَيْنٌ يولِّده المُحِبُّ لبعض ما يدعوه إلىٰ ذلكَ من ءافات الزَّمان، وعُذرُهُ مقبولٌ، أو مُطَّرَحٌ على قَدْرِ الحافزِ له إلىٰ الرَّحِيل.

خَبَرٌ:

ولعهدي بصَديقٍ لي دارُهُ المَرِيَّة، فَعَنَّتْ له حوائجُ إلىٰ شاطبة فقصدها، وكانَ نازلاً بها في منزلي مُدَّةَ إقامته بها، وكانَ له بالمَرِيَّة علاقةٌ هي أكبرُ

هَمِّه، وأدهىٰ غَمِّه، وكانَ يؤمِّل تَبْتِيتَهُ، وفراغَ أسبابه، وأن يوشِكَ الرَّجعة، ويُسْرِعَ الأوبة، فلم يكنْ إلاَّ حِينٌ لطيفٌ بعد احتلالِهِ عندي حتى جَيَّش الموفَّقُ أبو الجيش مجاهدٌ[١] ـ صاحبُ الجزائر ـ الجيوشَ، وقرَّب العساكرَ، ونابذَ خيرانَ[٢] صاحبَ المَريَّة، وعزمَ علىٰ استئصاله، فانقطعت الطُّرُقُ بسبب هذه الحَرْبِ، وتُحوميتِ السُّبُلُ، واخْتُرِسَ البحرُ بالأساطيل، فتضاعف كَرْبُه إذ لم يَجِد إلىٰ الانصراف سبيلاً البتَّةَ، وكادَ يُطفأُ أسفاً، وصار لا يأنسُ بغير الوَحْدة، ولا يلجأ إلا إلىٰ الزَّفِيرِ والوجُوم، ولعمري! لقد كانَ مِمَّنْ لم أقدِّرْ قَطُّ فيه أنَّ قلبه يُذْعِنُ للوُدِّ، ولا شراسةَ طبعه تجيبُ إلىٰ الهوىٰ.

وأذكر أنِّي دخلتُ قرطبةَ بعد رحيلي عنها، ثُمَّ خرجتُ منصرفاً عنها؛ فضمَّني الطريقُ مع رجلٍ من الكُتَّابِ قد رَحَل لأمرٍ مهمٍّ، وتخلَّفَ سَكَنٌ[٣] له، فكانَ يَرتَمِضُ لذلك.

وإنِّي لأعلم من عَلِقَ بهوىً له، وكانَ في حالِ شَظَفٍ، وكانت له في الأرض مذاهبُ واسعةٌ، ومناديحُ رَحْبةٌ، ووجوهُ مُتَصَرَّفٍ كثيرةٌ، فهانَ عليه ذلكَ، وءاثرَ الإقامةَ مع مَنْ يُحِبُّ. وفي ذلك أقول شعراً منه: [من الكامل]

---

(١) استولى أبو الجيش مجاهد العامري على دانية والجزائر من سنة ٤٠٠ ـ ٤٣٦؛ انظر أخباره في «البيان المغرب» ٣:١٥٥ و«تاريخ ابن خلدون» ٤:١٦٤ و«أعمال الأعلام»: ٢٥٠ و«المغرب» ٢:٤٠١ وللمستشرقة الإيطالية كليليا سارنللي دراسة عنه (القاهرة: ١٩٦١)، (والجزائر هي ميورقة ومنرقة ويابسة) (ع).

(٢) كان خيران أيضاً من موالي العامريين الذين استقلُّوا لدى انهيار الدولة الأموية، وكان مركزه المرية، إلا أنه قام بدعوة المرتضى الأموي، ثم تخلَّص منه، وتوفي سنة ٤١٨ (أو ٤١٩)، انظر: «أعمال الأعلام»: ٢٤٢ و«البيان المغرب»، و«الذخيرة» (القسم الأول) و«المغرب» ٢:١٩٣؛ هذا وقد تمّت المنابذة بين خيران ومجاهد العامريين سنة ٤١٧ (ع).

(٣) خ: سكناً، وأثبتها بتروف: سكنٌ.

لَـكَ فـي الـبـلاد مَـنـادِحٌ مَـعْـلُـومَـةٌ   والـسَّـيْـفُ غُـفْـلٌ أو يَـبـيـنَ قِـرابُـهُ

- ثم بَينُ رَحيلٍ وتباعدِ ديارٍ، ولا يكونُ من الأوبة فيه على يقينِ خَبرٍ، ولا يَحدُث تلاقٍ، وهو الخَطْبُ المُوجعُ، والهَمُّ المُفْظِعُ، والحَادث الأشْنَعُ، والدَّاءُ الدَّويُّ. وأكثرُ ما يكونُ الهلعُ فيه إذا كان النَّائي هو المحبوبُ، وهو الذي قالتْ فيه الشعراءُ كثيراً. وفي ذلك أقول قصيدةً منها[1]: [من الطويل]

وبي[2] عِلَّةٌ أعيا الطَّبِيبَ عِلاجُها   سَتُورِدُني لا شَكَّ مَنْهلَ مَضْرَعي

رضيتُ بأنْ أُضحِي قتيلَ ودادِهِ   كجارع سُمٍّ في رَحيقٍ مُشَعْشَع

فما للَّيالي ما أقَلَّ حَياءَها   وأوْلَعها بالنَّفسِ من كلِّ مُولع

كأنَّ زَمَاني عَبْشَميٌّ[3] يَخالُني   أعنتُ على عُثمانَ أهلَ التَّشَيُّع

وأقولُ - من قصيدةٍ -: [من الطويل]

أظنُّك تِمْثالَ الجِنانِ أبَاحَهُ   لِمُجْتَهِدِ النُّسَّاكِ مِنْ أوليائِهِ

وأقولُ - من قصيدةٍ -: [من الطويل]

لأبْرُدَ باللُّقْيا غَليلاً مِنَ الهوىٰ   تَوَقَّد[4] نِيرانِ الغَضا هَيمانُهُ

---

(١) أغلب الأشعار التالية لا تنطبق على مفهوم الفقرة السابقة، وهو بين الرحيل وتباعد الديار ولا نظن ابن حزم يستغلُّ هنا قلة تدقيق القارىء فيورد شعراً كيفما اتفق، وإنما هذا في الأرجح عمل الناسخ إذ يحذف الأبيات اختصاراً (ع).

(٢) خ: وذي.

(٣) العَبْشَميُّ: منسوب إلىٰ: عبد شمس بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مُرَّة؛ بطن من قريش منهم بنو أميَّة وغيرهم. فهذه النِّسبة منحوتة من كلمتي (عبد) و(شمس).

(٤) خ: توقَّع.

وأقول شعراً منه: [من الطويل]

خَفِيتُ عن الأبصار والوَجْدُ ظاهِرٌ فَأَعْجِبْ بأَغْراضٍ تبينُ ولا شَخْصُ
غَدا الفلكُ الدَّوار حَلْقةَ خاتمٍ مُحيطٍ بما فيه وأنتَ لَهُ فَصُّ

وأقول ـ من قصيدة ـ: [من الطويل]

غَنِيتَ عن التَّشْبِيه حُسْناً وبَهْجَةً كما غَنِيَتْ شمسُ السَّماءِ عن الحَلْيِ
عجبتُ لنفسي بعده كيفَ لم تمُتْ وهِجْرانُه دَفني وفقدانه نَعْيي
وللجَسدِ الغَضِّ المُنعَّم كيفَ لم تُذِبْهُ يدٌ خشناءُ [تَقْوىٰ علىٰ البَرِي][1]

وإنَّ للأوبة من البَيْنِ الذي تُشْفِقُ منه النَّفْسُ لطولِ مسافته، وتكاد تيأسُ من العودة فيه؛ لرَوْعَةً تبلغُ ما لا حدَّ وراءه، وربَّما قتلتْ. وفي ذلك أقول: [من الخفيف]

للتَّلاقي بعد الفراقِ سُرورٌ كسُرورِ المُفيق حانتْ وفاتُهْ
فرحَةٌ تُبهجُ النُّفوسَ وتُحْيِي مَن دنا منه بالفراقِ مَمَاتُه
رُبَّما قد تكونُ داهيةَ المو تِ وتُودي بأهله هَجَمَاتُه
كم رأينا مَنْ عَبَّ في الماءِ عَطشا نَ فزارَ الحمامَ وهو حياتُه

وإنِّي لأعلمُ مِن نأتْ دارُ محبوبه زمناً ثم تيسَّرَتْ له أوبةٌ، فلم يكن إلا بقدْرِ التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية، فكاد أن يهلك؛ وفي ذلك أقول: [من الطويل]

أطلتَ زمانَ البعد حتى إذا انقضى زمانُ النَّوىٰ بالقُرْبِ عُدتَ إلىٰ البعدِ

(١) بياض في الأصل، والاقتراح من (ع).

فلم يكُ إلا كرَّةَ الطَّرفِ قُربُكُمْ وعاودكم بَعْدِي وعاودني وَجْدي
كذا حائرٌ في اللَّيل ضاقَتْ وجوهُه رأىٰ البرقَ في داجٍ مِنَ اللَّيل مُسْوَدِّ
فأَخْلَفَهُ منه رجاءُ دوامِهِ وبعضُ الأراجي لا تفيدُ ولا تجدي

وفي الأوبة بعد الفِراق أقول قطعةً منها: [من الطويل]

لقد قرَّتِ العينانِ بالقُرْبِ منكُمُ كما سَخِنَتْ أيامَ يَطْويكمُ البُعْدُ
فللّه فيما قد مضىٰ الصَّبْرُ والرِّضىٰ ولله فيما قد قضىٰ الشُّكْرُ والحَمْدُ

خَبَرٌ:

ولقد نُعيَ إليَّ بعضُ من كنتُ أحبُّ من بلدةٍ نازِحَةٍ، فقمتُ فارًّا بنَفْسِي نَحْوَ المقابر، وجعلتُ أمشي بينها، وأقول: [من الوافر]

وَدِدْتُ بأنَّ ظَهْرَ الأرضِ بَطْنٌ وأنَّ البَطْنَ منها صَارَ ظَهْرا
وأنِّي مُتُّ قَبْلَ ورُودِ خَطْبٍ أتىٰ فأثارَ في الأكبادِ جَمْرا
وأنَّ دمي لِمَنْ [قد] بانَ غسْلٌ وأنَّ ضُلوعَ صَدْري كنَّ قَبْرا

ثم اتَّصَلَ بعدَ حينٍ تكذيبُ ذلك الخبرِ، فقلت: [من السريع]

بُشرىٰ أتتْ واليأسُ مُسْتَحْكِمٌ والقلبُ في سَبْعِ طِباقٍ شِدادْ
كَسَتْ فؤادي خُضْرةً بَعْدَما كانَ فؤادي لابساً للحِداد
جَلَّى سَوادَ الغَمِّ عنِّي كما يُجَلَّىٰ بلونِ الشَّمْسِ لونُ السَّواد
هذا وما ءامُلُ وَصْلاً سوىٰ صِدْقَ وفاءٍ بقَديمِ الوداد
فالمُزنُ قَدْ يُطْلَبُ لا لِلْحَيا لكنْ لظلٍّ باردٍ ذي امتِداد

ويقع في هذين الصِّنْفَيْنِ من البينِ الوداعُ، أعني رحيلَ المُحِبِّ أو رحيلَ المحبوب. وإنَّه لمِنَ المناظر الهائلة، والمواقف الصَّعْبة التي تُفْتَضَحُ

فيها عزيمةُ كلِّ ماضي العزائم، وتذهبُ قوةُ كلِّ ذي بَصِيرةٍ، وتُسْكَبُ كلُّ عين جَمُودٍ، ويظهرُ مكنونُ الجَوىٰ، وهو فصلٌ من فصول البَين يجبُ التَّكلُّم فيه، كالعتاب في باب الهَجْر.

ولعمري! لو أنَّ ظرِيفاً يموتُ في ساعةِ الوداع لكانَ معذوراً إذا تفكَّر فيما يحلُّ به بعد ساعةٍ من انقطاع الآمال، وحلول الأوجال، وتبدُّلِ السُّرور بالحُزْن. وإنَّها ساعةٌ تُرِقُّ القلوبَ القاسيةَ، وَتُلينُ الأفئدةَ الغِلاظَ، وإنَّ حركةَ الرأس، وإدمانَ النَّظَر، والزَّفْرةَ بعد الوداع لهاتكةٌ حجابَ القلب، ومُوصلةٌ إليه من الجَزَعِ بمقدار ما تفعل حركةُ الوجه في ضدِّ هذا، والإِشارةُ بالعَيْنِ، والتبسُّمُ في مواطن المُوافَقَة.

والوداعُ ينقسم قسمين:

أحدهما: لا يتمكَّنُ فيه إلا بالنَّظَر والإِشارة.

والثَّاني: يتمكَّن فيه بالعناق والملازمة، وربَّما لعله كانَ لا يُمْكِنُ قبلَ ذلك البتَّةَ مع تجاورِ المحالِّ، وإمكانِ التَّلاقي. ولهذا تمنَّىٰ بعضُ الشُّعراء البينَ، ومَدَحوُا يومَ النَّوىٰ، وما ذاك بحَسَنٍ ولا بصوابٍ، ولا بالأصيلِ من الرأي، فما يفي سرورُ ساعةٍ بحُزْنِ ساعاتٍ، فكيفَ إذا كان البينُ أياماً وشهوراً، وربَّما أعواماً؟! وهذا سوءٌ من النَّظَر، ومِعْوَجٌّ من القياس، وإنَّما أثنيتُ على النَّوىٰ في شعري تمنِّياً لرجوع يومها، فيكونَ في كلِّ يومٍ لقاءٌ ووداع، علىٰ أن تُحْتَمَلَ مَضَضُ هذا الاسم الكَريه، وذلك عندما يَمْضي من الأيام التي لا التقاءَ فيها، فحينئذٍ يرغبُ المُحِبُّ من يوم الفراق لو أمكنه في كلِّ يومٍ.

وفي الصِّنْفِ الأوَّل من الوداع أقول شعراً منه: [من البسيط]

تنوبُ عن بَهْجَةِ الأنوارِ بَهْجَتُهُ كما تَنُوبُ عن النِّيرانِ أنفَاسِي

وفي الصِّنْفِ الثَّاني من الوداع أقولُ شعراً منه: [من البسيط]

وَجْهٌ تخِرُّ لَهُ الأنوارُ سَاجِدَةً والوَجْهُ تَمَّ فلَمْ يَنقُصْ ولم يَزِد

دِفءٌ وشَمْسُ الضُّحىٰ بالجَدِي نازِلةٌ وبارِدٌ ناعِمٌ والشَّمْسُ في الأَسَدِ

ومنه:

يومُ الفِراق ـ لَعَمْرِي! ـ لَسْتُ أكرَهُهُ
أصلاً وإن شَتَّ شَمْلَ الرُّوحِ عن جَسَدِي

فَفِيه عانَقْتُ من أهوىٰ بلا جَزَعٍ
وكانَ مِنْ قَبْلِهِ إن سِيلَ لم يَجُدِ

أليسَ مِنْ عَجَبٍ [دَمْعِي] وعَبرتُها
يومُ الوصال ليومِ البَيْنِ ذو حَسَدِ

وهل هَجَسَ في الأفكار، أو قامَ في الظُّنونِ أشنعُ وأوجعُ من هَجْرِ عِتابٍ وقع بين مُحِبَّيْنِ، ثُمَّ فَجَأَتْهُمَا النَّوىٰ قبل حلول الصُّلح، وانحلال عُقْدَةِ الهِجْران، فقاما إلىٰ الوداع، وقد نُسِيَ العِتاب، وجاءَ ما طَمَّ عن القُوىٰ، وأطار الكرىٰ، وفيه أقول شعراً منه: [من الطويل]

وقد سَقَطَ العَتْبُ المُقدَّم وامَّحىٰ وجاءَتْ جُيُوشُ البَيْنِ تَجْري وتُسْرِعُ

وقد ذَعَرَ البينُ الصُّدودَ فراعَهُ فولَّىٰ فما يُدْرَى له اليومَ مَوْضِعُ

كذئبٍ خلا بالصَّيْدِ حتَّىٰ أَضَلَّهُ[1] هِزَبْرٌ له من جانب الغَيْلِ مَطْلع

لئن سَرَّني في طَرْده الهَجر إنَّني لإبعاده عنّي الحبيبَ لَمُوجَع

---

(١) جعلها (ع): أَظَلَّهُ.

ولا بُدَّ عند الموت من بعض راحةٍ وفي غبِّها الموتُ الوحيُّ المصرّعُ

وأعرفُ مَنْ أتىٰ ليودِّعَ محبوبه يومَ الفِراق فوَجَدَه قد فاتَ، فوقف علىٰ ءاثاره ساعةً، وتردَّد في الموضع الذي كانَ فيه، ثُمَّ انصرف كئيباً متغيِّرَ اللونِ كاسِفَ البال، فما كانَ بعد أيامٍ قلائلَ حتَّىٰ اعتلَّ وماتَ ـ رحمه الله ـ.

وإنَّ للبَيْنِ في إظهار السَّرائر المَطْويَّةِ عَمَلاً عَجِيباً: ولقد رأيتُ من كان حبُّه مكتوماً، وبما يجدُ فيه مستتراً حتَّىٰ وقع حادثُ الفراقِ، فباح المكنونُ، وظَهَرَ الخَفِيُّ. وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من المتقارب]

بَذَلْتَ من الوُدِّ ما كنتَ قَبْلُ مَنَعْتَ وأعْطَيْتِنِيهِ جُزَافا
وما لي بِهِ حَاجَةٌ عند ذاكَ ولو جُدْتَ قَبْلُ بَلَغْتَ الشِّغافا
وما ينفعُ الطِّبُّ عند الحِمامِ وينفعُ قبلَ الرَّدىٰ مَنْ تلافىٰ

وأقول: [من الكامل]

الآن إذْ حلَّ الفراقُ جُدْتَ لي بخَفيِّ حبٍّ كنتَ تبدي بُخلَهُ
قد زِدْتَني[1] في حَسْرَتي أضْعافَها وَيْحي فهَلَّا كانَ هذا قبلَهُ

ولقد أذكرني هذا أنِّي خطبتُ في بعض الأزمانَ مَوَدَّةَ رجلٍ من وزراء السُّلطان أيامَ جاهه؛ فأظهرَ بعض الامْتِسَاكِ، فتركته حتَّىٰ ذهبتْ أيَّامه، وانقضتْ دولته، فأبدىٰ لي من المودَّةِ والأُخُوَّةِ غيرَ قليلٍ، فقلتُ: [من الطويل]

بذلْتَ ليَ الإعراضَ والدَّهرُ مُقبلٌ وتَبذُلُ لي الإقبالَ والدَّهرُ مُعْرِضُ

---

(١) خ: فزدتني. وما أثبته فقراءة (ع).

وتَبْسُطُني إذ لَيْسَ يَنْفَعُ بَسْطُكُمْ   فهلاَّ أَبَحْتَ البَسْطَ إذ كُنْتَ تَقْبِضُ

- ثُمَّ بينُ الموتِ وهو الفَوْتُ، وهو الذي لا يُرجىٰ له إيابٌ، وهو المصيبة الحالَّةُ، وهو قاصمةُ الظَّهْرِ، وداهيةُ الدَّهْرِ، وهو الوَيْلُ، وهو المُغَطِّي علىٰ ظُلْمةِ اللَّيل، وهو قاطعُ كلِّ رجاءٍ، وماحي كلِّ طَمَعٍ، والمُؤيِسُ من اللِّقاءِ. وهنا حارَتِ الألْسِنُ، وانجذَمَ حَبْلُ العلاج، فلا حيلةَ إلاَّ الصَّبْرُ؛ طَوْعاً أو كرهاً. وهو أجلُّ ما يبتلى به المحبُّون، فما لمن دُهِيَ به إلا النَّوحُ والبكاء إلىٰ أن يتلفَ أو يملَّ؛ فهو القَرْحَةُ التي تُنْكأ[1]، والوَجَعُ الذي لا يَفْنىٰ، وهو الغَمُّ الذي يتجدَّد علىٰ قدر بلاءٍ من اغْتَمَدْتَهُ في الثَّرىٰ. وفيه أقول: [مشطور المديد]

كُلُّ بَيْنٍ واقِعٍ   فَمُرَجَّىٰ لم يَفُتْ
لا تَعَجَّلْ قَنَطاً   لم يَفُتْ مَن لم يَمُتْ
والذي قد ماتَ فالْـ   ـيأسُ عَنْهُ قَدْ ثَبُتْ

وقد رأينا مَنْ عَرَضَ له هذا كثيراً.

وعنِّي أخبركَ أنِّي أَحَدُ من دُهِيَ بهذه الفادِحَةِ، وَتُعُجِّلَتْ له هذه المصيبة، وذلكَ أنِّي كنتُ أشدَّ النَّاس كَلَفاً، وأعظمهم حُبّاً بجاريةٍ لي، كانتْ فيما خلا اسمها: نُعْم. وكانتْ أمنيةَ المتمنِّي، وغايَة الحُسْنِ؛ خَلْقاً وخُلُقاً، وموافقةً لي، وكنتُ أبا عُذْرِهَا، وكنَّا قد تكافأنا المودَّة، ففجعتني بها الأقدارُ، واخترمتها الليالي ومرُّ النَّهار، وصارت ثالثة التُّراب والأحجار، وسنِّي حين وفاتها دونَ العشرين سنةً، وكانت هي دوني في السِّنِّ، فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرَّدُ عن ثيابي؛ ولا تفترُ لي دمعةٌ على جُمود

(١) نكأَ القرحة ينكؤُها: إذا قرفها وقشرها قبل أن تبرأ؛ فنَدِيَتْ.

عيني وقلّة إسعادها؛ وعلىٰ ذلكَ ـ فوالله! ـ ما سلوتُ حتّىٰ الآن، ولو قُبِلَ فداءٌ لفديتها بكلِّ ما أملك من تالدٍ وطارفٍ، وببعض أعضاءِ جسمي العزيزة عليَّ مسارعاً طائعاً، وما طابَ لي عيشٌ بعدها، ولا أُنسيتُ ذكرها، ولا أنسْتُ بسواها، ولقد عَفَّىٰ حُبّي لها علىٰ كلِّ ما قبله، وَحَرَّمَ ما كانَ بعده.

ومِمَّا قلتُ فيها: [من الطويل]

مهَذبةٌ بيضاءُ كالشَّمْسِ إن بَدَتْ ... وسائرُ رَبَّاتِ الحِجَالِ نُجومُ
أطارَ هواهَا القلبَ عن مُسْتَقَرِّه ... فبَعْدَ وُقوُعٍ ظَلَّ وهو يَحُوم

ومن مراثيَّ فيها قصيدةٌ منها: [من الطويل]

كأنّيَ لم ءانسْ بألفاظِكَ التي ... علىٰ عُقَدِ الألبابِ هُنَّ نوافثُ
ولم أتحكَّمْ في الأماني كأنَّني ... لإفراطِ ما حُكِّمْتُ فيهنَّ عابثُ

ومنها:

ويُبدينَ إعراضاً وهنَّ أوالفٌ ... وَيُقْسِمْنَ في هَجري وهنَّ حوانثُ

وأقولُ ـ أيضاً ـ في قصيدةٍ، أخاطبُ فيها ابنَ عمي أبا المُغيرة عبدَ الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن حَزم بن غالب[1]، وأقرِّضه فأقول: [من الطويل]

قِفا فاسْألاَ الأطلالَ أينَ قَطِينُها ... أمرَّتْ عليها بالبلىٰ الملَوَانِ
علىٰ دارساتٍ مُقْفِراتٍ عَواطِلٍ ... كأنَّ المغاني في الخفاء مَعاني

(١) عبدالوهاب أبو المغيرة: كان في عصره من المقدَّمين في الآداب والشعر والبلاغة، وكان شعره كثيراً مجموعاً، توفي في طليطلة (٤٣٨) وجرى بينه وبين ابن عمه أبي محمد الفقيه تنابذ سجلاه في رسائل عنيفة (انظر الجذوة: ٢٧٣ والبغية رقم: ١١١٠ والصلة: ٣٦١ والمغرب ١:٣٥٧ والذخيرة ١/١: ١٣٢ ـ ١٦٦) (ع).

واختلف الناسُ في أيّ الأمرين أشدُّ: البينُ أم الهَجْرُ؟ وكلاهما مُرتقىً صعبٌ، وموتٌ أحمرُ، وبَليّةٌ سوداء، وَسَنَةٌ شهباء، وكلٌّ يستبشع من هٰذين ما ضادَّ طبعَهُ:

فأمّا ذو النَّفْسِ الأبيَّةِ الأنُوفِ، الحنَّانةِ الألوف[1]، الثَّابتةِ على العهد؛ فلا شيءَ يَعْدِلُ عنده مُصيبة البَين، لأنّه أتيَ قصداً، وتعمَّدته النَّوائبُ عَمْداً، فلا يجدُ شيئاً يُسَلّي نفسه؛ ولا يصرِّفُ فكرتَه في معنىً من المعاني إلاّ وجد باعثاً علىٰ صَبابته، ومُحَرِّكاً لأشجانه، وعلةً لألمه[2]، وحجةً لوَجْدِه، وحاضّاً على البكاء على إلْفه. وأمّا الهَجْرُ فهو داعيةُ السُّلُوِّ، ورائدُ الإقلاع.

وأمّا ذو النَّفْسِ التَّوَّاقةِ الكثيرةِ النُّزُوع والتَّطلع، القَلُوقُ العزوفُ؛ فالهجرُ داؤُهُ، وجالبُ حَتْفِهِ، والبينُ له مَسلاةٌ وَمَنْسَاةٌ.

وأمّا أنا فالموتُ عِنْدي أسهلُ من الفراق، وما الهجرُ إلا جالبٌ للكَمَدِ فقط، ويوشكُ إن دامَ أن يُحدِثَ إيغاراً[3]، وفي ذلك أقول: [من المتقارب]

وقـالـوا ارْتَـحِـلْ فـلَـعَـلَّ الـسُّـلـوَّ ... يـكـونُ وتَـرْغَـبُ أنْ تَـرْغَـبَـهْ

فـقـلـتُ الـرَّدىٰ لـيَ قـبـلَ الـسُّـلـوِّ ... ومَـن يَـشـربُ الـسُّـمَّ عـن تَـجْـرُبَـه؟!

وأقولُ: [من المضارع]

سَبَـىٰ مُـهْـجَـتِـي هَـواهُ ... وأودتْ بـهـا نَـواه

كـأنَّ الـغَـرامَ ضَـيْـفٌ ... ورُوحـي غَـدا قِـراه

---

(١) في الأصل: الأبيةَ الألوف، الحنانةَ الأنوف. والتَّصحيح عن (ع).

(٢) هذه قراءة (ع)، وهي قراءة جيدة. وفي الأصل تقرأ: وعليه لا له.

(٣) خ: إيضَاراً.

ولقد رأيتُ مَنْ يَسْتَعْمِلُ[1] هَجْرَ محبوبه، ويتعمَّدُهُ؛ خوفاً من مرارة يوم البَين وما يحدثُ به من لَوْعةِ الأسفِ عند التَّفرق. وهذا ـ وإن لم يَكنْ عندي من المذاهب المَرْضِيَّة ـ فهو حُجَّةٌ قاطعة علىٰ أنَّ البين أصعبُ من الهجر، وكيف لا وفي النَّاس من يلوذُ بالهجر خوفاً من البين! ولم أجد أحداً في الدُّنيا يلوذُ بالبين خوفاً من الهَجْر، إنَّما يأخذ النَّاس أبداً الأسهلَ ويتكلّفون الأهْوَنَ.

وإنَّما قلنا: إنَّه ليس من المذاهب المحمودة؛ لأنَّ أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله، وتجرَّعوا غُصَّةَ الصَّبْر قبل وقتها، ولعلَّ ما تخوَّفوه لا[2] يكون، وليس[3] من تعجَّلَ المكروهَ ـ وهو على غير يقينٍ مِمَّا له يتعجَّلُ ـ بحكيمٍ، وفيه أقول شعراً منه: [من الخفيف]

لـيـسَ مـن جـانـبَ الأحـبَّـةَ مـنَّـا | لـبِـسَ الـصَّـبُّ لـلـصَّـبـابـة بـيْـنـا
خــوفَ فَــقْــرٍ وفَــقْــرُهُ قــد أبـنَّــا | كَــغـنـيٍّ يَـعِـيـشُ عَـيْـشَ فَـقِـيـرِ

وأذكر لابن عمِّي أبي المغيرة في هذا المعنىٰ ـ من أنَّ البين أصعبُ من الصَّدِّ ـ أبياتاً من قصيدةٍ خاطبني بها وهو ابنُ سبعةَ عشر عاماً أو نحوها، وهي: [من الكامل المجزوء]

أَجَــزِعْــتَ أنْ أَزِفَ الــرَّحــيــلُ | ووَلَــهْــتَ أنْ نُــصَّ الــذَّمِــيــلُ
كــلَّا؛ مُــصَــابُــكَ فــادحٌ | وأجَــلْ؛ فــراقُــهُــم جَــلِــيــل
كــذَبَ الألــىٰ زَعَــمُــوا بــأنَّ | الــصَّــدَّ مــرتــعُــه وَبــيِــل
لــم يَــعْــرفــوا كُــنْــهَ الــغَــلــيـ | ـل وقــد تــحــمَّــلــتِ الــحُــمــول

(١) جعلها (ع): يستعجل. وهذه قراءة وجيهة.
(٢) خ: ألَّا.
(٣) خ: ولعل.

أمَّـا الـفِـراقُ فـإنَّـه   لـلـمـوتِ إنْ أهـوَىٰ دلـيـل

ولي في هذا المعنىٰ قصيدةٌ مطوَّلةٌ أولها: [من الكامل]

لا مِثْلَ يومِك ضَحْوةَ التَّنْعيم   في منظَرٍ حسنٍ وفي تنْعيمِ[1]

قد كانَ ذاكَ اليومُ ندرةَ عاقِرٍ   وصوابَ خاطئةٍ ووُلْد عقيم

أيَّامَ بَرْقُ الوَصْلِ ليسَ بخُلَّبٍ   عندي ولا رَوْضُ الهوىٰ بهَشِيم

مِن كلِّ غانِيةٍ تقولُ ثُديُّها   سيري أمامَك والإزارُ أقيمي

كُلٌّ يُجاذِبُها فَحُمْرةُ خَدِّهَا   خَجلٌ مِنَ التَّأخِيرِ والتَّقْدِيمِ

ما بي سوىٰ تلك العيونِ وليسَ في   بُرْئي سواها في الورىٰ بزعيم

مِثْلَ الأفاعي ليسَ في شيءٍ سوىٰ   أجسادُها إبراءُ لَدْغِ سليم

والبينُ أبكىٰ الشُّعراءَ علىٰ المعاهد فأدرُّوا علىٰ الرُّسومِ الدُّموعَ، وسَقَوا الدِّيارَ ماءَ الشَّوْقِ، وتذكَّروا ما قد سَلَفَ لهم فيها فَأعولوا وانْتَحَبُوا، وأحيتِ الآثارُ دفينَ شوقهم فناحوا وبكوا.

ولقد أخبرني[2] بعضُ الوُرَّاد من قرطبة ـ وقد استخبرته عنها ـ أنَّه رأىٰ دورَنا ببلاطِ مُغيثٍ في الجانب الغربيِّ منها وقد امَّحَتْ رسومها، وطُمِسَتْ أعلامها، وخُفِيَتْ معاهدها، وغيَّرها البلىٰ، وصارت صحاريَ مُجْدِبَةً بعدَ العِمْران، وفيافيَ مُوحِشةً بعد الأُنْسِ، وخرائبَ مُنْقَطِعَةً بعد الحُسْنِ، وشعاباً مُفْزِعَةً بعد الأَمْنِ، ومأوىً للذِّئاب، ومعازِف للغِيلان، وملاعِبَ للجانِّ،

(١) التنعيم الأولىٰ: اسم مكان، والثانية: بمعنىٰ النعمة.

(٢) أورد لسان الدين ابن الخطيب بكاء ابن حزم لقرطبة نثراً وشعراً في: «أعمال الأعلام»: ١٠٦ ـ ١٠٨ ولما كانت المقارنة بين النصين تدل على اختلافات وفوارق كثيرة؛ فإني سأثبت النص الوارد عند لسان الدين ملحقاً في ءاخر الرسالة (انظر الملحق: ١ ومجلة الأندلس: ٣٦١ ـ ٣٦٣) (ع).

ومكامِنَ للوحوش؛ بعد رجالٍ كاللُّيوث، وخرائدَ كالدُّمىٰ، تفيضُ لديهم النِّعَم الفاشية، تبدَّدَ شَمْلُهُم فصاروا في البلاد أيادي سَبا، فكأنَّ تلك المحاريبَ المُنَمَّقَة، والمقاصِيرَ المُزَيَّنة، التي كانت تُشْرِقُ إشراقَ الشَّمْسِ، ويجلُو الهُمُومَ حُسْنُ منظرها ـ حينَ شمِلها الخرابُ، وعمَّها الهدْمُ ـ كأفواهِ السِّباع فاغرةً، تُؤْذِنُ بفناء الدُّنيا، وتُريك عواقبَ أهلها، وتُخبرك عمَّا يصيرُ إليه كلُّ من تراه قائماً فيها، وتُزْهِدُ في طلبها بعد أن طالما زَهَّدَتْ في تركها. وتذكرتُ أيامي بها، ولَذَّاتي فيها، وشهورَ صباي لديها، مع كواعبَ إلى مِثْلِهِنَّ صَبَا الحليم، وَمَثَّلْتُ لنفسي كَوْنَهُنَّ تحتَ الثَّرىٰ، وفي الآفاق[1] النَّائية، والنَّواحي البعيدة، وقد فرَّقَتْهُنَّ يدُ الجلاء، ومزَّقَتْهُنَّ أكفُّ النَّوىٰ، وخُيِّلَ إلىٰ بصري فناء تلك النَّصْبَةِ بعدما علمتُهُ من حُسْنها وغَضارتها والمراتِب المُحكمةِ التي نشأت فيما[2] لديها، وخلاءُ تلك الأفنيةِ بعد تضايقها بأهلها، وأوهمتُ[3] سمعي صوتَ الصَّدىٰ والهام عليها؛ بعد حركةِ تلك الجماعات التي رُبِّيت بينهم فيها، وكان ليلُها تَبَعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاءِ عُمَّارها؛ فعاد نهارُها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش؛ فأبكىٰ عينيَّ[4]، وأَوجعَ قلبي، وقرعَ صَفاةَ كبدي، وزاد في بلاءِ لُبِّي، فقلتُ شعراً منه[5]: [من الطويل]

(١) خ: الآثار. والتَّصحيح من «أعمال الأعلام».

(٢) قرأها برشيه: فيها. والعبارة في «أعمال الأعلام» مختلفة عمَّا هي هنا، إذ جاءت: والمرتبة الرفيعة التي رفلت في حللها ناشئاً فيها.

(٣) «الأعمال»: وأرعيت.

(٤) «أعمال الأعلام»: فأبكىٰ ذلك عينيَّ على جمودها. وهذا الاحتراس ضروري لما تقدَّم من وصف ابن حزم لنفسه بأنَّه جامد العين (ع).

(٥) لم يرد هنا إلا بيتٌ من عشرين بيتاً وردت في «أعمال الأعلام»، انظر الملحق.

لئـن كـانَ أظـمَـانا فَـقَـدْ طـالَـمَـا سَـقَـىٰ وإن سـاءَنـا فـيـهـا فـقـد طـالـمَـا سَـرَّا

والبيْنُ يولِّدُ الحنينَ، والاهتياجَ، والتَّذَكُّرَ؛ وفي ذلك أقول: [من البسيط]

ليتَ الغُرابَ يُعيدُ اليومَ لي فعسىٰ يَـبـيـنُ بـيـنـهُـمُ عـنِّـي فَـقَـدْ وَقَـفـا
أقـولُ والـلَّـيـلُ قـد أرخـىٰ أجِـلَّـتـه وقـد تـألَّـى بـألَّا يـنـقـضـي فَـوَفَـى
والنَّجْمُ قد حارَ في أُفْقِ السَّماءِ فما يَمْضِي ولا هُوَ للتَّغْوير[1] مُنْصَرِفا
تَـخَـالُـهُ مُـخْـطِـئـاً أو خـائـفـاً وَجِـلا أو راقـبـاً[2] مـوعـداً أو عـاشـقـاً دَنِـفـا

⁂ ⁂ ⁂

(١) خ: للتخيير. والتصحيح عن (مكي) و(ع).
(٢) خ: رائباً. والتصحيح عن (مكي) و(ع).





ولا بُدَّ للمُحِبِّ ـ إذا حُرِمَ الوصلَ ـ من القنوع بما يَجِدُ، وإنَّ في ذلك لمتعلَّلاً للنَّفسِ، وشُغْلاً للرَّجاء، وتجديداً للمُنىٰ، وبعضَ الرَّاحة. وهو مراتب علىٰ قدر الإصابة والتمكُّن:

ـ فأوَّلها: الزِّيارة، وإنَّها لأمَلٌ من الآمال، ومن سَرِيِّ ما يَسْنَحُ في الدَّهرِ، مع ما تُبْدي من الخَفَرِ والحياء؛ لما يَعْلَمُه كلُّ واحدٍ منهما ممَّا في نَفْسِ صاحبه. وهي على وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يَزُورَ المُحِبُّ محبوبه. وهذا الوجه واسعٌ.

والوجه الثاني: أنْ يزورَ المحبوبُ مُحبَّه، ولكن لا سبيلَ إلىٰ غير النَّظَرِ، والحديثِ الظَّاهر. وفي ذلكَ أقول: [من الطويل]

فإن تَنْأَ عنِّي بالوِصَالِ فإنَّني
سأرضىٰ بلَحْظِ العَيْنِ إن لم يكنْ وَصْلُ

فحسبيَ أنْ ألقاكَ في اليوم مَرَّةً
وما كنتُ أرضىٰ ضِعْفَ ذا مِنْكَ لي قَبْلُ

كذا هِمَّةُ الوالي تَكُونُ رَفِيعَةً
ويَرْضىٰ خَلاصَ النَّفْسِ إنْ وَقَعَ العَزْلُ

وأما رَجْعُ السَّلامِ، والمخاطبةُ؛ فأملٌ من الآمال، وإن كنتُ أنا أقول في قصيدةٍ لي: [من الطويل]

فـهـا أنـا ذا أُخـفـي وأقـنـعُ راضِـيـاً بـرَجْـعِ سَـلامٍ إنْ تـيـسَّـرَ فـي الـحِـيـنِ

فإنَّما هذا لمَنْ ينتقلُ من مَرتبةٍ إلىٰ ما هو أدنىٰ منها. وإنَّما تتفاضلُ المخلوقاتُ في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلىٰ ما هو فوقها أو دونها. وإنِّي لأعلم من كانَ يقولُ لمحبوبه: عِدْني واكْذِبْ! قُنوعاً بأن يُسلِّيَ نفسه في وَعْده، وإن كانَ غيرَ صادقٍ؛ فقلتُ في ذلك: [من الكامل]

إنْ كـانَ وَصْـلُـكَ لـيـسَ فـيـه مَـطْـمَـعٌ والـقُـرْبُ مـمـنـوعٌ فـعِـدْنـي واكْـذِبِ

فـعسىٰ الـتـعـلُّـلَ بـالـتـقـائـك مُـمْـسِـكٌ لـحـيـاةِ قَـلْـبٍ بـالـصُّـدودِ مُـعـذَّبِ

فـلـقـد يُـسـلِّـي الـمُـجْـدِبـيـنَ إذا رأوا فـي الأفـق يَـلـمـعُ ضَـوءَ بَـرْقٍ خُـلَّـبِ

وممَّا يدخلُ في هذا الباب شيءٌ رأيته ورءَاه غيري معي: أنَّ رجلاً من إخواني جَرحَهُ من كان يُحِبُّه بِمُدْيَةٍ، فلقد رأيته وهو يُقبِّلُ مكانَ الجُرْحِ، ويفدِّيه مرةً بعدَ مرةٍ. فقلتُ في ذلك: [من المتقارب]

يـقـولـونَ شـجَّـكَ مَـنْ هِـمْـتَ فـيـه فـقـلـتُ لَـعَـمْـريَ مَـا شـجَّـنـي

ولـكـنْ أحـسَّ دَمِـي قُـرْبَـه فـطـارَ إلـيـه ولَـمْ يَـنْـثَـنِ

فـيـا قـاتِـلـي ظـالِـمـاً مُـحْـسِـنـاً فـديـتُـك مِـن ظـالـمٍ مُـحْـسِـنِ

ـ ومن القُنوع أن يُسَرَّ الإنسانُ، ويَرضىٰ ببعض ءالاتِ محبوبه، وإنَّ له من النَّفس لموقعاً حسناً، وإن لم يكن فيه إلا ما نصَّ الله ـ تعالىٰ ـ علينا، من ارتدادِ يعقوبَ بصيراً حينَ شَمَّ قميصَ يوسف ـ عليهما السلام ـ؛ وفي ذلك أقول: [من السريع]

لـمَّـا مُـنـعـتُ الـقُـرْبَ مـن سَـيِّـدي وَلَـجَّ فـي هَـجْـري ولـم يُـنْـصِـفِ
صِـرْتُ بـإبْـصَـاريَ أثْـوابَـه أو بـعـضَ مـا قَـدْ مَـسَّـه أكْـتَـفـي
كَـذاك يـعـقـوبُ نَـبـيُّ الـهـدىٰ إذ شَـفَّـه الـحُـزْنُ عـلـىٰ يُـوسـفِ
شَـمَّ قَـمـيـصـاً جـاءَ مـن عـنـدِه وكـانَ مَـكْـفُـوفـاً فـمِـنْـهُ شُـفِـي

وما رأيتُ قطُّ متعاشِقَيْنِ إلا وهما يتهاديان خُصَلَ الشَّعْرِ مبخَّرةً بالعنبر، مرشوشةً بماء الورد، وقد جُمِعَتْ في أصلها بالمصطكيِّ، وبالشَّمع الأبيضِ المصفَّىٰ، ولُفَّتْ في تطاريفِ الوَشْيِ والخَزِّ وما أشبه ذلك، لتكونَ تذكرةً عند البين. وأمَّا تهادي المساويك بعدَ مضغها، والمصطكيِّ إثْرَ استعمالها؛ فكثيرٌ بين كلِّ متحابَّيْنِ قد حُظِرَ عليهما اللِّقاء. وفي ذلك أقول قطعة منها: [من الطويل]

أرىٰ ريـقَـهـا مـاءَ الـحَـيَـاة تَـيَـقُّـنـاً علىٰ أنَّها لم تُبقِ لي في الهوىٰ حَشَا

خَبَرٌ:

وأخبرني بعضُ إخواني عن سليمانَ بن أحمدَ الشَّاعر؛ أنَّه رأىٰ ابنَ سهلٍ الحاجبَ بجزيرة صِقِلِّيَة، وذكر أنَّه غايةٌ في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزَّهات ماشياً وامرأةٌ خلفه تَنظرُ إليه، فلمَّا أبعَدَ أتت إلىٰ المكان الذي قد أثَّر فيه مَشْيُه فجعلتْ تُقَبِّلُه، وتلثمُ الأرضَ التي فيها أثر رِجله. وفي ذلك أقول قطعةً أولها: [من الطويل]

يلومونَني في [لَثمِ] مَوْطىءِ خُفِّه[1] ولـو عَـلـمـوُا عـادَ الـذي لامَ يَـحْـسُـدُ
فـيـا أهـلَ أرضٍ لا يـجـودُ سَـحَـابُـهـا خُذوا بـوَصَـاتـي تَسْتَـقِـلُّوا وتُـحْـمَـدوا
خـذوا من تـرابٍ فـيـه مَـوْضِـعُ وَطْـئـه وأضـمـنُ أنَّ الـمَـحْـلَ عـنـكـم يُـبَـعَّـدُ

(١) خ: في موطىء خفه جفاً. والتَّصحيح عن (ع)؛ وهو تصحيح جيد.

فكلُّ ترابٍ واقعٍ فيه رِجْلُهُ   فذاك صَعِيدٌ طيِّب ليسَ يُجْحَدُ
كذلكَ فِعلُ السَّامريِّ وقد بَدا   لعَيْنَيْهِ من جِبريلَ إثْرٌ مُمَجَّدُ
فصَيَّر جوفَ العِجْلِ من ذلك الثَّرىٰ   فقامَ له منه خُوَارٌ مُمَدَّدُ

وأقول: [من الطويل]

لقد بُورِكَتْ أرضٌ بها أنتَ قاطِنٌ   وبوركَ من فيها وحَلَّ بها السَّعْدُ
فأحجارُها دُرٌّ وسَعْدانُهَا وَرْدُ   وأمواهُها شُهدٌ وتُربتُها نَدُّ

ـ ومن القنوع: الرِّضىٰ بمزَار الطَّيف، وتسليم الخَيال، وهذا إنَّما يَحْدُثُ عن ذكرٍ لا يفارق، وعهدٍ لا يَحُول، وفكرٍ لا يَنْقضي، فإذا نامتِ العيونُ، وهدأتِ الحركاتُ؛ سَرىٰ الطَّيف. وفي ذلك أقول: [من البسيط]

زارَ الخيالُ فتىً طالتْ صَبابتُهُ   على احتفاظٍ من الحُرَّاسِ والحَفَظَهْ
فبتُّ في ليلتي جَذْلانَ مُبْتَهِجاً   ولذَّةُ الطَّيْفِ تُنْسِي لذَّةَ اليَقَظَهْ

وأقول: [من الطويل]

أتى طيفُ نُعْمٍ مَضْجَعي بَعْدَ هَدْأَة   ولِلَّيْلِ سُلْطانٌ وظِلٌّ مُمَدَّدُ
وعهدي بها تحتَ التُّرابِ مُقِيمَةً   وجاءتْ كما قد كنتُ من قبلُ أعهد
فعُدْنا كما كنَّا وعادَ زمانُنا   كما قد عهِدنا قبلُ والعَوْدُ أَحْمَدُ

وللشُّعراء في عِلَّة مَزَارِ الطَّيفِ أقاويلُ بديعةٌ، بعيدةُ المرمىٰ، مخترعةٌ، كلٌّ سبَقَ إلىٰ معنىً من المعاني؛ فأبو إسحاق بن سَيَّار النَّظَّام ـ رأسُ المعتزلة ـ جعلَ علَّة مزارِ الطَّيْفِ؛ خوفَ الأرواح من الرَّقيبِ المُرَقَّب علىٰ بهاء[1]

---

(١) كذا في الأصل، وجعلها (ع): لقاء.

الأبدان. وأبو تمَّام حبيبُ بن أوس الطَّائيُّ جعل عِلَّته أنَّ نِكاحَ الطَّيفِ لا يُفسدُ الحبَّ، ونكاحَ الحقيقةِ يُفسِده[1]. والبُحْتِريُّ جعلَ علَّة إقبالِهِ استضاءَتَه بنارِ وَجْدِهِ، وعِلَّة زواله خوف الغرق في دموعه[2]. وأنا أقول من غير أنْ أمثِّل شعري بأشعارهم ـ فلهم فَضْلُ التَّقدم والسَّابقة، وإنَّما نحن لاقطُونَ وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم، وجَرْياً في ميدانهم، وتتبُّعَاً لطريقتهم التي نَهَجُوا وأوضحوا ـ أبياتاً بيَّنت فيها مزارَ الطَّيف؛ مقطَّعةً: [من الوافر]

أغارُ عليك من إدراكِ طَرْفي	وأُشْفِقُ أنْ يذِيبَكِ لَمْسُ كَفِّي
فأمتنعُ اللِّقاءَ حِذَارَ هذا	وأَعتمدُ التَّلاقي حِينَ أُغفي
فروحي إنْ أَنَمْ، بكَ ذو انفرادِ	من الأعضاءِ مُسْتَتِرٌ وَمَخْفي
ووَصْلُ الرُّوحِ أَلْطَفُ فيكَ وَقْعاً	من الجِسْمِ المُواصِل ألفَ ضِعْفِ

وحال المزور في المنام ينقسم أقساماً أربعة:

أحدها: مُحِبٌّ مهجورٌ قد تطاول غَمُّه، ثُمَّ رأىٰ في هَجْعَتِهِ أنَّ حبيبه وَصله؛ فَسُرَّ بذلك وابتهج، ثُمَّ استيقظ فأَسِفَ وتلهَّفَ، حيثُ علم أنَّ ما كانَ فيه أمانِيُّ النَّفْس وحديثها؛ وفي ذلك أقول: [من الخفيف]

(١) أظنه يشير إلى قول أبي تمام: (ديوانه ٢: ٦٩).

غدت مغتدى الغضبي وأَوْصَتْ خيالها	بحرَّان نضو العيس نضوِ الخرائد
وقالت نكاح الحب يفسدُ شكله	وكم نكحوا حباً وليس بفاسد

والمعنى الإجمالي أنها أوصت خيالها بزيارتي وتعهدي، وقالت: إن نكاح الحب يفسد شكله، ولكن نكاح (الطيف) لا يفسده (أو هذا ما فهمه ابن حزم من البيتين) (ع).

(٢) لقد حاولت أن أجد هذا المعنىٰ في «ديوان البحتري» فلم أُوفَّق؛ على كثرة ترداد النَّظر في الدِّيوان. (ع).

أنتَ في مَشْرِقِ النَّهار بَخِيلٌ	وإذا اللَّيْلُ جَنَّ كنتَ كَرِيما
تجعلُ الشَّمَسَ منك لي عِوَضاً هيـ	هاتِ ما ذا الفَعالُ مِنْكَ قَويما
زارني طيفُكَ البَعِيدُ فيأتي	واصِلاً لي وعائداً ونديما
غير أنّي منعتني من تمامِ الـ	عَيْشِ لكنْ أبحتَ لي التَّشْمِيما
فكأنّي من أهلِ الأعرافِ لا الفِرْ	دَوْسُ داري ولا أَخافُ الجحيما

والثَّاني: مُحِبٌّ مواصِلٌ مُشفِقٌ مِنْ تغيُّرٍ يَقَعُ، قد رأىٰ في وَسَنِهِ أنَّ حبيبه يَهْجُره؛ فاهتَمَّ لذلك هَمَّاً شديداً، ثم هبَّ من نومه فعلم أنَّ ذلك باطلٌ، وبعضُ وساوس الإِشفاق.

والثالثُ: مُحِبٌّ داني الدِّيار، يرىٰ أن التَّنائي قد فَدَحَهُ، فيَكْتَرِثُ، ويوْجَل، ثُمَّ ينتَبِهُ، فيذهبُ ما به ويعودُ فَرِحاً؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الطويل]

رأيتُك في نَوْمي كأنَّكَ رَاحِلٌ	وقمنا إلىٰ التَّوْدِيع والدَّمْعُ هَامِلُ
وزالَ الكرىٰ عنّي وأنتَ معانِقي	وغَمِّي إذا عايَنْتُ ذلكَ زَائِلُ
فجدَّدتُ تعنيقاً وضمَّاً كأنَّني	عليكَ من البَيْنِ المُفَرِّقِ واجِلُ[1]

والرابع: مُحِبٌّ نائي المزار، يرىٰ أنَّ المزار قد دنا، والمنازلَ قد تصاقَبَتْ، فيرتاح ويأنسُ إلىٰ فَقْدِ الأسىٰ، ثُمَّ يقوم من سِنَتِهِ فيرىٰ أنَّ ذلك غيرُ صحيحٍ، فيعودُ إلىٰ أشدِّ ما كانَ فيه من الغمِّ.

وقد جعلتُ في بعض قولي علَّةَ النَّوْمِ؛ الطَّمَعَ في طَيْفِ الخيال، فقلتُ: [من البسيط]

---

(١) خ: قابل.

طافَ الخَيالُ علىٰ مَسْتَهْتِرٍ كَلِفٍ لولا ارتِقابُ مزارِ الطَّيْفِ لم يَنَمِ
لا تَعْجَبُوا إذ سرىٰ واللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فنورُهُ مُذْهِبٌ[1] في الأرضِ للظُّلَمِ

ومن القنوع: أن يقنعَ المحبُّ بالنَّظَر إلىٰ الجدران، ورؤية الحِيطان التي تحتوي علىٰ من يُحِبُّ، وقد رأينا مَنْ هذه صِفَتُهُ. ولقد حدّثني أبو الوليد أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ إسحاقَ الخازنُ ـ رحمه الله ـ عن رجلٍ جليلٍ، أنَّه حدَّثَ عن نفسه بمثلِ هذا.

ومن القنوع: أنْ يرتاحَ المُحِبُّ إلىٰ أن يرىٰ مَن رأىٰ محبوبَهُ ويأنَس به أو من أتىٰ من بلاده، وهذا كثيرٌ؛ وفي ذلك أقول: [من الطويل]

توحَّشَ مِنْ سُكَّانِه فكأنَّهُمْ مَسَاكِنُ عادٍ أعْقَبَتْهُ ثَمُودُ

وممَّا يدخل في هذا الباب أبياتٌ لي، موجبها أنّي تنزهَّتُ ـ أنا وجماعةٌ من إخواني من أهل الأدب والشَّرَفِ ـ إلىٰ بستان لرجلٍ من أصحابنا، فجُلْنا ساعةً، ثم أفضىٰ بنا القعودُ إلىٰ مكان دونه يُتمنَّىٰ، فتمدَّدنا في رياضٍ أريضةٍ، وأرضٍ عَريضةٍ، للبصر فيها مُنْفَسَحٌ، وللنَّفْسِ لديها مَسْرَحٌ، بين جداولَ تطَّردُ كأباريقِ اللُّجين، وأطيارٍ تُغَرِّدُ بألحانٍ تُزري بما أبدعه معبدٌ والغريض[2]، وثمارٍ مُهدَّلةٍ قد ذُلِّلَتْ للأيدي، ودُلِّلَتْ للمتناول، وظلال مُظِلَّةٍ تلاحظنا الشَّمْسُ من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشِّطْرنج أو الثِّياب المُدَبَّجةِ، وماءٍ عَذب يوجدُكَ حقيقةَ طَعْمِ الحياة، وأنهارٍ متدفِّقةٍ تنسابُ كبطون الحيَّاتِ لها خريرٌ يقوم ويهدأ[3]، ونواويرَ مؤنَّقةٍ مختلفة

---

(١) خ: مرهب.
(٢) معبد، والغريض: من مشاهير المغنّين في العصر الأموي (انظر: الأغاني: ١/٤٧، ٢/٣١٨) (ع). وفي (خ): وابن الغريض.
(٣) ضبطت في (خ) هكذا: ويُهدَي.

الألوان تصفِّقها الرِّياحُ الطَّيبةُ النَّسيم، وهواءِ سَجْسَجٍ، وأخلاقِ جُلَّاسٍ تفوقُ كلَّ هذا، في يومٍ ربيعيٍّ ذي شَمْسٍ ذَلِيلَةٍ، تارةً يُغطِّيها الغيمُ الرَّقيقُ، والمُزْنُ اللَّطيف، وتارةً تتجلَّى فهي كالعذراء الخَفِرة، والخَريدةِ الخَجِلَةِ؛ تتراءىٰ لعاشقها من بين الأستار ثم تغيبُ فيها حَذرَ عينٍ مراقبةٍ، وكانَ بعضنا مُطْرِقاً كأنَّه يحادثُ أُخرىٰ[1]، وذلكَ لسِرٍّ كان له، فَعُرِّضَ لي بذلك، وتداعَبنا حيناً؛ فَكُلِّفْتُ أن أقولَ على لسانه شيئاً في ذلك، فقلتُ بديهةً ـ وما كتبوها إلا من تذكُّرها بعد انصرافنا ـ وهي: [من الطويل]

ولمَّا تروَّحْنا بأكنافِ رَوْضَةٍ ... مُهدَّلَةِ الأَفنانِ في تُرْبها النَّدي

وقد ضَحِكَتْ أنوارها وتضوَّعَتْ ... أساورُها[2] في ظِلِّ فيءٍ مُمَدَّدِ

وأَبدتْ لنا الأطيارُ حُسْنَ صريفها ... فمن بَيْنِ شاكٍ شَجْوهُ ومُغرِّدِ

وللماءِ فيما بيننا مُتصَرَّفٌ ... وللعينِ مُرتادٌ هناك ولليَدِ

وما شئتَ من أخلاقِ أروَعٍ ماجدٍ ... كريمِ السَّجايا للفَخارِ مُشيِّدِ

تَنَغَّصَ عندي كلُّ ما قد وَصَفْتُه ... ولم يَهْنِني إذْ غابَ عنِّيَ سيِّدي

فيا ليتني في السِّجْنِ وهو معانِقي ... وأنتم معاً في قَصْرِ دارِ المُجَدَّدِ[3]

فَمَنْ رامَ مِنَّا أن يبدِّلَ حالَه ... بحالِ أخيه أو بمُلْكٍ مُخلَّدِ

فلا عاش إلاَّ في شَقاءٍ ونكبةٍ ... ولا زالَ في بُؤسىٰ وخِزْيٍ مُردَّدِ

فقال هو ومَنْ حضر: ءَامين! ءَامين!

---

(١) لعلَّ الصَّواب: الثَّرىٰ.

(٢) أساورها: قال العلامة محمود شاكر: أرجِّح أنَّ الصَّواب: «تناويرها».

(٣) المجدَّد: هو أحد المباني الفخمة بقصر قرطبة الأكبر.
قال ابن بشكوال: ومن قصوره المشهورة، وبساتينه المعروفة: الكامل، والمجدَّد، وقصر الحائر، والرَّوضة، والزَّاهر، والمعشوق، والمبارك، والرَّشيق، وقصر السُّرور، والتَّاج، والبديع (نفح الطِّيب: ١/٤٦٤) (ع).

وهذه الوجوهُ التي عدَّدْتُ وأوردتُ في حقائق القَنَاعة [هي] الموجودةُ في أهل المودَّة؛ بلا تزيُّدٍ ولا إعْيَاءٍ.

وللشُّعراء فَنٌّ من القُنُوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم، وإبانةَ اقتدارهم على المعاني الغامضة، والمرامي البعيدة، وكلٌّ قالَ علىٰ قدرِ قُوَّة طبعه، إلا أنَّه تحكُّمٌ باللِّسان، وتشدُّقٌ في الكلام، واستطالةٌ بالبيان، وهو غير صحيحِ في الأصل؛ فمنهم من قَنَعَ بأنَّ السماءَ تُظلّه هو ومحبوبه والأرضَ تُقِلُّهُما، ومنهم من قَنَعَ باستوائهما في إحاطة اللَّيل والنَّهار بهما، ومن أشباه هذا[1]. وكلٌّ مبادرٌ إلىٰ احتواءِ الغاية في الاستقصاء، وإحراز قَصَبِ السَّبْق في التَّدْقيق، ولي في هذا المعنىٰ قولٌ لا يمكُنُ المُتَعَقِّبَ إلى أن يجدَ بعده مُتناولاً، ولا وراءه مكاناً، مع تَبييني علَّة قُرْبِ المسافة البعيدة، وهو: [من الطويل]

وقالوا بَعيدٌ قلتُ حَسْبي بأنَّه ... معي في زَمانٍ لا يُطيق مَحِيدا

(١) من أمثال هذه القناعة قول أحدهم:

ويقر عيني وهي نازحة ... ما لا يقر بعين ذي الحلم
أني أرى وأظن أن سترى ... وضح النهار وعالي النجم

وقول الآخر:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تداني
ترى وضح النهار كما أراه ... ويعلوها المساء كما علاني

وقول الثالث:

ألست أرى النجم الذي هو طالع ... عليها فهذا للمحبين نافع
عسى يلتقي في الأفق لحظي ولحظها ... فيجمعنا إذ ليس في الأرض جامع

ويعلّق ابن داود على مثل هذا بقوله: إنّه ناقص عن حد التمام (الزهرة ١٠٢، ١٠٣) وكأني بابن حزم قد قرأ هذه الجملة وتأملها، فما يحاول أن يأتي به في أبياته التالية إنما هو نوع من بلوغ الغاية أو حدّ التمام (ع).

تَمُرُّ عليَّ الشَّمسُ مثل مرورها ... به كلُّ يومٍ يَستَنِيرُ جديدا
فَمَن ليسَ بيني في المَسِير وبينه ... سوىٰ قَطْعِ يومٍ هل يكون بعيدا
وعِلمُ إله الخلق يَجمعُنا معاً ... كفىٰ ذا التَّداني ما أريدُ مزيدا

فبيَّنتُ ـ كما ترىٰ ـ أنّي قانعٌ بالاجتماع مع مَن أُحبُّ في علم الله الذي السمواتُ والأفلاك والعوالم ـ كلُّها ـ وجميعُ الموجوداتِ لا تَنْتَسِبُ[1] منه، ولا تَتَجَزَّؤُ فيه، ولا يشذُّ عنه شيءٌ. ثم اقتصرتُ من علم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ أنَّه في زمانٍ، وهذا أعمُّ مِمَّا قاله غيري في إحاطة اللَّيل والنَّهار، وإنْ كانَ الظَّاهر واحداً في البادىء إلىٰ السَّامع، لأنَّ كلَّ المخلوقاتِ واقعةٌ تحتَ الزَّمانِ، وإنَّما الزَّمانُ اسم موضوع[2] لمرور السَّاعات، وقَطع الفلك وحركاته وأجرامه، واللَّيل والنَّهار مُتَوَلِّدانِ عن طُلوع الشمس وغروبها، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلىٰ، وليسَ هكذا الزَّمان، فإنَّهما بعض الزَّمان ـ وإنْ كانَ لبعض الفلاسفة قولٌ: إنَّ الظِّلَّ مُتَمَادٍ. فهذا يُخَطِّئُهُ العيان، وعِلَلُ الردِّ عليه بيِّنة ليسَ هذا موضعها ـ ثم بينتُ أنَّه وإنْ كانَ في أقصىٰ المعمور من المشْرِقِ، وأنا في أقصىٰ المعمور من المغْرِبِ، وهذا طول السُّكنىٰ، فليسَ بيني وبينه إلا مسافةُ يومٍ؛ إذ الشَّمس تبدُو في أوَّل النَّهار في أوَّل المشارق، وتغربُ في ءاخر النَّهار في ءاخر المغارب.

ومن القُنُوع: فَضْلٌ أورده ـ وأستعيذُ بالله منه ومن أهله، وأحمَدُه على ما عَرَّفَ نفوسَنا من منافرته ـ وهو أنْ يضلَّ العقلُ جُملةً، وتَفْسُدَ القَريحةُ، ويتلفَ التَّمييزُ، ويهونَ الصَّعْبُ، وتَذهَبَ الغَيْرةُ، وتُعْدَمَ الأنفة؛ فيرضىٰ

(١) جعلها الصَّيرفي: وجميع الموجودات لا تنفصل منه، ولا تتجزأ فيه، ولا يشذ عنه منها شيء. وتابعه (مكي). وأثبتها (ع): وجميع الموجودات بسببٍ منه.
(٢) خ: موضع.

الإِنسانُ بالمشاركة فيمن يُحِبُّ، وقد عَرَضَ هذا لِقَوْمٍ، أعاذنا الله من البلاء. وهذا لا يَصِحُّ إلاَّ مع كَلْبِيَّةٍ في الطَّبْعِ، وسُقُوطٍ من العقل ـ الذي هو عِيارٌ علىٰ ما تَحتَهُ ـ وضَعْفِ حِسٍّ. ويؤيدُ هذا كلَّه حبٌّ شديدٌ مُغْمٍ. فإذا اجتمعتْ هذه الأشياءُ، وتلاقَحَتْ بمزاجِ الطبائع، ودُخول بعضها في بعضٍ؛ نتجَ بينهما هذا الطَّبْعُ الخَسِيسُ، وتولَّدَتْ هذه الصِّفة الرَّذِلَةُ، وقام منها هذا الفعل المقذُور القبيح. وأمَّا رجلٌ معه أقلُّ هِمَّةٍ، وأيسرُ مروءةٍ، فهذا منه أبعدُ من الثُّريَّا، ولو ماتَ وَجْداً، وتقطَّع حُبّاً. وفي ذلك أقول زارياً على بعض المُسامِحين في هذا الفَصْل: [من الطويل]

رأيتُكَ رَحْبَ الصَّدْر ترضىٰ بما أتىٰ ... وأفضلُ شيءٍ أنْ تَلينَ وتُسْمِحا
فحظُّك من بعض السَّواني مُفضَّلٌ ... على أن يَحوزَ الملكُ من أصْلِها الرَّحىٰ
وعُضْوٌ بعيرٍ فيه في الوَزْنِ ضِعْفُ ما ... تُقدِّره في الجَذْيِ فاغْصِ الذي لحا
ولُغْبُ الذي تهوى بسَيْفَيْنِ مُعْجِبٌ ... فكُنْ ناحياً في نَحْوِهِ كيفما نَحا

❋ ❋ ❋





٢٦ باب الضَّنىٰ

ولا بُدَّ لكلِّ محبٍّ؛ صادقِ المودَّةِ، ممنوعِ الوَصْل ـ إمَّا ببَيْنٍ، وإمَّا بهَجْرٍ، وإما بكتمانٍ واقعٍ لمعنىً ـ من أنْ يؤولَ إلى حدِّ السِّقام والضَّنىٰ والنُّحول، وربَّما أضجعه ذلك؛ وهذا الأمرُ كثيرٌ جدّاً، موجودٌ أبداً.

والأعراضُ الواقعة من المَحَبَّةِ غيرُ الأعراضِ(١) الواقعةِ من هَجَماتِ العِلَلِ، ويميِّزها الطبيبُ الحاذقُ، والمتفرِّسُ النَّاقد؛ وفي ذلكَ أقول: [من الوافر]

يقولُ ليَ الطبيبُ بغيرِ علمٍ ... تَداوَ فأنتَ يا هذا عَليلُ
ودائي ليسَ يَدريه سِوائي ... وربٌّ قادِرٌ مَلِكٌ جَليل
أأكتُمُه ويكشفُهُ شَهيقٌ ... يُلازِمُني وإطراقٌ طَويل
ووجهٌ شاهداتُ الحُزْنِ فيه ... وجِسْمٌ كالخيالِ ضَنٍ نَحِيل
وأثبتُ ما يكونُ الأمر يوماً ... بلا شكٍّ إذا صحَّ الدَّليل
فقلتُ له: أبِنْ عنِّي قليلاً ... فلا والله تَعْرِفُ ما تَقُول
فقالَ: أرىٰ نُحولاً زادَ جِدّاً ... وعلَّتُكَ التي تَشْكُو ذُبول
فقلتُ له: الذُّبولُ تُعَلُّ منه الـ ... ـجوارِحُ وهي حُمَّىٰ تَسْتَحِيلُ
وما أشكو ـ لعَمْرُو الله! ـ حُمَّى ... وإنَّ الحَرَّ في جسمي قليل

---

(١) خ: العلل. ويظهر أنَّه خطأ.

فَقالَ: أرىٰ التفاتاً وارتقاباً ... وأفكاراً وصَمْتاً لا يَزُول

وأحسَبُ أنَّها السَّوداءُ فانظُرْ ... لنفسكَ إنَّها عَرَضٌ ثَقِيل

فقلتُ له: كلامُكَ ذا مُحالٌ ... فما للدَّمْعِ من عَيْني يَسيِل

فأطرقَ باهتاً مِمَّا رءَاهُ ... ألا في مِثْلِ ذا بُهِتَ النَّبيل

فقلتُ له: دوائي منه دائي ... ألاَ في مثلِ ذا ضَلَّتْ عُقُول

وشاهِدُ ما أقولُ يُرَىٰ عَياناً ... فُروعُ النَّبْتِ إنْ عُكِسَتْ أُصول

وترياقُ الأفاعي ليسَ شيءٌ ... سواه بِبُرءِ ما لَدَغَتْ كفيل

وحدَّثني أبو بكرٍ محمَّدُ بن بقيٍّ الحجريُّ ـ وكانَ حكيمَ الطَّبْع، عاقلاً فهيماً ـ عن رجلٍ من شيوخنا ـ لا يمكنُ ذكره ـ أنَّه كانَ ببغدادَ في خانٍ من خاناتها، فرأىٰ ابنةً لوكيلةِ الخان فأحبَّها وتزوَّجها، فلمَّا خلا بها نظرتْ إليه ـ وكانتْ بِكراً ـ وهو قد تكشَّفَ لبعضِ حاجته، فراعها كِبَرُ أيره، ففرَّتْ إلىٰ أمها وتفادَتْ منه، فرام بها كُلُّ من حواليها أن تُرَدَّ إليه، فأبتْ وكادَتْ أن تموتَ. ففارقها ثُمَّ ندم، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه، واستعانَ بالأَبْهَريِّ[1] ـ وغيره ـ، فلم يقدر أحدٌ منهم على حِيلةٍ في أمره، فاختلط عقلُهُ، وأقام

---

(١) هذه النسبة «الأبهري» تنصرف إلى غير واحد من فقهاء المالكية، فإن كان المقصود الأبهري الكبير فهو أبو بكر محمد بن عبدالله بن صالح، الذي سكن بغداد وانتشر عنه مذهب مالك بالعراق وجمع بين القرءان وعلو الإسناد والفقه الجيد، وقصَده الطلبة من كل فج، فممَّن أخذ العلم عليه من الأندلسيين: أبو عبيد الحيوني والأصيلي (الذي بقي في بغداد ثلاث عشرة سنة) وأبو محمد القلعي وأبو القاسم الزهري، وكانت وفاة الأبهري سنة ٣٧٥ (ترتيب المدارك ٤ :٤٦٦) وذكر ابن بشكوال أن محمد بن يوسف بن أحمد التاجر كانت له رحلة إلى المشرق وأخذ عن الأبهري شرحيه لمختصر ابن عبد الحكم وعن هذا التاجر يحدِّث أبو بكر جماهر بن عبدالرحمٰن الحجري (الصلة: ٤٩٢) ولجماهر هذا ابن اسمه محمد توفي سنة ٤٢٤ (الصلة: ٤٨٨)، ومع ذلك تبقى كلمة «بقي» عقبة في سبيل القطع بشيء في هذا الصدد (ع).

في المارستان يُعاني مدَّةً طويلةً حتَّىٰ نَقِهَ وسلاَ وما كادَ، ولقد كانَ إذا ذكرها يتنَّفسُ الصُّعَداء.

وقد تقدَّم في أشعاري المذكورة في هذه الرِّسالة من صفة النُّحول ـ مُفرَّقاً ـ ما استغنيتُ به عن أن أذكر ـ هاهنا ـ من سواها شيئاً خوفَ الإِطالة، والله المُعِينُ والمُسْتعان.

وربَّما ترقَّت إلىٰ أن يُغْلَبَ المرءُ علىٰ عقله، ويحالَ بينه وبين ذِهْنه فيُوَسْوَسُ.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ جاريةً من ذواتِ المناصب، والجمال، والشَّرف من بنات القُوَّاد، وقد بلغ بها حُبُّ فتىً ـ من إخواني جِدَّاً، من أَبناء الكُتَّاب ـ مبلغَ هَيَجان المرارِ الأسود، وكادت تختلطُ، واشتهر الأمر، وشاعَ جدّاً، حتَّى عَلِمْناهُ وعَلِمَهُ الأباعدُ، إلى أن تدُورِكَتْ بالعلاج.

وهذا إنَّما يتولَّدُ عن إدمان الفِكْر، فإذا غلبتِ الفكرةُ، وتمكَّنَ الخلط السَّوداويُّ؛ خرجَ الأمرُ عن حدِّ الحبِّ إلى حدِّ الوَلَه والجنون، وإذا أُغْفِلَ التَّداوي في أوائل المُعاناة[1] قويَ جدّاً، ولم يُوجَدْ له دواءٌ سوىٰ الوصال.

ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعةً منها: [من الخفيف]

قد سَلَبْتَ الفؤادَ منها اختلاساً … أيُّ خَلْقٍ يَعِيشُ دونَ فُؤادِ

فأَغِثْها بالوَصْلِ تَحْيَ شَرِيفاً … وتَفُزْ بالثَّوابِ يومَ المَعاد

---

(١) خ: في الأول إلى المعاناة. والتصحيح لـ(ع).

وأراهــا تَــعــتــاضُ إنْ دامَ هــذا مـن خَـلاخِـيـلِـهـا حُـلَـىٰ الأقـيـادِ[1]
أنـتَ حـقّـاً مُـتـيّـمُ الـشّـمْـسِ حتّـى عِـشْـقُـهـا بَـيْـنَ ذا الـورىٰ لـكَ بـادي

خَبَرٌ:

وحدَّثني جعفرُ مولىٰ أحمدَ بنِ محمَّدِ بن حُدَيرٍ، المعروفُ بالبلينيِّ[2]: أنَّ سببَ اختلاطِ مروانَ بنِ يحيىٰ بنِ أحمدَ بن حُدَيرٍ، وذهابِ عقله؛ اعتلاقُهُ بجاريةٍ لأخيه، فمَنَعَها منه، وباعها لغَيْرِه، وما كانَ في إخوته مِثْلُه؛ ولا أتمَّ أدباً منه.

وأخبرني أبو العافية مولىٰ محمَّدِ بن عباسِ بن أبي عبدةَ[3]، أنَّ سببَ جنون يحيىٰ بن محمَّد بن أحمد بن عبَّاس بن أبي عبدةَ بيعُ جاريةٍ له كانَ يَجِدُ بها وَجْداً شديداً، كانت أمُّه أباعتها، وذهبتْ إلىٰ إنكاحه مِنْ بعضِ العامريَّات.

فهذان رَجُلانِ جليلان مشهُورَان فَقَدا عقولهما، واختلطا، وصارا في القُيوُدِ والأغلال. فأمَّا مروانُ فأصابته ضَرْبَةٌ مُخْطِأَةٌ يومَ دخول البربر قرطبةَ

---

(١) إيماء إلى أنَّها قد تجنُّ، وتوضع السَّلاسل في رجليها بدلاً من الخلاخيل؛ كما كانوا يفعلون بالمجانين.

(٢) إن صحَّت هذه اللفظة فهي نسبة إلى «البلينة» (Ballena) وتعني الحوت الكبير أو دابة البحر (انظر المغرب ١:١٩٣ والجذوة: ٢١٤)، ومن أمثال بحَارة الأندلس: إذا ريت البلين أبشر بالرمشكل (انظر أمثال العوام ٢:٦؛ والرمشكل هو ذكر البلينة) (ع). قلت: في (خ): بالبلبيني. ولم أجد له وجهاً.

(٣) لم أجد لمحمد بن عباس ترجمة، ولكنه من أسرة بني أبي عبدة إحدى الأسر الكبيرة في الأندلس، وقد كان عيسى بن أحمد بن أبي عبدة وزيراً أيام الأمير عبدالله الأموي، واحتلَّ رجال من هذه الأسرة مناصب هامة في الدولة (انظر الحلة السيراء ١: ١٢٠ - ١٢١ والحاشية) وكان أحمد بن محمد بن أبي عبدة أيام عبدالرحمٰن الناصر على القيادة (البيان المغرب ٢:١٥٨) ومحمد بن عبدالله بن أبي عبدة، على الخزانة (المصدر نفسه) وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة على الشرطة العليا (٢:١٥٩)؛ ويطول بنا القول لو أردنا تتبع أفراد هذه العائلة وتقلُّبهم في المناصب (ع).

وانتهائِهم إليها[1]؛ فتوفِّيَ ـ رحمه الله ـ. وأمَّا يحيىٰ بن محمَّد فهو حيٌّ علىٰ حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيته أنا مراراً، وجالسته في القَصْرِ قبل أن يُمْتَحَنَ بهذه المِحْنة، وكان أستاذي وأستاذَه الفقيهُ أبو الخيارِ اللُّغَويُّ[2]. وكان يحيىٰ ـ لَعَمْري! ـ حُلْواً من الفِتْيان نَبيلاً.

وأمَّا مَنْ دونَ هذه الطَّبقة فقد رأينا منهم كثيراً، ولكن لم نسمِّهم لخفائهم.

وهذه درجةٌ إذا بلغ المشغوفُ إليها فقد انبتَّ الرَّجاءُ، وانصرم الطَّمَعُ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره، إذ قد استحكم الفسادُ في الدِّماغ، وتَلِفَتِ المعرفةُ، وتغلَّبَتِ الآفة، أعاذنا الله من البلاءِ بطَوْله، وكفانا النِّقَمَ بمَنِّه.

❋ ❋ ❋

---

(١) لعل الصَّواب أن تقرأ: وانتهابِهم لها.

(٢) هو مسعود بن سليمان بن مفلت الشَّنتريني القرطبي، كان ظاهرياً لا يرىٰ التقليد، عالماً، متواضعاً. توفي سنة (٤٢٦هـ). «الصلة»: (١٣٥٢)، و«الجذوة»: ٣٢٨، و«البغية» رقم: ١٣٦١.





٢٧ باب السُّلوّ

وقد علمنا أنَّ كلَّ ما له أوَّلٌ فلا بُدَّ له من ءاخرٍ، حاشا نَعيم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالجنَّة لأوليائه، وعذابه بالنَّار لأعدائه؛ وأما أعراضُ الدُّنيا فنافدةٌ فانيةٌ، وزائلةٌ مضمحِلَّةٌ.

وعاقبةُ كلِّ حُبٍّ إلىٰ أحد أمرين:

إمَّا اخترامُ منيةٍ، وإمَّا سُلوٌّ حادثٌ.

وقد نَجِدُ النَّفْسَ تغلب عنها بعضُ القوىٰ المصرِّفة معها في الجَسَدِ، فكما نجد نَفساً ترفُض الرَّاحات والملاذَّ للعمل في طاعة الله ـ تعالى ـ، وللرِّياءِ في الدُّنيا، حتَّىٰ تشتهر بالزُّهد[1]؛ فكذلك نجد نفساً تنصرفُ عن الرَّغبَةِ في لِقاء شكْلها للأنَفَةِ المُسْتَحْكِمَةِ المنافرةِ للغَدْرِ، أو استمرار سوءِ المكافأةِ في الضَّمير، وهذا أصَحُّ السُّلُوِّ. وما كان من غير هذين الشَّيئين فليسَ إلاَّ مذموماً. والسُّلوُّ المتولِّدُ عن الهَجْر وطوله إنَّما هو كاليأسِ، يدخلُ على النَّفس من بُلوغها إلىٰ أملها، فيفترُ نزاعها، ولا تَقوى رغبتها.

---

(١) يعني: أن الذين يرفضون الرَّاحات والملاذَّ؛ منهم من يفعل ذلك طاعة للّه تعالىٰ وإخلاصاً له، ومنهم من يفعل ذلك رياءً وسمعة وطلباً للشهرة. وفي الأصل: للعقل، بدل: للعمل. ويظهر أنّه خطأ. ولعل الصَّواب في: (وللرّياء)؛ أن تكون: (أو للرّياء).

ولي في ذمِّ السُّلُوِّ قصيدةٌ منها: [من الطويل]

إذا ما رَنَتْ فالحيُّ مَيْتٌ بلَحْظِها وإن نَطَقتْ قلتَ السِّلامُ[1] رِطابُ
كأنَّ الهوىٰ ضَيْفٌ ألمَّ بمُهْجَتي فلَحْمي طَعامٌ والنَّجِيعُ شَرابُ

ومنها:

صَبورٌ علىٰ الأزْمِ[2] الذي العِزُّ خَلْفَهُ ولو أمْطَرَتْهُ بالحَرِيقِ سَحابُ
جَزُوعٌ من الرَّاحاتِ إن أنتجتْ له خُمولاً وفي بعضِ النَّعِيمِ عَذَابُ

والسُّلوُّ في التَّجْزِئَة الجُمْلِيَّةِ ينقسم قسمين:

سُلوٌّ طبيعيٌّ؛ وهو المسمَّى بالنِّسْيان، يَخْلُو به القلبُ، ويَفْرَغُ به البال، ويكونُ الإنسان كأنَّه لم يحبَّ قطُّ. وهذا القسمُ ربَّما لَحِقَ صاحبَهُ الذُّم لأنَّه حادثٌ عن أخلاقٍ مذمومةٍ، وعن أسبابٍ غير مُوجبةٍ استحقاقَ النِّسيان ـ وستأتي مُبيَّنة؛ إن شاء الله تعالى ـ، وربَّما لم تَلحقه اللاَّئمةُ لعذرٍ صحيحٍ.

والثَّاني: سُلوٌّ تَطَبُّعيٌّ؛ قَهَرَ النَّفْسَ، وهو المسمَّىٰ بالتَّصَبُّرِ؛ فترىٰ المرءَ يُظهِر التجلُّدَ وفي قلبه أشدُّ لدغاً من وَخْر الإشْفىٰ[3]، ولكنَّه يرىٰ بعضَ الشَّرِّ أهونَ من بعضٍ[4]، أو يحاسبُ نفسه بحُجَّةٍ لا تُصرَف ولا تُكسر. وهذا قِسْمٌ لا يُذَمُّ ءَاتيه، ولا يُلامُ فاعله لأنَّه لا يَحْدُثُ إلا عن عَظيمةٍ، ولا يقعُ إلا عن فادحةٍ، إمَّا لسببٍ لا يصبِرُ علىٰ مثله الأحرارُ، وإمَّا لخطبٍ

---

(١) السِّلام: الحجارة.
(٢) الأزم: الشدّة والقحط.
(٣) الإشفىٰ: المخرز.
(٤) هو من قول أبي خراش الهذلي:
حمدت إلٰهي بعد عروة إذ نجا خراش، وبعض الشَّر أهون من بعض

لا مردَّ له تجري به الأقدارُ، وكفاكَ من الموصوف به أنَّه ليس بناسٍ لكنَّه ذاكِرٌ، وذو حنينٍ واقفٌ علىٰ العهد، ومتجرِّعٌ مراراتِ الصَّبْر.

والفَرْقُ العاميُّ بينَ المتصبِّر والنَّاسي؛ أنَّكَ ترىٰ المتصبرَ وإنْ أبدَى غايةَ الجَلَد، وأظهر سَبَّ مَحبوبه، والتَّحَمُّلَ عليه؛ لا يحتملُ ذلك من غيره. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الطويل]

دعُوني وسَبِّي للحَبيب فإنَّني ... وإنْ كُنتُ أُبدي الهَجْرَ لَسْتُ مُعاديا
ولكنَّ سَبِّي للحَبيبِ كقولِهِم: ... أجادَ فلقَّاه الإِلٰهُ الدَّواهيا[1]

والنَّاسي ضدُّ هذا.

وكلُّ هذا فعلىٰ قدر طبيعة الإِنسان وإجابتها وامتناعها وقوَّةِ تمكُّنِ الحبِّ من القلب أو ضعفِه، وفي ذلك أقول ـ وسمَّيْتُ السَّالي فيه المُتَصَبِّر ـ قطعةً منها: [من الكامل]

ناسِي الأحبَّةِ غيرُ من يَسْلُوهُمُ ... حُكْمُ المقصِّر غيرُ حُكْمِ المُقصِرِ
ما قاصرٌ للنَّفْسِ عِذْلُ مُجيبِها ... ما الصَّابرُ المَطْبُوعُ كالمُتَصَبِّرِ

والأسبابُ الموجبة للسُّلُوِّ المنقسم هذين القسمين كثيرةٌ، وعلىٰ حَسْبِها، وبمقدار الواقع منها؛ يُعذر السَّالي أو يُذَمُّ:

فمنها المَلَلُ ـ وقد قدَّمنا الكلام عليه ـ. وإنَّ من كانَ سُلُوُّهُ عن مللٍ فليسَ حُبُّه حقيقةً، والمتوسِّمُ به صاحبُ دعوىً زائفةٍ، وإنَّما هو طالبُ لذَّةٍ، ومُبادرُ شَهْوَةٍ، والسَّالي من هذا الوجه ناسٍ مذمومٌ.

---

(١) هذا سبٌّ للاستحسان والتَّعظيم؛ كقولهم: قاتلهُ اللّهُ ما أسخاه! أو قولهم: «هوت أمّه»، وما أشبه (ع).

ومنها الاستبدالُ، وهو وإنْ كانَ يُشبه المللَ ففيه معنىً زائدٌ، وهو بذلك المعنىٰ أقبحُ من الأوَّل، وصاحبُهُ أحقُّ بالذَّمِّ.

ومنها حياءٌ مركَّب يكون في المُحِبِّ يحولُ بينه وبين التَّعْريض بما يجد، فيتطاول الأمرُ، وتتراخىٰ المُدَّة، ويبلىٰ جديدُ المودَّةِ، ويحدثُ السُّلوُّ. وهذا وجهٌ إن كانَ السَّالي عنه ناسِياً فليسَ بمنصفٍ؛ إذ منه جاءَ سببُ الحِرْمانِ. وإن كانَ متصبّراً فليس بمَلُومٍ؛ إذ ءاثر الحياءَ علىٰ لذَّة نفسه. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: **«الحياءُ من الإيمان، والبَذَاءُ من النِّفاقِ»**[1].

وحدَّثنا أحمد بنُ محمَّد[2]، عن أحمد بن مُطَرِّف[3]، عن عُبَيْدِالله بن يحيى[4]، عن أبيه، عن مالكٍ، عن سَلَمة بن صَفوان الزُّرَقيِّ[5]، عن

---

(١) لم أجده هكذا بشطريه، ولكنَّهما وردا ضمن حديثٍ أخرجه الدَّارميُّ (٥٠٩)؛ عن عون بن عبدالله، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، مرفوعاً. وإسناده صحيح. وقوله ﷺ: **«الحياء من الإيمان»**؛ عند البخاريِّ (٢٤)، ومسلم (٣٦) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.
والشَّطر الثاني: له شاهد بلفظ: **«الحياءُ والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النِّفاق»**، أخرجه أحمد ٥/٢٦٩، والترمذي (٢٠٢٧)؛ بإسنادٍ صحيح. وصحَّ ـ أيضاً ـ بلفظٍ: **«الحياء من الإيمان؛ والإيمان في الجنَّة، والبذاء من الجفاء؛ والجفاء في النَّار»**. أخرجه الترمذي (٢٤٠٩)، وابن حبَّان (٦٠٩)، وأورده الألبانيُّ في: «الصَّحيحة» (٤٩٥).
والبذاء: الفُحْشُ في القول.

(٢) هو ابن الجَسُور. وقد تقدَّم التعريف به.

(٣) هو: أحمد بن مُطرِّف بن عبدالرحمٰن الأزدي، ويُعرف بأبي عمر ابن المشَّاط. كان معتنياً بالسُّنن، زاهداً، ورعاً. توفي سنة: (٣٥٢هـ). «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٦/ ص: ٦٩).

(٤) تقدَّم التعريف به، وبأبيه.

(٥) سَلَمة بن صفوان بن سلمة الأنصاريُّ الزُّرقيُّ المدنيُّ، روىٰ عنه مالك وغيره، ووثَّقه النَّسائي. أخرج له ابن ماجه حديثاً واحداً. «تهذيب الكمال».

زيد بن طلحةَ بن رُكانة[1]، يرفعه إلىٰ رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: **«لكلِّ دينٍ خُلُقٌ، وخلقُ الإسلامِ: الحَياءُ»**[2].

فهذه الأسبابُ الثَّلاثةُ أصلُها من المُحبِّ، وابتداؤُها من قِبَلِهِ، والذَّمُّ لاصِقٌ به في نِسْيانه لمَنْ يُحِبُّ؛ عنها[3].

ثُمَّ أسبابٌ أربعةٌ هُنَّ من قِبَل المَحبُوبِ، وأصلُها عنده:

فمنها: الهَجْرُ، وقد مرَّ تفسير وجوهه؛ ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً في هذا الباب يوافقه.

والهَجْرُ إذا تطاولَ، وكَثُرَ العتاب، واتصلتِ المفارقة؛ يكونُ باباً إلىٰ السُّلُوِّ.

وليس مَن وَصَلَكَ ثُمَّ قطعكَ لغيرك؛ من بابِ الهَجْرِ في شيءٍ لأنَّه الغدرُ الصَّحيحُ، ولا مَن مَالَ إلىٰ غيركَ ـ دونَ أن تتقدَّم لك معه صِلَةٌ ـ مِن الهَجْرِ ـ أيضاً ـ في شيءٍ؛ إنَّما ذاكَ هو النِّفارُ ـ وسيقع الكلامُ في هٰذين الفَصْلينِ بعد هذا؛ إن شاء الله تعالى ـ، لكن الهَجْرُ مِمَّنْ وَصَلكَ، ثُمَّ

---

(١) هكذا قال يحيىٰ بن يحيىٰ اللَّيثي في روايته عن مالك، وقال ابن بكير، والقعنبي، وابن القاسم؛ وغيرهم: يزيد بن طلحة بن ركانة. وهو الصَّواب؛ كما قال ابن عبدالبر (التمهيد: ١٤٢/٢١)، ويزيد ذكره ابن حبان في: «ثقات التابعين» ٥٤١/٥، وذكره ابن أبي حاتم ٩/(١١٤٩) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٢) «الموطَّأ» (١٦١٠)؛ وهو مرسل، لكن له شاهد من حديث أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه ابن ماجه (٤١٨١)، وأورده الألبانيُّ في: «الصَّحيحة» (٩٤٠)؛ ويستدرك عليه حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ؛ رواه ابن عبد البر في: «التمهيد» ١٤٢/٢١؛ وحسَّن إسناده.

(٣) يعني: عن هذه الأسباب الثلاثة المذكورة، وأرجو أن تكون العبارة بهذه القراءة مستقيمة. وقد حُذف (عنها) عند (مكي) و(ع)، وجعلت العبارة التالية هكذا: (ثُمَّ منها أسباب أربعة. . .)؛ من غير إشارة إلى ما في الأصل.

قطعك؛ لتنقيلِ واشٍ، أو لذنبٍ واقعٍ، أو لشيءٍ قامَ في النَّفسِ، ولم يَمِلْ إلىٰ سواك، ولا أقام أحداً غيرَكَ مُقَامكَ.

والنَّاسي في هذا الفَصْلِ من المُحبِّين ملومٌ دون سائر الأسبابِ الواقعة من المحبوب؛ لأنَّه لا تقع حالةٌ تقيم العذر في نسيانه، وإنَّما هو راغبٌ عن وصلك، وهو شيءٌ لا يلزمه. وقد تقدَّم من أذمَّةِ الوصال، وحقِّ أيَّامه؛ ما يلزم التذكُّرَ، ويوجبُ عهدَ الأُلفة، ولكنَّ السَّالي علىٰ جهة التصبُّر، والتَّجَلُّدِ ـ هاهنا ـ معذورٌ؛ إذا رأىٰ الهجر متمادياً، ولم يرَ للوصال علامةً، ولا للمراجعةِ دلالةً. وقد استجازَ كثيرٌ من النَّاس أن يُسمُّوا هذا المعنىٰ غدراً ـ علىٰ المَجَازِ ـ إذ ظاهرهما واحدٌ، ولكنَّ علَّتَيْهِما مختلفتان، فلذلك فرَّقنا بينهما في الحقيقة. وأقول في ذلك شِعْراً منه: [من الطويل]

فكُونُوا كَمَنْ لَمْ أَدْرِ قطُّ فإنَّني ... كآخَرَ لم تَدْرُوا ولَمْ تَصِلُوهُ
أنا كالصَّدىٰ ما قالَ كلٌّ أُجِيبُه ... فما شِئْتِمُوه اليَوْمَ فاغْتَمِدُوه

وأقولُ ـ أيضاً ـ قطعةً؛ ثلاثَة أبياتٍ قُلْتها وأنا نائمٌ، واستيقظتُ فأضفتُ إليها البيتَ الرَّابع: [من الوافر]

ألا لله دَهرٌ كُنْتَ فيه ... أعزَّ عليَّ مِنْ رُوحِي وأهلي
فما بَرِحَتْ يدُ الهِجْرانِ حتَّى ... طَواكَ بنانُها طيَّ السِّجلِّ
سَقاني الصَّبْرَ هجرُكُم كما قد ... سَقاني الحُبَّ وصلُكُم بسَجْلِ
وجدتُ الوَصْلَ أصْلَ الوَجْدِ حَقّاً ... وطُولَ الهَجْرِ أصْلاً للتَّسَلِّي

وأقولُ ـ أيضاً ـ [قطعةً] منها: [من الكامل المجزوء]

لو قيلَ لي مِن قَبْلِ ذا ... أن سَوْفَ تَسْلُو مَنْ تَوَد

لحلفتُ ألفَ قَسامَةٍ[1] لا كانَ ذا أبَدَ الأبَد
وإذا طويلُ الهَجْرِ ما مَعَهُ من السُّلْوانِ بُدّ
لله هَجْرُكَ إنَّه ساعٍ لبُرئي مُجْتَهِدْ
فالآن أعجبُ للسُّلُوِّ وكنتُ أعْجَبُ للجَلَدْ
وأرى هَواكَ كجَمْرةٍ تَحْتَ الرَّمادِ لها مَدَد

وأقول: [من الكامل]

كانتْ جَهَنَّمُ في الحَشَا مِنْ حُبِّكُم فلَقَدْ أراهَا نَارَ إبْراهِيمَا

ثم الأسبابُ الثَّلاثةُ الباقية التي هي من قِبَل المحبوب، فالمتصبرُ من النَّاسِ فيها غيرُ مذموم، لما سنورده ـ إن شاء الله ـ في كلِّ فصلٍ منها:

فمنها: نِفارٌ يكونُ في المحبوبِ، وانزواءٌ قاطعٌ للأطماع.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأخبركَ عنِّي أنِّي ألفتُ في أيام صِباي ـ أُلفةَ المَحَبَّةِ ـ جاريةً نشأتْ في دارنا، وكانت في ذلك الوَقْتِ بنتَ ستةَ عشر عاماً؛ وكانت غايةً في حُسْنِ وجهها، وعَقْلها، وعَفافها، وطهارتها، وخَفَرها، ودَماثتها، عَدِيمةَ الهَزَلِ، منيعةَ البَذْلِ، بديعةَ البِشْر، مُسْبَلَةَ السِّتر، فَقِيدة الذَّامِّ، قليلة الكلام، مغضوضةَ البصَرَ، شديدة الحَذَر، نقيَّةً من العيوب، دائمةَ القُطُوب، حُلْوةَ الإعراض، مطبوعةَ الانقِباض، مَلِيحَةَ الصُّدود، رَزِينةَ القُعُود، كثيرةَ الوَقَارِ، مُسْتَلَذَّة النِّفار، لا تُوَجَّهُ الأراجي نحوها، ولا تقفُ المطامعُ عليها، ولا مُعَرَّسَ للأمل لديها، فوجهها جالبٌ كلَّ القلوب،

---

(١) خ: فحلفت. والقَسامة: اليمين. ولها في الاصطلاح الفقهي معنىً خاص.

وحالها طاردٌ مَنْ أَمَّها، تزدان في المَنْع والبُخْل؛ ما لا يزدان غيرها بالسَّماحةِ والبَذْلِ، موقوفةٌ على الجِدِّ في أَمرها غير راغبةٍ في اللَّهو، علىٰ أنَّها كَانتْ تُحْسِنُ العودَ إحساناً جيداً؛ فجنحتُ إليها، وأحببتها حبَّاً مفرطاً شديداً، فسعيتُ عامَيْنِ أو نحوهما في أن تجيبني بكلمةٍ، وأسمعَ مِن فِيها لَفظةً ـ غيرَ ما يقعُ في الحديثِ الظَّاهر إلىٰ كلِّ سامعٍ ـ بأبلغِ السَّعْي؛ فما وصلتُ من ذلك إلىٰ شيءٍ البتَّةَ.

فلعهدي بمُصْطَنع[1] كانَ في دارنا لبعضِ ما يُصْطَنَعُ له في دور الرُّؤساء، تجمَّعَتْ فيه دَخْلَتُنَا ودخلةُ أخي ـ رحمه الله ـ من النِّساء، ونساء فتياننا ومن لاثَ بنا من خَدَمِنا، مِمَّن يخفُّ موضعُهُ، ويلطفُ محلُّه، فلَبِثْنَ صَدْراً من النَّهارِ، ثُمَّ تنقَّلْنَ إلى قَصَبَةٍ كانت في دارنا مُشْرِفَةٍ علىٰ بستانِ الدَّار، وَيُطَّلَعُ منها على جميع قرطبةَ وفُحُوصها، مفتَّحَةِ الأبواب؛ فَصِرْنَ يَنْظُرْنَ من خلال الشَّراجيب[2] ـ وأنا بينَهُنَّ ـ فإنِّي لأذكرُ أنِّي كنتُ أقصدُ نحو الباب الذي هي فيه أُنساً بقُرْبها، متعرِّضاً للدُّنُوِّ منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتتركُ ذلكَ البابَ، وتقصدُ غيره في لُطْفٍ مِنَ الحركة، فأتعمَّدُ أنا القصدَ إلىٰ البابَ الذي صارتْ إليه فتعودُ إلىٰ مثلِ ذلكَ الفعل من الزَّوال إلىٰ غيره؛ وكانتْ قد علمتْ كَلَفي بها، ولم يَشْعُر سائرُ النِّسوانِ بما نحن فيه، لأنهنَّ كنَّ عدداً كثيراً، وإذ كلُّهُنَّ يَتَنَقَّلْنَ من بابٍ إلى بابٍ لسببِ الاطِّلاعِ من بعض الأبوابِ على جهاتٍ لا يُطَّلَعُ من غيرها عليها ـ واعلم؛

---

(١) المصطنع: الوليمة أو الحفل.

(٢) الشراجيب: الشبابيك أو الطاقات؛ ويكون الشباك مشرجباً إذا كان من خشب بهيئة مربعات، ومن أمثالهم العامية زاد فِ المشرجب بيت، ويشير المعتمد في شعره (الحلة ٢:١٣٣) إلى قصر الشراجيب. (انظر الأمثال العامية ٢:٢٣٠ وتعليقات المحقق على المثل رقم ١٠١٠).

أنَّ قيافة النِّساء في من يَميلُ إليهنَّ أنفذ من قيافةِ مُدْلِج[1] في الآثار! ـ ثُمَّ نَزَلْنَ إلىٰ البستان فرغبَ عجائزنا وكرائمنا إلىٰ سَيِّدَتها في سماع غنائها، فأَمَرَتْها؛ فأخذتِ العودَ وسوَّته، بخَفَر وخَجَلٍ لا عهدَ لي بِمْثِلهِ ـ وإنَّ الشَّيْءَ يتضاعَفُ حُسْنُهُ في عَيْنِ مستحسنه ـ ثُمَّ اندفعتْ تُغَنِّي بأبياتِ العَبَّاسِ بن الأحنف؛ حيثُ يقول[2]: [من البسيط]

إنِّي طربتُ إلىٰ شَمْسٍ إذا غَربَت ... كانتْ مغاربُها[3] جوفَ المقاصِيرِ

شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ في خَلْقِ جَاريةٍ ... كأنَّ أعطافَها[4] طيُّ الطَّوامير

لَيْسَتْ من الإنس إلا في مناسبةٍ ... ولا مِنَ الجنِّ إلا في التَّصَاوِير

فالوجهُ جَوْهَرةٌ، والجِسْمُ عَبْهَرَةٌ ... والرِّيحُ عَنْبَرةٌ، والكُلُّ مِنْ نُور[5]

كأنَّها حِينَ تَخْطُو في مَجَاسدِها ... تَخْطُو علىٰ البَيْضِ أو حَدِّ[6] القوارير

فلَعَمْري! لكأنَّ المِضرابَ إنَّما يقعُ علىٰ قلبي، وما نسيتُ ذلكَ اليومَ ولا أنساهُ إلىٰ يوم مفارقتي الدُّنيا، وهذا أكثرُ ما وصلتُ إليه من التَّمَكُّنِ من رؤيتها، وسماع كلامها؛ وفي ذلكَ أقول: [من الخفيف]

لا تَلُمْها علىٰ النِّفارِ ومَنْعِ الـ ... ـوَصلِ مَا ذَاكُمُ لها بِنَكِيرِ

هل يكونُ الهِلالُ غيرَ بَعِيدٍ ... أو يكُونُ الغزالُ غَيْرَ نَفُورِ

---

(١) مدلج: رجل من كنانة كان مشهوراً بالقيافة؛ أي قصّ الأثر.

(٢) انظر ديوان العباس بن الأحنف: ١١٣.

(٣) الدِّيوان: مشارقها.

(٤) الدِّيوان: كأنّما كشحها.

(٥) رواية هذا البيت في «الديوان»:

فالجسم من لؤلؤ والشعر من ظلم ... والنشر من مسكة والوجه من نور

(٦) الديوان: أو خضر.

وأقول: [من الوافر]

مَنَعْتِ جَمَالَ وَجْهِكِ مُقلتيًّا ولفظُكِ قد ضَنَنْتِ به عليًّا
أراكِ نَذَرْتِ للرَّحْمٰنِ صَوْماً فلستِ تكلِّمين اليَوْمَ حَيًّا
وقد غنَّيْتِ للعَبَّاس شِعْراً هنيئاً ذا لعبَّاسٍ هَنِيًّا
فلو يَلْقَاكِ عَبَّاسٌ لأضحىٰ لفَوْزٍ قَالياً وبِكُمْ شَجِيًّا

ثُمَّ انتقلَ الوزيرُ أبي ـ رحمه الله ـ من دُورِنا المحدَثَةِ بالجانب الشَّرقيِّ من قرطبةَ ـ في رَبَضِ الزَّاهرة ـ؛ إلىٰ دورنا القديمة في الجانب الغربيِّ من قرطبةَ ـ ببلاطِ مُغِيثٍ ـ في اليوم الثَّالث من قيامِ أمير المؤمنين محمَّدِ المهديِّ بالخلافة. وانتقلتُ أنا بانتقاله، وذلكَ في جمادىٰ الآخرة سنةَ تسعٍ وتسعينَ وثلاث مِئَةٍ، ولم تنتقلْ هي بانتقالنا لأمورٍ أوجبتْ ذلك، ثُمَّ شُغلنا بعدَ قيام أمير المؤمنين هشام المؤيَّد بالنَّكَباتِ، وباعتداءِ أربابِ دولته، وامتُحِنَّا بالاعتقال، والتَّرقيب، والإغرام الفادح، والاسْتِتَار، وأرزمتِ الفتنةُ، وأَلْقَتْ باعَها، وعَمَّتِ النَّاسَ وخَصَّتْنا، إلىٰ أن توفِّيَ أبي الوزيرُ ـ رحمه الله ـ ونحنُ في هذه الأحوال بعد العَصْرِ يومَ السَّبت، للَيْلَتَيْنِ بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربع مئةٍ، واتَّصَلَتْ بنا تلك الحالُ بعده إلىٰ أن كانت عندنا جِنازةٌ لبعض أهلنا فرأيتُها ـ وقد ارتفعتِ الواعية[1] ـ قائمةً في المأتم، وَسْطَ النِّساء، في جملةِ البواكي والنَّوادب؛ فلقد أثارتْ وَجْداً دفيناً، وحرَّكتْ ساكناً، وذكرَّتْني عَهْداً قديماً، وحُبَّاً تَلِيداً، ودَهْراً ماضياً، وزمناً عافياً، وشُهوراً خواليَ، وأخباراً بَواليَ، ودهوراً فواني، وأيَّاماً قد ذهبتْ، وءاثاراً قد دَثَرَتْ، وجَدَّدَتْ أحزاني، وهيَّجَتْ بَلابلي، علىٰ أنِّي كنتُ في ذلك النَّهار

(١) الواعية: الصُّراخ على المَيْت.

مُرْزَءاً مصاباً من وجوهٍ، وما كنتُ نَسِيتُ، ولكن زادَ الشَّجىٰ، وتوقَّدَتِ اللَّوْعةُ، وتأكَّدَ الحُزْنُ، وتضاعفَ الأسف، واستجلب الوَجْدُ ما كانَ منه كامناً فلبَّاه مُجِيباً؛ فقلتُ قطعةً منها: [من الطويل]

يُبَكِّي لمَيْتٍ ماتَ وهو مُكَرَّمٌ ولَلْحَيُّ أَوْلَىٰ بالدُّموع الذَّوارفِ
فيا عَجَباً مِنْ ءَاسِفٍ لامْرِىءٍ ثوىٰ وما هُوَ للمَقْتُولِ ظُلْماً بآسِفِ

ثُمَّ ضربَ الدَّهرُ ضَرَبَانَهُ، وأُجْلِينا عن منازلنا، وتغلَّب علينا جندُ البربر، فخرجتُ عن قرطبةَ أوَّلَ المحرم سنةَ أربع وأربع مئة، وغابتْ عن بصري بعد تلك الرُّؤْية الواحدةِ ستَّةَ أعوامٍ وأكثرَ، ثُمَّ دخلتُ قرطبةَ في شوال سنة تسعٍ وأربع مئة، فنزلتُ علىٰ بعض نسائنا فرأيتُها هنالك، وما كِدْتُ أن أميِّزها حتَّى قيل لي هذه فلانةٌ ـ وقد تغيَّرَ أكثرُ محاسنها، وذهبتْ نَضَارتها، وفَنِيَتْ تلك البَهْجَةُ، وغاضَ ذلك الماءُ الذي كان يُرىٰ كالسَّيْفِ الصَقيل والمرءَاة الهِنْدِيَّةِ، وذَبُلَ ذلك النُّوَّارُ الذي كانَ البصرُ يقصدُ نحوه مَتْبُوراً[1]، ويرتاد فيه متخيِّراً، وينصرف عنه مُتَحَيِّراً، فلم يبقَ إلا البعضُ المُنْبِىءُ عن الكلِّ، والخبر المُخْبِرُ عن الجميع، وذلك لقلَّة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصِّيانةَ التي كانت غُذِيَتْ بها أيامَ دولتنا، وامتدادِ ظِلِّنا، ولتبذُّلها في الخروج فيما لا بدَّ لها منهِ مِمَّا كانت تُصانُ وتُرفَعُ عنه قبل ذلك ـ وإنَّما النساءُ رياحِينُ متىٰ لم تُتعاهدْ نَقَصَتْ، وَبَنِيَّةٌ متىٰ لم يهْتَبَلْ بها اسْتَهْدَمَتْ؛ ولذلك قال من قال: إنَّ حُسْنَ الرجالِ أصدقُ صِدْقاً، وأثبتُ أصلاً، وأعتقُ جَوْدَةً؛ لصَبْرِهِ علىٰ ما لو لَقِيَ بعضُه وجوهَ النِّساءِ لتغيرتْ أشدَّ التَّغيُّر، مِثْلَ الهجير، والسَّموم، والرِّياح، واختلاف الهواء، وعَدَمِ الكِنِّ ـ وإنِّي لو نلتُ منها أقَلَّ

(١) المتبور: الهالك، وما أصبت منه (قاموس: تبر). وعند (مكي) و(ع): منبهراً. وما في الأصل واضح وصحيح.

وَصْلٍ، وأنِسَتْ لي بعضَ الأُنْسِ؛ لخُولِطْتُ طَرَباً، أو لَمُتُّ فَرَحاً، ولكنَّ هذا النِّفار الذي صبَّرني وأسْلاني.

وهذا الوجه من أسباب السُّلُوِّ صاحِبُهُ في كِلاَ الوجهَيْنِ معذورٌ وغيرُ ملومٍ؛ إذ لم يقع تَثَبُّتٌ يُوجبُ الوفاءَ، ولا عهدٌ يقتضي المحافظة، ولا سَلَفَ ذِمامٌ، ولا فَرَطَ تصادقٌ يُلام علىٰ تَضْييعه ونسيانه.

ومنها جَفاءٌ يكونُ من المحبوب، فإذا أفرطَ فيه وأسرفَ، وصادف من المُحِبِّ نَفْساً لها بعضُ الأَنَفَةِ والعزَّةِ؛ تسلَّىٰ، وإذا كان الجفاءُ يسيراً منقطعاً، أو دائماً، أو كبيراً منقطعاً؛ احْتُمِلَ وأُغْضِيَ عليه، حتىٰ إذا كثر ودام فلا بقاءَ عليه، ولا يلام النَّاسي لمن يُحِبُّ في مثل هذا.

ومنها الغَدْرُ، وهو الذي لا يحتمله أحدٌ، ولا يُغْضِي عليه كَرِيمٌ، وهو المَسْلاةُ حقّاً، ولا يلام السَّالي عنه على أيِّ وجهٍ كان؛ ناسياً أو متصبِّراً، بل اللائمة لاحقةٌ لمن صبر عليه. ولولا أنَّ القلوبَ بيد مقلِّبها لا إله إلا هو، ولا يُكَلَّفُ المرءُ صرْفَ قلبه ولا إحالةَ استحسانه؛ ولولا ذاك لقلتُ: إنَّ المتصبِّر في سُلُوِّه مع الغدر يكاد أن يستحقَّ الملامةَ والتَّعْنِيفَ؛ ولا أدْعَىٰ إلى السُّلُوِّ عند الحُرِّ النَّفْسِ، وذي الحفيظة والسَّريِّ السَّجايا؛ من الغَدْر، فما يصبر عليه إلاَّ دنيءُ المُرُوءَةِ، خَسِيسُ النَّفْسِ، نَذْلُ الهِمَّةِ، ساقطُ الأَنَفَةِ.
وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الوافر]

هَـواكِ فـلـسـتُ أَقْـرَبُـهُ غُـرورٌ ... وأنـتِ لـكُـلِّ مـن يَـأْتـي سَـرِيـرُ
ومـا أنْ تَـصْـبِـرِيـنَ عـلـىٰ حَـبـيـبٍ ... فـحَـوْلَـكِ مـنـهـمُ عَـدَدٌ كَـثِـيـرُ
فـلـو كـنـت الأمـيـرَ لـمـا تَـعَـاطـىٰ ... لـقـاءَكِ خَـوفَ جَـمْـعِـهِـم أمـيـرُ[1]

(١) أثبته (مكي) و(ع): الأمير.

رأيتُك كالأمَاني ما علىٰ مَنْ يُلِمُّ بها ولَوْ كَثُرُوا غُرور

لا عَنْها لمَنْ يأتي دِفَاعٌ ولو حُشِدَ الأنامُ لهم نَفِير

ثم سببٌ ثامِنٌ: وهو لا من المُحِبِّ ولا من المحبوب، ولكنَّه من الله تعالى وهو: اليأسُ، وفروعه ثلاثةٌ، إمَّا موتٌ، وإمَّا بَيْنٌ لا يرجىٰ معه أوْبَةٌ، وإمَّا عارضٌ يدخلُ على المتحابَّينَ بعلَّةِ المُحِبِّ[1] التي من أجلها وَثِقَ المحبوب فيغيِّرُهَا؛ وكلُّ هذه الوجوه فمن أسباب السُّلوِّ والتَّصَبُّر.

وعلى المحبِّ النَّاسي في هذا الوجه المنقسم إلىٰ هذه الأقسام الثَّلاثة من الغَضَاضة، والذَّمِّ، واستحقاقِ اسم اللَّوم والغدر؛ غيرُ قليلٍ، وإنَّ لليأسِ لعملاً في النُّفوس عَجِيباً، وثَلْجاً لحَرِّ الأكباد كبيراً؛ وكلُّ هذه الوجوه المذكورة أوَّلاً وءاخراً فالتَّأنِّي فيها واجبٌ، والتَّرَبُّصُ على أهلها حَسَنٌ، فيما يمكن فيه التَّأنِّي، ويصحُّ لديه التَّرَبُّصُ، فإذا انقطعتِ الأَطماعُ، وانحسمت الآمالُ؛ فحينئذٍ يقوم العُذْرُ.

وللشُّعراء فنٌّ من الشِّعر يذمُّون فيه الباكيَ على الدِّمَنِ، ويُثْنُونَ علىٰ المثابر على اللَّذَّاتِ، وهذا يدخلُ في باب السُّلوِّ. ولقد أكثر الحسنُ بنُ هانىءٍ في هذا الباب وافتخر به، وهو كثيراً ما يَصِفُ نفسه بالغَدْرِ الصَّريح في أشعاره، تحكُّماً بلسانه، واقتداراً علىٰ القول، وفي مثل هذا أقول شعراً منه: [من الخفيف]

خلِّ هذا وبادِرِ الدَّهْرَ وارحَلْ في رياض الرُّبىٰ مَطِيَّ القفارِ[2]

وَاحْدُها بالبديع من نَغَمات الـ عُودِ كيما تُحَثَّ بالمِزْمَارَ

---

(١) بعلَّةِ المُحِبِّ؛ استدركها النَّاسخ في هامش المخطوط. وجعلها (ع): بعلة الحبِّ.

(٢) جعلها (مكي) و(ع): العُقَار.

إنَّ خيراً من الوقوف على الدَّا ... ر وقوفُ البَنَانِ بالأوتار

وبدا النَّرْجِسُ البديعُ كصَبٌ ... حائِرِ الطَّرْفِ مائلاً كالمُدَار

لونُه لونُ عَاشِقٍ مُسْتَهامٍ ... وهو لا شَكَّ هَائِمٌ بالبَهَارِ[1]

ومعاذَ الله أنْ يكونَ نسيانُ ما درس لنا طَبْعاً، أو معصيةُ الله بشُرْبِ الرّاح لنا خُلُقاً، وكسادُ الهِمَّة لنا صِفَةً، ولكنْ حسبنا قولُ الله تعالى - ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: ١١٢] - في الشُّعراءِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥ - ٢٢٦] فهذه شَهادةُ الله العزيز الجبّار لهم، ولكن شذوذُ القائل للشِّعر عن مرتبة الشِّعر خَطَأٌ.

وكان سَبَبَ هذه الأبياتِ أنَّ «ضَنىٰ» العامِرِيَّة، إحدىٰ كرائم المظفَّر عبد الملك بن أبي عامرٍ، كلَّفَتْني صَنعتها فأجبتها، وكنت أُجلُّها؛ ولها فيها صَنْعةٌ في طريقة النَّشِيدِ والبَسِيطِ[2] رائقةٌ جداً، ولقد أنشدتها بعضَ أخواني من أهل الأدب فقال سروراً بها: يجبُ أن تُوضَعَ هذه في جملةِ عجائب الدُّنيا.

فجميعُ فصول هذا الباب كما ترى ثمانيةٌ:

منها ثلاثةٌ هي من المُحِبِّ، اثنان منها يُذَمّ السَّالي فيهما على كلِّ وجه، وهما المَلَلُ والاستبدال. وواحدٌ منها يُذَمُّ السَّالي فيه ولا يُذَمُّ المتصبِّر، وهو الحياء - كما قدَّمنا -.

وأربعةٌ من المحبوب، منها واحدٌ يُذَمُّ النَّاسي فيه ولا يذم المتصبِّر،

---

(١) في الأصل: بالنَّهار.

(٢) هذان يمثلان ثلثي «النَّوبة» الموسيقية عند زرياب وغيره، والعنصر الثالث الأخير فيها هو: «الهزج» (ع).

وهو الهجر الدَّائم، وثلاثةٌ لا يذمُّ السَّالي فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصبِّراً، وهي النِّفارُ والجفاءُ والغدر.

ووجه ثامنٌ وهو من قِبَلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو اليأسُ إمَّا بموتٍ، أو بَيْنٍ، أو ءافةٍ تَزمِنُ، والمتصبِّرُ في هذه معذورٌ.

وعنِّي أخبركَ أنِّي جُبلتُ على طبيعتين لا يهنأُنِي معهما عيشٌ أبداً، وإنِّي لأبرمُ بحياتي باجتماعهما، وأودُّ التَّغَيُّبَ[1] من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النَّكَدِ من أجلهما وهما:

ـ وفاءٌ لا يشوبه تلوُّن، قد استوتْ فيه الحَضْرةُ والمَغِيبُ، والباطنُ والظَّاهر، تولِّدُهُ الأُلْفةُ التي لم تَعزفْ بها نفسي عمَّا دَرِبَتْهُ، ولا تتطَّلعُ إلىٰ عَدَمِ من صَحِبَتْه.

ـ وعِزَّةُ نَفْس لا تقرُّ علىٰ الضَّيْم، مهتَمَّةٌ لأقلِّ ما يرد عليها من تغيُّر المعارف، مُؤْثِرةٌ للموت عليه.

فكلُّ واحدةٍ من هاتين السَّجِيَّتَيْنِ تدعو إلىٰ نفسها، وإنِّي لأُجْفَىٰ فأحتملُ، وأستعملُ الأناةَ الطَّويلةَ، والتَّلوُّمَ الذي لا يكادُ يُطيقه أحدٌ، فإذا أفرط الأمرُ، وحَمِيَتْ نَفْسي تصبَّرتُ، وفي القلب ما فيه. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من البسيط]

لـي خَـلَّـتـانِ أذاقـانـي الأَسَـىٰ جُـرَعـاً ... ونَـغَّـصَـا عِـيـشَـتِي واسْـتَـهْـلـكـا جَـلَـدي
كِـلـتـاهـمـا[2] تَـطَّـبـيـني نـحـو جِـبْـلَـتـهـا ... كـالـصَّـيْـد يَـنْـشَـبُ بـيـن الـذِّئْـبِ والأسد

(١) خ: التَّثَبُّتَ. والتصحيح عن (ع).
(٢) خ: كلاهما.

وفاءُ صِدْقٍ فما فارقتُ ذَا مِقَةٍ فزال حُزني عليه ءاخرَ الأَبدِ
وعزَّةٌ لا يَحلُّ الضَّيمُ ساحتَها صرامةٌ[1] فيه بالأموالِ والوَلَدِ

وممَّا يُشبه ما نحن فيه - وإن كانَ ليسَ منه - أنَّ رجلاً من إخواني كنتُ أحلَلْته من نفسي محلَّها، وأسقطتُ المُؤُونةَ بيني وبينه، وأعددته ذُخْراً وكَنْزاً، وكان كثيرَ السَّمْع من كلِّ قائلٍ؛ فدبَّ ذوو النَّمِيمَةِ بيني وبينه، فحاكُوا فيه، وأَنجَحَ سعيُهُمْ عنده، فانقبضَ عمَّا كنتُ أعهده. فتربَّصْتُ عليه مُدَّةً في مثلها أَوْبُ الغائِب، ورضىٰ العاتب، فلم يزِدْ إلا انقباضاً، فتركتُهُ وحالَهُ.

❋ ❋ ❋

(١) هكذا في الأصل، ويمكن أن تجعل: (صرافة) كما عند (ع).



٣٨ باب المَوْت

وربَّما تزايد الأمرُ، ورقَّ الطَّبْعُ، وعَظُمَ الإشفاقُ؛ فكانَ سبباً للموت ومفارقة الدُّنيا، وقد جاء في الآثار: «من عَشِقَ فعفَّ فماتَ فهو شَهِيدٌ»(١).

وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من الوافر]

فإنْ أهلِكْ هَوَىً أهلِكْ شَهِيداً ... وإنْ تَمنُنْ بقيتُ قَريرَ عَينِ

روىٰ هذا لنا قومٌ ثِقاتٌ ... نَأَوْا بالصِّدْقِ عن جُرْحٍ ومَيْنِ(٢)

---

(١) هذا أثر رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً وموقوفاً؛ ولا يصح، أمَّا المرفوعُ فقد تتابعَ الأئمةُ على تضعيفه وإعلاله من جهة إسناده، وحكم ابنُ القيم في كتبه: «زاد المعاد»: ٤/٢٧٥، و«الداء والدواء»: ١٧٥، و«المنار المنيف»: ٣٢١، و«روضة المحبين»: ١٧٩ بوضعه وببطلانه من جهة المعنىٰ أيضاً، ووافقه الألباني في: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٤٠٩)؛ وخرَّجه تخريجاً جيِّداً. وأما الموقوفُ فضعيفٌ، لكن ليس مثل ضعف المرفوع، ولهذا قال ابن القيم في «الجواب الكافي»: نعم؛ ابن عباس لا يُنكر ذلك عنه. وقال في: «الزاد»: وفي صحته موقوفاً على ابن عباس نظر. ووافقه الألبانيُّ. وقد ذهبَ العلامةُ أبو عبدالرحمٰن الظَّاهري إلى تصحيحه موقوفاً (كيفَ يموتُ العشَّاقُ: ٢٤١)، وهو خطأ.

وقد علَّق الدكتور إحسان عباس هنا بقوله: «وقولُ ابنِ حزم: (في الآثار) دليلٌ على أنه لا يُصَحِّحُه» قلت: وهذا استنتاج صحيح، ولو كان ابنُ حزم يرى صحة الحديث؛ لصرَّح به، أو على الأقل لجزم بنسبته إلى النبي ﷺ. ولا يُعَكِّر على هذا قوله: (روىٰ هذا لنا قومٌ ثِقَاتٌ...)؛ لأن هذا من الشِّعر الذي يذكر منه ابن حزم ما يناسب المقام، ولا يلزم من ذلك الموافقة على مضمونه؛ كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه هذا.

(٢) استشهد بهذين البيتين الحافظ مُغْلَطاي، فيما نقله البقاعي في: «أسواق العشاق»، كما =

ولقد حدَّثني أبو السَّرِيّ عمَّارُ بنُ زيادٍ ـ صاحبنا ـ عمَّن يَثِقُ به: أنَّ الكاتبَ ابنَ قُزْمانَ[1] امتُحن بمَحبَّةِ أسلَم بن عبد العزيز، أخي الحاجب هاشم بن عبدالعزيز. وكانَ أسْلَمُ غايةً في الجمال، حتَّى أَضْجَعَه لما به، وأوقعه في أسباب المَنِيَّة. وكان أسلم كثيرَ الإلمام به، والزِّيارة له، ولا عِلْمَ له بأنَّه أصلُ دائه إلىٰ أن توفِّي أسَفاً ودَنَفاً.

قال المُخْبِرُ: فأخبرتُ أسلم بعد وفاته بسبب عِلَّتِهِ وموته فتأسَّفَ وقالَ: هلَّا أعلمتَني؟ فقلتُ: ولم؟ قال: كنتُ ـ والله! ـ أزيدُ في صِلَتِهِ، وما أكاد أفارِقُهُ، فما عليَّ في ذلكَ ضَرَرٍ.

وكانَ أسلمُ ـ هذا ـ من أهل الأدب البارع والتَّفَنُّنِ، مع حَظٍّ من الفِقْهِ وافرٍ، وذا بَصَارةٍ في الشِّعر، وله شِعْرٌ جيِّدٌ، وله معرفة بالأغاني وتصرُّفها، وهو صاحبُ تأليفٍ في طرائق غناء زِرْياب[2] وأخباره، وهو ديوانٌ عجيبٌ جدّاً، وكان أحسنَ النَّاسِ خَلْقاً وخُلُقاً، وهو والد أبي الجَعْدِ؛ الذي كان

= في: «كيف يموت العشاق» ٢٢٦، وذكرهما العجلوني في: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» ٢/٣٤٥، وملا علي القاري في: «الأخبار الموضوعة» ٣٥٢.

(١) قُزْمَان: بزاي ساكنة قبلها ضمٌّ. «توضيح المشتبه» ٧/١٩١.

(٢) قال ابن خلدون في: «تاريخه» ـ في صدد كلامه عن صناعة الغناء في العصر العباسي ـ: كان للموصليِّين غلام اسمه زرياب؛ أخذ عنهم الغناء فأجاد، فصرفوه إلى المغرب؛ غَيْرةً منه، فَلَحِقَ بالحكم بن هشام بن عبدالرَّحمٰن الدَّاخل، فبالغ في تَكْرُمَتِهِ، وركب للقائه، وأسنىٰ له الجوائزَ والإقطاعاتِ والجراياتِ، وأحلَّه من دولته وندمائه بمكانٍ، فأورثَ بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلىٰ أزمان الطَّوائف، طمىٰ منها بإشبيلية بحرٌ زاخرٌ، وتناقل منها ـ بعد ذهاب غَضَارتها ـ إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب، وانقسم علىٰ أمصارها، وبها الآن منها صبابة علىٰ تراجع عمرانها، وتناقص دولها. وهذه الصِّناعة ءاخرُ ما يحصل في العمران من الصَّنائع؛ لأنَّها كماليَّة في غير وظيفة من الوظائف؛ إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهي ـ أيضاً ـ أوَّل ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه، والله أعلم.

ساكناً بالجانب الغربي من قرطبة[1].

---

(1) هذه الرِّواية فيها اضطرابٌ شديدٌ، وليتَّضِحَ وَجْهُ ذلك؛ جمعتُ التَّعليقات عليها في هذا الموضع، فأقول:

ـ لم أعثر علىٰ ترجمة ابن قُزْمان الكاتب؛ إلا أن يكون: (أحمدَ بن كُلَيْبِ النَّحْوي) كما ذهب إليه كثير من الباحثين؛ وسيأتي شرح ذلك.

ـ أسلم بن عبدالعزيز؛ هو: العلامة الحافظ، قاضي قضاة الأندلس، أبو الجعد الأُمويُّ القرطبيُّ، الفقيه المالكيُّ، أحد الأعلام، مات سنة (٣١٩هـ)، مترجم في: «السِّير» ١٤/(٣١٤). وأخوه: هاشم بن عبدالعزيز؛ أبو خالد، مذكورٌ بفضلٍ وأدبٍ، كانَ خاصّاً بالأمير محمَّد بن عبدالرحمٰن؛ يُؤْثره بالوزارة، ويرشِّحه مع بنيه ومفرداً للقِيادة والإمارة، وكان ذا خلالٍ نبيلة من بأسٍ، وجودٍ، وفروسيةٍ، وكتابةٍ، وشِعْرٍ، ونكبه المنذر بن محمَّد لأشهرٍ من خلافته. ذكره ابن الأبَّار في: «الحلة السِّيراء» ١٣٧/١ الترجمة: (٥١)، والحميديُّ في: «جذوة المقتبس» ص٣٤٢، الترجمة: (٨٦٤).

ـ قوله عن أسلم: «له معرفةٌ بالأغاني....»؛ لا يستقيم، ولا يليق بقاضٍ فقيهٍ، وإنَّما عُرِفَ ذلك عن حفيده وسَمِيِّه: أبي الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبدالعزيز، ذكره الحميديُّ في: «الجذوة» ١٦٢/(٣٢١)، وقال: «له أدب وشعر، من أهل بيت علم وجلالة، وله كتابٌ معروفٌ في أغاني زرياب». مِنْ هنا ذهب الدَّارسون لطوق الحمامَة ـ ومنهم الدُّكتور إحسان عباس ـ إلىٰ أنَّ المذكور في النَّصِّ ليس هو القاضي الجَدُّ؛ إنما هو هذا الحفيد الأديب، وزادهم ظنّاً في ذلك؛ ما رواه الحميديُّ عن ابن حزم مِنْ قِصَّة حُبِّ أحمد بن كليب النحوي؛ لأسلم الحفيد، وهي قصَّة مشهورة ـ وقد ذكرناها كاملة في الملحق رقم: (٢) ـ وهذا يعني ـ فيما ذهبوا إليه ـ أنَّ ابنَ قُزْمان ـ المذكور في النَّصِّ ـ إنَّما هو ابن كليب!

قلتُ: وهذا التَّوجيه للرِّواية لا يزيل ما فيها من إشكال، وتوضيحه:

١ ـ إنَّ ابن حزم يروي هنا عن صاحبه: عمَّار بن زياد؛ عمَّن يثق به. أما قصة ابن كليب فيرويها عن شيخه محمد بن الحسن المذْحَجِيِّ.

٢ ـ إذا كان وصف أسلم ـ هنا ـ يطابق حال الحفيد؛ فإنَّ وصفه بأنه أخو هاشم يحمل علىٰ الجزم بأنَّ المقصودَ إنَّما هو الجَدُّ.

٣ ـ لم يذكروا في ترجمة أحمد بن كليب ولا في خبره؛ وصفَهُ بابن قزمان الكاتب، نعم؛ ذكر ذلك داود الأنطاكيُّ (١٠٠٨هـ) في: «تزيين الأسواق» ٣٣٩/٢، لكنه متأخِّرٌ لا يعتمد عليه، خاصة مع ما وقع فيه من أوهام وتخليطٍ؛ يطول شرحه.

٤ ـ ثم إنَّ بين الروايتين؛ اختلافاتٍ جذْرية في سياق القصَّة، فهنا لم يعلم أسلم بحال ابن قزمان، وهناك اشتهر أمر ابن كليب؛ وتنوشدت أشعاره في أسلم في الأعراس، وانقطع أسلم عن جميع مجالس الطَّلب! وهنا: عندما علم أسلم بسبب علَّة =

وأنا أعلم جاريةً كانتْ لبعض الرُّؤَساء، فعَزَفَ عنها لشيءٍ بلغه في جهتها - لم يكن يوجب السَّخَطَ - فباعها، فجَزِعَتْ لذلك جزعاً شديداً، وما فارقها النُّحول والأَسَفُ، ولا بانَ عن عينها الدَّمْعُ إلىٰ أن سُلَّتْ، وكان ذلك سَبَبَ موتها؛ ولم تَعِشْ بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأةٌ أثقُ بها أنَّها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولاً ورِقَّةً، فقالت لها: أحَسَبُ هذا الذي بك من محبَّتك لفلانٍ. فتنفَّسَت الصُّعداء، وقالت: والله لا نسيتُه أبداً، وإن كانَ جفاني بلا سببٍ. وما عاشَتْ بعد هذا القول إلا يسيراً.

وأنا أخبرك عن أبي بكرٍ أخي - رحمه الله -، وكانَ متزوِّجاً بعاتكةَ بنت قند[1]، صاحبِ الثَّغْرِ الأعلىٰ أيَّام المنصور أبي عامرٍ محمَّد بن [أبي] عامرٍ، وكانت التي لا مَرْمَىٰ وراءها في جمالها، وكَريم خلالها، ولا تأتي الدُّنيا بمثلها في فضائلها، وكانا في حدِّ الصِّبا، وتمكُّن سلطانه، تُغْضِبُ كلَّ واحدٍ منهما الكلمةُ التي لا قَدْرَ لها، فكانا لم يزالا في تغاضُبٍ وتعاتُب مدَّةَ ثمانيةِ أعوامٍ، وكانت قد شَفَّها حبُّه، وأضناها الوَجْدُ فيه، وأنحلها شدَّةُ كَلَفها به،

= وموت ابن قزمان؛ لأنه كان - لو علم بحاله - يزيد في صلته، ولا يكاد يفارقه. . .، وهناك: رفض أسلم زيارة ابن كليب مع علمه بعلَّته، وعظيم ما نزل به، بل كان ذلك سبب هلاكه!

قلت: فهذه الأمور تمنع من الاطمئنان التَّام إلى أنَّ الرِّواية المذكورة هنا؛ هي نفس قصَّة ابن كليب، ولولا وصف ابن حزم لأسلم بما لا يليق إلا بالحفيد؛ لجزمت أنَّ ما هنا قصة أخرىٰ، وقعت لكاتبٍ - لا نعرفه - مع أسلم القاضي. والأرجح أنَّ النَّصَّ قد تعرَّضَ لاختصارٍ مُخِلٍّ، وحَذْفٍ مُشَوِّهٍ من النَّاسِخِ، والله أعلم.

(١) انظر ليفي بروفنسال: (Histoire de L'Espagne Musulmane, Voi, II, p.64, n3.) وقند هذا (ويكتبه بروفنسال Kand وأحسبه خطأ) هو الذي استردَّ مدينة سالم في أيام الناصر (سنة ٣٣٦هـ) ويقول بروفنسال في تعليقه: «علينا ألاّ نخلط بين قند هذا وبين شخص ءاخر اسمه «قند الأكبر» وكان أيضاً مولى لعبدالرحمٰن الناصر». (ع).

حتَّىٰ صارتْ كالخيال المُتَوَسِّمِ[1] دَنَفاً، لا يُلهيها من الدُّنيا شيءٌ، ولا تُسَرُّ من أموالها ـ علىٰ عَرْضِها وتكاثرها ـ بقليلٍ ولا كثيرٍ إذ فاتها اتِّفاقه معها، وسلامته لها، إلىٰ أن توفِّي أخي ـ رحمه الله ـ في الطَّاعون الواقع بقرطبةَ في شهر ذي القعدة سنة إحدىٰ وأربع مئة، وهو ابنُ اثنَتَيْنِ وعشرينَ سنةٍ، فما انفكَّتْ منذ بانَ عنها من السُّقْمِ الدَّخيل، والمرض والذُّبول؛ إلىٰ أن ماتَتْ بعده بعامٍ في اليوم الذي أكملَ هو فيه تحتَ الأرض عاماً. ولقد أخبرَتْني عنها أمُّها، وجميعُ جواريها؛ أنَّها كانت تقول بعدَه: ما يقوِّي صبري، ويُمسك رَمَقي في الدُّنيا ـ ساعةً واحدةً بعد وفاته ـ إلا سروري وتيقُّني أنَّه لا يضمُّهُ وامرأةً مَضْجَعٌ أبداً، فقد أمنتُ هذا الذي ما كنتُ أتخوَّف غيره، وأعظم ءامالي اليوم اللَّحاقُ به. ولم يكن له قبلها ولا معها امرأةٌ غيرها، وهي كذلكَ لم يكن لها غيره، فكان كما قدَّرَتْ، غفرَ الله لها ورضيَ عنها.

وأمَّا خبرُ صاحبنا أبي عبدالله محمَّدِ بن يحيى بن محمد بن الحسين[2] التَّميميِّ المعروف بابن الطَّبني[3]: فإنَّه كان ـ رحمه الله ـ كأنَّه

---

(١) واضحة في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها (ع): المتوهِّم. والصَّواب ما في الأصل، يقال: توسَّم الشيء: تخيَّله وتفرَّسه، والمتوسِّم: المتحلِّي بِسمَةٍ. ومراد أبي محمَّدٍ ـ رحمه الله ـ أنَّها قد أدنفها ـ أي: لازمها ـ المرضُ؛ حتىٰ صارت كأنَّها خيالٌ في نفس الأمر قد تحلَّتْ بصورة الحقيقة. وهذا تصوير ذكيٌّ للمعنىٰ، يظهر بالتَّأمُّل!

(٢) خ: الحسن. وهو تحريف.

(٣) بنو الطبني أصلهم من منطقة الزاب في المغرب (الجزائر حالياً)، أول من بنى بيت شرفهم بالأندلس أبو مضر زيادة الله بن علي الطبني إذ كان نديم محمد بن أبي عامر، وقد ترجم ابن بسام لعدد منهم (انظر ١/١ : ٥٣٥ ـ ٥٤٧) وهناك فرع ءاخر من الطبنيين وهم: محمد بن حسين الطبني وعقبه (الصلة: ٥٦٢ والجذوة: ٤٧) وقد كان لمحمد ابن هو يحيى، فأعقب يحيى ثلاثة من الأولاد وهم: أبو بكر إبراهيم (الجذوة: ١٤٩) وأبو عبدالله محمد، وهو هذا الذي كان صديقاً لابن حزم (الجذوة: ٩٢) وأبو عمر القاسم وكان أيضاً أديباً شاعراً (الجذوة: ٣١٣ وسيذكره ابن حزم) (ع).

قد خُلِقَ الحُسْنُ علىٰ مثاله، أو خُلِقَ من نفسٍ كل من رءاه، لم أشاهد له مِثْلاً حُسناً، وجمالاً، وخُلُقاً، وعِفَّةً، وتصاوناً، وأدباً، وفهماً، وحِلْماً، ووفاءً، وسؤدداً، وطهارةً، وكرماً، ودِمَاثةً، وحلاوةً، ولَبَاقةً، وصَبْراً، وإغضاءً، وعقلاً، ومروءَةً، وديناً، ودرايةً وحِفظاً للقرءان والحديث والنَّحو واللُّغة، و [كان] شاعراً مفلقاً، وحَسَنَ الخطِّ، وبليغاً مفنِّناً، مع حظٍّ صالحٍ من الكلام والجَدَلِ، وكان من غِلْمَانِ أبي القاسم عبدالرحمن بن أبي يزيد الأزديِّ ـ أستاذي في هذا الشَّأن ـ وكان بينه وبين أبيه اثنا عَشَرَ عاماً في السِّنِّ، وكنتُ أنا وهو متقاربَيْنِ في الأسنان، وكنَّا أَلِيفَيْنِ لا نَفْتَرِقُ، وخِدْنَيْنِ لا يجري الماءُ بيننا إلا صفاءً، إلىٰ أن ألقت الفتنة جِرانها، وأرخت عَزاليها، ووقع انتهابُ جندِ البَربَر منازِلَنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها، وكان مسكنُ أبي عبدالله في الجانب الشَّرقي ببلاط مُغيثٍ، وتقلَّبتْ بي الأمور إلىٰ الخروج عن قرطبة، وسُكنى مدينةِ المَرِيَّة، فكنا نتهادىٰ النَّظْمَ والنَّثر كثيراً، وءاخر ما خاطبني به رسالةٌ في دَرْجِها هذه الأبيات[1]: [من الخفيف]

ليتَ شِعْري عن حَبْلِ وُدِّكَ هل يُمـ ... ـسي جَديداً لديَّ غيرَ رَثيثِ

وأراني أرىٰ مُحَيَّاكَ يوماً ... وأُناجيكَ في بلاط مُغِيث

فلو أنَّ الدِّيارَ يُنهِضُهَا الشَّوْ ... قُ أتاكَ البلاطُ كالمُسْتَغِيث[2]

ولو أنَّ القلوبَ تَسْطيعُ سَيْراً ... سار قلبي إليكَ سَيْرَ الحَثيثِ

كنْ كما شِئتَ لي فإنِّي مُحِبٌّ ... ليسَ لي غيرُ ذِكْرِكُمْ من حديثِ

لكَ عندي وإنْ تناسَيْتَ عَهدٌ ... في صَمِيمِ الفؤادِ غيرُ نكيثِ

---

(١) أورد الحميدي هذه الأبيات في: «الجذوة» ٩٢ (وانظر «البغية»، رقم: ٣١٦) (ع).

(٢) وقع هذا البيت بعد الذي يليه في: «الجذوة».

فكنَّا علىٰ ذلك إلىٰ أن انقطعت دولةُ بني مروان، وقُتِلَ سليمان الظَّافر أميرُ المؤمنين، وظهرت دولة الطَّالبية[1]، وبويع عليُّ بن حَمُّود الحَسَنيُّ[2] المسمَّىٰ بالنَّاصر بالخلافة، وتغلَّب على قرطبة وتملَّكها، واستمدَّ في قتاله إيَّاها بجيوش المتغلِّبينَ والثُّوَّار في أقطار الأندلس.

وفي إثر ذلك نكبَني خيرانُ صاحبُ المَرِيَّة، إذ نَقَلَ إليه مَن لم يَتَّقِ الله - عزَّ وجلَّ - من الباغِينَ - وقد انتقم الله منهم - عنِّي وعن محمَّدِ بن إسحاقَ - صاحبي - أنَّا نسعىٰ في القيام بدعوة الدَّولة الأُمَوِيَّة، فاعتَقَلَنا عند نفسه أشهراً، ثم أَخْرَجنا علىٰ جهة التَّغْريب فصِرْنا إلى حِصْنِ القَصْر[3]، ولَقِينا صاحبه أبو[4] القاسم عبدالله بن محمَّد بن هذيل التُّجِيبي، المعروف ابن المُقَفَّل، فأقمنا عنده شهوراً في خير دارِ إقامةٍ، وبَيْنَ خير أهلٍ وجيرانٍ، وعند أجلِّ النَّاسِ هِمَّةً، وأكملهم معروفاً، وأتمِّهم سيادةً.

ثم ركبنا البحر قاصدينَ بَلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضىٰ عبدالرحمن بن محمَّد، وساكنَّاه بها، فوجدتُ ببلنسيةِ أبا شاكرٍ عبدَ الرَّحمن بن محمد بن موهب القَبريَّ[5] - صَدِيقَنا -، فنعىٰ إليَّ أبا عبدالله ابن الطَّبني، وأخبرني بموته - رحمه الله - ثُمَّ أخبرني بعد ذلك بمُدَيْدةٍ القاضي

---

(١) دولة الطَّالبية: يعني دولة بني حمود لأنَّهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب.

(٢) انظر أخبار علي بن حمود (قتل سنة ٤٠٨هـ) في: «الجذوة» ٢١، و«أعمال الأعلام»: ١٢٨، و«البيان المغرب»: ٣/١١٩، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة ٤١ /الترجمة: ٢٥٥).

(٣) حصن القصر (Aznalcazar) يقع إلى الجنوب الغربي من إشبيلية (ترجمة الروض: ٧٣ التعليق: ١) (ع).

(٤) خ: أبي. وهو خطأ.

(٥) القَبْري: نسبة إلى مدينة قبرة (Cabra) بالأندلس.

أبو الوليد يونس بن محمَّد المُرادي[1]، وأبو عمرو أحمد بن محرز؛ أنَّ أبا بكر المُصعب بن عبدالله الأزديَّ المعروف بابن الفَرضيِّ[2] حدثهما ـ وكان والد المصعب ـ هذا ـ قاضيَ بلنسية أيَّام أمير المؤمنين المهديِّ[3]، وكانَ المُصعبُ لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيَّام طلبنا الحديثَ على والده وسائر شيوخ المحدِّثينَ بقرطبة ـ قالا: قال لنا المصعب: سألتُ أبا عبدالله ابن الطِّبني عن سبب علَّته ـ وهو قد نَحِلَ وخفيتْ محاسنُ وجهه بالضَّنىٰ فلم يبقَ إلا عينُ جوهرها المُخْبِرُ عن صفاتها السَّالفة، وصار يكادُ أن يُطيره النَّفَس، وقَرُب من الانحناء، والشَّجا بادٍ على وجهه، ونحن منفردان ـ فقال لي: نعم؛ أخبركَ! إنِّي كنتُ علىٰ باب داري بغدير ابن الشَّمَّاسِ[4] في حين دخول عليِّ بن حَمُّود قرطبة[5]، والجيوشُ واردةٌ عليها من الجهات تتسارب، فرأيتُ في جملتهم فتىً لم أقدِّر أنَّ للحُسْنِ صورةً قائمةً حتَّىٰ رأيته، فغلب على عقلي،

---

(١) يونس بن محمد: نسبه هنا لجده، وهو: يونس بن عبدالله بن محمد بن مغيث. تقدَّم التعريف به (٢٣ ـ باب الغدر)، ويضاف إلى مصادر ترجمته: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٣ /الترجمة: ٣٢٦).

(٢) مصعب ابن الحافظ المؤرخ أبي الوليد عبدالله بن محمَّد بن يوسف ابن الفرضي، أبو بكر الأزدي القرطبي. قال الحميديُّ: أديب، محدِّث، أخباريٌّ، شاعرٌ، وَلِيَ الحكم بالجزيرة. كان حيّاً قبل الأربعين وأربع مئة. «جذوة المقتبس» (٨٢٨)، «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٤ /الترجمة: ٣٣٧).

(٣) قام محمد بن هشام الملقَّب بالمهدي على هشام المؤيد في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩، فإذا كانت ولاية ابن الفرضي القضاء له على بلنسية صحيحة فلا بد أنها كانت فترة قصيرة، لأن المهدي لبث منذ قيامه إلى أن قُتل ستة عشر شهراً، وقد ذكر ابن بشكوال أيضاً أن المهدي استقضىٰ ابن الفرضي بكورة بلنسية (الصلة: ٢٤٨) (ع).

(٤) في الأصل: بقديد الشَّماس. ويستفاد من ترجمة: أبي إسحاق المؤدِّب في: «التكملة لكتاب الصِّلة» لابن الأبَّار (ص: ٢٣٣، الترجمة ٥١٣) القطعة التي طبعها: الفريد بل، وابن أبي شنب (الجزائر: ١٩٢٠)؛ أن غدير ابن الشمَّاس هي من أحياء قرطبة. وكان بروفنسال أول من نبَّه إلى هذا.

(٥) دخلها في الثَّاني والعشرين من المحرَّم سنة (٤٠٧هـ).

وهام به لُبّي، فسألتُ عنه فقيل لي: هذا فلان بن فلان، من سُكّان جهة كذا؛ ناحيةٍ قاصِيَةٍ عن قرطبة، بعيدةِ المَأْخَذ. فيئستُ من رؤيته بعد ذلك. ولعمري! - يا أبا بكر! - لا فارقني حُبُّه، أو يُورِدَني رَمْسي. فكانَ كذلك.

وأنا أعرفُ ذلك الفتىٰ وأدريه، وقد رأيْتُهُ، لكنّي أضربتُ عن اسمه لأنّه قد ماتَ، والتقىٰ كلاهما عند الله - عزَّ وجلَّ -، عفا الله عن الجميع. هذا على أنَّ أبا عبدالله - أكرم الله نزله - مَمَّنْ لم يكن له وَلَهٌ قَطُّ، ولا فارقَ الطريقةَ المُثْلىٰ، ولا وَطِىءَ حراماً قطُّ، ولا قارَفَ مُنْكِراً، ولا أتىٰ مَنْهِيّاً عنه يُخِلُّ بدينه ومُرُوءَتِهِ؛ ولا قارضَ من جَفَا عليه، وما كانَ في طَبَقَتِنا مِثْلَه.

ثم دخلتُ أنا قرطبةَ في خلافة القاسم بن حمود المَأْمُون[1] فلم أقدِّمْ شيئاً على قَصْدِ أبي عمرٍو القاسم بن يحيىٰ التميميّ أخي أبي عبدالله - رحمه الله - فسألته عن حاله، وعزَّيْتُهُ عن أخيه -، وما كانَ أولىٰ بالتَّعزية عنه منّي -، ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذ كانَ الذي عندي منه قد ذهبَ بالنَّهْبِ في السَّبَبِ الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية، فأخبرني عنه أنّه لمّا قَرُبَتْ وفاته، وأيقن بحضور المَنِيَّة، ولم يشكَّ في الموت؛ دعا بجميع شِعْره، وبكتبي التي كنتُ خاطبتُهُ أنا بها، فقطَّعها كلَّها ثم أمر بدفنها. قال أبو عمرو: فقلتُ له: يا أخي دَعْها تبقىٰ! فقال: إنّي أقطّعها؛ وأنا أدري أنّي أقطّعُ فيها أدباً كثيراً، ولكن لو كانَ أبو محمَّدٍ - يعنيني - حاضراً لدفعتُها إليه تكونُ عنده تذكرةً لمودَّتي، ولكنّي لا أعلم أيَّ البلاد اضمرتْهُ ولا أحيٌّ هو أم مَيْتٌ! وكانتْ نكبتي اتَّصَلَتْ به، ولم يعلم مُسْتَقَرّي، ولا إلىٰ ما ءَال [إليه] أمري. فمن مراثيَّ له قصيدة منها: [من المتقارب]

---

(١) حكم القاسم بن حمود قرطبة بعد مقتل أخيه (٤٠٨) وبقي حتى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ حين ثار عليه ابن أخيه (يحيى بن علي) فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال (ع).

لـئـن سَـتَـرَتْـكَ بُـطـونُ الـلُّـحُـود فـوَجـديَ بَـعْـدَكَ لا يَـسْـتَـتِـرْ
قَـصَـدْتُ ديـارَكَ قَـصْـدَ الـمَـشُـوق ولـلـدَّهْـرِ فـيـنـا كَـرُورٌ ومَـر
فـألـفـيـتُـهـا مِـنْـكَ قَـفْـراً خَـلاءً فـأَسْـكَـبْـت عَـيْـني عَـلَـيْـكَ الـعِـبَـر

وحدَّثني أبو القاسم الهَمْداني[١] ـ رحمه الله ـ قالَ: كانَ معنا ببغدادَ أخٌ لعبدالله بن يحيىٰ بن أحمد بن دحُون الفقيه[٢]، الذي عليه مدارُ الفتيا بقرطبةَ، وكان أعلمَ من أخيه وأجلَّ مقداراً، ما كانَ في أصحابنا ببغدادَ مِثْلَهُ، وإنَّه اجتازَ يوماً بدَرْبِ قطنة[٣]، في زقاقٍ لا ينفِذُ، فدخل فيه فرأىٰ في أقصاه جاريةً واقفةً مكشوفةَ الوَجْهِ، فقالت له: يا هذا إنَّ الدَّرب لا ينفذ. قالَ: فنظر إليها، فهام بها. قال: وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها، وخشِيَ الفتنةَ فخرج إلىٰ البصرة، فماتَ بها عِشْقاً ـ رحمه الله ـ وكان ـ فيما ذُكِرَ ـ من الصَّالحين.

حكايةٌ لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر: أنَّ رجلاً أندلسيّاً باع

---

(١) هو أبو القاسم عبدالرحمٰن بن عبدالله بن خالد الهمذاني (أو الهمداني) الوهراني المعروف بابن الخراز، رحل إلى المشرق ولقي الأبهري أبا بكر وغيره، وكان رجلاً صالحاً منقبضاً، داره ببجانة، وكان معاشه من ثياب يبتاعها ببجانة ويقصُرها ويحملها إلى قرطبة فتُباع له ويبتاع بثمنها ما يصلح لبجانة، ويجلب معه كتبه فتُقرأ عليه في خلال ذلك، وكان يرد قرطبة كل عام إلى أن وقعت الفتنة، وتوفي سنة ٤١١، روى عنه ابن حزم وابن عبد البر وغيرهما (الصلة: ٣٠٥ والجذوة: ٢٥٦ والبغية رقم: ١٠٢٢) قلت: وقد ورد «الهمذاني» بالذال المعجمة بضبط ابن بشكوال، وفي الجذوة بالمهملة، والأول أرجح، رغم أنه وهراني (ع). قلت: بل الصَّواب بالدَّال، كما في: (خ).

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن يحيى بن أحمد المعروف بابن دحون (ـ٤٣١هـ). كان من جلّة الفقهاء وكبارهم عارفاً بالفتوى حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه عارفاً بالشروط وعللها، عُمّر وأسن وانتفع الناس به (الصلة: ٢٦٠) (ع).

(٣) لم يذكر لسترانج في كتابه: (Baghdad During the Abbasid Caliphate) درباً بهذا الاسم؛ وأقرب ما وجدته هنالك «دار القطنية» (أي قصر سوق القطن) فلعل هناك درباً مجاورة له كانت تسمى «درب القطنية» (٢٦٥) ويلي هذا من حيث شكل الكلمة «درب قحطبة» (١٤٠، ١٤١) (ع).

جاريةً ـ كانَ يجدُ بها وَجْداً شديداً ـ لفاقةٍ أصابته، من رجلٍ من أهل ذلك البلد، ولم يظنَّ بائعها أنَّ نفسه تتبعها ذلك التَّتَبُّعَ؛ فلمَّا حصلت عند المشتري كادتْ نفس الأندلسيِّ تخرج، فأتىٰ إلىٰ الذي ابتاعها منه، وحكَّمه في ماله أجمعَ وفي نفسه؛ فأبىٰ عليه، فتحمَّل عليه بأهل البلد فلم يُسْعِفْ منهم أحدٌ، فكادَ عقله أن يذهبَ، ورأىٰ أنْ يتصدَّىٰ إلى الملك، فتعرَّض له وصَاحَ، فسمعه فأَمَرَ بإدخاله، والملكُ قاعدٌ في عِلِّيَّةٍ[1] له مشرفةٍ عالية، فوصل إليه، فلما مَثُلَ بين يديه؛ أخبره بقصَّته، واسترحمه، وتضرَّع إليه، فرقَّ له الملك، فأمر بإحضار الرَّجُل المبتاع؛ فحَضَر. فقال له: هذا رجلٌ غريبٌ وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليك. فأبىٰ المبتاع وقالَ: أنا أشدُّ حباً لها منه، وأخشىٰ إنْ صرفتها إليه أن أستغيثَ بك غداً، وأنا في أسوأ من حالته. فرامَ به[2] الملك ومَنْ حواليه في أموالهم، فأبىٰ ولجَّ واعتذرَ بمحبته لها، فلمَّا طال المجلسُ، ولم يروا منه البتَّةَ جُنوحاً إلىٰ الإسعاف، قال للأندلسيِّ: يا هذا، مالكَ بيدي أكثرَ ممَّا ترىٰ، وقد جهدتُ لك بأبلغ فعْيي، وهو ـ تراه ـ يعتذر بأنَّه فيها أحبُّ منك، وأنَّه يخشىٰ على نفسه شرّاً ممَّا أنت فيه، فاصبر لِمَا قضىٰ الله عليك. فقال الأندلسيُّ: فما لي بيدك حيلةٌ؟ قال له: وهل هاهنا غير الرَّغْبة والبَذْلِ؟ ما أستطيع لك أكثر. فلما يئسَ الأندلسيُّ منها جَمَعَ يديه ورجليه، وانصبَّ من أعلىٰ العليَّةِ إلىٰ الأرض، فارتاعَ المَلِكُ وصَرَخَ، فابتدرَ إليه الغلمان من أسفل، فقُضِيَ أنَّه لم يتأذَّ في ذلك الوقوع كبيرَ أذىً، فَصُعِدَ به إلى الملك، فقال: ماذا أردتَ بهذا؟ فقال: أيُّها الملك! لا سبيلَ لي إلى الحياةِ بعدها. ثم هَمَّ أن يرمي

---

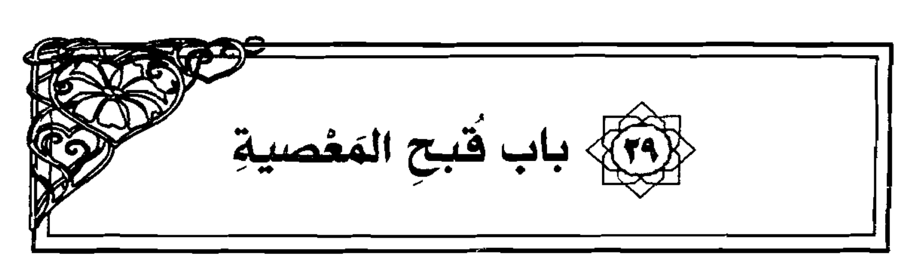
(١) العِلِّيَّةُ ـ بكسرتين، وتُضَمُّ العين ـ: الغرفة، جمعه: العلالي «قاموس».

(٢) كذا في الأصل، والمعنىٰ: أنَّهم رغَّبوه في أخذ المال. وجعلها (ع): (فأذمَّ له)، وقال: أذمُّوا له: أي تكفَّلوا له بشيءٍ من أموالهم. وقرأها برشيه حسب المعنى: فرغبه.

نفسه ثانيةً، فَمُنِعَ. فقالَ الملكُ: الله أكبر! قد ظهر وجه الحُكم في هذه المسألة. ثُمَّ التفتَ إلى المشتري؛ فقال: يا هذا، إنَّكَ ذكرتَ أنَّكَ أودُّ لها منه، وتخافُ أن تَصِيرَ في مثل حاله. فقال: نعم. قالَ: فإنَّ صاحبك هذا قد أبدى عُنوانَ محبَّته وَقَذَفَ بنفسه يُريد الموتَ لولا أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقاه، فأنتَ قُمْ فصحِّحْ حُبَّكَ، وترامَ من أعلىٰ هذه القَصَبَةِ كما فعل صاحبك، فإن مُتَّ فبأجلك، وإن عِشْتَ كنتَ أولىٰ بالجارية، إذ هي في يَدِكَ، ويَمْضي صاحبك عنك، وإن أبيتَ نَزَعْتُ الجاريةَ منك رُغْماً ودفعتها إليه. فتمنَّع، ثُمَّ قال: أترامَىٰ، فلمَّا قرب من الباب، ونظر إلى الهويِّ تحته رجع القَهْقَرىٰ. فقالَ له الملكُ: هو ـ والله! ـ ما قلتُ لكَ. فهمَّ ثم نَكِلَ، فلمَّا لم يُقْدِم، قال له الملكُ: لا تتلاعبْ بنا، يا غلمان! خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض. فلمَّا رأى العزيمةَ، قال: أيُّها الملك! قد طابتْ نفسي بالجارية. فقال له: جزاكَ الله خيراً؛ فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها، وانصرفا.

❋ ❋ ❋





باب قُبحِ المَعْصيةِ

قال المصنِّف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ:

وكثيرٌ من النَّاس يُطيعونَ أنفسهمِ؛ ويَعْصُونَ عقولهم، ويَتَّبعوُنَ أهواءهم؛ ويَرْفُضونَ أَدْيانهم، ويتجنَّبونَ ما حضَّ الله ـ تعالى ـ عليه ورتَّبه في الألباب السَّليمة من العِفَّة، وترك المعاصي، ومقارَعَةِ الهوىٰ، ويخالفونَ الله ربَّهم ويوافقون إبليسَ فيما يُحِبُّه من الشَّهوة المُعْطِبَةِ؛ فيواقعُونَ المعصيةَ في حُبِّهم.

وقد عَلِمْنا أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ركَّب في الإِنسان طبيعَتَيْنِ متضادَّتَيْنِ:

إحداهما: لا تَشِيرُ إلاَّ بخيرٍ ولا تحضُّ إلا على حَسَنٍ، ولا يُتَصَّور فيها إلا كلُّ أمر مَرْضيٍّ، وهي العقل، وقائِدُهُ العَدْلُ.

والثانية: ضدُّ لها، لا تشيرُ إلاَّ إلىٰ الشَّهوات، ولا تقُودُ إلا إلىٰ الرَّدىٰ، وهي النَّفْس، وقائدها الشَّهْوة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وكنَّىٰ بالقلب عن العقل، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] وخاطبَ أولي الألبابَ.

فهاتان الطبيعتان قُطبان في الإنسان، وهما قوَّتان من قوى الجسد الفعَّال بهما، ومَطْرَحانِ من مَطَارح شُعاعاتِ هذين الجَوْهَرَيْنِ العَجِيبَيْنِ الرَّفيعَيْنِ العُلْوِيَّيْنِ[1]، ففي كلِّ جَسَدٍ منهما حظُّه على قَدْرِ مقابلته لهما في تقدير الواحد الصَّمَدِ ـ تقدَّست أسماؤه ـ حينَ خلقه وهَيَّأَهُ؛ فهما يتقابلان أبداً، ويتنازعان دَأباً، فإذا غلبَ العقلُ النَّفْسَ ارتدع الإنسانُ، وقَمَعَ عوارِضَهُ المدخولةَ واستضاءَ بنورِ الله واتَّبع العدلَ، وإذا غلبتِ النَّفْسُ العَقلَ عَمِيَتْ البصيرة، ولم يَصِحَّ الفرقُ بين الحَسَنِ والقبيح، وعظُم الالتباس، وتردَّى في هُوَّةِ الرَّدىٰ، ومهواة الهَلَكَةِ، وبهذا حَسُنَ الأمر والنَّهْيُ، ووجب الامتثالُ[2]، وصحَّ الثَّوابُ والعقاب، واسْتُحِقَّ الجزاء.

والرُّوحُ واصلٌ بين هاتين الطَّبيعَتيْنِ، وموصلٌ ما بينهما، ومحلٌّ[3] الالتقاء بهما، وإن الوقوف عند حدِّ الطَّاعة لمعدومٌ إلا مع طول الرِّياضةِ، وصحَّةِ المعرفة، ونفاذ التَّمييز، ومع ذلك اجتناب التَّعرُّض للفِتَن، ومداخلةِ النَّاسِ جملةً، والجلوسُ في البيوت، وبالحَرِيِّ أن تقع السَّلامةُ المضمونة، أو يكونَ الرَّجُلُ حَصوراً لا أربَ له في النِّساء، ولا جارحةَ له تعينه عليهنَّ،

---

(١) قال الدكتور إحسان عبَّاس معلِّقاً علىٰ هذا الموضع: إذا كانت النفس لا تشير إلا إلى الشهوات ولا تقود إلا إلى الردى ـ كما يقول ابن حزم ـ فكيف تكون جوهراً عجيباً رفيعاً علويّاً! هنا يبدو الخلط الشديد بين النفس «الأمَّارة بالسوء» والنفس التي «هبطت إليك من المحل الأرفع».

وتعقَّبه العلامة أبو عبد الرحمٰن الظَّاهري بقوله: «لا تعارض فالنَّفس بمعنى الرُّوح لها حال قبل حلولها الجسد، وأبو محمد يتكلَّم عنها حال حلولها بالجسد.

وابن حزم يريد بالنَّفس ـ هنا ـ مجموع الإنسان جسداً وروحاً.

والنَّفس أيضاً ـ فيها نوازع الخير والشر، والعقل يُرجِّح ويختار». (كيف يموت العشَّاق: ١٨٤).

(٢) خ: الاكتمال.

(٣) خ: وحامل.

وقديماً ورد[1]: «من وُقِيَ شرَّ لقْلَقِهِ، وقَبْقَبِهِ، وذَبْذَبِهِ؛ فقد وُقيَ شَرَّ الدُّنيا بحذافيرها. واللَّقلق: اللِّسانُ، والقبقب: البطن، والذَّبذب: الفرج»[2].

ولقد أخبرني أبو حفصٍ الكاتبُ[3] - [و]هو من ولد رَوح بن زِنْباع الجُذاميّ[4] - أنَّه سمع بعض المتسمَّيْنِ باسم الفقه من أهل الرِّواية المشاهير، وقد سُئِلَ عن هذا الحديث فقال: القبقب: البطِّيخ!

وحدَّثنا أحمدُ بن محمَّد بن أحمد، قال: حدَّثنا وهب بن مَسرَّة[5]

---

(١) خ: قديماً. ولقد.

(٢) هذه حكمة قديمة رواها الدُّوريُّ في: «تاريخ ابن معين» (٤٦٨٦) عنه قال: قال الأصمعيُّ: سمعتُ أبا الأشهَب [جعفر بن حيَّان العُطاردي، الإمام الحجَّة، أخرج له الجماعة، مات سنة ٢٦٥هـ]؛ يقولُ: إذا وُقِيَ الشَّابُّ شرَّ ثلاثةٍ فقد وُقي: قبقبه، ولقلقه، وذبذبه. قال يحيىٰ: فسَّره الأصمعيُّ. فذكر معاني الألفاظ الثلاثة باللَّفظ الذي نقله ابن حزم.

وقد ورد هذا في حديثٍ مرفوع؛ بلفظ: **«فقد وُقي الشَّر كلَّه»**: أخرجه البيهقيُّ في: «شُعَبِ الإيمان» (٥٤٠٩) عن أنس - رضي الله عنه - وقال: «في إسناده ضعف»، وأورده الديلمي في: «الفردوس» (٥٩٧٨)؛ من حديث أنس - أيضاً - بلفظ: **«فقد وجبت له الجنة»** وضعَّف الحافظ العراقي إسناده، وأورده الألباني في: «الضعيفة» (٢٤٤٨)؛ وقال: «ضعيف جدّاً»، وأورد له ثلاث عللٍ، ثم قال: «ثمَّ إنَّ الحديثَ علَّقه ابن حزم في جملة ما علَّق من الأحاديث الواهية في كتابه: «طوق الحمامة» بلفظ حديث التَّرجمة، ولكنَّه قالَ: «فقد وقي شرَّ الدُّنيا بحذافيرها» ولم أقف عليه بهذا اللَّفظ».

قلت: نقد العلامة الألبانيّ - رحمه الله - لا يرد على ابن حزم في هذا الموضع؛ فإنَّه لم يصرِّح برفعه، بل أعرض عن ذلك قصداً؛ إشارةً إلى عدم ثُبوته، والله أعلم.

(٣) أرجح أنه أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الكاتب، وقد كان يتردد على ابن حزم بالمريَّة (الجذوة: ١٠٧) (ع).

(٤) روح بن زنباع؛ الأمير الشّريف أبو زرعة الجذامي الفلسطينيُّ، سيّدُ قومه، وكان شبه الوزير للخليفة عبدالملك. ولأبيه صحبة، أمَّا هو فتابعيٌّ جليلٌ وليس بصحابيّ. توفي سنة (٨٤هـ). «سير أعلام النبلاء» ٤/(٩١)، و«البداية والنهاية» ٩/٥٤ - ٥٥ وقد كانت دار جذام بالأندلس: شذونة، والجزيرة، وتدمير، وإشبيليَّة (جمهرة ابن حزم: ٤٢١).

(٥) وهب بن مسرة الحجاري التميمي أبو الحزم (-٣٤٦) حضر إلى قرطبة وأخرجت إليه أصول محمد بن وضاح التي سمع فيها (ابن الفرضي ٢: ١٦١) (ع).

ومحمَّد ابن أبي دليم[1]، عن محمَّد بن وضَّاح[2]، عن يحيىٰ ين يحيىٰ، عن مالك بن أنسٍ، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ في حديثٍ طويلٍ: «**مَنْ وَقَاهُ الله شَرَّ اثْنتَيْنِ دَخَلَ الجَنَّة**». فسُئِلَ عن ذلك؛ فقالَ: «**مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وما بَيْنَ رِجْلَيْهِ**»[3].

وإنِّي لأَسْمَعُ كثيراً مِمَّنْ يقولُ: الوفاءُ في قَمْعَ الشَّهوات في الرِّجال دونَ النِّساء. فأُطيلُ العَجَبَ من ذلك، وإنَّ لي قولاً لا أحول عنه: الرِّجالُ والنِّساء في الجنوح إلىٰ هذين الشَيئَيْنِ سواءٌ، وما رجلٌ عَرَّضَتْ له امرأةٌ جميلةٌ بالحُبِّ وطالَ ذلك، ولم يكن ثَمَّ مانع، إلا وقع في شَرَكِ الشَّيْطانِ، واستهوتْهُ المعاصي، واستفزَّه الحِرْصُ، وتَغوَّلَهُ الطَّمع، وما امرأةٌ دعاها رجلٌ بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته؛ حَتْماً مَقضيَاً، وحكماً نافذاً لا محيدَ عنه البتَّةَ[4].

ولقد أخبرني ثِقَةٌ صَدْقٌ من إخواني، من أهلِ التَّمام في الفقه والكلام

---

(١) هو محمد بن محمد بن عبدالله بن أبي دليم (ـ٣٧٢) قرطبي يكنى أبا عبدالله، وكان ضابطاً لكتبه ثقة مأموناً مجتهداً عابداً عاش صرورة (ابن الفرضي ٢: ٨٥ وترتيب المدارك ٤: ٤٤١) ووهم الدكتور الطَّاهر مكي فترجم لأخيه عبدالله بن محمد في موضعه (ع).

(٢) محمد بن وضاح (٢٠٠ ـ ٢٨٧) قرطبي، رحل إلى المشرق مرتين وسمع كثيراً وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه ورعاً متعفِّفاً (ابن الفرضي ٢: ١٧ والجذوة: ٨٧) (ع).

(٣) «الموطَّأ» (١٧٨٧)، وهو مرسل؛ لكن يشهد له حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن وقاه الله شرَّ ما بين لَحْيَيه، وشرَّ ما بين رجليه؛ دخل الجنَّة**». أخرجه الترمذي (٢٤٠٩)، وابن حبان (٥٧٠٣) بإسنادٍ حسنٍ، وأورده الألبانيُّ في: «الصحيحة» (٥١٠)؛ وذكر شواهده. وعند البخاريِّ (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعدٍ ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن يضمن لي ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رِجلَيهِ؛ أضمَنُ له الجنَّة**».

(٤) يتجاوز ابن حزم هنا موقف الجاحظ الذي جعل سهولة الانقياد من نصيب المرأة وحدها، وكأنه يردّ عليه (١: ١٦٩ ـ ١٧٠) (ع).

والمعرفة وذو صلابة في دينه؛ أنَّه أحبَّ جاريةً، نبيلةً، أديبةً، ذاتَ جمالٍ بارعٍ، قال: فعرَّضتُ لها فَنَفرَتْ، ثُمَّ عرَّضْتُ فأبَتْ، فلم يَزَل الأمرُ يطول، وحبُّها يَزِيدُ، وهي لا[1] تُطيع البَتّةَ، إلىٰ أن حملني فَرْطُ حُبيِّ لها مع عَمىٰ الصِّبا علىٰ أن نذرتُ أنِّي متىٰ نلتُ منها مرادي أتُوبُ إلىٰ الله توبةً صادقةً. قال: فما مَرَّتِ الأيامُ واللَّيالي حتَّىٰ أذْعَنَتْ بعدَ شِماسٍ وَنِفار. فقلتُ له: أبا فلانٍ! وفيتَ بعهدكَ؟ فقال: إيْ واللهِ! فضحكتُ.

وذكرتُ بهذه الفعلةِ ما لم يزلْ يَتَدَاوَلُ أسماعنا من أنَّ في بلاد البربر ـ التي تجاورُ أندلسنا ـ يتعَهَّدُ[2] الفاسِقُ علىٰ أنَّه إذا قضىٰ وطره مِمَّن أرادَ؛ أن يتوبَ إلىٰ الله. فلا يُمْنَعُ من ذلك، ويُنْكِرُونَ علىٰ من تعرَّضَ له بكلمةٍ، ويقولونَ له: أَتَحْرِمُ رجلاً مسلماً التَّوبةَ!

قالَ: ولعهدي بها تَبْكي وتقولُ: واللهِ لقد بلَّغْتني مَبْلغاً ما خَطَر قطُّ لي ببالٍ، ولا قَدَّرْتُ أنْ أُجِيبَ إليه أحداً.

ولستُ أُبعدُ أنْ يكونَ الصَّلاحُ في الرِّجال والنِّساء موجوداً، وأعوذُ باللهِ أنْ أظنَّ غير هذا. وإنِّي رأيت النَّاسَ يَغلطون في معنىٰ هذه الكلمة ـ أعني: «الصَّلاح» ـ غلطاً بعيداً، والصَّحيحُ في حقيقة تفسيرها أنَّ الصَّالحة من النِّساءِ هي التي إذا ضُبِطَتْ انضبطتْ، وإذا قُطِعَتْ عنها الذَّرائعُ امْتَسَكَتْ. والفاسدةُ هي التي إذا ضُبِطتْ لم تنضَبِطْ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهِّل الفواحشَ تَحيَّلتْ في أن تتوصَّلَ إليها بضروبٍ من الحِيَل. والصَّالح من الرِّجال من لا يُداخِلُ أهلَ الفسوق، ولا يتعرَّض إلىٰ المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفعُ طَرْفَهُ إلىٰ الصُّورَ البديعة التَّركيب. والفاسقُ من يعاشِرُ

---

(١) خ: مما لا.

(٢) خ: يتوب.

أهلَ النَّقْصِ، وينشر بَصَرَه إلىٰ الوجوه البديعة الصَّنْعة، ويتصدَّىٰ للمشاهد المؤذية، ويحبُّ الخلوات المُهْلِكاتِ. والصَّالحان من الرِّجال والنِّساء كالنَّارِ الكامنة في الرَّماد لا تَحْرِقُ من جاورها إلا بأن تُحرَّكَ، والفاسقان كالنَّار المشتعلة تَحْرِقُ كلَّ شيءٍ.

وأمَّا امرأةٌ مُهْمَلةٌ، ورجلٌ متعرِّضٌ؛ فقد هَلَكَا وتَلِفَا. ولهذا حُرِّمَ علىٰ المسلم الالتذاذُ بسَماعِ نَغْمَةِ امرأةٍ أجنَبِيَّةٍ، وقد جُعِلَتِ النَّظْرةُ الأولىٰ لكَ، والأخرى عليكَ[1]، وقد قالَ رسول الله ﷺ: «**مَنْ تأمَّلَ امرأةً وهُوَ صائمٌ حتَّىٰ يرىٰ حَجْمَ عِظَامِها فَقَدْ أَفْطَرَ**»[2].

وإنَّ فيما ورد من النَّهْي عن الهوىٰ بنصِّ التَّنْزيل لشيئاً مُقْنِعاً[3]؛ وفي

(١) تضمين لحديث: «**يا عليُّ! لا تُتْبِع النَّظْرة النَّظرة؛ فإن لك الأولىٰ، وليستْ لكَ الآخرةُ**»، رواه أحمد ٣٥١/٥، ٣٥٣، ٣٥٧، وأبو داود (٢١٤٩)، والتِّرمذي (٢٧٧٧) عن بريدة. وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) بعضُ حديثٍ طويلٍ يرويه: الحسن بن علي العدوي، عن خراش، عن أنس بن مالك. قال ابن عدي في: «الكامل» ٧٥٤/٢ و٩٤٦/٣: «العدوي كذَّاب، وخراش مجهول، ولم أسمع أحداً يذكر خراش غير العدوي هذا». وقال ابن حِبَّان في: «المجروحين» ٢٨٨/١ في ترجمة خراش: «شيخ يزعم أنَّه خدم أنس بن مالك. أتىٰ عن أنس عن النبيِّ ﷺ بنسخةٍ منها أشياء مستقيمة، وفيها أشياء موضوعة، لا يحلُّ الاحتجاج به، ولا كتابة حديثه؛ إلاَّ على جهة الاعتبار» ثم ذكر الحديث، وقال: «مع أشياء تُشْبِهُ هذا، إذا تأمَّلها مَنْ هذا الشَّأنُ صناعته؛ علم أنَّه كان يَضَعُ الحديثَ وَضْعاً».
وأورده ابن الجوزي في: «الموضوعات» (٩٥٩). وقد رُوي هذا عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً، أخرجه عبدالرَّزَّاق في: «المصنَّف» (٧٤٥٢)، وقال الحافظ ابن حجر في: «الفتح» (١٩٤/٤ ط: دار السلام/ الرياض): «إسناده ضعيف».

(٣) كقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

إيقاع هذه الكلمة - أعني: «الهوىٰ» - اسماً علىٰ معانٍ، واشتقاقها عند العرب، وذلك[1] دليلٌ علىٰ مَيْلِ النُّفوس وهَوِيِّها إلىٰ هذه المقامات، وأنَّ المتمَسِّكَ عنها مُقارعٌ لنفسه مُحاربٌ لها.

وشيءٌ أصفه لكَ تراه عياناً: هو أنِّي ما رأيتُ - قطُّ - امرأةً في مكانٍ تحسُّ أنَّ رجلاً يراها، أو يسمعُ حِسَّها؛ إلا وأحْدَثَتْ حركةً فاضلةً كانت عنها بمَعْزِلٍ، وأتتْ بكلامٍ زائدٍ كانت عنه في غُنْيَةٍ، مخالِفَيْنِ لكلامِها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيتُ التَّهَمُّم لمخارج لفظها، وهيئة تقلُّبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خفاءَ به؛ والرِّجالُ كذلكَ إذا أَحَسُّوا بالنِّساء، وأمَّا إظهارُ الزِّينةِ، وترتيبُ المشي، وإيقاعُ المَزْحِ[2] عند خُطور المرأة بالرَّجل واجتيازِ الرَّجل بالمرأة فهذا أشهرُ من الشَّمس في كلِّ مكانٍ، والله - عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠] وقال - تقدَّست أسماؤه -: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فلولا علم الله - عزَّ وجلَّ - برقَّةِ[3] إغماضِهِنَّ في السَّعي لإيصالِ حُبِّهِنَّ إلىٰ القلوب، ولُطْفِ كيدهِنَّ في التحيُّل لاستجلاب الهوىٰ؛ لما كشف الله عن هذا المعنىٰ البعيدِ الغامضِ الذي ليس وراءَه مرمىً، وهذا حدُّ التَّعَرُّضِ فكيفَ بما دونه؟!

ولقد اطَّلعتُ من سرِّ مُعْتَقَدِ الرِّجالِ والنِّساء في هذا علىٰ أمرٍ عظيمٍ، وأَصْلُ ذلك أنِّي لم أُحْسِنْ - قطُّ - بأحدٍ ظنّاً في هذا الشَّأن، مع غَيرةٍ شديدةٍ رُكِّبَتْ فيَّ.

(١) هكذا في الأصل، والعبارة غير مستقيمة تماماً، وقد أثبتها (ع) هكذا: «... وفي اشتقاقها عند العرب دليلٌ علىٰ...».

(٢) قال العلامة شاكر: «وإيقاع المزح» غير مفهوم، والصَّواب - فيما أظنُّ -: «وإيقاع المرح»، وإن كنتُ في شكٍّ من «إيقاع».

(٣) جعلها (ع): بدقَّةٍ.

وحدَّثنا أبو عمر أحمد بن محمَّد بن أحمد، قال: حدَّثنا محمَّد بن عيسى[1] بن رفاعة، قال: حدّثنا علي بن عبدالعزيز، قال: حدّثنا أبو عُبيد القاسم بن سلَّام عن شيوخه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الغَيرَةُ من الإيمان**»[2].

فلم أزَلْ باحثاً عن أخبارِهنَّ، كاشفاً عن أسرارهنَّ، وكُنَّ قد أَنِسْنَ مِنِّي بكتمانٍ، فكنَّ يُطْلِعْنَني علىٰ غوامضِ أمورهِنَّ، ولولا أن أكونَ منبِّهاً علىٰ عوراتٍ يُستعاذُ بالله منها لأوردتُ من تَنَبُّهِهِنَّ في الشَّرِّ، ومكرهِنَّ فيه؛ عجائبَ تُذْهِلُ الألِبّاءَ.

وإنِّي لأعرفُ هذا وأُتقِنُهُ[3]، ومع هذا يعلمُ الله ـ وكفىٰ به عليماً ـ أنِّي بريءُ السَّاحة، سليم الأديم، صَحِيحُ البَشَرة، نِقيُّ الحُجْزَة، وإنِّي أقسمُ بالله أجلَّ الأقسامِ أنِّي ما حللتُ مئزري علىٰ فرجٍ حرامٍ ـ قَطُّ ـ ولا يحاسِبُني ربِّي بكبيرةِ الزِّنا مذ عقلتُ إلىٰ يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكورُ فيما مضىٰ، والمستعصَمُ فيما بقِي.

---

(١) في الأصل: علي. وهو تحريف، وقد تقدَّم التعريف به وببقيَّة رجال السند في: (١٩ ـ باب الواشي).

(٢) ضعيف: رواه محمد بن نصر المروزي في: «تعظيم قدر الصَّلاة» (٤٩٠ ـ ٤٩٢، ووقع في المطبوع تحريف)، والبزار (كشف الأستار: ١٤٩٠)، والقضاعي في: «مسند الشهاب» (١٥٤) من طرقٍ عن أبي مرحوم الأرطباني، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً بلفظ: «**الغَيْرة من الإيمان، والمِذَاءُ من النِّفاق**» وقال زيد: المذاء: الذي لا يغار. وإسناده ضعيف، تفرَّد به أبو مرحوم؛ وهو مجهول الحال. ويُغْني عنه أحاديث صحيحة في الغَيْرة، منها: حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللّهَ يَغَارُ، [وإنَّ المُؤمِنَ يَغارُ]، وغَيرَةُ اللّهِ أنْ يَأتيَ المُؤمِنُ ما حَرَّمَ عَلَيهِ**». أخرجه البخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١)؛ وما بين المعقوفتين زيادة له.

(٣) واضحة في الأصل، وأثبتها (ع): وأتيقَّنُه.

حدَّثنا القاضي أبو عبدِالرحمن عبدُالله[1] بن عبدالرحمن بن جحَّاف المعافريُّ[2] ـ وإنَّه لأفضلُ قاضٍ رأيته ـ عن محمَّدِ بن إبراهيم الطُّلَيْطِلِيِّ[3]، عن القاضي بمصر بكر بن العلاء[4]، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [الضحى: ١١] أنَّ لبعض المتقدِّمينَ فيه قولاً؛ وهو: أنَّ المسلمَ يكونُ مُخبِراً عن نفسه بما أنعم الله ـ تعالىٰ ـ به عليه من طاعة ربِّه التي هي من أعظم النِّعَمِ، ولا سِيَّما في المُفْتَرَضِ على المسلمين اجتنابه واتِّباعه[5].

وكانَ السَّبب فيما ذكرته أنِّي كنتُ وقتَ تأجُّج نارِ الصِّبا، وشرَّةِ الحداثة، وتمكُّن غَرارةِ الفُتُوَّة؛ مقصوراً، محظراً عليَّ بين رقباء ورقائب؛ فلمَّا ملكتُ نفسي، وعقلتُ صحبتُ أبا عليٍّ الحسينَ بن علي الفاسيَّ في مجلس أبي القاسم عبدِالرحمن بن أبي يزيدِ الأزديِّ[6] ـ شيخنا وأستاذي؛

---

(١) خ: بن عبدالله. وهو خطأ.

(٢) أبو عبدالرحمٰن عبدالله المعافريُّ، قاضي بلنسية، ويُلقَّب بحيدرة، كان إماماً ثقةً فاضلاً، حدَّث عنه ابن حزم؛ وقال: هو أفضلُ قاضٍ رأيته؛ ديناً، وعقلاً، وتصاوناً، مع حظِّه الوافر من العلم. توفي سنة (٤١٧ أو ٤١٨هـ). «جذوة المقتبس»: ٢٢٥، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤١ /الترجمة: ٣٢٨).

(٣) هو: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الطُّليطلي، أبو عبدالله الخشني، ويُعرف بابن المُشْكِيالي. وكان من كبار المالكيَّة، مع زهدٍ وتواضعٍ وورع، وعمل بعلمه لا يأخذه في الله لومة لائم، ثقة. حجَّ فسمع بمصر من جماعة، منهم: بكر بن العلاء القشيري، سمع منه كتابه في: «أحكام القرءان»، توفي سنة (٤٠٠هـ). «الصِّلة» (٤٦١)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٠ /ص: ٣٨٧).

(٤) هو: بكر بن محمد بن العلاء، العلاَّمة أبو الفضل القُشيريُّ البصريُّ المالكيُّ. قال الذَّهبيُّ: «ومؤلَّفه في الأحكام ـ يعني: أحكام القرءان ـ نفيس». سكن مصر، ومات بها سنة (٣٤٤هـ) رحمه الله. «سير أعلام النُّبلاء» ١٥/(٣١٦).

(٥) وروىٰ الطَّبري في: «تفسيره» (٣٧٥٢٣) عن التَّابعي الثِّقة أبي نَضرة المنذر بن مالك العبدي ـ رحمه الله ـ قال: كان المسلمونَ يرون أن من شُكر النِّعَم أَنْ يُحدَّث بها. وإسناده صحيح.

(٦) قد مرَّ التعريف بهما (٢١ ـ باب الهجر).

رضي الله عنه ـ، وكانَ أبو عليٍّ ـ المذكورُ ـ عاقلاً، عاملاً، عالماً، مِمَّن تقدَّم في الصَّلاح والنُّسك الصَّحيح؛ في الزُّهد في الدُّنيا، والاجتهاد للآخرة، وأحسبه كانَ حَصُوراً لأنَّه لم تكنْ له امرأةٌ ـ قطُّ ـ، وما رأيتُ مثله جملةً عِلماً وعملاً وديناً وورعاً؛ فنفعني الله به كثيراً، وعَلِمْتُ موقعَ الإِساءةِ، وقُبْحَ المعاصي.

وماتَ أبو عليٍّ ـ رحمه الله ـ في طريق الحَجِّ.

ولقد ضَمَّني المبيتُ ليلةً في بعض الأزمان عندَ امرأةٍ من بعض معارفي مشهورةٍ بالصَّلاح والخير والحَزْمِ، ومعها جاريةٌ من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمَّتْها معي النَّشْأةُ في الصِّبا، ثم غِبْتُ عنها أعواماً كثيرة، وكنتُ تَرَكْتُها حينَ أَعْصَرَتْ[1]، ووجَدْتُها قد جرىٰ على وجهها ماءُ الشَّباب ففاضَ وانسابَ، وتفجَّرت عليها ينابيعُ الملاحة فتردَّدَتْ وتحيَّرَتْ، وطلَعَتْ في سماءِ وجهها نجومُ الحُسْنِ فأشرقتْ وتوقَّدتْ، وانبعثتْ في خَدَّيْها أزاهيرُ الجمال فتمَّتْ واعتمَّتْ؛ فأتتْ كما أقول: [من البسيط]

خريدةٌ صَاغَها الرَّحمنُ من نُورٍ ... جلَّتْ ملاحتُها عَنْ كُلِّ تَقْدِيرِ
لو جَاءَني عَمَلي في حُسْنِ صُورَتها ... يومَ الحِسَابِ ويومَ النَّفْخِ في الصُّورِ
لكنتُ أحظىٰ عبادِ الله كلِّهم ... بالجنَّتَيْنِ وقُرْبِ الخُرَّدِ الحُورِ

وكانتْ من أهل بَيْتِ صَبَاحةٍ، وقد ظهرتْ منها صورةٌ تُعْجِزُ الوُصَّافَ، وقد طَبَّقَ وصفُ شبابها قرطبةَ، فبتُّ عندها ثلاثَ ليالٍ

(١) أعصرت الجارية: بلغت شبابها، وأدركت، أو دخلت في الحيض. وفي الأصل: أعمرت. وهو تحريف.

متواليةً، ولم تُحْجَبْ عنِّي علىٰ جاري العادة في التَّربية؛ فلعمري! لقد كادَ قلبي أن يَصْبُو ويثوبَ إليه مَرفوضُ الهوىٰ، ويعاوده منسيُّ الغَزَل. ولقد امتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدَّار خوفاً علىٰ لُبيِّ أن يزدهِيهُ الاستحسانُ. ولقد كانتْ ـ هي وجميعُ أهلها ـ مِمَّن لا تتعدَّى الأطماعُ إليهِنَّ، ولكنَّ الشيطانَ غير مأمونِ الغوائل، وفي ذلك أقول: [من الكامل المجزوء]

لا تُتْبِعِ النَّفْسَ الهَوىٰ ... وَدَعِ التَّعَرُّضَ لِلمِحَنْ
إبليسُ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ ... والعَيْنُ بابٌ لِلفِتَنْ

وأقول: [من المجتثّ]

وقائلٍ لِيَ: هذا ... ظَنٌّ يَزِيدُكَ غَيَّا
فقلتُ: دَع عَنْكَ لَوْمي ... أَلَيْسَ إبْلِيسُ حَيَّا

وما أورد الله ـ تعالىٰ ـ علينا من قِصَّةِ يوسفَ بن يعقوب، وداود بن إيشىٰ[1] ـ رُسل الله؛ عليهم السلام ـ إلا ليعلِّمنا نُقصاننا، وفاقتنا إلىٰ عِصْمَتِهِ، وأنَّ بِنْيَتَنَا مدخولةٌ ضَعيفةٌ، فإذا كانا ـ صلَّى الله عليهما ـ وهما نبيَّان رسولان ابنا أنبياءَ رُسلٍ، ومن أهل بيتِ نبوَّةٍ ورسالةٍ، مكرَّمَيْنِ[2] في

(١) في الأصل: انيشا. وهو خطأ، والصَّواب ما أثبته، وهكذا ضبطه السُّيوطي في: «الإتقان في علوم القرءان» ٢/٣٦٧؛ فقال: داود هو ابن إيشىٰ، بكسر الهمزة، وسكون التَّحتيَّة، وبالشِّين المعجمة. وهكذا يرد في كتب التفسير القديمة، مثل: «الطبري»، و«القرطبي»، و«الدر المنثور».
وأثبتها (ع): (يَشِّي)، وقال: أثبتُّ هذه الصُّورة من الاسم لأنها تطابق (Jesse) مع إبدال السين شيناً في التعريب. انظر: (The Legends of the Jews, Vol. 4, p.81) وهو «يسي» ـ بالسين المهملة ـ في العهد القديم.
(٢) خ: متكررين. والتَّصحيح عن (ع).

الحفظ، مغموسَيْنِ في الوَلاية، محفوفَيْنِ بالكَلاءَةِ، مؤيَّدينَ بالعِصْمةِ، لا يُجعلُ للشَّيطان عليهما سَبيلٌ، ولا فتح لوسواسه نحوهما طريقٌ، وبلغا حيثُ نصَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا في قرءَانه المنزَّل[1]؛ ....

(١) أما قصة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ ففي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٤]. قال الطبريُّ في «تفسيره»: ومعنىٰ «الهمّ بالشَّيء» ـ في كلام العرب ـ: حديثُ المرء نفسه بمواقعته ما لم يُواقِع. فأما ما كان مِنْ همِّ يوسفَ بالمرأة، وهمِّها به؛ فإن أهل العلم قالوا في ذلك ما أنا ذاكره. ثم أورد الآثار عن السلف ـ ابن عباس وغيره ـ في صفة همِّ يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وخلاصتها: أنها استَلْقَتْ له، وحلَّ سرواله، وقعد بين رِجْليها؛ لينزع ثيابه. ثم قال الطبريُّ: فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا، وهو لله نبيٌّ؟ قيل: إن أهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: كان مَن ابتلي من الأنبياء بخطيئة؛ فإنما ابتلاه الله بها ليكون من الله ـ عزَّ وجل ـ على وجل إذا ذكرها، فيجد في طاعته إشفاقاً منها، ولا يَتَّكِلُ على سعة عفو الله ورحمته. وقال ءاخرون: بل ابتلاهم الله بذلك؛ ليُعرِّفهم موضع نِعمته عليهم بصَفْحه عنه، وتركه عقوبته عليه في الآخرة. وقال ءاخرون: بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمةً لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله، وترك الإياس من عفوه عنه إذا تابوا. وأما ءاخرون مِمَّن خالف أقوال السلف وتأوَّلوا القرءان بآرائهم فإنهم قالوا في ذلك أقوالاً مختلفة. ثم ذكر ثلاثة ءاراءٍ، نص على فساد اثنين منها، وذكر الثالث؛ ولم يعقِّب عليه، وهو: «أنَّ همَّهما كان تميُّلاً منهما بين الفعل والترك، لا عزماً ولا إرادة. قالوا: ولا حرج في حديث النفس، ولا في ذِكْر القلب؛ إذا لم يكن معهما عزم ولا فعل». وقال الإمام البغوي في «تفسيره»: «والهمُّ هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فَهَمُّها عزمها على المعصية والزنا»؛ ثم ذكر الآثار عن السلف في همِّهِ، ثم قال: «قال أبو عُبَيْدٍ القاسم بن سلَّام: قد أنكر قوم هذا القول، وقالوا: هذا لا يليق بحال الأنبياء. والقول ما قال متقدِّمو هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم». ثم ذكر البغوي عن بعض أهل الحقائق ـ قلتُ: لعله يعني الصوفية ـ أن: «الهمّ همَّان: هَمٌّ ثابت؛ إذا كان معه عَزْمٌ وعَقْدٌ ورِضىً، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبدُ مأخوذ به. وهمٌّ عارض؛ وهو الخَطْرةُ وحديث النَّفْس، من غير اختيار ولا عزم، مثل همِّ يوسف ـ عليه السلام ـ، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل». وقد رجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الرأي، وأنكر ما خالفه؛ فقال: «الهمُّ اسم جنس، تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: =

= الهمُ همَّانِ: هَمُّ خطراتٍ، وهَمُّ إصرارٍ. وقد ثبت في: «الصَّحيح» عن النبي ﷺ: **«إن العبد إذا هَمَّ بسيئة لم تُكتب عليه، وإذا تركها لله كُتِبَتْ له حسنة، وإنْ عملها كُتِبَتْ له سيئة واحدة، وإنْ تركها ـ من غير أن يتركها لله ـ لم تُكْتَبْ له حسنة، ولا تُكْتَبْ عليه سَيِّئة»**، ويوسف ﷺ همَّ همّاً تَرَكَهُ لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء؛ لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذَّنب، وهو: الهمُّ، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذَّنب لله، فيوسف ـ عليه السلام ـ لم يصدر منه إلا حسنةٌ يُثاب عليها. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وأما ما يُنقل من أنه حلَّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأىٰ صورة على يده، وأمثال ذلك؛ فكله مما لم يُخْبِرِ الله به، ولا رسوله، وما لم يكن كذلك؛ فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقَدْحاً فيهم، وكلُّ من نقله من المسلمين؛ فعنهم نقله، لم يَنْقُلْ من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً. وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرءانُ على ذلك دلالةً بيِّنةً، لا يرتاب فيها مَنْ تدبَّر القرءان، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٣]؛ فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن؛ لم يحضر بعد إلى المَلِك، ولا سمع كلامه، ولا رءاه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنت في حال شهودته راودته، فحينئذ قال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]. وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف. ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه» (دقائق التفسير: ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

وقال الإمام القرطبي (٦٧١هـ) في: «الجامع لأحكام القرآن»: واختلف العلماء في همِّه، ولا خلاف أن همَّها كان المعصية، وأما يوسف فهَمَّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ ولكن لما رأىٰ البرهان ما همَّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإذاً في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأىٰ برهان ربه همَّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة =

....

= فلمَّا أتيت على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنَّه أراد ولقد همت به؛ ولولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همَّت زليخاء بالمعصية وكانت مصرَّة، وهمَّ يوسف ولم يواقع ما همَّ به؛ فَبَيْنَ الهمتين فرق. ذكر هذين القولين الهروي في «كتابه». قال جميل:

هَمَمْتُ بهم من بُثَيْنة لو بدا ... شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

ءاخر:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتني ... تركتُ على عثمان تبكي حلائله

فهذا كلُّه حديث نفس من غير عزم. وقيل: همَّ بها تمنى زوجيَّتها. وقيل: هَمَّ بها؛ أي: بضربها، ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إنَّ همَّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامَّتهم، فيما ذكر القشيري أبو نصر، وابن الأنباري، والنَّحاس، والماوردي، وغيرهم. قال ابن عباس: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن. وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها؛ ينزع ثيابه. وقال سعيد بن جبير: أطلق تِكَّة سراويله. وقال مجاهد: حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرَّجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ [يوسف: ٥٣]. قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظم للثَّواب.

قلت: وهذا كان سبب ثناء الله ـ تعالى ـ على ذي الكفل؛ حسب ما يأتي بيانه في (صٓ)، إن شاء الله تعالى. وجواب: «لولا» على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأى برهان ربِّه لأمضى ما همَّ به؛ ومثله ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝﴾ [التكاثر: ٥] وجوابه: لم تتنافسوا. قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى، كما رجعت مِمَّن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذَّنب، وهذا كلُّه على أن همَّ يوسف بلغ ـ فيما رَوَتْ هذه الفرقة ـ إلى أن جلس بين رجلي زليخاء، وأخذ في حلِّ ثيابه وتكَّته، ونحو ذلك، وهي قد استلقت له؛ حكاه الطَّبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنَّه هَمَّ بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشدُّ تعظيماً للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيِّرهم بها؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيسوا من التوبة. قال الغزنوي: مع أن لزلَّة الأنبياء حِكَماً: زيادة الوجل، وشدَّة الحياء بالخجل، والتخلي=

= عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمَّة رجاء أهل الزلل. قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف همٌّ، وكان ذلك الهمُّ حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ؛ فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزماً مصمماً.

قلت: هذا قول حسن؛ ومِمَّن قال به الحسن. قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصحّ، ولا تظاهرت به رواية؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء علىٰ ما في ذلك من الخطيئة؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمُّ الذي هو خاطر، ولا يصحُّ عليه شيء ممَّا ذكر من حل تكته، ونحوه؛ لأن العصمة مع النُّبوة. وما روي من أنه قيل له: تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء. فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من هذا التفصيل صحيح؛ لكن قول تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ١٥] يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون الهمُّ الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلَّف على دفعه؛ ويكون قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ [يوسف: ٥٣] ـ إن كان من قول يوسف ـ أي من هذا الهم، أو يكون ذلك منه على طريق التَّواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكي به قبل وبرىء؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [يوسف: ٢٢] على ما تقدم بيانه؛ وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنىٰ ومقدماته؛ وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرص منها؛ حكمة خُصَّ بها، وعملاً بمقتضىٰ ما علَّمه الله. وفي: «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قالت الملائكة: ربِّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئةً وهو أبصر به. فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جراي»**. وقال ـ عليه السلام ـ مخبراً عن ربه: **«إذا هَمَّ عبدي بسيئةٍ فلم يعملها كتبتْ حسنة»**. فإنْ كان ما يهم به العبدُ من السيئة يكتب له بتركها حسنةً فلا ذنب؛ وفي «الصَّحيح»: **«إنَّ الله تجاوز لأمَّتي عَمَّا حَدَّثَتْ به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به»**.... انتهى.

قلتُ: قد أطلْتُ في النَّقل عن أئمة التفسير في معرفة همِّ يوسف ـ عليه الصَّلاة =

....

= والسَّلام ـ؛ ليدرك القارىء وَجْهَ ما أشار إليه المصنِّف، ويتَّضح له عذره في ذلك، علىٰ أنَّه ـ رحمه الله ـ قد ذهب في كتابه: «الفصل في الملل والنِّحل» ٤/١٠ ـ ١١ ـ وهو مما ألفه بعد طوق الحمامة ـ؛ إلىٰ نحو ما ذهب إليه المتأخرون، فقال: «وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فليس كما ظنَّ مَن لم يُمْعن النَّظر حتىٰ قال مِن المتأخرين [قال عبدالحق: هكذا زعم ابن حزم ـ رحمه الله ـ، وما سيذكره إنَّما هو قولُ عامَّة السَّلف من المتقدِّمين] مَن قال: إنَّه قعد منها مقعد الرجل من المرأة. ومعاذ الله من هذا أن يُظَنَّ برجلٍ من صالحي المسلمين أو مستوريهم؛ فكيف برسول الله ﷺ؟! فإن قيل: إنَّ هذا قد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ من طريق جيدة الإسناد. قلنا: نعم؛ ولا حُجَّة في قول أحد إلا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ، والوهم في تلك الرواية إنَّما هي بلا شك عمَّن دون ابن عباس، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك؛ إذ إنَّما أخذه عمَّن لا يدري من هو، ولا شك في أنَّه شيء سمعه فذكره لأنه ـ رضي الله عنه ـ لم يحضر ذلك، ولا ذكره عن رسول الله ﷺ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به.

لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين:

[الوجه الأول]: إمَّا أنَّه هَمَّ بالإيقاع بها وضربها؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، وكما يقول القائل: لقد هَمَمْتُ بك! لكنه ـ عليه السلام ـ امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه؛ استغنى به عن ضربها، وعلم أن الفرار أجدىٰ عليه، وأظهر لبراءته، علىٰ ما ظهر بعد ذلك من حكم الشَّاهد بأمر القدِّ من القميص.

والوجه الثاني: أنَّ الكلام تمَّ عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ تعالى خبراً ءاخر؛ فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وهذا ظاهر الآية بلا تكلُّفِ تأويلٍ، وبهذا نقول.

حَدَّثنا أحمد بن محمد بن عبدالله الطَّلَمنكيُّ، قال: حدثنا ابن عون الله، قال: أنبأنا إبراهيم بن أحمد بن فراس، قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن سالم النيسابوريُّ، قال: أخبرنا إسحاق بن راهويه، قال: أخبرنا المؤمَّل بن إسماعيل الحميريُّ، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البنانيُّ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]؛ قال رسول الله ﷺ: **«لمَّا قالها يوسف ـ عليه السلام ـ قال له جبريل: يا يوسف اذكر همَّك! فقال يوسف:** ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]». فليس في هذا الحديث [قال عبدالحق: وإسناده ضعيف؛ المؤمل بن إسماعيل: سيِّء الحفظ، كثير الغلط] ـ على معنىً من المعاني ـ تحقيق الهَمِّ بالفاحشة، ولكنَّه فيه أنه هَمَّ بأمرٍ ما. وهذا حقٌّ ـ كما قلنا ـ، فسقط هذا الاعتراض، وصَحَّ الوجه الأول والثاني معاً، إلا أنَّ الهمَّ بالفاحشة =

. . . .

= باطل مقطوع على كلِّ حالٍ، وصَحَّ أن ذلك الهمَّ ضرب سيدته، وهي خيانة لسيده؛ إذ هَمَّ بضرب امرأته، وبرهانُ ربِّه هاهنا هو النبوة، وعصمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إياه، ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة، وهذا لا شك فيه. ولعلَّ من ينسب هذا إلىٰ النبيِّ المقدَّسِ يوسفَ يُنَزِّهُ نفسه الرَّذِلَةَ عن مثل هذا المقام؛ فيهلك، وقد خشي النبيُّ ﷺ الهلاك علىٰ من ظَنَّ به ذلكَ الظَّنَّ، إذ قال للأنصاريَّيْنِ ـ حين لقيهما ـ: «**هذه صَفِيَّةُ**». [قال عبدالحق: أصل هذا الحديث في البخاريِّ (٢٠٣٥) وغيره؛ لكن ليس في شيءٍ من طرقه ـ فيما علمتُ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ خشي عليهما الهلاك؛ وإنَّما فهم بعض العلماء ذلك من قوله ﷺ لهما: «**وإنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلُوبِكُما شَيْئاً**»؛ كما قال الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ: إنَّما قال لهما ذلكَ لأنه خافَ عليهما الكفرَ إنْ ظنَّا به التُّهْمَةَ، فبادر إلى إعلامهما نصيحةً لهما؛ قبل أن يقذف الشيطانُ في نفوسهما شيئاً يَهْلكان به. نقله ابن حجر في: «الفتح»]. ومن الباطل الممتنع أن يظنَّ ظانٌّ أن يوسف ـ عليه السلام ـ هَمَّ بالزنا؛ وهو يسمع قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [**يوسف: ٢٤**]؛ فنسأل من خالفنا عن الهمِّ بالزنا: بسوءٍ هو أم غير سوءٍ؟ فلا بد أنه سوء، ولو قال: إنه ليس بسوء. لعاند الإجماع، فإذا هو سوء؛ وقد صرف عنه السوء، فقد صرف عنه الهم بيقين. وأيضاً: فإنها قالتْ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [**يوسف: ٢٥**]، وأنكر هو ذلك، فشهد الصادق المصدَّق: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٧]؛ فصح أنها كذبت بنص القرءان، وإذ كذبت بنص القرءان؛ فما أراد بها قطُّ سوءاً، فما هَمَّ بالزنا قط، ولو أراد بها الزنا؛ لكانت من الصادقين، وهذا بَيِّنٌ جداً، وكذلك قوله ـ تعالى ـ عنه أنه قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤]؛ فصَحَّ عنه أنه قَطُّ لم يَصْبُ إليها، وبالله ـ تعالى ـ التوفيق».

وأما قصة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهي أنه رأى امرأةً تغتسل، فأعجبه خَلْقها وحُسْنها، وأنه أرسل زوجها مع الجيش، حتى قُتِلَ، فخطبها داودُ وتزوجها. في قصةٍ طويلةٍ ذكرها أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [صٓ: ٢١ ـ ٢٥]، وصَحَّ عن ابن عباس وعن ابن مسعود؛ أن داود ما زاد على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك واكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك =

. . . .

= ونبّهه إليه (رواه عبدالرزّاق الصنعاني، والطبريُّ). وقال ابن القيم في: «الجواب الكافي»: ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءه شرعاً وقدراً. وبه تداوىٰ نبيُّ الله داود ﷺ؛ ولم يرتكب محرّماً، وإنما تزوج المرأة، وضمَّها إلى نسائه؛ لمحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو رتبته؛ ولا يليق بنا المزيد على هذا. وعلّق على هذا القاسمي في «محاسن التأويل» ٢٥١/٨ فقال: «وهذا منه تسليم ببعض القصة؛ لا بتمامها، وهو من الأقوال فيها». وقد ردَّ ابن كثير القصة كلها، وبيَّن أنها مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، وقال: «فالأولى أن يُقْتَصَر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ عِلْمُها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن القرءان حقٌّ، وما تضمَّنَ فهو حقٌّ ـ أيضاً ـ».

وذهب البقاعي إلى أن ذنب داود ـ عليه السلام ـ كان في إسناده الظُّلْمَ إلى أحد المتخاصمَيْن بدون سماع كلامه. وقال السَّعدي: وهذا الذنب الذي صدر من داود ـ عليه السلام ـ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذِكْرِهِ، فالتَّعَرُّض له من باب التكلُّف.

قلت: فالقصة ـ بسياقها الأول ـ لا أصل لها؛ إنما هي من الإسرائيليات، وكأنّي بأبي محمَّدِ بن حزم ـ رحمه الله ـ قد أشار إلىٰ ما صَحَّ فيها عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ، ومهما يكن فقد نقضها، وبيَّن فسادها وبُطلانها في كتابه: «الفصل في الملل والنِّحل» ١٤/٤ فقالَ ـ بعد أن ذكر الآيات المتقدمة ـ: «وهذا قولٌ صادقٌ صحيحٌ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلِّقون بخرافاتٍ ولَّدها اليهودُ، وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني ءادم ـ بلا شكٍّ ـ مختصمين في نعاج من الغنم ـ على الحقيقَة ـ بينهم، بغىٰ أحدهما على الآخر؛ على نصِّ الآية. ومَن قال: إنهم كانوا ملائكةً مُعَرِّضِينَ بأمر النساء، فقد كذب على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقَوَّله ما لم يقل، وزاد في القرءان ما ليس فيه، وكذَّبَ الله ـ عزَّ وجل ـ، وأقرَّ على نفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة، لأنَّ الله ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغىٰ بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسْعٌ وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجةٌ واحدةٌ، ولا قال له: أكلفنيها. فاعجبوا لم يقحمون فيه أهل الباطل أنفسهم! ونعوذ بالله من الخذلان. ثم كلُّ ذلك بلا دليل بل الدعوى المجرَّدة، وتالله! إن كل امرىءٍ مِنَّا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشَّق امرأةَ جاره، ثم يعرِّضَ زوجها للقتل عَمْداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائرٍ يراه، هذه أفعالُ السفهاء المتهوِّكين الفُسَّاق المتمرِّدين، لا أفعال أهل البِرِّ والتقوىٰ، فكيف برسول الله داودَ ﷺ الذي أوحىٰ إليه كتابه، وأجرىٰ على لسانه كلامه؟! لقد نزَّهَهُ الله ـ عزَّ وجل ـ عن أن يَمُرَّ مثل هذا الفُحْش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله، وأما استغفاره وخروره ساجداً ومغفرة الله =

بالجِبِلَّة المُوَكَّلَة[1]، والطَّبْع البشريِّ، والخِلْقَةِ الأَصْليَّة، لا بتعمُّدِ الخَطيئة، ولا القصد إليها ـ إذ النبيُّون مبَّرؤُونَ من كلِّ ما خالفَ طاعةَ الله؛ عزَّ وجلَّ ـ، لكنَّه استحسانٌ طبيعيٌّ في النَّفْسِ للصُّوَرِ؛ فمَنْ ذا الذي يَصِفُ نفسه بمَلْكِها، ويتعاطىٰ ضَبطها إلاَّ بحول الله وقوته؟! وأوَّلُ دمٍ سُفك في الأرض فدمُ أحدِ ابنَيْ ءادم علىٰ سببِ المنافسة في النِّساء[2]؛ ورسول الله ﷺ يقولُ: «**باعِدُوا بَيْنَ أَنفَاسِ الرِّجَالِ والنِّساء**»[3]. وهذه امرأةٌ

= ـ تعالى ـ له فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة، والاستغفار فعل خير؛ لا يُنْكَرُ من ملكٍ، ولا من نبيٍّ ولا من مذنب، ولا من غير مذنب، فالنبيُّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض والملائكة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وأمَّا قوله تعالى ـ عن داود؛ عليه السلام ـ: ﴿وظن داود إنما فتناه﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾؛ فقد ظنَّ داود ـ عليه السلام ـ أن يكون ما أتاه الله ـ عزَّ وجل ـ من سعة الملك العظيم؛ فتنةً، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبِّتَ الله قلبه على دينه، فاستغفر الله ـ تعالىٰ ـ من هذا الظَّنِّ فغفر الله ـ تعالى ـ له هذا الظَّنَّ؛ إذ لم يكن ما أتاه الله ـ تعالى ـ من ذلك فتنةً».

(١) أثبتها (ع): المؤصَّلة.

(٢) يشير إلى قصة هابيل وقابيل، قال ابن كثير في «تفسيره»: وكان من خبرهما ـ فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ـ أن الله ـ تعالىٰ ـ شرع لآدم ـ عليه السلام ـ؛ أن يزوِّج بناته من بنيه؛ لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطنٍ ذكر وأنثىٰ، فكان يزوِّج أنثىٰ هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى ءادمُ ذلك، إلا أن يقرِّبا قرباناً، فمَنْ تُقُبِّلَ منه فهي له، فتُقُبِّل من هابيل، ولم يُتقبَّل من قابيلَ، فكان من أمرهما ما قصَّه الله في كتابه. يعني قوله تعالى: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

(٣) لا أصل له: أقدم مَنْ ذكره ـ فيما علمتُ ـ أبو عثمان عَمْرو بن بَحْرِ الجاحظ (٢٥٠هـ) =

من العرب تقولُ ـ وقد حَبِلَتْ من ذي قرابةٍ لها ـ حين سُئلت: ما بِبَطْنِكِ يا هند؟ فقالت: قُرْبُ الوِسادِ، وطُولُ السِّواد[1]. وفي ذلك أقول شعراً منه:
[من الرمل]

لا تَلُم مَن عرَّضَ النَّفسَ لِمَا ... ليسَ يُرضي غيرَه عِنْدَ المِحَنْ
لا تُقرِّبْ عَرْفَجاً من لَهَبٍ ... ومتىٰ قرَّبْتَه قامتْ دُخَنْ
لا تُصرِّفْ ثِقَةً في أَحَدٍ ... فَسَدَ النَّاسُ جميعاً والزَّمَنْ

= في: «المحاسن والأضداد»، وفي: «الرَّسائل»، ثُمَّ ذكره المحدِّثُ أبو بكر المبارك بن كامل الخفَّافُ (٥٤٣هـ) في: «سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنِّسْوان»، ووقعت الإشارةُ إليه في كلام للقاضي عِياض (٥٤٤هـ)؛ علىٰ حديثٍ في: «صحيح مسلم» (٢١٨٢)؛ نقله النَّوويُّ في: «شرح مسلم» ١٤/١٤٠، والسُّيوطيُّ في: «الدِّيباج على صحيح مسلم» ٥/١٩٨ .وذكره ابنُ الحاج (٧٣٨هـ) في: «المدخل إلى تَنْمِيَة الأعمال؛ بتحسين النِّيَّاتِ، والتَّنْبيه على كثيرٍ من البدع المحدثة، والعوائد المنتحلة» في صلاة العيدين، وعزُّ الدِّين بن جماعة (٧٦٧هـ) في: «مَنْسَكِهِ»؛ (كما في: «كشف الخفاء» ١/٣٢٩)، ومحمَّدُ بن عبدالرَّحمٰن المغربيُّ (٩٥٤هـ) في: «مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل» ٢/٩٦؛ كلُّهم مِنْ غيرِ إسنادٍ ولا تخريجٍ، وقال مُلا علي القاري: إنَّه غيرُ ثابتٍ. (الأخبار الموضوعة: ١٤٥).

(١) هند؛ هي: ابنة الخَسِّ بن خابس بن قريط الإيادي؛ امرأةٌ جاهليَّةٌ قديمةٌ، اشتهرتْ بالحكم، وفَصْل الخصومات، وورد عنها كثيرٌ من الأسجاع والأمثال، وكانتْ معروفةً بالفصاحة. ترجم لها الدكتورُ عليُّ جواد في: «المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام». وكان من خبرها ـ فيما ذكروا ـ أنَّها فَجَرَتْ، فقيل لها: لِمَ حملتِ؟ أو قيل لها: لِمَ زنيت وأنتِ سيدة قومك؟ أو قيل لها: لم زنيتِ بعبدك ولم تَزنِ بِحُرٍّ، وما أغراك به؟ فقالت: قرب الوساد، وطول السِّواد. تريدُ قربَ مَضْجَعه منها، وطولَ مسارَّته إيَّاها. والسِّواد ـ بالكَسْرِ ـ: السِّرارُ. وقال اللِّحْيانيُّ: السِّوادُ ـ هنا ـ: المُسَارَّةُ، وقيل: المراودة، وقيل: الجماع بعَيْنِهِ. والخبرُ أورده أهلُ اللُّغة والأدب، منهم: الخليل بن أحمد الفراهيديُّ في: «العَيْن»، والجاحظُ في: «البيان والتَّبيين»، و«الحيوان»، و«المحاسن والأضداد»، وابن دُرَيْد في: «جمهرة اللُّغة»، وأبو حَيَّان التَّوْحيدي في: «البصائر والذَّخائر»، والزَّمخشريُّ في: «ربيع الأبرار»، و«المستقصى في أمثال العرب»، وابنُ عبدالبرِّ في: «بَهجة المجالس»، وابنُ منظورٍ في: «لسان العرب»، والزَّبيديُّ في: «تاج العروس»؛ وغيرهم.

خُلِقَ النِّسْوانُ لِلفَحْلِ كَما خُلِقَ الفَحْلُ بلا شكٍ لهُنّ
كُلُّ شَكْلٍ يتَشهَّىٰ شَكْلَه لا تكُنْ عن أحدٍ تَنْفي الظِّنَنْ
صِفةُ الصَّالح مَن إن صُنْتَه عن قبيحٍ أظْهَرَ الطَّوْعَ الحَسَنْ
وسواه مَنْ إذا ثقَّفْتَه أَعْمَلَ الحِيلةَ في خَلْعِ الرَّسَنْ

وإنِّي لأعلمُ فتىً من أهلِ الصِّيانة، قد أولعَ بهوىً له، فاجتاز بعضُ إخوانه فوَجَدَه قاعداً مع من كان يُحِبُّ، فاستجْلَبَهُ إلىٰ منزله، فأجابه إلىٰ منزله بامتثال المَسِير بعده، فمضىٰ داعِيهِ إلىٰ منزله، وانتظره حتَّىٰ طالَ عليه التربُّص فلَمْ يَأْته، فلمَّا كانَ بعد ذلك اجتمعَ به داعِيه فَعَدَّد عليه، وأطال لومَهُ علىٰ إخلافه موعدَهُ، فاعتذر وورَّىٰ، فقلتُ أنا للَّذي دعاه ـ: أنا أكشفُ عذرَهُ صَحِيحاً من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذ يقولُ: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] فضَحِكَ مَن حَضَرَ، وكُلِّفتُ أنْ أقولَ في ذلكَ شيئاً، فقلت: [من الطويل]

وجَرْحُكَ لي جُرْحٌ جُبارٌ فلا تَلُمْ ولكنَّ جُرْحَ الحُبِّ غير جُبار[1]
وقد صَارَتِ الخَيْلانُ وَسْطَ بَياضه كنيلوفرٍ حفَّتْهُ رَوْضُ بَهار
وكم قالَ لي مَن مِتُّ وَجْداً بحُبِّه مَقَالةَ مَخْلُولِ المَقَالة زاري
وقد كثرتْ مِنِّي إليه مَطالبٌ أُلِحُّ عليه تارةً وأُداري:
أمَا في التَّداني ما يبرِّدُ غُلَّةً ويُذهبُ شَوْقاً في ضُلُوعك سَاري؟
فقلتُ له: لو كانَ ذلكَ لم تكُنْ عداوةُ جارٍ في الأنام لجار
وقد يتراءىٰ العَسكَرانِ لدىٰ الوغىٰ وبينهما للمَوْتِ سُبْلُ بَوار

(١) الجُبَارُ: الهَدَرُ.

ولي كَلِمَتان قلتُهما مُعرِّضاً ـ بل مُصرِّحاً ـ برَجُلٍ من أصحابنا كُنَّا نعرفُهُ من أهلِ الطَّلب، والعناية، والوَرَع، وقيام اللَّيل، واقتفاء ءاثار النُّسَّاك، وسلوكِ مذاهب المتصوِّفين القدماء، باحثاً مجتهداً، ولقد كنَّا نتجنَّبُ المزاح بحَضْرته، فلم يَمْضِ الزَّمَنُ حتّى مكَّنَ الشيطانَ من نفسه، وفتكَ بعدُ لباسَ النُّسَّاك، وملَّكَ إبليسَ من خِطَامه فسوَّلَ له الغُرور، وزيَّنَ له الويلَ والثُّبُور، وأجرَّه رَسَنه بعد إباءٍ، وأعطاه ناصيتَهُ بعد شِماسٍ، فخبَّ في طاعته وأوضعَ، واشتهر ـ بعد ما ذكرته ـ في بعض المعاصي القبيحة الوَضِرَةِ. ولقد أطلتُ ملامه وتشدَّدْتُ في عَذله إذ أعلن بالمعصية بعد استتارٍ، إلىٰ أن أفسدَ ذلك ضميره عليَّ، وخبثَتْ نيَّتُهُ لي، وتربَّصَ بي دوائرِ السَّوء، وكان بعضُ أصحابنا يُساعده بالكلام استجراراً إليه، فيأنَسُ به ويُظْهِرُ له عداوتي، إلىٰ أنْ أظهر الله سريرتَهُ، فَعَلِمَها البادي والحاضر، وسقط من عيونِ النَّاس ـ كلِّهم ـ بعد أن كانَ مَقْصَداً للعلماء، ومُنتاباً للفضلاء، ورَذُلَ عند إخوانه جُمْلَةً. أعاذنا الله من البلاء، وسَتَرنا في كفايته، ولا سَلَبَنا ما بِنَا من نعمته.

فيا سَوْءَتاه لِمَنْ بدأ بالاستقامة، ولم يعلم أنَّ الخُذْلانَ يحلُّ به، وأنَّ العصمة ستفارقه!! لا إله إلاَّ الله، ما أشنعَ هذا وأفظعه!! لقد دَهَمَتْهُ إحدىٰ بنات الحَرْسِ، وألقت عصاها به أمُّ طَبَق[1]، من كانَ لله أولاً ثُمَّ صارَ للشَّيطان ءاخراً.

ومن إحدى الكلمتين: [من البسيط]

أمَّا الغُلام فَقَدْ حَانتْ فَضِيحَتُه ... وأنَّهُ كانَ مَسْتُوراً فقد هُتِكا

(١) الحرس: الدَّهر، وبناته: مصائبه. وأمُّ طبق أو بنات طبق: الشِّدَّة، أو الدَّاهية، وأصله للحية؛ إذ يقال لها أمُّ طبق (ع).

ما زالَ يَضْحَكُ من أهلِ الهوىٰ عَجَباً   فالآن كلُّ جَهُولٍ منه قد ضَحِكا

إليكَ لا تَلُحَّ صَبّاً هائِماً كَلِفاً   يرىٰ التَّهَتكَ في دين الهوىٰ نُسُكا

قد كانَ دَهْراً يعاني النُسُكَ مُجْتَهِداً   يُعَدُّ في نُسْكِهِ كلُّ امرىءٍ مُسُكا[1]

ذو مِخْبَرٍ وكتابٍ لا يُفارِقُهُ   نَحْوَ المُحَدِّث يسعىٰ حيثُ ما سلكا

فاعتاضَ من سُمْرِ أقلام بنانَ فتىً   كأنَّه من لُجَيْنٍ صِيغَ أو سُبِكا

يا لائمي سَفَهاً في ذاك قِلٌّ[2] فَلَمْ   تَشْهَدْ حَبِيبَيْنِ يَوْمَ المُلْتقىٰ اشتبكا

دَعْنِي وورْدِيَ في الآبار أطلُبُه   إليكَ عنِّي كذا لا أبْتَغي البِرَكا[3]

إذا تعفَّفْتَ عَفَّ الحُبُّ عنكَ وإنْ   تَرَكْتَ يوماً فإنَّ الحُبَّ قَدْ تَرَكا

ولا تَحُلَّ مِنَ الهِجْران مُنْعَقَداً   إلا إذا ما حَلَلْتَ الأُزْرَ والتِّكَكا

ولا تُصَحِّحُ للسُّلْطان مَمْلَكَةٌ   أو تَدْخُلِ البُرْدُ عن إنفاذِهِ السِّكَكا

ولا بِغَيْرِ كثير المَسْحِ يَذْهَب ما   يَعلو الحَدِيدَ من الأصداء إن سُبكا

وكانَ هذا ـ المذكورُ ـ من أصحابنا قد أحكمَ القراءات إحكاماً جَيِّداً، واختصر كتابَ ابن الأنباريِّ[4] في: «الوقف والابتداء» اختصاراً حَسَناً؛ أُعجِبَ

---

(١) هذه قراءة (ع)، وقال: المسك: البخيل (أي: أن كل امرىءٍ إذا قيس إلى نسكه عُدَّ مقصِّراً). (نَسِكاً) بدل: (مُسُكاً). وقرأها برشيه: نهكاً. وقال العلامة شاكر: مسكا: شرحه غريب، لعلَّه: «حسكاً».

(٢) أثبتها (ع): قَذَكَ. وهذه قراءة الأستاذ شاكر.

(٣) يستعمل ابن حزم في هذا البيت وما يليه من أبياتٍ نوعاً من التَّعريض الجارح (ع).

(٤) هو: محمد بن القاسم بن محمد، العلاَّمة أبو بكر ابن الأنباري النَّحوي اللُّغوي، شارح المفضليَّات والسَّبع الطُوال. قال الخطيب: كان صدوقاً دَيِّناً من أهل السُّنَّة. توفي سنة (٣٢٨هـ) ترجمته في: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٣ /الترجمة: ٤١٣). وقد طبع كتابه المشار إليه بعنوان «إيضاح الوقف والابتداء» في جزءين، تحقيق: محيي عبدالرحمٰن رمضان، بعناية مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١. وقد دخل الأندلس بعدَّة رواياتٍ منها: رواية شريح بن محمد عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن عبدالعزيز اليحصبي ـ =

به من رءَاهُ من المُقرِئين، وكانَ دائباً على طَلَبِ الحديث وتقييده، وأكثر دهره هو المتولِّي لقراءةِ ما يسمعه على الشُيوخ المحدِّثين، مثابراً علىٰ النَّسْخِ، مجتهداً، فلما امْتُحِنَ بهذه البَلِيَّة مع بعض الغِلْمان رَفَضَ ما كانَ مُعْتَنِياً به، وباعَ أكثرَ كُتُبِهِ، واستحالَ استحالةً كُلِّيَةً، نعوذُ بالله من الخِذلان. وقلتُ فيه كلمةً ـ وهي التَّالية للكلمة التي ذكرتُ منها في أول خَبره ـ؛ ثُمَّ تركتها.

وقد ذكرَ أبو الحسين أحمدُ بن يحيى بن إسحاق الرويديُّ[1] في كتاب: «اللَّفظِ والإِصلاح» أَنَّ [أبا إسحاق] إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام ـ رأسَ المعتزلة ـ، مع عُلُوِّ طبقته في الكلام، وتمكُّنه [في العلم]، وتحكُّمه في المعرفة، تسبَّب إلىٰ ما حرَّم الله عليه من فتىً نصرانيٍّ عَشقَهُ بأنْ وَضَعَ له كتاباً في تَفْضِيلِ التَّثْلِيثِ علىٰ التَّوْحِيد؛ فيا غوثاه! عياذَكَ يا ربُّ من تولُّج الشَّيْطان، ووقوع الخذلان![2]

وقد يَعْظُمُ البلاءُ، وتكلَبُ الشَّهوةُ، ويهونُ القبيحُ، ويَرِقُّ الدِّينُ حتَّى

= بمصر ـ عن ابن الشعيري، عن المؤلِّف. (فهرست ابن خير: ٤٤ ـ ٤٥، والصلة: ٢١٥، الترجمة: ٤٩٨).

(١) كذا في الأصل، ولعلَّ الصَّواب: الروندي. والذي في كتب التاريخ والتراجم: الرَّاونديُّ أو الرِّيوندي، وهو: عدوُّ الدِّين الملحد، صاحب التَّصانيف في الحطِّ على الملَّة، وكان يلازم الرافضة، والملاحدة، فإذا عوتب قال: إنَّما أريد أن أعرف أقوالهم. ثمَّ إنه كاشف، وناظر، وأبرز الشُّبه والشُّكوك. وكان معتزليّاً، ثمَّ تزندق. هلك سنة (٢٩٦هـ) أو (٢٩٨هـ)، وقال المسعوديُّ: توفي سنة (٢٥٠) عن أربعين سنة. «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٠ /الترجمة: ٨١)، و«سير أعلام النُّبلاء» ١٤/(٥٩)، و«البداية والنهاية» ١١/ ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) هذا الخبر نقله عن «الطَّوق» ابنُ ناصر الدِّين في: «توضيح المشتبه» ٩/٩٨، وعنده: (اللفظ والاصطلام) بدل: (اللفظ والاصلاح)، و(رأس أهل الاعتزال) بدل: (رأس المعتزلة)، وما بين المعقوفتين فمنه، وانظر ما كتبته في مقدمة التحقيق.
ولم يذكر ابن النَّديم في: «الفهرست» (اللَّفظ والإصلاح) بين كتبه.

يرضىٰ الإِنسانُ في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح، كمثل ما دَهَمَ عُبَيْدَالله بن يحيى الأزديّ المعروفَ بابن الجزيريّ، فإنَّه رضيَ بإهمال داره، وإِباحة حَريمهِ، والتَّعْريضَ بأهلِهِ طَمَعاً في الحصول علىٰ بُغْيَتِهِ من فتىً كانَ عَلِقَهُ ـ نعوذُ بالله من الضَّلال، ونسأله الحِياطة، وتحسينَ ءاثارنا، وإِطابة أَخبارنا ـ حتَّىٰ لقد صار المِسْكينُ حديثاً تُغْمَرُ به المَحافِلُ، وتصاغُ فيه الأشعار، وهو الذي تُسَمِّيه العرب: الدَّيوث، وهو مشتقٌّ من التَّذْييث، وهو التَّسْهيل، وما بعد تسهيل من تَسَمَّحَ نفسه بهذا الشَّأنِ تسهيلٌ، ومنه بعَيرٌ مديَّثٌ، أي: مُذَلَّلٌ. ولعمري! إنَّ الغيرة لتوجد في الحَيْوانِ بالخِلقَة[1]، فكيفَ وقد أَكَّدَتْها عندنا الشَّريعة، وما بعد هذا مصاب.

ولقد كنتُ أَعرفُ هذا ـ المذكورَ ـ مَسْتُوراً إلىٰ أَن استهواه الشَّيطانُ، ونعوذ بالله من الخِذلان. وفيه يقول عيسى بنُ محمَّد بن مجمل الخولانيُّ[2]: [من الكامل]

يا جاعِلاً إِخْراجَ حُرِّ نِسَائِهِ ... شَرَكاً لصَيْدِ جآذِرِ الغِزْلانِ

إنِّي أرىٰ شَرَكاً يُمَزَّقُ ثُمَّ لا ... تحظَىٰ بغَيْرِ مَذَلَّةِ الحِرْمان

وأقول أنا ـ أيضاً ـ: [من الطويل]

أبَاحَ أبو مَرْوانَ حُرَّ نِسَائِهِ ... ليبلُغَ ما يهوىٰ مِنَ الرَّشَأ الفَرْدِ

---

(١) ويقول ابن حزم في «الأخلاق والسِّير» (١٣١): إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبَّة. ويقول (١٣٢): الغيرة خُلُقٌ فاضل مركَّبٌ من النَّجدة والعدل.

(٢) ترجم له الحميدي (الجذوة: ٢٨١ والبغية رقم: ١١٥٥) باسم عيسى بن مجمل؛ وقال: كان أديباً تاجراً شاعراً من أهل قرطبة مشهوراً، وأورد له قطعتين في التذمُّر من قوم زاروه فقعدوا في دكانه ومنعوه من معيشته (ع).

فعاتبته الدُّيوثَ في قُبْحِ فِعْلِهِ   فأنشدني إنشادَ مُسْتَبْصِرٍ جَلْدِ
«لَقَدْ كنتُ أدْرَكْتُ المُنىٰ غيرَ أنَّني   يُعيِّرني قَوْمي بإدراكِها وَحْدِي»[1]

وأقول ـ أيضاً ـ: [من المتقارب]

رأيتُ الجَزيريَّ فيما يُعاني   قَليلَ الرَّشَادِ كثيرَ السَّفَاهِ
يَبِيعُ ويَبْتَاعُ عِرْضاً بعِرْضٍ   أُمورٌ وَجَدِّكَ ذاتُ اشْتِباه
ويأخُذُ مِيمَاً بإعطاء هاءٍ   ألاَ هكذا فليكُنْ ذُو النَّواهي
وَيُبْدِلُ أرْضَاً تُغذِّي النَّباتَ   بأرضٍ تُجِفُّ بشَوْكِ العَضَاه
لقد خابَ في تجْرِه ذو ابْتِياع   مَهَبَّ الرِّياحِ بمجرىٰ المِياه

ولقد سَمِعْتُهُ في المسجد الجامع يستعيذُ بالله من العِصْمَةِ؛ كما يُسْتعاذُ به من الخِذْلان!

وممَّا يُشبه هذا؛ أنّي أذكرُ أنِّي كنتُ في مجلسٍ فيه إخوانٌ لنا عند بعضِ مياسير أهل بلدنا، فرأيتُ بَيْنَ بعض من حَضَرَ وبين من كانَ بالحَضرةِ ـ أيضاً ـ مِنْ أهلِ صاحب المجلس أمراً أنكرته، وغَمْزاً اسْتَبْشَعْتُهُ، وخلواتٍ الحينَ بعد الحين، وصاحبُ المجلسِ كالغائب أو النَّائم، فنبَّهْته بالتَّعريض فلم ينتبهْ، وحرَّكْتُهُ بالتَّصريح فلم يتحرَّكْ، فجعلتُ أُكَرِّرُ عليه بَيْتَيْنِ قديمَيْنِ لعلَّه يفطن، وهما هذان: [من الخفيف]

إنَّ إخْوانَه المُقِيمينَ بالأمـ   ـس أَتَوْا للزِّنَاءِ لا للغِنَاء
قَطَعُوا أمْرَهُمْ وأنتَ حِمارٌ   مُوقَرٌ مِنْ بَلادةٍ وغَبَاء

(١) هو مضمَّن، ذكره أبو الحسن الجرجاني في: «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، وابن بسَّام الشَّنتريني في: «الذَّخيرة»؛ دون نسبة.

وأكثرتُ من إنشادهما[1] حتَّى قال لي صاحبُ المجلس: قد أَمْلَلْتنا من سماعهما، فتفضَّلْ بتركهما، أو إنشاد غيرهما. فأمسكتُ وأنا لا أدري أغافلٌ هو أم متغافلٌ. وما أذكر أنّي عُدْتُ إلىٰ ذلكَ المجلس بعدها، وقلتُ فيه قطعةً منها: [من الخفيف]

أَنْتَ لا شَكَّ أَحْسَنُ النَّاسِ ظَنَّاً ... ويَقِيناً ونِيَّةً وضَمِيرا[2]

فانتبهْ إنَّ بَعْضَ من كانَ بالأمـ ... ـس جَلِيساً لنا يُعاني كَبِيرا

ليسَ كلُّ الرُّكوعِ فاعْلَمْ صَلاةً ... لا ولا كُلُّ ذي لِحَاظٍ بَصِيرا

وحدّثني ثَعْلَبُ بن موسى الكلاذانيُّ[3]، قال: حدَّثني سليمان بن أحمد الشاعر قال: حدَّثتني امرأةٌ اسمها هِنْدُ كنتُ رأيتها في المشرق، وكانت قد حجَّتْ خمسَ حَجَّاتٍ، وهي من المتعبِّدات المجتهدات. قال سليمان: فقالت لي: يا ابنَ أخي، لا تُحَسِّنَ الظنَّ بامرأةٍ قَطُّ، فإنّي أُخْبِرُكَ عن نفسي بما يعلمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ركبتُ البحرَ منصرفةً من الحجِّ، وقد رَفَضْتُ الدُّنيا، وأنا خامسةُ خَمْسِ نِسوةٍ، كلُّهُنَّ قد حَجَجْنَ، وصرنا في مركبٍ في بَحْرِ القَلْزُم، وفي بعض ملاحي السَّفينة رَجُلٌ مُضْمَرُ الخَلْق، مديدُ القامة، واسع الأكتاف، حَسَنُ التَّرْكيب، فرأيته أوَّل ليلةٍ قد أتىٰ إلى إحدىٰ

(١) خ: إنشادهِنَّ.

(٢) في: «أمثال العوام» (٦٣ رقم: ٢٥٦) للزجّالي: أول ما يعطىٰ للقرّان (أي: القرنان) حسن الظن (يعني بزوجته)، ومثل أندلسي ءاخر: كثرة الاطمني تولّد القرون. وابن حزم يلمح إلىٰ ذلك.

(٣) ثعلب: بالثّاء واضحة في الأصل؛ وكذا: (الكلاذاني)؛ وهي نسبة لم أجدها، وذكره ابن الأبّار، في: «التّكملة لكتاب الصّلة» (ص: ٢٧٦، الترجمة: ٦٢١، القطعة التي حققها: الفريد بل، وابن أبي شنب، الجزائر ١٩٢٠)؛ في باب الأفراد من حرف التّاء؛ فقال: «تغلب [وأشار المحقق أنه في المخطوط: تعلب] بن عيسىٰ الكلابي، حكىٰ عنه ابن حزم في رسالته المسمّاة بطوق الحمامة».

صواحبي، فوضع إحليلَهُ في يَدها، وكانَ ضَخْماً جِدّاً، فأمكَنْتهُ في الوقتِ من نفسها، ثم مرَّ عليهنَّ كلِّهنَّ في ليالٍ متواليات، فلم يبقَ له غيرها ـ تعني نفسها ـ قالتْ: فقلتُ في نفسي لأنتقمنَّ منكَ؛ فأخذت موسىً، وأمسكتها بيدي، فأتىٰ في اللَّيل على جاري عادته، فلمَّا فعل كفِعْله في سائر الليالي سَقطَتِ الموسىٰ عليه فارتاع وقام لِيَنْهَضَ. قالتْ: فأشفقتُ عليه، وقلتُ له وقد أمسكته: لا زلتَ أو ءَاخُذَ نَصِيبي منك. قالت العجوز: فقضىٰ وطَره، وأستغفرُ الله!

وإنَّ للشُّعراء من لُطْفِ التَّعريضِ عن الكناية لعَجَباً؛ ومن بعض ذلك قولي حيثُ أقول: [من الطويل]

أتَاني وماءُ المُزْنِ في الجَوِّ يُسْفَكُ ... كمَخضِ لَجِينٍ إذْ يُمَدُّ ويُسْبَكُ
هِلالُ الدَّياجي انْحَطَّ مَنْ جوِّ أُفْقِه ... فقلْ في مُحِبٍّ ما لَيْسَ يُدْرَكُ
وكانَ الذي إنْ كُنْتَ لي عنه سَائلاً ... فما لي جوابٌ غيرَ أنِّي أضْحَك
لفَرْطِ سُروري خِلتُني عنه نائِماً ... فيا عَجَباً من مُوقِنٍ يَتَشَكَّكُ

وأقولُ ـ أيضاً ـ قطعةً منها: [من البسيط]

أتيتَني وهلالُ الجَوِّ مُطَّلعٌ ... قُبَيْلَ قَرْعِ النَّصارىٰ للنَّواقِيسِ
كحاجِبِ الشَّيْخِ عمَّ الشَّيْبُ أكثَرهُ ... واخْمَص الرِّجلِ في لُطْفٍ وتَقْويس
ولاحَ في الأفقِ قَوْسُ الله مُكْتَسِياً ... من كلِّ لونٍ كأذنابِ الطَّواويس(١)

وإنَّ فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصِلينَ في غير ذاتِ الله ـ تعالىٰ ـ بعد الأُلْفة، وتدابرهم بعد الوصال، وتقاطُعِهِمْ بعد المودَّة، وتباغضهم بعد

---

(١) اعتقد أنَّ التَّعريض في هذه القطعة قد ضاع مع أبياتٍ سقطت منها. (ع).

المحبَّة، واستحكام الضَّغائن، وتأكُّدِ السَّخائم في صدورهم؛ لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سَلِيمةً، وءاراءً نافذةً، وعزائمَ صَحِيحَةً. فكيفَ بما أعدَّ الله لمَنْ عصاه من النّكال الشَّديد يوم الحساب، وفي دار الجزاء، ومن الكَشْفِ علىٰ رؤوس الخلائق: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢] جعلنا الله مِمَّنْ يَفُوزُ برضاه، ويَسْتَحِقُّ رحمته.

ولقد رأيتُ امرأةً كانتْ مَوَدَّتُهَا في غير ذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فعهدتُها أصفىٰ من الماء[١]، وألْطَفَ من الهواء[٢]، وأثبتَ مِنَ الجبال، وأقوىٰ مِنَ الحديدِ[٣]، وأشدَّ امتزاجاً من اللَّوْنِ في المُلَوَّن، وأنفذَ استحكاماً من الأعراض في الأجسام، وأضوأَ من الشَّمْس، وأصحَّ من العيان، وأثقبَ من النَّجْم، وأصدقَ من كُدْرِ القَطا[٤]، وأعجبَ من الدَّهر، وأحسنَ من البِرِّ، وأجملَ من وجه أبي عامرٍ، وألذَّ من العافية، وأحلىٰ من المُنىٰ، وأدنىٰ من النَّفْس، وأقربَ من النَّسَب، وأرسخَ من النَّقْشِ في الحَجَر. ثُمَّ لم ألبثْ أنْ رأيتُ تلك المودَّةَ قد استحالتْ عداوةً أفظَعَ من الموت، وأنفذَ من السَّهْم[٥]، وأمرَّ من السُّقْم، وأوحشَ من زوال النِّعَم، وأقبحَ من حلولِ النِّقَم، وأمضىٰ من عُقْمِ الرِّياح[٦]، وأضرَّ من الحُمْقِ، وأدهىٰ من غَلَبَة العدوِّ، وأشدَّ من الأَسْر،

(١) يقال في المثل: أصفى من الماء، أرق من الماء (الدرّة الفاخرة ٢٦٣، ٢٠٩)، وبعض هذه الأمثال مما صاغه ابن حزم وبعضها مما درج في الاستعمال (ع).

(٢) يقال في المثل: أرق من الهواء (الدرّة الفاخرة: ٢٠٩).

(٣) يقال: أصلب من الحديد، أشد من الحديد (الدرّة: ٢٦٣، ٢٣٦).

(٤) يقال: أصدق من قطاة (الدرّة: ٢٦٥).

(٥) يقال: أنفذ من إبرة. أنفذ من سنان (الدرّة: ٣٩١).

(٦) يقال: أسرع من الريح (الدرّة: ٢١٧، ٤٤١).

وأقسىٰ من الصَّخرِ[١]، وأبغضَ من كَشْفِ الأستار، وأنأىٰ من الجَوْزاءِ[٢]، وأصعبَ من معاناة السَّماء، وأكبر من رُؤْية المُصاب، وأشنَعَ من خَرْقِ العادات، وأقطعَ من فُجاءَةِ البلاء، وأبشعَ من السُّمّ الزُّعَاف[٣]، وما لا يتولَّد مثله عن الذُّحُول والتِّراثِ، وقتلِ الآباء وسَبْيِ الأمهات.

وتلك عادةُ الله في أهل الفِسْقِ القاصدين سواه، الآمِّين غيره؛ وذلك قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٨].

فيجبُ علىٰ اللَّبيب الاستجارةُ بالله مِمَّا يُوَرِّطُ فيه الهوى؛ فهذا خَلَف مَولىٰ يوسف بن قَمْقامَ ـ القائدُ المشهور ـ كانَ أحدَ القائمين مع هشام بن سليمانَ بن النَّاصر[٤]، فلما أُسر هشامٌ، وقُتل، وهرب الذين وازَرُوه؛ فَرَّ خَلَفٌ في جُمْلتهم ونَجا، فلمَّا أتىٰ القسْطلات[٥] لم يُطِقْ الصَّبْر عن جاريةٍ كانتْ له بقرطبةَ؛ فكَرَّ راجعاً، فظَفِرَ به أمير المؤمنين المهديّ، فأمر بصَلْبه، فلعهدي به مَصْلُوباً في المرج على النَّهر الأعظمِ، وكأنَّه القُنْفُذُ من النَّبْل.

ولقد أخبرني أبو بكرٍ محمَّدُ بن الوزير عبدالرحمن بن الليث ـ رحمه الله ـ أنَّ سببَ هروبه إلىٰ محلَّة البرابر أيامَ تحُولهم مع سليمان

---

(١) يقال: أقسى من حجر، أقسى من صخرة (الدرّة: ٣٥١).

(٢) يقال: أنأى من الكواكب، أبعد من النجم، من السماء، من الثريا... إلخ (الدرّة: ٣٩١، ٧٥).

(٣) الزعاف والذعاف: كلاهما صحيح.

(٤) هشام بن سليمان بن الناصر الملقب بالرشيد، ثار على محمد بن هشام بن عبدالجبار الملقَّب بالمهدي، فكان مصيره أن قُتل (سنة ٣٩٩) انظر أعمال الأعلام: ١١٣ (ع).

(٥) ورد عند العذري «قسطلة» (دون إضافة)، فلعل ما هنا صورة من صور النطق بهذا الاسم، ويؤخذ من كلام العذري أنها في جهة شنتمرية الغرب (نصوص: ١٠٧) ويستفاد من كلام بروفنسال (الأندلس: ٣٥٨ الحاشية) أنه أعياه العثور عليها (ع).

الظَّافر؛ إنَّما كانَ لجاريةٍ يكلَفُ بها تصَيَرتْ عند بعضِ مَنْ كانَ في تلك النَّاحية، ولقد كادَ أن يَتْلَفَ في تلك السَّفرةِ.

وهذان الفَضْلانَ وإن لم يكونا مَنْ جِنْسِ الباب؛ فإنَّهما شاهدان على ما يقودُ إليه الهوىٰ من الهلاك الحاضِرِ الظَّاهر، الذي يستوي في فهمه العالِم والجاهل، فكيفَ من العِصْمَة التي لا يَفْهَمُها من ضَعُفَتْ بصيرته.

ولا يقولَنَّ امرؤ: خَلَوْتُ! فهو إن انفرد فبِمَرْأىٰ ومَسْمَعٍ من علام الغيوب الذي: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾، [غافر: ١٩] و﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] و﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦] وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] و﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

وليعلَم المُسْتَخِفُ بالمعاصي، المتَّكِلُ علىٰ التَّسْويف، المعرِضُ عن طاعةِ ربِّه؛ أنَّ إبليسَ كانَ في الجَنَّةِ مع الملائكة المقرَّبِينَ فلمعصيةٍ واحدةٍ وقعتْ منه استحقَّ لعنةَ الأبد، وعذابَ الخُلْدِ، وصُيِّر شيطاناً رجيماً، وأُبْعِدَ عن رفيع المكان. وهذا ءادم ﷺ بذَنْبٍ واحدٍ أُخْرِجَ من الجنَّة إلىٰ شقاء الدُّنيا ونكدها؛ ولولا أنَّه تلقَّىٰ من ربِّه كلماتٍ وتاب عليه لكانَ من الهالكين[1]. أفترىٰ هذا المغترَّ بالله ـ ربِّه ـ وبإملائه ليزداد إثْماً يظنُّ أنَّه

---

(١) إشارة إلى الآية: (٣٧) من: «سورة البقرة».

أكرمُ علىٰ خالقه من أبيه ءادم الذي خَلَقَه بيده، ونَفَخَ فيه من روحه، وأسْجَدَ له ملائكتَهُ الذين هم أفضلُ خَلْقِهِ عنده؟ أو عقابُهُ أعزُّ عليه من عقوبته إياه؟ كلَّا! ولكنَّ استعذابَ التَّمَنِّي، واستيطاءَ مَركب العَجْزِ، وسُخْفَ الرَّأي؛ قائِدةٌ أصحابَها إلى الوبالِ والخِزْي. ولو لم يكنْ عند ركوب المعصية زاجرٌ من نهي الله ـ تعالىٰ ـ ولا حامٍ من غليظِ عقابه؛ لكانَ في قبيح الأحدوثةِ عن صاحبه، وعظيم الظُّلْمِ الواقعِ في نفس فعله[1]؛ أعظمُ مانعٍ، وأشدُّ رادعٍ؛ لِمَنْ نَظَرَ بعَيْنِ الحقيقة، واتَّبع سبيل الرُّشْد، فكيفَ والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

حدَّثنا الهمدانيُّ ـ في مسجد القمريِّ، بالجانب الغربيِّ من قرطبة سنة إحدى وأربعِ مئةٍ ـ قال: حدَّثنا ابن شَبُّوَيْه[2]، وأبو إسحاق البلخيُّ[3] ـ بخراسان سنة خمسٍ وسبعين وثلاث مئة ـ قالا: حدَّثنا محمَّد بن يوسف[4]، قال: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل[5]، قال: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدَّثنا جريرٌ، عن الأعمشِ، عن أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل، قالَ: قال

(١) كذا في الأصل، وجعلها (ع): فاعله.

(٢) ابن شبويه: الشيخ الثقة الفاضل أبو علي محمد بن عمر بن شبويه الشَّبويُّ المروزيُّ، سمع: «الصحيح» من الفربريِّ. ذكره الذهبي في المتوفَّين تقريباً في وفيات (٣٧١ ـ ٣٨٠) من: «تاريخ الإسلام» (ص: ٦٨١)، وترجم له في: «السِّير» ١٦/(٣٠٩).

(٣) الإمام المحدِّث الرحَّال أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد البلخي المُستملي، راوي «الصحيح» عن الفربري، توفي سنة (٣٧٦هـ) ـ رحمه الله ـ. «السِّير» ١٦/(٣٦٢).

(٤) المحدِّث الثِّقة العالِم أبو عبدالله محمَّد بن يوسف الفِرَبريُّ، راوي «الجامع الصَّحيح» عن أبي عبدالله البخاريّ، مات سنة (٣٢٠هـ). «السِّير» ١٥/(٥).

(٥) هو: الإمام البخاريُّ، والحديث في: «صحيحه» (٧٥٣٢) و(٦٨٦١).

عبدُالله ـ وهو ابن مسعود ـ قالَ رَجُلٌ: يا رسولَ الله أيُّ الذَّنب أكبرُ عندَ الله؟ قال: «**أنْ تَدْعُوَ لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ**». قال: ثُمَّ أيُّ؟ قالَ: «**أنَ تقتل وَلدَكَ أن يَطْعَمَ مَعَكَ**». قال: ثُمَّ أيُّ؟ قالَ: «**أن تُزاني حَلِيلَة جَارِكَ**». فأنزل الله تَصْدِيقَها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ الآية.

وقال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٢]؛ الآية.

حدَّثنا الهمدانيُّ، عن أبي إسحاقِ البلخيِّ وابن شَبُّويَهْ، عن محمَّد بن يوسف، عن محمد بن إسماعيل[1]، [عن سعيد بن عُفير]، عن اللَّيْثِ، عن عقيلٍ، عن ابن شهابٍ الزُّهريِّ، عن أبي بكرٍ بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وسعيد بن المُسيِّب المخزوميَّيْنِ، وأبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف الزُّهريِّ، [عن أبي هريرة]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

وبالسند المذكور إلىٰ مُحَمَّد بن إسماعيل[2]، عن يحيىٰ بن بُكَيْر، عن اللَّيثِ، عن عقيلٍ، عن ابن شهابٍ، عن أبي سلمة وسعيد بن المسيِّبِ، عن أبي هريرة، قالَ: أتىٰ رَجُلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في المسجد، [فناداه] فقال: يا رسول الله! إنِّي زنيتُ. فأعرضَ عنه، ثُمَّ ردَّ عليه[3] أربعَ مراتٍ، فلما شَهِدَ علىٰ نفسه أربعَ شهاداتٍ؛ دعاه النبي ﷺ فقال: «**أبِكَ جُنُونٌ؟**»

---

(١) البخاريّ في: «صحيحه» (٢٤٧٥)، واستدركتُ الزِّيادتين منه. ورواه (٦٧٧٢) عن يحيىٰ بن بكير عن اللَّيث. ورواه (٥٥٧٨) من طريق: يونس عن الزُّهري.

(٢) البخاريّ في: «صحيحه» (٦٨١٥) و(٧١٦٧).

(٣) في البخاري: حتَّىٰ ردَّد عليه.

قال: لا. قالَ: «**فهل أَحْصَنتَ؟**» قالَ: نَعَمْ. فقالَ النبي ﷺ: «**اذْهَبُوا به فارْجُمُوهُ**». قالَ ابنُ شهابٍ: فأخبرني مَنْ سَمِعَ جابرَ بنَ عبدالله قالَ: كُنْتُ فيمن رَجَمَهُ، فرجمناه بالمُصَلَّىٰ، فلمَّا أذْلَقَتْهُ الحجارةُ؛ هَرَبَ فأدركناه بالحَرَّةِ فرَجَمْنَاهُ.

حدَّثنا أبو سعيدٍ؛ مولىٰ الحاجب جعفر ـ في المسجد الجامع ـ عن أبي بكرٍ المقرىءِ، عن أبي جعفر ابن النَّحاسِ، عن [عليِّ بن] سعيد بن بشيرٍ، عن عمرو بن رافعٍ، [عن هُشَيْمٍ] عن منصورٍ، عن الحَسَنِ[1]، عن حَطَّان بن عبدالله الرَّقاشيِّ، عن عُبَادة بن الصَّامت، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خُذُوا عنِّي! خُذُوا عنيّ! قد جعل الله لهنَّ سبيلاً: البكرُ بالبكر جَلْدُ مِئَةٍ وتَغرِيبُ سَنَةٍ، والثيِّبُ بالثَّيِّبِ جَلْدُ مِئَةٍ والرَّجْمُ**»[2].

فيا لشُنْعةِ ذَنْبٍ أنزل الله وَحْيَهُ مُبيِّناً بالتَّشْهير بصاحبه، والعُنْفِ بفاعله، والتَّشْديد لمقترفه، وتشدَّد في عقوبة رجمه أَلا يُرْجَمَ إلا بحَضْرةِ أَوليائه. وقد أجمعَ المسلمون إجماعاً؛ لا يَنقُضه إلا مُلحدٌ: أنَّ الزَّانيَ المُحَصنَ عليه الرجمُ حتَّى يموتَ[3].

---

(١) وقع سَقْطٌ وتحريفٌ في الإسناد، فصحَّحته من كتب الرجال ومصادر التَّخريج. والحسن؛ هو: الحسن بن أبي الحسن البصري. ومنصور؛ هو: منصور بن زاذان الواسطيُّ؛ ثقةٌ ثبتٌ، والراوي عنه: هُشَيْم بن بشير السُّلمي؛ ثقة ثبت أيضاً، وعنه: عمرو بن رافع البجلي؛ أبو حُجْر القزويني؛ ثقة ثبت أيضاً. وهؤلاء كلُّهم من رجال «التهذيب». وعلي بن سعيد بن بشير ـ وفي الأصل: بشر؛ وهو خطأ ـ هو الحافظ أبو الحسن الرازيُّ عَلِيَّك، قال الدَّارقطنيُّ: لم يكن بذاك في حديثه. مترجم في «السِّير» ١٤/(٨٠).

(٢) رواه أحمد ٣١٣/٥، والدارمي (٢٣٣٣)، ومسلم (١٦٩٠) ـ ومن طريقه: ابن حزم في: «المحلَّىٰ» (المسألة: ٢١٩٧) ـ، وأبو داود (٤٤١٦)، والترمذيُّ (١٤٣٤)، والنسائيُّ في: «الكبرى» (٧١٤٤)؛ من طرقٍ عن هشيم، قال: أخبرنا منصور به. ولم أقف عليه من طريق: عمرو بن رافع عن هشيم. وللحديث طرق أخرىٰ عن الحسن.

(٣) نقل المصنِّف الاتِّفاق على هذا في: «مراتب الإجماع» ص: ١٢٩، وذكر في: =

فيا لها قِتْلَةً ما أهولَها، وعقوبةً ما أفظعها، وأشدَّ عذابها، وأبعدها من الإِراحة وسُرْعة الموت!

وطوائف من أهل العلم ـ منهم الحَسَنُ بن أبي الحسن، وابنُ راهَوَيْه، وداود، وأصحابه[1] ـ يَرَوْنَ عليه مع الرَّجْمِ جَلْد مئةٍ، ويحتجُّون عليه بنصِّ القرءان، وثابت السُّنَّةِ عن رسول الله ﷺ، وفِعْلِ عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ؛ بأنَّه رَجَمَ امرأةً مُحْصَنةً في الزِّنا بعد أن جلدها مئة، وقال: جَلَدْتها بكتاب الله، ورَجَمْتُها بسُنَّةِ رسول الله[2]. والقولُ بذلك لازِمٌ لأصحاب الشَّافعيِّ، لأنَّ زيادةَ العَدْلِ في الحديثِ مَقْبُولَةٌ[3].

وقد صَحَّ في إجماع الأمةِ المنقولِ بالكافَّةِ الذي يَصْحَبُهُ العملُ عند كلِّ

= «المحلَّىٰ» (المسألة: ٢٢٠٨)؛ من خالف هذا الإجماعَ فقال: فأمَّا الأزارقةُ، فليسوا مِنْ فرق الإسلام؛ لأنَّهم أخبر رسولُ الله ﷺ عنهم بأنَّهم يمرقون من الدِّين كما يرمق السَّهم من الرَّمية؛ فإنَّهم قالوا: لا رجم أصلاً، وإنما هو الجلد فقط. قلتُ: والأزارقة من فرق الخوارج. ونقل هذا الإجماع، واحتجَّ له؛ الماورديُّ في: «الحاوي الكبير» ١٣/١٨٥، وابنُ عبدالبر في: «التمهيد» ٥/٣٢٤، وابن قدامة في: «المغني» ١٢/٣٠٩، والسَّرْخَسِيُّ في: «المبسوط» ٩/٣٧؛ وغيرهم كثير.

(١) «المحلَّىٰ» (المسألة: ٢٢٠٨)، و«التمهيد» ٩/٧٩، و«المغني» ١٢/٣١٣. والحسن؛ هو: البصريُّ. وابن راهويه؛ هو: الإمام الفقيه سيِّد الحفَّاظ إسحاق بن إبراهيم الحَنْظَليُّ (٢٣٨هـ). وداود؛ هو: رئيس أهل الظاهر، الإمام الحافظ أبو سليمان البغداديُّ، المعروف بالأصبهانيِّ (٢٧٠هـ).

(٢) صحيح؛ رواه سلمة بن كهيل، عن الشَّعبي، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه: أحمدُ (٧١٦) و(٨٣٩) و(١١٩٠) و(١٣١٧)، والبخاريُّ (٦٨١٢)؛ مختصراً لم يذكر الجلد، والنسائيُّ في: «الكبرىٰ» (٧١٤٠) وله طرقٌ عن الشَّعبي، وعن عليٍّ؛ تجدها في: «إرواء الغليل» (٢٣٤٠)، وفي غيره.

(٣) مذهبُ ابنُ حزم قبول زيادة الثِّقة في الحديث (الإحكام في أصول الأحكام: ٢/٩٠ ـ ٩٦، ط: شاكر)، ويشير هنا إلى أنَّ هذا هو مذهب الشَّافعية ـ أيضاً ـ (انظر مثلاً: «المستصفىٰ» ١/١٣٣ لأبي حامد الغزَّالي، و«الإحكام» ٢/١٢٠ للآمدي)، وهذا ـ من ابن حزم ـ إيرادٌ جدليٌّ؛ إذ أنَّ لهذه القاعدة ضوابط حديثية وأصولية، تجدها مشروحة في كتب المصطلح وأصول الفقه.

فِرْقَةٍ، وفي أهل كلِّ نِحْلَةٍ مِنْ نِحَلِ أهلِ القبلة ـ حاشا طائفةً يسيرةً من الخوارج لا يُعْتَدُّ بهم ـ أنَّه لا يَحِلّ دَمُ امرئٍ مسلم إلا بكفرٍ بعدَ إيمانٍ، أو نَفْسٍ بنَفْسٍ، أو بمُحَارَبَةٍ لله ورسوله؛ يُشْهِرُ فيها سَيْفَهُ، ويسعىٰ في الأرضِ فساداً مقبلاً غيرَ مُدْبِرٍ، وبالزِّنا بعد الإحصان[1]. فإنَّ حدَّ ما جعلَ الله مع الكُفْر بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومحاربته، وقَطْعِ حُجَّتِهِ في الأرضِ، ومنابذته دينَهُ؛ لَجُرْمٌ كبيرٌ، ومعصيةٌ شنعاءُ، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، و﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] وإنْ كانَ أهلُ العلم اختلفوا في تسميتها فكلُّهم مُجْمِعٌ ـ مهما اختلفوا فيه منها ـ أنَّ الزِّنا مُقدَّمٌ فيها، لا اختلاف بينهم في ذلك، ولم يُوعِد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه بالنَّار بعد الشِّرك إلا في سَبْعِ ذُنُوبٍ، وهي الكبائر: الزِّنا أحدها، وقَذْفُ المحصناتِ ـ أيضاً ـ منها، منصوصاً ذلك ـ كلُّه ـ في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقد ذكرنا أنَّه لا يَجِبُ القتلُ علىٰ أحدٍ من وَلَدِ ءادمَ إلا في الذُّنوب الأربعة التي قد تقدَّم ذكرها: فأمَّا الكفر منها فإنْ عادَ صاحبه إلىٰ الإسلام، أو بالذِّمَّة ـ إنْ لم يكن مرتدّاً ـ قُبِلَ منه، ودُرِىء عنه الموتُ. وأمَّا القتلُ: فإنْ قَبِلَ الوليُّ الدِّيَةَ في قولِ بعضِ الفقهاء، أو عفا في قول جميعهم سَقَطَ عن القاتل القَتْلُ بالقصاص. وأمَّا الفسادُ في الأرض فإنْ تابَ صاحبه قَبْلَ أن يُقْدَرَ عليه هُدِرَ عنه القَتْلُ. ولا سبيلَ في قولِ أحدٍ مُؤالِفٍ أو مُخَالِفٍ في

---

(١) يشير إلى حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؛ إلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**» رواه البخاريُّ (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)؛ وغيرهما.

تَرْكِ رَجْمِ المُحْصَنِ، ولا وَجْهَ لرَفْعِ المَوْتِ عنه البتَّةَ.

ومِمَّا يدلُّ على شُنْعة الزِّنا ما حدّثنا القاضي أبو عبدِالرحمن، قال: حدّثنا القاضي أبو عيسى، عن عُبَيْد الله بن يحيى، عن أبيه يحيىٰ بن يحيى، عن اللَّيث، عن الزُّهريِّ، عن القاسم بن محمَّد بن أبي بكرٍ، عن عُبَيْدِ بن عُمَيْرٍ: أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أضافَ[1] ـ في زمانه ـ رَجُلٌ ناساً من هُذَيْلٍ، فخرجتْ جاريةٌ منهم فاتَّبعها، يُريدها عن نفسها، فرَمَتْه بِحَجَرٍ فقَضَتْ كَبِدَهُ. فقالَ عُمَرُ: هذا قتيلُ الله، والله لا يُودَىٰ أبداً[2].

وما جَعَلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه أربعةَ شهُودٍ، وفي كلِّ حُكْمٍ شاهِدَيْنِ، إلا حياطةً منه ألا تَشِيعَ الفاحشةُ في عباده، لعِظَمِها وشُنْعَتِها وقُبْحِها، وكيفَ لا تكونُ شَنيعةً ومن قَذَفَ بها أخاه المُسْلِمَ، أو أخته المسلمةَ دون صِحَّةِ علمٍ، أو تيقُّنِ معرفةٍ، فقد أتىٰ كبيرةً من الكبائر استحقَّ عليها النَّار غداً، ووجبَ عليه بنصِّ التَّنْزيل أن تُضرَبَ بَشَرَتُهُ ثمانينَ سَوْطاً. ومالكٌ ـ رضي الله عنه ـ يرىٰ ألا يُؤخَذَ في شيءٍ من الأشياءِ حَدٌّ بالتَّعْرِيض دونَ التَّصريح إلا في القَذْفِ[3].

---

(١) خ: أصاب. وهو تحريف، والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) أثرٌ صحيحٌ: رواه ابن أبي شيبة في: «المصنَّف» (٢٧٧٨٣)، وزكريا بن يحيى المروزيُّ في: «حديث سفيان بن عيينة» (رقم: ١٥، بتحقيقي، ١٤١٠هـ)، والبيهقي في: «السنن الكبرىٰ» ٨/٣٣٧ من طريق سعدان بن نصر، ثلاثتهم عن سفيان. وعبدُ الرَّزَّاق في: «المصنَّف» (١٧٩١٩) عن معمر؛ كلاهما (سفيان، ومعمر) عن الزُّهريِّ؛ به. وصَحَّحَهُ ابنُ عبد البر في: «التمهيد» ٢١/٢٥٧، وحسَّن إسناده ابنُ الملقِّن في: «خلاصة البدر المنير» (٢٤٨٨).

و«فقضت كبده»، قرأها العلامة شاكر: «ففضَّت كبده».

(٣) انظر: «المدوَّنة الكبرىٰ» ٦/٢٢٤، و«المحلىٰ» (المسألة: ٢٢٣٦).

وبالسَّند المذكور عن[1] اللَّيْثِ بن سعد، عن يحيىٰ بن سعيد، عن محمَّد بن عبدالرحمن، عن أمِّه عَمرةَ بنتِ عبدالرحمن، عن عمر بن الخطاب ـ رضيِ الله عنه ـ أنَّه أمر أنْ يُجلَدَ رَجُلٌ قالَ لآخرَ: ما أبي بزانٍ ولا أُمِّي بزانيةٍ؛ في حديثٍ طويلٍ[2].

وبإجماعٍ من الأمة ـ كلِّها ـ دونَ خِلافٍ من أحدٍ نعلمه أنَّه إذا قالَ رجلٌ لآخر: يا كافِرُ، أو يا قاتلَ النَّفْس التي حَرَّمَ الله، لما وَجَبَ عليه حدٌّ؛ احتياطاً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ألا تَثْبُتَ هذه العظيمة في مُسْلِمٍ ولا مُسْلِمَةٍ.

ومن قول مالك ـ رحمه الله ـ أيضاً: أنَّه لا حدَّ في الإِسلام إلا والقتل يُغْني عنه ويَنْسَخُه إلا حَدَّ القَذْفِ، فإنَّه إن وَجَبَ علىٰ من قد وجب عليه القَتْلُ حُدَّ ثُمَّ قُتِلَ[3]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النُّور: ٤ ـ ٥]؛ الآية، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ [في] الغَضَبِ، واللَّعْنةِ ـ المذكورين في اللعان ـ: إنَّهما مُوجِبَتَانِ[4].

---

(١) خ: أن.

(٢) صحيح: رواه ابن أبي شَيْبة (٢٨٣٧٦)، والدَّارقطنيُّ ٣/٢٠٩؛ من طريق: يحيىٰ بن سعيد به. ورواه مالك في: «الموطَّأ» (١٥١٥)؛ عن محمَّد بن عبدالرحمٰن ـ وهو: أبو الرِّجال الأنصاريُّ؛ ثقة ـ به.

(٣) قال مالكٌ: كلُّ حدٌّ اجتمع مع القتلِ لله أو قصاص لأحد من الناس؛ فإنه لا يُقام مع القتل، والقتل يأتي على جميع ذلك؛ إلا الفِرْية، فإن الفرية تقام ثم يُقتل، ولا يقام عليه مع حدِّ الفرية وحدها، لأنه إنما يُضرب حدَّ الفرية لئلا يقال لصاحبه: ما لك لم يُضرب لكَ فلان حدَّ الفرية! يُعرِّض له بأن يقول له: لأنك كذلك! (المدونة الكبرى: ٦/٢١٢). والفِرية: القذف.

(٤) المصنِّف يروي هنا بالمعنى، وأصل هذا في قصَّة ملاعنة هلال بن أميَّة لزوجه، وفيها: =

حَدَّثنا الهمدانيُّ، عن أبي إسحاق، عن محمَّد بن يوسف، عن محمَّد بن إسماعيل[1]، عن عبدالعزيز بن عبدالله، قال: حدثنا سليمان، عن ثور بن زيدٍ[2]، عن أبي الغَيْثِ، عن أبي هُريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقات»** . قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: **«الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتل النَّفْسِ التي حَرَّم الله إلاَّ بالحَقِّ، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، وقذفُ المحصناتِ الغافلات المؤمنات»**.

وإنَّ في الزِّنا من إباحة الحَريم، وإفساد النَّسْل، والتَّفْريق بين الأزواج الذي عظَّم الله أمره؛ ما لا يَهُونُ على ذي عقلٍ، أو مَنْ له أقلُّ خَلاق. ولولا مكانُ هذا العُنْصُر من الإنسان، وأنَّه غيرُ مأمونِ الغَلَبة لما خفَّف الله عن البِكْرَيْنِ، وشدَّدَ على المُحْصَنَيْن. وهذا عندنا وفي جميع الشَّرائع القديمة النَّازلة من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حُكماً باقياً لم يُنسَخْ، ولا أُزيلَ، فتبارك النَّاظر لعباده الذي لم يَشْغَلْه عظيمُ ما في خَلْقِهِ، ولا يَحِيفُ قدرَتَهُ كبيرُ ما

= النبيَّ ﷺ أمرَ رجلاً حين أمر المتلاعنَيْنِ أنْ يتلاعَنا؛ أنْ يَضَعَ يده عندَ الخامسة على فيه؛ وقال: **«إنَّها مُوجِبَةٌ»**. أخرجه أبو داود (٢٢٥٥)، والنسائي ٦/ ١٧٥ (٣٤٧٢) عن كُليب بن شهاب، عن ابن عبَّاس. وأصله عند البخاريِّ (٤٧٤٧) من طريق: هشام بن حسَّان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس؛ به. وللحديث طرق وألفاظ. وصفة اللِّعان أنَّه: إذا قذف الرجل زوجته بالزنى؛ فأنكرت؛ ولم تكن عنده بيِّنة، فيتلاعنان، يقول: بالله إني لمن الصادقين يكررها أربع مرات، ثم يأمر الحاكم من يضع يده على فيه، ويقول له: إنها موجبة. فإن أبى فإنه يقول: وعليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين. فإذا أتمّ هذا الكلام سقط عنه الحدُّ لها، والذي رماها به. وتقول هي: بالله إنه لمن الكاذبين، تكررها أربع مرات. ثم تقول: وعليَّ غضب الله إن كان لمن الصادقين. ويأمر الحاكم مَن يوقفها عند الخامسة، ويخبرها بأنها موجبة لغضب الله تعالى عليها، فإذا قالت ذلك؛ برئت من الحد، وانفسخ نكاحها منه، وحرمت عليه أبد الآبد لا تحل له أصلاً لا بعد زوج ولا قبله، ولا وإن أكذب نفسه، لكن إن أكذب نفسه حدَّ فقط. (المحلَّى، المسألة: ١٩٣٩).

(١) البخاريّ في: «صحيحه» (٢٧٦٦) و(٦٨٥٧) و(٥٧٦٤). وأخرجه مسلم (٨٩) أيضاً.

(٢) خ: يزيد. تحريف، وهو: ثور بن زيد الدِّيليُّ المدنيُّ، ثقة، أخرج له الجماعة.

في عوالمه عن النَّظَر لحقير ما فيها، فهو كما قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

وإنَّ أعظمَ ما يأتي به العبدُ هَتكُ سِتْرِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عباده؛ وقد جاء في حُكْم أبي بكرٍ الصِّدّيق ـ رضي الله عنه ـ في ضَربه الرجلَ الذي ضَمَّ صَبِيّاً حتَّى أمنىٰ ضَرْباً كانَ سبباً للمَنِيَّةِ[1]. وفي[2] إعجاب مالكٍ ـ رحمه الله ـ باجتهادِ الأمير الذي ضَرَبَ صَبِيّاً مكَّنَ رجلاً من تَقْبيله حتَّى أمنىٰ الرَّجُلُ، ضَرَبَهُ إلىٰ أنْ ماتَ؛ ما يُنسي شدَّة دواعي هذا الشَّأْنِ وأسبابه. والتزيُّد في الاجتهاد ـ وإنْ كنَّا لا نراه ـ فهو قولُ كثيرٍ من العلماءِ يتَّبعه علىٰ ذلك عالَمٌ من النَّاس.

وأمَّا الذي نَذْهَبُ إليه فالَّذي حدَّثناه: الهمدانيُّ، عن البلخيِّ، عن الفِرَبْرِيِّ، عن البخاريِّ[3]، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن سليمان، قال: حدَّثنا ابن وهب قال: أخبرني عَمْرو أنَّ بُكَيْراً حدَّثه عن سليمانَ بن يسار، عن عبدالرحمن بن جابر، عن أبيه، عن أبي بُرْدَةَ الأنصاريِّ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يُجْلَدُ فوقَ عَشْرَةِ أَسْواطٍ إلا في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**».

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) خ: ومن. وما أثبته أجود.

(٣) في: «صحيحه» (٦٨٥٠)؛ واللَّفظ الذي أورده ابن حزم يوافق رواية البخاريِّ (١٧٠٨) عن أحمد بن عيسىٰ، عن ابن وَهْبٍ، به. ورواه ابن حزم في «المحلَّىٰ» (مسألة: ٢٣٠٩) من طريق البخاريِّ (٦٨٤٨) عن عبدالله بن يوسف، عن الليث، عن يزيد بن أبي حبيبٍ، عن بُكيرٍ، به. والحديث أخرجه مسلم (١٧٠٨) أيضاً.

وبه يقولُ أبو جعْفَر محمَّد بن عليِّ النَّسَائيّ الشَّافعيّ[1] ـ رحمه الله ـ.

وأمَّا فِعْلُ قَوْمِ لُوطٍ فَشنيعٌ بَشيعٌ، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وقد قَذَفَ الله فاعليه بحجَارةٍ من طِينٍ مُسَوَّمةٍ. ومالك ـ رحمه الله ـ يرىٰ علىٰ الفاعل والمفعول به الرَّجم، أَحْصَنا أم لَمْ يُحْصنَا؛ واحتجَّ بعض المالكِيِّينَ في ذلكَ بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول في رجمه فاعليه بالحجارة: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] فوجَبَ بهذا أنَّه من ظَلَمَ الآنَ بمثل فعلهم قَرُبَتْ منه. والخلافُ في هذه المسألة لَيْسَ هذا موضعه. وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم ابن السَّرِيّ[2]: أنَّ أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ أحرقَ فيه بالنَّار. وذكرَ أبو

---

(١) لم أجد له ترجمة، لكن ذكره ابن حزم في رسالته: «أصحاب الفتيا» (ص: ٢٤٤، ط: دار الكتب العلمية)، في المائلين إلى قول الشَّافعي كذلك. يعني: وإن كانوا لم يستهلكوا في التقليد. ولم يزد ابن حزم على ذكر اسمه، وذكر معه: محمد بن عُقيل الفِريابيّ، وهو من طبقة تلاميذ أصحاب الشافعيّ، ترجم له ابن السُّبكي في: «طبقات الشَّافعية الكبرى» ٢/٢٤٣ (٥٤)، فيكون النَّسائي من هذه الطبقة أيضاً، وذكره في: «المحلى» (٢٣٠٣)، وقال: أحد فقهاء الشَّافعيين. وذكره ابن القيِّم في: «أعلام الموقعين» في: المفتين من أهل مصر.

ولم أجد من ذكر النَّسائيّ ـ هذا ـ بين القائلين بعدم جواز الزيادة في التَّعزير على عشرة أسواط؛ بل قال ابن حزم في: «المحلى» (٢٣٠٩): «وقالت طائفةٌ: أكثر التَّعزير عشرة أسواط فأقل، لا يجوز أن يتجاوز به أكثر من ذلك. وهو قول اللَّيث بن سعدٍ، وقول أصحابنا». وقال ابن قدامة في «المغني» ١٢/٥٢٣: «واختلف عن أحمد في قدره، فروي عنه أنه لا يزاد على عشر جلدات، نصَّ أحمد على هذا في مواضع، وبه قال إسحاق... والرواية الثانية: لا يبلغ به الحد، وهو الذي ذكره الخرقي». وقال ابن حجر في «الفتح»: «وقد اختلف السلف في مدلول هذا الحديث؛ فأخذ بظاهره الليث وأحمد في المشهور عنه، وبعض الشافعية...». وتفصيل القول في هذه المسألة في المصادر المذكورة وفي غيرها من كتب الفقه.

(٢) هو الإمام أبو إسحاق الزَّجَّاج النَّحويُّ، مصنِّف كتاب: «معاني القرءان». مات سنة: (٣١١هـ) وقيل: سنة (٣١٠). مترجم في: «السِّير» ١٤/(٢٠٩).

عُبَيْدَةُ مَعْمَرُ بن المثنّىٰ[1] اسم المحرَّق فقال: هو شُجَاع بن وَرْقاءَ الأسديُّ[2]، أحرقه بالنّار أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ لأنَّه يُؤْتىٰ في دبره كما تُؤْتىٰ المرأة[3].

وإنَّ عن المعاصي لمذاهبَ للعاقل واسِعَةً، فما حرَّم الله شيئاً إلا وقد عوَّضَ عباده من الحلالِ ما هو أحسَنُ من المحرَّمِ وأفضلُ، لا إله إلا هو.

وأقولُ في النَّهْي عن اتّباع الهوىٰ؛ علىٰ سبيل الوَعْظِ: [من الطويل]

أقولُ لنفسي ما مُبينٌ كحالكِ «وما النَّاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكِ»[4]

---

(١) الإمام العلاَّمة أبو عُبيدة التَّميمي البصريُّ النَّحويُّ، من تصانيفه: «مجاز القرءان» و«غريب الحديث». قيل مات سنة (٢٠٩) وقيل (٢١٠). مترجم في: «السِّير» ٩/(١٦٨).

(٢) وفي: «المحلّىٰ» (٢٣٠٣): قال أبو إسحاق: كان اسمه الفُجاءة. قلتُ: لعلَّ أبا إسحاق ـ هذا ـ هو الزجّاج نفسه.

(٣) روىٰ البيهقيُّ في: «شُعب الإيمان» (٥٣٨٩) من طريق ابن أبي الدنيا قال: حدَّثنا عُبَيْدالله بن عمر، قال: حدَّثنا عبدالعزيز بن أبي حازم، عن داود بن بَكْر، عن محمد بن المنكدر أنَّ خالد بن الوليد كتب إلىٰ أبي بكرٍ الصِّديق: أنَّه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأةُ. فجمع لذلك أبو بكرٍ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، فيهم عليُّ بن أبي طالب، فقال عليٌّ: إنَّ هذا ذنبٌ لم يعملْ به أمَّة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرىٰ أن تُحَرِّقه بالنَّار. فاجتمع رأيُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ أن يُحرَّق بالنَّار. فأمر أبو بكرٍ أن يحرق بالنَّار. وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ كما قال الحافظُ المنذريُّ في: «الترغيب»، رجاله ثِقاتٌ، لكن داود بن بكر فيه كلام يسير، وثَّقه الذهبيُّ، وقال ابن حجر عنه: صدوق. ومحمَّد بن المنكدر؛ وإنْ لم يكن قد أدرك القصَّة؛ إذ مولده قبل سنة ستِّين بيسيرٍ، كما قال ابن حجر، وتوفي سنة (١٣٠هـ)؛ لكنَّه ثِقةٌ فاضلٌ، رفيعُ القدر، قد أدرك جمعاً من الصحابة، فيكونُ قد روىٰ القصَّة عنهم، واستغنىٰ بشهرتها، وتداول النَّاس لها؛ عن نسبته إلى معيَّن ممن أدرك الحادثة. ورواه ابن حزم في: «المحلّىٰ» (٢٣٠٣) من طريقين عن ابن أبي حازم، وفيهما: عن محمد بن المنكدر، وموسى بن عقبة، وصفوان بن سُلَيْم. ورواه من طريق أخرىٰ، وفيها: قال ابن وهب: لا أرىٰ خالداً أحرقه بالنَّار إلا بعد أن قتله، لأنَّ النَّارَ لا يُعذِّب بها إلا اللّهُ ـ تعالىٰ ـ.

(٤) مأخوذ من قول أبي نُواس الشاعر:

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

صُن النَّفس عمَّا عابها وارفُض الهوىٰ فإنَّ الهوىٰ مِفْتَاحُ بابِ المهالك

رأيتُ الهَوى سَهل المَبَادي لذيذَها وعُقْباه مُرُّ الطَّعْم ضَنْكُ المسالكِ

فما لَذَّةُ الإنسان والموتُ بَعدَها ولو عاشَ ضِعْفي عُمر نوحِ بن لامكِ

فلا تَتَّبِعْ داراً قليلاً لباثُها فقد أَنْذَرَتنا بالفناء المُواشِكِ

وما تركُها إلا إذا هي أمكنتْ وكم تارِكٍ إضمارُهُ غيرُ تَارِكِ

فما تارِكُ الآمالِ عُجْياً[1] جآذراً كتارِكها ذاتَ الضُّرُوعِ الحَواشكِ[2]

ومن قابَل الأمرَ الذي كانَ راغباً بشَهْوةِ مُشتاقٍ وعَقْلِ متارِكِ

لأحرىٰ[3] عبادِ الله بالفَوْزِ عنده لدى جَنَّةِ الفِردوس فوقَ الأرائِكِ

ومَنْ عَرفَ الأمرَ الذي هُوَ طالبٌ رأىٰ سَفَهاً[4] ما في يدي كُلِّ مالكِ

ومَنْ عَرف الرَّحمَن لم يَعْصِ أمرَهُ ولو أنَّه يُعطىٰ جميعَ المَمالكِ

سبيل التُّقى والنُّسْكِ خيرُ المسالك وسالِكُها مُستبصراً خيرُ سالكِ

فما فَقَدَ التَّنْغِيصَ من عاجَ دونها ولا طابَ عيشٌ لامرىءٍ غيرُ ناسكِ[5]

وطُوبى لأقوامٍ يَؤُمُّونَ نحوَها[6] بخِفَّةِ أرواحٍ ولينِ عرائك

لقد فَقدوا غِلَّ النُّفوسِ وفُضِّلوا بعزِّ سلاطين وأمنِ صَعالِكِ

فعاشُوا كما شاءُوا وماتُوا كما اشْتَهَوْا وفازوا بدار الخُلدِ رَحْبَ المَبارك

عَصَوْا طاعةَ الأجسادِ في كلِّ لذَّةٍ بنُورِ مُجَلٍّ ظُلْمةَ الغيِّ هاتك

---

(١) بتروف: عجباً؛ برشيه: عجلاً؛ والعجيّ بتشديد الياء: ولد الدابة؛ وجمعه عجايا وأحسب الشاعر تصرَّف به فجمع «فعيل» على «فُعْلى» (ع).

(٢) الضروع الحواشك: الممتلئة (ع).

(٣) لأحرىٰ: جواب «ومن» في البيت السابق. وفي الأصل: لأجدىٰ.

(٤) هذه قراءة برشيه و(ع)، وفي الأصل: سبباً.

(٥) في الأصل: ماسك.

(٦) الضمير في «نحوها» يعود إلى سبيل التقوىٰ والنسك.

فلولا اغتذاءُ الجسم أيقنتُ أنَّهم يعيشون عَيشاً مثلَ عيش الملائكِ

فيا ربِّ قدِّمهم وزدْ في صلاحهم وَصلِّ عليهم حيثُ حَلُّوا وباركِ

ويا نفسُ جُدِّي لا تملِّي وشمِّري لنَيلِ سُرورِ الدَّهْر فيما هُنالِك

وأنتِ متىٰ دَمَّرْتِ سعيَك في الهوىٰ علمتِ بأنَّ الحقَّ لَيْسَ كذلك

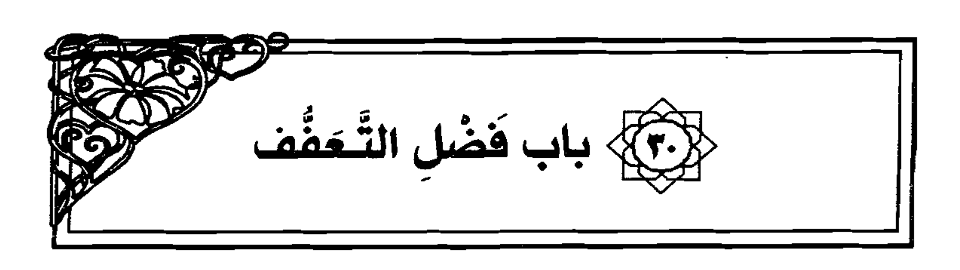
فقد بيَّن الله الشَّريعةَ للورَىٰ بأبْيَنَ من زُهْر النُّجومِ الشَّوابكِ

فيا نفسُ جدّي في خلاصك وانفذي نفاذَ السُّيوفِ المُرهفات البواتكِ

فلو أعملَ النَّاسُ التفكُّرَ في الذي لهُ خُلقوا ما كان حيٌّ بضاحِكِ

❋ ❋ ❋





٣٠ باب فَضْلِ التَّعفُّف

ومن أفضل ما يَأْتيه الإِنسانُ في حُبِّه التَّعَفُّفُ، وتركُ ركوبِ المعصية والفاحشةِ، وألا يرغبَ عن مُجازاة خالقه له بالنَّعيم في دار المقامة، وألا يَعْصِي مولاهُ المتفضِّلَ عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه، وأرسلَ إليه رسله، وجَعَلَ كلامه ثابتاً لدَيْه؛ عنايةً منه بنا، وإحساناً إلينا.

وإنَّ مَنْ هام قلبُه، وشُغِلَ باله، واشتدَّ شَوْقُه، وعَظُمَ وَجْدُه، ثُمَّ ظَفِرَ فرامَ هواه أنْ يغلب عَقْلَهُ، وشَهْوَتُهُ أن تَقهرَ دِينَهُ، ثُمَّ أقام العدلَ لنفسه حِصْناً، وعَلِمَ أنَّها النَّفْسُ الأمارةُ بالسُّوء، وذكَّرها بعقاب الله ـ تعالى ـ، وفكَّر في اجترائه علىٰ خالقه وهو يراه، وحذَّرها من يوم المعَاد والوقوفِ بين يدي الملك العزيز الشَّديدِ العقاب الرَّحمٰن الرَّحيم الذي لا يحتاجُ إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلىٰ انفراده عن كلِّ مُدَافِعٍ بحضرة علَّام الغيوب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [الحجر: ٤٨] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [ءال عمران: ٣٠] يومَ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١] يومَ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، يومَ: ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النَّازعات: ٣٤]، ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ

ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النَّازعات: ٣٥ ـ ٣٩] واليوم قال الله ـ تعالى ـ فيه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] عندها يقولُ العاصي: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

فكيفَ بمن طُويَ قلبُه على أحرَّ من جَمْرِ الغَضا، وطُوي كَشْحُه علىٰ أحدَّ من السَّيْف، وتَجَرَّع غُصَصاً أمرَّ من الحَنْظَلِ، وصَرَفَ نفسه كَرْهاً عَمَّا طمعت فيه، وتَيَقَنَتْ ببلوغه، وتهيأت له، ولم يحلْ دونها حائِلٌ؛ لحريٌّ[1] أن يُسَرَّ غداً يومَ البَعْثِ، ويكونَ من المُقرَّبين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمنَ روعاتِ القيامةِ، وهَوْلَ المطَّلع، وأن يُعوِّضه الله عن هذه القرحة الأمنَ يومَ الحشر.

حدَّثني أبو موسىٰ هارون بن موسى الطَّبيب قال: رأيتُ شاباً حَسَنَ الوجهِ من أهل قُرطبةَ قد تعبَّد ورَفَضَ الدُّنيا، وكانَ له أخٌ في الله قد سقطتْ بينهما مُؤْنة التَّحفُّظِ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده، فعَرَضَتْ لصاحِب المنزل حاجةٌ إلىٰ بعض معارفه بالبُعد عن منزله، فنَهَضَ لها علىٰ أن ينصرفَ مُسْرِعاً، وتركَ الشابَّ في داره مع امرأته، وكانتْ غايةً في الحُسْنِ، وَتِرْباً للضَّيف في الصِّبا، فأطالَ ربُّ المنزل المقام إلىٰ أن مَشىٰ العَسَسُ، ولم يُمكِنْهُ الانصرافُ إلىٰ منزله، فلمَّا علمتِ المرأةُ بفواتِ الوقتِ وأنَّ زوجها لا يُمْكِنُهُ المجيءُ تلك الليلة تاقتْ نفسُها إلىٰ ذلك الفتىٰ فبرزت

(١) لحري: جواب «إن» قبل سطور كثيرة، حيث بدأ قوله في الفقرة: وإنَّ مَن هام قلبه. . . إلخ (ع).

إليه وَدَعَتْهُ إلىٰ نفسها، ولا ثالثَ لهما إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فهمَّ بها ثُمَّ ثَابَ إليه عقلُه، وفكَّرَ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فوضعَ إصبعهُ علىٰ السِّراج، فتفقَّع، ثُمَّ قالَ: يا نَفْسِ! ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنَّم! فهالَ المرأةَ ما رأتْ، ثمَّ عاودته؛ فعاودته الشَّهْوةُ المركَّبة في الإنسان فعادَ إلىٰ الفِعْلة الأولىٰ، فانبلَجَ الصَّباح وسبّابته قد اضْطَلَمَتْها النَّار[1].

أفتظُنُّ بلغ هذا من نفسه هذا المبلغَ إلاَّ لفرطِ شهوةٍ قد كَلَّبَتْ عليه؟ أو تَرىٰ أنَّ الله ـ تعالى ـ يُضِيعُ له هذا المقام؟ كلاَّ! إنَّه لأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدَّثَتْني امرأةٌ ـ أَثِقُ بها ـ أنَّها عَلِقَها فتىً مِثْلُها في الحُسْنِ وعَلِقَتْهُ، وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خالِيَيْنِ، فقال: هَلُمِّي نُحَقِّقْ ما يُقالُ فينا. فقالتْ: لا والله! لا كانَ هذا أبداً، أنا أقرأ قول الله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]. قالتْ: فما مَضىٰ قَلِيلٌ حتَّىٰ اجتمعا في حلالٍ[2].

ولقد حدَّثني ثِقةٌ من إخواني أنَّه خلا يوماً بجاريةٍ كانت له مُفَارِكاً[3] في الصِّبا، فتعرضَتْ لبعضِ تلكَ المعاني، فقالَ لها: كلاَّ! إنَّ مِنْ شُكْرِ نِعْمة الله فيما مَنحني من وصالك الذي كانَ أَقصىٰ ءَامالي أن أجتنبَ هوايَ لأَمْرِه.

---

(١) قارن ـ مع تذكر الفرق ـ بين هذا وبين ما جاء في «ذم الهوى»: ٢٧٦ وروضة المحبين: ٤٦٠ وهي رواية إسرائيلية. انظر كذلك ص٤٦٥ (ع).

(٢) انظر تزيين الأسواق ١: ٩ حيث نقلت الحكاية عن طوق الحمامة، وأشار إلى ذلك الدكتور الطاهر مكي، وكذلك وردت في ديوان الصبابة: ٢٠٨ وصرَّح هنالك باسم المصدر فقال: قال الحافظ أبو محمد الأموي؛ وانظر روضة المحبين: ٣٤٦ (ع).

(٣) مفاركاً: هاجرة؛ وعند برشيه: معادلة (ع). قلت: وفي الأصل: معارك.

ولَعَمْري! إنَّ هذا لغريبٌ فيما خلاَ من الأزمان، فكيفَ في مِثْلِ هذا الزَّمان الذي قد ذَهَبَ خَيْرُهُ، وأتىٰ شَرُّهُ!؟

وما أُقدِّرُ في هذه الأخبار - وهي صَحِيحَةٌ - إلاَّ أحدَ وجهين لا شَكَّ فيهما:

إمَّا طَبْعٌ قد مالَ إلىٰ غير هذا الشَّأْنِ، واستحكمتْ معرفتُهُ بفضلِ سواه عليه، فهو لا يُجيبُ دواعيَ الغَزَلِ في كلمةٍ ولا كلمتَيْنِ، ولا في يوم ولا يومَيْن، ولو طالَ علىٰ هؤلاءِ المُمْتَحَنِينَ ما امْتُحِنُوا به لجادت[1] طباعُهم، وأَجابوا هاتِفَ الفتنة، ولكنَّ الله عَصَمَهُمْ بانقطاع السَّبَبِ المحرِّك؛ نظراً لهم، وعلماً بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح، واستدعاء الرُّشْد، لا إله إلا هو.

وإمَّا بصيرةٌ حَضَرتْ في ذلك الوَقْتِ، وخاطرٌ تجرَّدَ انْقَمَعَتْ به طوالعُ الشَّهوة في ذلك الحين، لخيرٍ أراد الله - عزَّ وجلَّ - لصاحبه، جعلنا الله مِمَّنْ يخافه ويرجوه، ءامين.

وحدَّثني أبو عبدِالله محمَّد بن عمر بن مضا[2]، عن رجالٍ من بني مروان - ثقاتٍ - يُسْنِدُونَ الحديثَ إلىٰ أبي العباس الوليدِ بن غانم[3] أنَّه

---

(١) قرأها (ع): لَحُلَّتْ.

(٢) محمد بن عمر بن مضا، كان من أهل الأدب مشهوراً بالفضل (الجذوة: ٧٢ والبغية رقم: ٢٢٥) (ع).

(٣) وليد بن عبدالرحمٰن بن عبدالحميد بن غانم: ذكره ابن الأبار (الحلّة ١: ١٦٢) في ترجمة ابنه عبدالرحمٰن فقال «وولي وليد للأمير محمد بن عبدالرحمٰن خطتي الوزارة والمدينة وقاد جيش الصائفة الذي قدم عليه ابنه عبدالرحمٰن وكان عدده عظيماً» ثم ترجم له مستقلاً (٢: ٢٧٤) فأضاف: «وكان كاتباً أديباً مرسلاً بليغاً... وتوفي سنة ٢٧٢» وأخباره في المقتبس (تحقيق الدكتور محمود مكي ط. بيروت) وللمحقق تعليقات ضافية عنه وعن أسرته ص: ٤٤٩، ٥٤١ إلا أن ابن حيان جعل وفاته سنة ٢٩٢ (والخطأ بين الرقمين سبعة وتسعة قديم) (ع).

ذكر أنَّ الإِمامَ عبدَ الرحمن بن الحكم غابَ في بعض غزواته شُهُوراً، وثقَّف القَصْرَ بابنه محمَّدٍ[1] ـ الذي وَليَ الخلافةَ بعده ـ ورتَّبه في السَّطْح، وجعل مَبِيتَهُ ليلاً وقعوده نهاراً فيه، ولم يأذنْ له في الخروج البَّتةَ، ورتَّبَ معه في كلِّ ليلةٍ وزيراً من الوزراء وفتىً من أكابر الفتيان يبيتان معه في السَّطْح. قال أبو العبَّاس: فأقام على ذلك مدَّةً طويلةً، وَبَعُدَ عهدُهُ بأهله، وهو في سِنِّ العشرين أو نحوها إلى أنْ وافق مبيتي في ليلتي نوبةَ فتىً من أكابر الفتيان، وكان صغيراً في سِنِّه، وغايةً في حُسْنِ وجهه. قال أبو العبَّاس: فقلتُ في نفسي: إنِّي أخشىٰ الليلةَ على محمَّد بن عبدالرحمن الهلاكَ بمُواقعةِ المعصية، وتزيين إبليسَ واتِّباعه له. قال: ثُمَّ أخذتُ مَضْجَعي في السَّطْح الخارج، ومحمَّد في السَّطْح الدَّاخل المطلِّ على حُرَم أمير المؤمنين، والفتىٰ في الطَّرف الثَّاني القريب من المطلع، فظَلَلْتُ أرقبه ولا أغفلُ، وهو يظنُّ أنِّي قد نِمْتُ ولا يشعرُ باطِّلاعي عليه، قالَ: فلمَّا مضىٰ هزيعٌ من اللَّيل رأيتُهُ قد قام واستوىٰ قاعداً ساعةً لطيفةً، ثم تعوَّذَ من الشيطان ورَجَع إلىٰ منامه، ثم قام بعدَ حينٍ، ولَبِسَ قميصَه واستوفَرَ، ثمَّ نزعه عن نفسه، وعادَ إلىٰ منامه، ثم قام الثَّالثةَ، ولَبِسَ قميصهُ، ودلَّى رِجْلَيْه من السَّرير، وبقيَ كذلك ساعةً، ثُمَّ نادىٰ الفتىٰ باسمه فأجابه، فقال له: انزلْ عن السَّطْح وابقَ في الفَصِيل[2] الذي تحته. فقام الفتى مؤتمراً له. فلمَّا نزل قام محمَّدٌ، وأغلق البابَ من داخله وعاد إلىٰ سريره. قال

(١) الأمير عبدالرحمٰن بن حكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) وابنه محمد بن عبدالرحمٰن (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ).

(٢) الفصيل في فن المعمار عند الأندلسيين يقابل (Vestibulum) في المباني الرومانية ويجمع على فصلان؛ ويتردّد ذكره كثيراً في المصادر الأندلسية، وفي المقتبس (نشر أنطونية): ٧٤ وأصعد غلمانه وغلمان الولد على سقف الفصيل؛ وانظر ملحق دوزي ٢: ٢٧٢.

أبو العباس: فعلمتُ من ذلك الوقت أنَّ لله فيه مُرَادَ خيرٍ.

حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن الجسور، عن أحمد بن مطرِّف، عن عُبَيْد الله بن يحيىٰ، عن أبيه، عن مالك[1]، عن خُبَيْب بن عبدالرحمن الأنصاريِّ، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ورَجُلٌ قلبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسْجِدِ إذا خَرَجَ مِنْهُ حتَّىٰ يَعُودَ إليه، ورَجُلانِ تحابَّا في الله اجْتَمَعا علىٰ ذلك وتفرَّقا، ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خالياً ففاضتْ عيناه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ حَسَبٍ وجَمالٍ، فقالَ: إنِّي أخافُ الله. ورجلٌ تَصَدَّقَ صَدَقَةً فأخفىٰ[2] حتَّىٰ لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ**».

وإنِّي لأذْكُرُ أنِّي دعيتُ إلىٰ مجلسٍ فيه بعضُ من تَسْتَحْسِنُ الأبصارُ صوُرَتَهُ، وتَأْلَفُ القلوبُ أخلاقه؛ للحديث والمجالسة دونَ منكرٍ ولا مَكْرُوهٍ، فسارعتُ إليه ـ وكانَ هذا سَحَراً ـ فبَعْدَ أن صَلَّيْتُ الصُّبحَ، وأخذتُ زِيِّي، طَرقني فِكْرٌ فسَنَحَتْ لي أبياتٌ، ومَعي رَجُلٌ من إخواني، فقالَ لي: ما هذا الإِطراقُ؟ فلم أجبْهُ حتَّىٰ أكملتها، ثم كتبتها ودفعتها إليه، وأمسَكْتُ عن المسير، حيثُ كنتُ نَوَيْتُ. ومن الأبيات: [من الطويل]

أراقكَ حُسْنٌ غيبُهُ لكَ تأريقُ ... وتبريدُ وَصْلٍ سِرُّهُ فيك تَحْريقُ
وقربُ مَزارٍ يقتضي لكَ فُرْقةً ... وشيكاً[3] ولولا القُرْبُ لم يكُ تفريق
ولذَّةُ طَعْمٍ مُعقِبٍ لكَ علقماً ... وصاباً وفَسْحٌ في تضاعيفهِ ضِيقُ

---

(١) في: «الموطَّأ» (١٧٧٧)؛ وفيه: عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة. والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٢) في: «الموطَّأ»: بصَدَقةٍ فأخفاها.
(٣) أثبتها (ع): وشكاً.

ولو لَمْ يكن جزاءٌ، ولا عقابٌ، ولا ثواب؛ لوجب[1] علينا إفناءُ الأعمار، وإتعابُ الأبدان، وإجهاد الطَّاقة، واستنفادُ الوُسْع، واستفراغ القُوَّة؛ في شُكْرِ الخالق الذي ابتدأنا بالنِّعَم قبل استِئْهالها[2]، وامتنَّ علينا بالعَقْلِ الذي به عرفناه، ووهبنا الحواسَّ والعلمَ والمعرفةَ ودقائقَ الصِّناعات، وصرَّف لنا السَّموات جاريةً بمنافعها، ودبَّرنا التدبيرَ الذي لو مَلَكْنا خَلْقَنَا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نَظَرَهُ لنا، وفضَّلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودَع كلامِهِ ومستقرَّ دينه، وخلَقَ لنا الجنَّةَ دونَ أن نستحقَّها، ثُمَّ لم يرضَ لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكونَ واجبةً لهم، قال الله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وَرَشَدَنَا إلىٰ سبيلها، وبصَّرنا وَجْهَ طلبها[3]، وجعل غاية إحسانِهِ إلينا وامتنانِهِ علينا حقّاً من حقوقنا قِبَلَهُ، وَدَيْناً لازماً له، وشكرنا على ما أعطانا من الطَّاعة التي رزقنا قواها، وأثابنا بفضله على تفضُّله؛ هذا كَرَمٌ لا تهتدي إليه العقولُ، ولا يمكن أن تكيِّفه الألباب.

---

(١) علَّق العلامة أبو عبدالرحمٰن ابن عقيل الظاهري على هذا بقوله: إن كان الموجب العقل؛ فذلك أصل الخلاف مع المعتزلة، وشكر المنعِم من مقتضيات العقل لأنه من محاسن الأخلاق. أمَّا تعيين ما يكون به الشُّكر فلا يُعرف إلا بالشَّرع.
والله لم يوجب على الخلق شيئاً بغير شرع هادٍ مبينٍ، فسقط عن الخلق ـ بفضل الله ـ ما يترتَّب على مخالفة مقتضى العقل من عقاب؛ إلا أن يكون مقتضى العقل تحقيق شرع مُلْتَبِسٍ في فترةٍ من الرُّسل، فصدَّ الناسُ عنه اتباعاً للهوى.
وأيضاً: فربُنا مَنَّ علينا بأن رتَّب على الشكر الثَّوابَ، وعلى الكفر العقابَ، وإذن فلا داعي لقول أبي محمَّدٍ: «ولو لم يكن جزاء.... إلخ». (كيف يموت العشَّاق: ص١٨٧).
قلت: ابن حزم ـ رحمه الله ـ مضطرب في هذا الباب، وليس هذا موضع شرح ذلك ومناقشته.

(٢) أي قبل أن نكون لها أهلاً؛ كما قال أبو عبدالرحمٰن الظاهري (كيف يموت العشاق: ١٨٨).

(٣) هكذا قرأها العلامة شاكر، وفي الأصل: ظلها.

ومن عرف رَبَّه ومقدارَ رضاه وسخطه هانتْ عنده اللَّذاتُ الذَّاهبة، والحطامُ الفاني، فكيفَ وقد أتىٰ مِنْ وعيده ما تقشَعِرُ لسَمَاعِهِ الأجساد، وتذوبُ له النُّفوس، وأوردَ علينا من عذابه ما لم يَنْتَهِ إليه أَمَلُ ءَامِلٍ؛ فأينَ المذهبُ عن طاعةِ هذا المَلِكِ الكريم، وما الرَّغبةُ في لذةٍ ذاهبةٍ لا تذهب النَّدامةُ عنها، ولا تفنى التَّباعةُ منها، ولا يزولُ الخِزْيُ عن راكبها، وإلى كم هذا التَّمادي وقد أسمعَنا المنادي؟! وكأنْ قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإمَّا إلى جَنَّةٍ وإمَّا إلى نار. أَلا إنَّ التثبُّطَ في هذا المكان لهو الضَّلالُ المبينُ، وفي ذلك أقول[1]: [من المنسرح]

أَقْصَرَ عن لَهْوِهِ وعن طَربَه ... وعَفَّ في حُبِّه وفي عُربِه[2]
فليس شربُ المدام هِمَّتَهُ ... ولا اقتناصُ الظِّباء من أرَبِه
قد ءَانَ للقلب أن يُفيقَ وأن ... يُزيلَ ما قد عَلاه من حُجُبِه
ألهاهُ عمَّا عهدتُ يُعجِبُهُ ... خيفةُ يومِ تُبلَى السَّرائر بِه[3]
يا نفسُ جِدِّي وشمِّري ودعي ... عنكِ اتِّباعَ الهوى على لغبِه
وسارعي في النَّجاةِ واجتهدي ... ساعيةً في الخلاصِ من كُرَبِه
عَلِّيَ أحظَىٰ بالفوزِ فيه وأن ... أنجوَ من ضِيقه ومن لَهَبِه
يا أيُّها اللاعبُ المُجِدُّ به الـ ... دَّهرُ أما تتَّقي شَبَا نُكَبِه
كفاكَ من كلِّ ما وُعظتَ به ... ما قد أراكَ الزَّمانُ من عَجَبِه
دعْ عنكَ داراً تفنى غَضارتُها ... ومَكسباً لاعباً بمُكْتَسِبِه

---

(١) يعارض ابن حزم بهذه القصيدة (على سبيل التمحيص) قصيدة لأبي تمّام. انظر: «ديوانه» ٢٩٦/١ (ع).

(٢) أثبتها (ع): غَربِه.

(٣) من الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩].

لم يَضطربْ في مَحَلِّها أحدٌ | إلا نبا حدُّها بمُضطَربهِ
من عَرَفَ الله حقَّ معرفةٍ | لوى وحَلَّ الفؤاد في رَهَبِه
ما مُنقضي الملكِ مثل خالده | ولا صَحيحُ التقىٰ كمُؤتشبِه[1]
ولا تقيُّ الورىٰ كفاسِقهم | وليس صِدْقُ الكلام من كذبِه
فلو أَمِنَّا من العقاب ولم | نَخشَ من الله مُتقى غَضبِه
ولم نَخفْ نارَه التي خُلِقَتْ | لكل جانِي الكلام مُختَقِبِه
لكان فَرضاً لُزومُ طاعتِه | وَرَدُّ وَفْدِ الهوى على عَقِبه
وصحَّة الزُّهد في البَقاء وأن | يَلحقَ تَفنيدنا بمُرتقبِه
فقد رأينا فعلَ الزمان بأهـ | ـليه كفعل الشَّواظِ في حَطَبهِ
كم مُتْعِبٍ في الإلٰه مُهجَتَه | راحتهُ في الكَريهِ[2] من تَعَبِه
وطالبٍ باجتهاده زَهرَ الـ | دُّنيا عَداه المَنونُ عن طَلَبه
ومُدركٍ ما ابتغاه ذي جَذَلٍ | حلَّ به ما يَخاف من سَبَبِه
وباحثٍ جاهدٍ لبُغيته | فإنَّما بحثُه على عَطبِه
بينا ترى المَرءَ سامياً مَلِكاً | صار إلى السُّفلِ من ذُرَىٰ رتبِه
كالزَّرع للرّجل فوقه عملٌ | إنْ يَنمُ حُسْنَ النُّمو في قَصَبِه
كم قاطع نفسَه أسىً وشَجاً | فِي إثرِ جدٌ يجدُّ في هَرَبِه
أليس من[3] ذاكَ زاجرٌ عَجَبٌ | يزيدُ ذا اللُّبِّ في حُلَى أدبِه

---

(١) المؤتشب: المختلط غير الصريح؛ وقارن به قول أبي تمام:

ما سجسج الشوق مثل جاحمه | ولا صريح الهوى كمؤتشبه

(٢) (في الإله) عن (ع)، وفي (خ): للإله. و(الكريه) أثبتها (ع): الكريم.

(٣) خ: في. وما أثبته فعن (ع).

فكيف والنار للمُسيء إذا ... عاج عن المُستقيم من عَقِبِه

ويوم عرْضِ الحساب يفضحُه الـ ... لَّه ويُبدي الخفيَّ من رِيَبِه

من قد حَباه الإلٰهُ رحمتَه ... موصولةً بالمَزيد من نِعَمِه[1]

فصار من جهله يصرِّفها ... فيما نهىٰ الله عنه في كتبِه

أليس هذا أحرىٰ العبادِ غداً ... بالوقْع في ويله وفي حَرَبِه

شكراً لربٍّ لطيفُ قدرتِهِ ... فينا كحبلِ الوَريد في كَثَبِه

رازِق أهل الزَّمان أجمعهم ... مَنْ كان مَن عُجمه ومِن عَرَبِه

والحمدُ لله في تفضُّله ... وقَمعه للزَّمان في نُوَبِه

أخدمنا الأرضَ والسماءَ ومن ... في الجوِّ من مائه ومن شُهُبِه

فاسمع ودَعْ مَن عصاه ناحيةً ... لا يحمل الحملَ غيرُ مُختَطِبِه

وأقول ـ أيضاً ـ: [من الطويل]

أعارَتْكَ دنيا مُسْتَرَدٌّ مَعارُهَا ... غَضَارَةَ عيشٍ سوف يذوي اخضرارُها

وهل يتمنَّى المُحكَمُ الرَّأي عيشةً ... وقد حان من دُهْمِ المنايا مَزَارها

وكيف تلذُّ العينُ هجعةَ ساعةٍ ... وقد طالَ فيما عايَنَتْهُ اعتبارُها

وكيف تَقَرُّ النَّفسُ في دار نُقلةٍ ... قد استيقَنتْ أنْ ليسَ فيها قَرارها

وأنَّى لها في الأرضِ خاطرُ فكرةٍ ... ولم تَدْرِ بعد الموت أين مَحارها

أليس لها في السَّعي للفوز شاغلٌ ... أما في توقِّيها العذابَ ازدجارها

فخابتْ نفوسٌ قادها لهوُ ساعةٍ ... إلى حرِّ نارٍ ليس يُطْفَىٰ أُوارها

لها سائقٌ حادٍ حثَيثٌ مُبادرٌ ... إلى غير ما أضحىٰ إليه مدارُها

---

(١) عند (ع) و(مكي): نَشَبه.

تُرادُ لأمرٍ وهي تَطلبُ غيرَهُ ... وتقصِدُ وجهاً في سواهُ سِفارُها

أمُسْرِعَةٌ فيما يَسوءُ قيامُها ... وقد أيقنتْ أنّ العذابَ قُصارُها

تُعطِّلَ مَفْرُوضاً وتَغنَىٰ[1] بفَضْلةٍ ... لقد شفَّها طُغيانها واغترارُها

إلىٰ ما لها منه البلاءُ سكونُها ... وعمّا لها منه النَّجاحُ نِفارُها

وتُعرِضُ عن ربٍّ دعاها لرُشْدها ... وتَتَّبِعُ دُنيا جدَّ عنها فِرارها

فيا أيُّها المَغرورُ بادِرْ برَجْعَةٍ ... فللَّه دارٌ ليس تَخْمَدُ نارها

ولا تتخيَّرْ فانياً دون خالدٍ ... دليلٌ على محضِ العُقول اختيارُها

أتعلم أنَّ الحقَّ فيما تركتَهُ ... وتسلكُ سُبُلاً ليس يخفَىٰ عوَارُهَا

وتتركُ بيضاءَ المناهج ضلَّةً ... لبهماءَ يُؤذي الرِّجْلَ فيها عِثارها

تُسَرُّ بلهوٍ مُعْقَبٍ بندامةٍ ... إذا ما انقضى لا ينقضي مستثارها

وتفنَىٰ الليالي والمَسَّراتُ كلُّها ... وتبقى تِباعاتُ الذُّنوب وعارها

فهل أنت يا مَغبونُ مُستيقظٌ فقدْ ... تبيَّنَ من سِرِّ الخطوب استتارُها

فعجِّلْ إلىٰ رضوانِ ربِّك واجتنبْ ... نواهِيَهُ إذ قد تجلَّىٰ منارُها

يَجِدُّ مُرورُ الدَّهر عنك بلاعبٍ ... وتغرىٰ بدُنيا ساء فيك سِرارها

فكم أُمَّةٍ قد غرَّها الدَّهرُ قبلنا ... وهاتيك منها مُقفراتٌ ديارها

تذكَّرْ علىٰ ما قد مضىٰ واعتبرْ به ... فإن المُذَكِّي للعقولِ اعتبارها

تَحامَىٰ ذُراها كلُّ باغٍ وطالبٍ ... وكان ضماناً في الأعادي انتصارُها

توافتْ ببطن الأرضِ وانْشَتَّ شملها ... وعاد إلىٰ ذي ملكِه مستعارها[2]

---

(١) هكذا أثبتها بتروف، وفي الأصل مضبوطة: (وتُعنىٰ).

(٢) خ: استعارها.

وكم راقدٍ في غفلةٍ عن منيَّةٍ ... مشمِّرةٍ في القصْدِ وهو شعارها[1]

وَمظْلمةٍ قد نالها متسلِّطٌ ... مُدِلٌّ بأيدٍ عند ذي العرش ثأرُها

أراكَ إذا حاولتَ دُنياك ساعياً ... على أنَّها بادٍ إليك ازورارها

وفي طاعةِ الرَّحمٰن يُقْعِدكَ الوَنى ... وتبدي أناةً لا يصِحُّ اعتذارها

تُحاذرُ أحزاناً ستفنىٰ وتنقضي ... وتنسىٰ الَّتي فَرْضٌ عليك حِذارها

كأنِّي أرىٰ منك التبرُّمَ ظاهراً ... مُبيناً إذا الأقدارُ حَلَّ اضطرارها

هناك يقولُ المرءُ: من لي بأعصرٍ ... مضتْ كان مِلْكاً في يديَّ خيارها

تنَبهْ ليومٍ قد أظلَّكَ وِرْدُهُ ... عصيب يوافي النَّفسَ فيه احتضارها

تبرَّأ فيه منكَ كلُّ مخالطٍ ... وءانَ من الآمالِ فيه انهيارها

فأودِعْتَ في ظلماءَ ضنْكٍ مقرُّها ... يلوح عليها للعيون اغبرارها

تُناديٰ فلا تَدْري المنادي مُفْرِداً ... وقد حُطَّ عن وَجْهِ الحياةِ خِمارُها

تُناديٰ إلىٰ يومٍ شديدٍ مُفَزِّعٍ ... وسَاعةِ حَشْرٍ ليس يَخْفىٰ اشْتِهارُها

إذا حُشرتْ فيه الوُحوشُ وَجُمِّعَتْ ... صحائفُنا وانثالَ فينا انتشارها[2]

وزُيِّنَتِ الجنَّاتُ فيه وأُزْلِفتْ[3] ... وأُذكي من نار الجحيم استعارها

وكُوِّرتِ الشَّمسُ المنيرةُ بالضُّحىٰ[4] ... وأسْرَعَ من زُهر النُّجوم انكدارُها[5]

---

(١) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: سُعَارها.

(٢) مشير إلى الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠] وفي بعض الطبعات: انتثارها؛ وقافية «انتشارها» ستأتي بعد بيتين.

(٣) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ [التكوير: ١٣].

(٤) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١].

(٥) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ٢].

لـقـد جـلَّ أمـرٌ كـان فـيـه انـتـظـامـهـا وقـد حـلَّ أمـرٌ كـان مـنـه انـتـشـارهـا

وسيّرتِ الأجبالُ والأرضُ بُدِّلَتْ[1] وقد عُطِّلَتْ من مالكيها عِشارها[2]

فـإمَّـا لـدارٍ لـيـس يَـفْـنَىٰ نَـعـيـمُـهـا وإمَّـا لـدارٍ لا يُـفَـكُّ إسـارهـا

بـحـضـرةِ جـبَّـارٍ رفـيـقٍ مُـعـاقـبٍ فَتُخْصَىٰ المعاصي كُبْرُهَا وصغارُها

ويـنـدمُ يـومَ الـبـعـثِ جـانـي صـغـارِهَـا وتُـهْـلِـكُ أهـلـيـهـا هـنـاك كـبـارهـا

سَـتُـغْـبَـطُ أجـسـادٌ وتـحـيـا نـفـوسـهـا إذا مـا اسـتـوىٰ إسـرارُهَـا وجـهـارُهـا

إذا حـقَّـهـم عـفـوُ الإلٰـهِ وفـضـلُـهُ وأسـكـنـهـم داراً حَـلالاً[3] عُـقـارُهـا

سيلحقهم أهلُ الفسوق إذا استوىٰ بـحـلـبـةِ سَـبْـقٍ طِـرْفُـهـا وحـمـارُهـا[4]

يـفـرُّ بـنـو الـدُّنـيـا بـدُنـيـاهُـم الـتـي يُظَنُّ على أهل الحظوظِ اقتصارُها

هـي الأمُّ خـيـرُ الـبـرِّ فـيـهـا عـقـوقُـهـا ولـيـس بـغـيـر الـبـذل يُـحـمَـىٰ ذمـارُهـا

فـمـا نـال مـنـهـا الـحـظَّ إلا مُـهـيـنـهـا ومـا الـهُـلْـكُ إلا قُـربـهـا واعـتـمـارهـا

تـهـافـتَ فـيـهـا طـامـعٌ بـعـد طـامـعٍ وقـد بـان لـلُّـبِّ الـذكـيِّ اخـتـبـارهـا

تـطـامـنْ لـغـمْـرِ الـحـادثـاتِ ولا تـكـنْ لـهـا ذا اعـتـمـار يَـجـتـنـبـك غـمـارهـا

وإيَّـاك أن تـغـتـر مـنـهـا بـمـا تـرى فقد صَحَّ في العقلِ الجليِّ عيارها

رأيـتُ مُـلـوكَ الأرضِ يـبـغـون عُـدّةً ولـذَّةَ نـفـسٍ يُـسـتـطـابُ اجـتـرارهـا

وخَلَّوْا طـريـقَ الـقـصـد فـي مُـبـتـغـاهُـم لـمـعـقـبـةِ الـصِّـغـار[5] جَـمٌّ صَـغَـارهـا

---

(١) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: ٣].

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ٤].

(٣) خ: حلالٌ.

(٤) أي: أن أهل الفسوق لن يلحقوهم، لأن الحمار لا يدرك الجواد في حلبة السباق (ع).

(٥) تقرأ في الأصل: لمتبعه الصفار. وما أثبته فعن (ع).

وإن التي يَبغون نهجَ بقيَّةٍ[1] مكينٌ لطُلاَّب الخلاصِ اختصارها

هل العزُّ إلا هِمَّةٌ صحَّ صَوْنُها إذا صان هِمَّاتِ الرِّجالِ انكسارها

وهل رابحٌ إلا امرؤٌ متوكِّلٌ قنوعٌ غنيُّ النَّفسِ بادٍ وَقارها

ويلقىٰ ولاةُ الملكِ خوفاً وفكرةً تضيقُ بها ذَرعاً وَيفنَىٰ اصطبارها

عياناً نرىٰ هذا ولكنَّ سكرةً أحاطت بنا ما إن يُفيقُ خُمارها

تدبَّرْ مَن الباني على الأرض سَقْفَها وفي عِلمه معمورها وقفارها[2]

ومن يمسكُ الأَجرامَ والأرضَ أمرُهُ بلا عَمَدٍ يُبنى عليه قرارها

ومن قَدَّر التدبيرَ فيها بحكمةٍ فصحَّ لديها ليلُها ونهارها

ومن فَتق الأمواهَ في صَفْح وجهها فمنها تغذَّىٰ حَبُّها وثمارها

ومن صيَّرَ الأَلوانَ في نَوْرِ نبْتِها فأشرق فيها وَرْدُها وبَهارُها

فمنهنَّ مخضرٌّ يَرُوقُ بَصيصُهُ ومنهنَّ ما يَغشىٰ اللِّحاظَ احمرارها

ومَنْ حَفَرَ الأنهارَ دونَ تكلُّفٍ فثار من الصُّمّ الصِّلاب انفجارُها

ومن رتَّب الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها غدوًّا ويبدو بالعشيِّ اصفرارُها

ومن خَلَقَ الأفلاكَ فامتدَّ جَريُها وأحكمها حتَّى استقامَ مَدارها

ومَن إن ألمَّتْ بالعُقولِ رزيَّةٌ فليس إلى حيٍّ سواهُ افتقارها

تَجِدْ كلَّ هذا راجعاً نحو خالقٍ له مُلكها مُنقادةً وائتمارُها

أبانَ لنا الآياتِ في أنبيائِهِ فأمكن بعد العَجْز فيها اقتدارُها

فأنطَق أفواهاً بألفاظِ حِكمةٍ وما حَلَّها إثغارُها واتِّغارُها[3]

---

(١) هكذا في (خ)، وبتروف، ومكي. وجعلها (ع): نهجُ لغيَّةٍ.

(٢) في هذا البيت وأبيات تليه ينظر إلى الآيات (٢ ـ ٤) من سورة الرَّعد، كما فعل من قبل في ءايات سورة التكوير.

(٣) أخذ في هذا البيت والذي يليه يعدِّد المعجزات التي جاء بها الأنبياء ككلام عيسى في =

وأبـرزَ مـن صُـمِّ الـحِـجـارةِ نـاقـةً … وأسمعهم في الحين منها حُوارُها

لـيـوقـنَ أقـوامٌ وتـكـفُـرَ عُـصـبـةٌ … أتـاهـا بـأسـبـاب الـهـلاك قُـدَارهـا[1]

وشـقَّ لـمُـوسـى الـبـحـرَ دون تـكـلُّـفٍ … وبـان مـن الأَمـواجِ فـيـه انـحـسـارُهـا

وسـلَّـمَ مـن نـار الأَتـونِ خـلـيـلَـهُ … فـلـم يُـؤذِهِ إحـراقُـهـا واحـتـرارهـا[2]

ونـجَّىٰ من الـطُّوفان نـوحاً وقد هدىٰ … بـه أُمـةً[3] أبْـدَىٰ الـفـسـوقَ شِـرارُهـا

ومـكَّـن داوداً بـأيْـدٍ وابـنَـهُ … فـتـعـشـيـرهـا مُـلـقـىً لـه وبِـذارُهـا[4]

وذلَّـلَ جـبَّـارَ الـبـلادِ لأمـرِهِ … وعُـلِّـم مـن طـيـر الـسَّـمـاء حِـوارهـا

وفـضَّـل بـالـقـرءَانِ أمَّـةَ أحـمـدٍ … ومـكَّـن فـي أقـصـىٰ الـبـلاد مَـغـارهـا

وشـقَّ لـه بـدرَ الـسـمـاء وخَـصَّـه … بـآيـاتِ حـقٍّ لا يُـحِـلُّ مُـغـارهـا[5]

وأنـقـذنـا مـن كُـفـر أربـابـنـا بـه … وكـان علىٰ قطب الهلاك مدارها[6]

فـمـا بـالـنـا لا نـتـرُكُ الـجـهـلَ ويْـحَـنـا … لـنـسـلَـمَ مـن نـارٍ تـرامَـىٰ شَـرارُهـا

❋ ❋ ❋

= المهد وناقة صالح وشق البحر لموسى ونار إبراهيم وطوفان نوح والتمكين لداود وسليمان، والقرءان لمحمد ﷺ وشق البدر.. إلخ (ع).

(١) يعني قدار بن سالف عاقر الناقة (ع).

(٢) احترارها: التهابها؛ وفي بعض الطبعات: واعترارها، ولا معنى له (ع). قلت: وما في الطبعات موافق للمخطوط.

(٣) خ: هدتْ به أمةٌ.

(٤) تعشيرها: أخذ العشر منها، والبذار: الحَب الذي يُبذر، أي له زرع الأرض وجني حصادها؛ وفي الأصل: فتعسيرها ـ بالسين المهملة ـ، ولذلك قرأ برشيه «ويسارها» ليتطابق اليسر مع العسر.

(٥) المغار: الحبل المفتول، أي أنها ءايات محكمات لا تنقض، وفي الأصل «معارها» بالعين المهملة والظاهر أنه خطأ.

(٦) في بعض الطبعات منارها؛ ولا معنى له (ع). قلت: وما في الطبعات موافق للمخطوط.

[خاتمة]

هنا ـ أعزَّك الله ـ انتهىٰ ما تذكَّرْتُه إيجاباً لكَ، وتقمُّناً[1] لمسَرَّتِكَ، ووقُوفاً عند أمرك، ولم أمتنع أن أوردَ لك في هذه الرسالة أشياءَ يذكرها الشُّعراءُ ويكثرون القولَ فيها، مُوفَياتٍ علىٰ وجوهها، ومفرَداتٍ في أبوابها، ومنعمات التَّفسير؛ مثل الإفراط في صِفَةِ النُّحول، وتشبيه الدُّموع بالأمطار، وأنَّها تروي السُّفَّار، وعدم النَّوم البتَّةَ، وانقطاع الغذاء جُمْلةً؛ إلا أنَّها أشياءُ لا حقيقةَ لها[2]، وكَذِبٌ لا وَجْهَ له، ولكلِّ شيءٍ حَدٌّ، وقد جعلَ الله لكلِّ شيءٍ قدراً.

والنُّحولُ قد يَعْظُمُ ولو صار حَيْثُ يصفُونَهُ لكانَ في قَوامِ الذَّرَّةِ أو دونها، ولخَرَجَ عن حدِّ المعقول.

والسَّهَرُ قد يَتَّصِلُ لياليَ، ولكن لو عَدِمَ الغذاءَ أسبوعَيْن لهَلَكَ. وإنَّما قلنا إنَّ الصَّبْرَ عن النَّوْم أقلُّ من الصَّبْر عن الطَّعام لأنَّ النَّوم غذاءُ الرُّوح، والطَّعامَ غذاء الجسد، وإن كانا يشتركان في كليهما، ولكنّا حكينا على الأغلب. وأمَّا الماءُ فقد رأيتُ ـ أَنَا ـ مَيْسُوراً البنَّاءَ ـ جارنا بقرطبة ـ يصبرُ عن الماء أسبوعَيْن في حمارَّةِ القَيْظِ، ويكتفي بما في غذائه من رُطُوبه.

---

(١) تقمن المسرة: تحريها وتوخيها (ع).

(٢) يريد: ولم يمنعني من إيراد هذه الأشياء إلا أنها أشياء لا حقيقة لها (ع).

وحدَّثني القاضي أبو عبدالرحمن بن جَحَّافُ أنَّه كانَ يعرفُ من كانَ لا يشربُ الماء شَهْراً.

وإنَّما اقتصرتُ في رسالتي علىٰ الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجودُ سواها أصْلاً، وعلىٰ أنِّي قد أوردتُ من هذه الوجوه المذكورة أشياءَ كثيرةً؛ يكتفىٰ بها لِئَلَّا أخرجَ عن طريقة أهلِ الشِّعر ومذهبهم.

وسيرىٰ كثيرٌ من إخواننا أخباراً لهم في هذه الرِّسالة مكنيًّاً فيها عن أَسْمائهم علىٰ ما شرطنا في ابتدائها.

وأنا أستغفر الله ـ تعالى ـ مِمَّا يكتبه المَلَكَانِ، ويُحْصِيه الرَّقيبان من هذا وشَبَهِهِ، استغفارَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ كلامه من عمله، ولكنَّه إن لم يكن من اللَّغْو الذي لا يؤاخَذُ به المرءُ؛ فهو ـ إنْ شاء الله ـ من اللَّمَم المَغْفُوِّ، وإلا فليسَ من السَّيِّئاتِ والفواحش التي يُتَوَقَّعُ عليها العذابُ، وعلىٰ كلِّ حالٍ فليسَ من الكبائِر التي ورد النصُّ فيها.

وأنا أعلم أنَّه سينكر عليَّ بعضُ المتعصِّبينَ عليَّ تأليفي لمثل هذا، ويقول: خالفَ طريقته، وتجافَىٰ عن وجهته. وما أُحِلُّ لأحدٍ أن يظنَّ بي غيرَ ما قصدته، قالَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وحدَّثني أحمَدُ بن محمد بن الجسور، قال: حدّثنا ابن أبي دليم، قال: حدّثنا ابن وضّاح، عن يحيىٰ بن [يحيى، عن] مالك بن أنس[1]، [عَنْ

(١) وقع في الأصل، وفي جميع الطَّبعات: (عن أبي الزُّبير المكِّي، عن أبي شُريح الكعبيّ). وهذا تحريفٌ، ولعلَّ نظر النَّاسخ انتقل إلى سند الحديث التَّالي؛ إذ وقع فيه تحريفٌ أيضاً. وما أثبته بين المعقوفتين فمن: «الموطَّأ» (١٦٨٤)، وهكذا أخرجه من طريق=

أبي الزِّنَاد، عن الأَعْرَج، عن أبي هريرة]، عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: **«إيَّاكُمْ والظَّنَّ فإنَّه أكْذَبُ الكَذِبِ»**.

وبه إلىٰ مالكٍ، عن سعيد بن أبي سعيدِ المقبريِّ، [عن أبي شُرَيْحٍ الكَعْبِيِّ][1]، عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: **«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمَ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيْراً أو لِيَصْمُتْ»**.

وحدَّثني صاحِبي أبو بكرٍ محمَّدُ بن إسحاق، قال: حدَّثنا عبدُالله بن يوسف الأزديُّ، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن عائذ، قال: حدثَّنا أبو عديٍّ عبدالعزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج ـ الإمام بمصر ـ، قال: حدَّثنا أبو عليٍّ الحسنُ بن قاسم بن دحيم المصريُّ، قال: حدَّثنا محمد بن زكريا الغلابيُّ، قال: حدَّثنا العباس، قال: حدَّثنا أبو بكرٍ[2]، عن قتادةَ، عن سعيد بن المسيِّب، أنَّه قال: وَضَعَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

= مالكٍ: أحمدُ ٢/٤٦٥ (١٠٠٠١)، ٢/٥١٧ (١٠٧٠١)، والبخاريُّ في: «الصَّحيح» (٦٠٦٦)، وفي: «الأدب المفرد» (١٢٨٧)، ومسلم (٢٥٦٣)، وأبو داود (٤٩١٧)، والطحاوي في: «مُشْكل الآثار» (٤٥٧)، وابن حِبَّان (٥٦٨٧)؛ وغيرهم، وتمامه: **«وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَنَافَسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً»**.

(١) وقع في الأصل، وفي جميع الطَّبعات: (عن الأعرج، عن أبي هريرة) وهذا تحريفٌ أيضاً. والتَّصويب من: «الموطَّأ» (١٧٢٨)، وهكذا أخرجه من طريق مالكٍ: أحمدُ ٦/٣٨٥، والبخاريُّ في: «الصَّحيح» (٦١٣٥)، وفي: «الأدب المفرد» (٧٤٣)، وأبو داود (٣٧٤٨)، وابن حِبَّان (٥٢٨٧).

(٢) أبو بكر: هو الهُذَلِيُّ البصريُّ؛ قال ابن حزم في: «المحلَّى» (المسألة: ١٧٨٠): ضعيف جداً. وقال (٢٠٢٥): كذَّاب مشهور. وقال ابن حجر في: «التقريب»: أخباريٌّ متروكُ الحديث. وعنه: العبَّاس (وفي الأصل: أبو العباس)؛ وهو: ابن بكَّار الضبي البصري، ذكره الذَّهبي في: «الميزان»، وقال: قال الدَّارقطنيُّ: «كذَّاب». وعنه: محمَّد بن زكريا الغلابيُّ؛ وهو: أبو جعفر البصري الأخباري، قال الدَّارقطني: «يضع الحديث». وهو من رجال: «الميزان» أيضاً. فإسناد المصنِّف ـ هذا ـ في غاية الضعف.

للنَّاس ثمانيَ عَشَرَةَ كلمةً من الحكمة منها: ضَعْ أمرَ أَخِيكَ على أحسنه حتَّى يأتيَكَ على ما يغلبك عليه. ولا تظنَّ بكلمةٍ خَرَجَتْ مِنْ في امرئٍ مُسْلِمٍ شَرَّاً وأنتَ تجد لها في الخَيْرِ مَحْمَلاً[1].

فهذا ـ أعزَّك الله ـ أدبُ الله، وأدبُ رسوله ﷺ، وأدبُ أميرِ المؤمنين.

وبالجُمْلَة؛ فإنِّي لا أقولُ بالمُراءَاةِ، ولا أَنْسُكُ نُسْكاً أعجمياً[2]. ومن

---

(١) وأخرجه ـ مطوَّلاً ـ: أبو الحسن القطَّان في: «المطوَّلات» ـ كما في: «التدوين في أخبار قزوين» ١/ ٢١٧ـ؛ من طريق: الحسن بن عرفة، عن يعقوب بن الوليد المدني عن يحيى بن سعيد الأنصاريِّ؛ به. ويعقوب قال ابن حجر في: «التَّقريب»: «كذَّبه أحمد وغيره». وابن عدي في: «الكامل في ضعفاء الرِّجال» ٨/ ٤٧٩ في ترجمة: يعقوب بن إسحاق الرازي، من طريقه عن يحيى بن سعيد به. وقال ابن عدي في يعقوب: روى عن يونس بن عبيد وعن غيره؛ ما لا يتابع عليه. والبيهقيُّ في: «شعب الإيمان» ٦/ ٣٢٣ (٨٣٤٥) من طريق: موسى بن ناصح عن إبراهيم بن أبي طَيْبَةَ عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب؛ قال: كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فذكره. وقال البيهقي: وقد روينا بعض هذه الألفاظ عن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ. قلت: موسى بن ناصح: ذكره ابن حِبَّان في: «الثِّقات»، وروى عنه جمعٌ؛ بعضهم ثِقات. وابن أبي طَيْبَة: لعله إبراهيم بن عمرو بن أبي طيبة، ذكره ابن ماكولا في: «الإكمال» ٥/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ وقال: حدَّث عن هشام بن عروة وسليمان الأعمش، روى عنه ابنه محمَّد.

وأخرجه ـ مختصراً ـ: الحسين بن إسماعيل المحاملي في: «أماليه» ١/ ٣٩٥ (٣٩٥) من طريق سليمان بن عبيد؛ قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا تظنن بكلمة. . . ذكره. وسليمان لم أعرفه.

وأخرجه ـ أيضاً ـ الخطيب البغدادي في: «المتفق والمفترق»، والزبير بن بكَّار في: «الموفقيات» ـ مطوَّلاً ـ، وأحمد في: «الزهد» ـ مختصراً ـ كما في: «الدر المنثور» ٧/ ٢٢، و٧/ ٥٦٦، و٧/ ٥٦٥، ولم أقف عليه في الجزء المطبوع من كتاب الزُّهد للإمام أحمد رحمه الله. ولم أتمكَّن من مراجعة كتابَيْ الخطيب والزُّبير ـ رحمهما الله ـ، لهذا لا أستطيع الجزم في الحكم على هذا الأثر بالضَّعف، والله تعالى أعلم.

(٢) هذه كلمة قديمة وردت عن السَّلف، قال الأصمعيُّ: قيل لسعيد بن المُسَيِّب: هاهنا قومٌ نسَّاك يعيبون الشِّعر؟ قال: نسكوا نسكاً أعجميًّا. ذكره الجاحظ في: «البيان والتبيين»، ورواه الدِّينوريُّ في: «المجالسة وجواهر العلم» (٢٣١٢) بإسنادٍ ضعيفٍ عن مسلم بن=

أدّىٰ الفرائضَ المأمورَ بها، واجتنب المحارمَ المنهيَّ عنها، ولم ينسَ الفَضْلَ فيما بينه وبين النَّاسِ؛ فقد وَقَعَ عليه اسمُ الإحسان، ودَعْنِي مِمَّا سوىٰ ذلكَ، وحسبي الله.

والكلامُ في مِثْلِ هذا إنَّما هو مع خَلاَءِ الذَّرْعِ، وفراغِ القَلْبِ. وإنَّ حِفْظَ شيءٍ، وبقاءَ رسمٍ، وتذكُّرَ فائتٍ لِمِثْلِ خاطري؛ لعَجَبٌ علىٰ ما مضىٰ ودهمني. فأنتَ تعلمُ أنَّ ذهني متقلِّب، وبالي مُهَصَّمٌ، بما نحن فيه من نُبُوِّ

= يسار؛ قال: سمعت سعيد... فذكره، وزاد: ثمَّ تحدَّث أنَّ رسول الله ﷺ؛ قال: «**شرُّ النُسك نسك أعجميّ**». قلت: هذه الزيادة باطلة، لم أجدها في شيء من كتب الحديث مع كثرة البحث والتفتيش!!

وروى الحافظ ابن عبدالبَرِّ في: «التمهيد» **٢٠٩/١٤** عن الحارث بن مسكين قال: سمعت أشهَبَ بن عبدالعزيز يقول: خرجنا مرابطين إلى الإسكندرية، فمررنا بجِنان اللَّيث بن سعد، فدخلنا، فأكلنا من الثَّمر، فلمَّا أن رجعتُ دعتني نفسي إلى أن أسْتَحِلَّ من الليث، فدخلتُ إليه، فقلت: يا أبا الحارث! إنَّا خرجنا مرابطين، ومرَرْنا بجنانك، فأكلنا من الثَّمر، وأحببنا أن تجعلنا في حِلٍّ. فقال لي الليث: يا ابن أخي لقد نسكتَ نسكاً أعجمياً، أما سمعتَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]؛ فلا بأس أن يأكلَ الرَّجلُ من مال أخيه الشَّيء التَّافِهَ الذي يَسُرُّهُ بذلك.

وذكر أبو الوليد الباجي في: «المنتقى في شرح الموطَّأ»: أنَّ إبراهيم بن أدهم قال لرجلٍ ـ تنسَّك فلبس الصُّوف ـ: رأيته نسك نسكاً أعجمياً.

قلت: لمَّا كان العرب أهل الفطرة السليمة، والبيئة البسيطة الخالية من الفلسفات، «واجتمع لهم الكمال بالقوَّة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم»؛ إذ اصطفاهم الله تعالى وفضَّل جنسهم على سائر الأجناس، وجعل رسالته الخاتمة بلسانهم؛ فهم أقدر النَّاس على فهمه والفقه فيه؛ صاروا هم القدوة في ذلك علماً وعملاً وسلوكاً، وبالمقابل صارت الأعاجم ـ لما ورثوه من الفلسفات والأفكار، ولبعدهم عن فهم اللسان العربي على الوجه الذي يفهمه العربي بفطرته ـ؛ مظِنَّة للنَّقص والانحراف والتكلُّف. هذا هو المقصود من هذه الكلمة، وإلا فإنَّ: «الأعجمية؛ ليست مذمومة في نفسها عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ، وعند عباده المؤمنين»؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في: «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم»، وقد بحثَ ـ رحمه الله ـ هذه المسألة بحثاً نفيساً يكتب بماء الذهب (١٤٢ ـ ١٦٩، ط: الفقي).

الدِّيار، والجلاء عن الأوطان، وتغوُّل الزَّمان، وَنَكَباتِ السُّلطان، وتغيُّر الإخوان، وفسادِ الأحوال، وتبدُّلِ الأيام، وذهاب الوَفْر، والخروج عن الطَّارف والتَّالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغُرْبة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفِكْرِ في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرُّجوع إلىٰ مَوْضع الأهل، ومُدَافعة الدَّهْر، وانتظارِ الأقدار، لا جعلنا الله من الشَّاكِينَ إلا إليه، وأعادنا إلىٰ أفضل ما عَوَّدَنا.

وإنَّ الذي أبقىٰ لأكثرُ مِمَّا أَخَذَ، والذي تَرَكَ أعظمُ مِنَ الذي تَحَيَّفَ، ومواهِبُهُ المحيطةُ بنا ونِعَمُهُ التي عَمَرَتْنا لا تُحَدُّ، ولا يُؤَدَّىٰ شكرها، والكلُّ مِنَحُهُ وعطاياه، ولا حُكْمَ لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكلُّ عاريةٍ فراجعةٌ إلى مُعِيرها، وله الحَمْدُ أولاً وءَاخراً، وعَوْداً وبَدْءاً. وأنا أقول: [من الوافر]

جَعَلْتُ اليأسَ لي حِصْناً ودِرْعاً ... فلَمْ أَلْبَسْ ثِيَابَ المُسْتَضَام

وأكثرُ مِنْ جَمِيع النَّاس عِندي ... يَسِيرٌ صانَنِي دونَ الأنام

إذا ما صَحَّ لي دِينِي وَعِرْضِي ... فلستُ لِمَا تولَّىٰ ذا اهتمام

تولَّىٰ الأَمْسُ والغدُ لَسْتُ أدري ... أأُدرِكُهُ ففي ماذا اغتمامي

جعلنا الله وإيَّاك من الصَّابِرين، الشَّاكرين، الحامدين، الذَّاكرين، ءامين ءامين.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وءاله وصحبه وسلَّم تسليماً.

❋ ❋ ❋

كَمُلَتْ الرِّسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمَّدٍ عليِّ بن أحمد بن سعيد بن حزم ـ رضي الله عنه ـ بعد (اختصار)[1] أكثر أشعارها، وإبقاء العيون منها؛ تحسيناً لها، وإظهاراً لمحاسنها، وتصغيراً لحجمها، وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها، بحمد الله ـ تعالىٰ ـ وعونه وحسن توفيقه!

وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة. والحمد لله رب العالمين.

※ ※ ※

(١) كلمةٌ غيرُ واضحةٍ في الأصل، ولم يتمكن بتروف من قراءتها فجعل مكانها نقطاً. وأضاف (ع) بين معقوفتين [حذف]. وترجَّح عندي كتابتها هكذا، لأنه يظهر من المخطوط أن الكلمة تبدأ بحرف الألف، وتنتهي بالألف والراء.



الملحق (١)
ابن حزم يبكي ديارهم في قرطبة[1]

وممَّن رثى قرطبة ـ أيضاً ـ، من وجُوه أهلها، وأَربابِ النِّعَم المؤَثَّلة بها، وأَكثَرَ التفجُّعَ على دياره منها، لما استولى الخرابُ عليها عند فرارِ البرَابِر عنها، الفقيهُ الأَديبُ أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم، ابنُ وزيرِ ءالِ عامِر الأكبر. فإني وَجَدْتُ بخطِّه في خبرٍ ذَكَرَهُ؛ قال:

وقفتُ على أَطلال منازلنا بحَوْمة بلاط مُغيث من الأَرباض الغربيَّة، ومَنازل البرابر المُستباحة عند مُعاوَدة قرطبة. فرأَيْتُها قد مَحَتْ رُسُومُها، وطُمِسَتْ أعلامُها، وخفيَتْ معاهِدُها، وغيَّرَها البلى؛ فصارَتْ صَحَاري مُجْدِبةً بعد العِمْران، وفَيافيَ مُوحِشَةً بعد الأُنس، وءاكاماً مُشَوَّهةً بعد الحُسْن، وخرائبَ مُفْزعةً بعد الأمن، ومآويَ للذِّئاب، وملاعب للجانِّ، ومغانيَ للغيلانَ، ومَكَامِنَ للوحوش، ومَخابىء للُّصوص، بعد غُنْيَانِها برجالٍ كالسُّيوف، وفُرْسانٍ كاللُّيوث، تفيضُ لدَيهم النِّعَمُ الفاشِيَة، وتَغصُّ منهم

(١) نصُّ المرثية كما أورده أبو عبدالله محمَّد بن عبدالله بن سعيد الغرناطيُّ (٧٧٦هـ)؛ المشهور بلسان الدِّين ابن الخطيب في كتابه: «أعمال الأعلام في مَن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» (ص: ١٠٦ ـ ١٠٨) نشره: ليفي بروفنسال بعنوان: «تاريخ إسبانيا الإسلامية» ط٢ /بيروت: ١٩٥٦.

بكثرة القَطِين الحاشِيَة، وتَكْنُسُ في مقاصيرهم ظِباء الإنس الفاتِنة، تحت زِبْرِجِ من غضارةِ الدُّنيا تُذكِر نَعِيمَ الآخرة، حَالَ الدَّهرُ عليهم بعد طُول النَّضرة فبدَّد شَمْلَهم حتَّىٰ صاروا في البلاد أيادي سَبَا، تنطق عنهم الموعِظة، فكأنَّ تلك المحاريبَ المُنَمَّقة، والمقاصيرَ المُرَشَّفة، التي كانت في تلك الدِّيار كبروق السَّماء إشراقاً وبهجةً، يقيِّد حُسْنُها الأبصار، ويجلي مَنْظَرُها الهُموم، كأن لم تَغْنَ بالأَمس، ولا حلَّتها سادةُ الإنس، قد عبث بها الخرابُ، وعمَّها الهدمُ، فأصبَحَتْ أوحَشَ من أفواهِ السِّباع فاعرةً، تُؤْذِنُ بفناءِ الدُّنيا، وتُريكَ عواقِبَ أهْلها، وتُخْبركَ عمَّا يصيرُ إليه كلُّ ما قد بقي ماثِلاً فيها، وتُزَهِّدُك فيها.

وكرَّرْتُ النَّظر، ورَدَّدْتُ البصرَ، وكِدْتُ أُستطار حزناً عليها، وتذكَّرْتُ أَيَّام نشأَتي فيها، وصبابةَ لِداتي بها؛ مع كواعِبَ غيدٍ، إلى مِثْلِهِنَّ يَصْبُو الحَليم؛ ومَثَّلْتُ لنفسي انطِواءَهُنَّ بالفناء، وكَوْنَهُنَّ تحت الثرىٰ إثْرَ تقطُّع جَمْعنا بالتفرُّق والجلاءِ في الآفاق النَّائية، والنَّواحي البعيدة، وصدَّقْت نفسي عن فناء تلك النصبة، وانصداع تلك البَيْضَة، بعد ما عهدتُها من حُسْنها ونضارتها وزِبْرِجِها وغضارتها، ونَضَوْتُه بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرَّفيعة، التي رَفَلْتُ في حُلَلِها ناشئاً فيها، وأرْعَيْتُ سَمَعي صوتَ الصَّدى والبوم زاقباً بها، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها، التي كان ليلها تبعاً لنهارها، في انتشارها بسُكَّانها، والتقاء عُمَّارها، فعاد نهارُها تبعاً لليلها في الهدوِّ والاستيحاش، والخُفُوتِ والإخفاش. فأَبْكىٰ ذلك عيني علىٰ جُمودها، وقرع كبدي علىٰ صلابتها، وهاج بلابلي على تكاثُرها، وحرَّكني للقَوْل على نُبُوِّ طبعي؛ فقلتُ: [من الطويل]

سلامٌ علـى دارٍ رَحَلْنـا وغُـودِرَت خلاءً مِـن الأهلـين مـوحشةً قَفْـرا

تراها كأنْ لم تَغنَ بالأمس بَلْقَعاً ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دَهْرا

فيا دارُ لم يُقْفِرْكِ منَّا اختيارُنا ... ولو أنَّنا نسطيعُ كُنْتِ لنا قبرا

ولَكِنَّ أقداراً من الله أُنْفِذَتْ ... تُدَمِّرُنا طَوعاً لِمَا حلَّ أو قَهْرا

ويا خيرَ دارٍ قد تُركْتِ حميدةً ... سَقَتْكِ الغوادي ما أجلَّ وما أسرى

ويا مُجْتلىٰ تلك البساتين حفَّها ... رياضُ قوارير غَدَتْ بَعْدَنا غَبْرا

ويا دهرُ بَلِّغْ ساكِنيها تَحِيَّتي ... ولو سكنوا المروَيْنِ أو جاوزوا النَّهرا[1]

فصبراً لسَطْو الدَّهر فيهم وحُكْمِهِ ... وإن كان طعْمُ الصَّبْرُ مستثقلاً مُرًّا

لئن كان أظْمَانا فقدَ طالَ ما سَقىٰ ... وإن ساءَنا فيها فقد طالَ ما سَرًّا

وأَيَّتها الدارُ الحبيبةُ لا يَرِمْ ... ربوعَك جَوْنُ المزْنِ يهمي بها القَطْرا

كأنَّك لم يسكنْك غيدٌ أَوانِسٌ ... وصيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجُمَ الزَّهْرا

تفانَوْا وبادُوا واستمرَّت نواهُمُ ... لمثلهم أَسكبت مقْلَتيَ العبرىٰ

سنصبرُ بعد اليُسرِ للعُسْر طاعةً ... لعلَّ جميلَ الصَّبر يعقبنا يُسْرا

وإنِّي ولَوْ عَادَتْ وَعُدْنا لعَهْدها ... فكَيْف بمن مِن أهلها سكن القَبرا

ويا دَهْرَنا فيها متىٰ أنت عائدٌ ... فنحمدَ منك العودَ إنْ عُدْتَ والكَرَّا

فيا رُبَّ يومٍ في ذراها وليلةٍ ... وصَلْنا هناك الشمسَ باللَّهو والبدرا

فواجسْميَ المضنَىٰ وواقَلْبيَ المُغْرىٰ ... ووانَفْسِيَ الثَّكْلىٰ وواكبدي الحَرَّىٰ

ويا هَمُّ ما أَعدىٰ، ويا شَجْوُ ما أبرا ... ويا وَجْدُ ما أَشجىٰ، ويا بَينُ ما أَفْرا

ويا دهرُ لا تبعَدْ، ويا عهدُ لا تحُلْ ... ويا دمعُ لا تجمَدْ، ويا سقم لا تَبْرا

سأَندب ذاك العَهْدَ ما قامت الخَضْرا[2] ... على النَّاس سقفاً واستقلَّت بنا الغَبْرا

---

(١) المروين: مثنَّىٰ مرو، وهما مدينتان بخراسان. و«النَّهر»: نهر جيحون.

(٢) الخضراء: السَّماء.



الملحق (٢)
خَبَرُ أحمدَ بن كُلَيْبٍ النَّحْويّ[1]

أحمد بن كُليب النَّحوي، أديب شاعر مشهور الشِّعر، ولا سيما شعره في أسْلَمَ، وكان قد أفرط في حُبِّه حتى أدّاه ذلك إلى موته، وخبرَهُ في ذلك طريفٌ.

حدَّثني أبو محمد عليُّ بن أحمد، قال: حدَّثني أبو عبدالله محمد بن

(١) مناسبة ذكر هذا الملحق قصَّة ابن قزمان المتقدِّمة في: (٢٨ ـ باب الموت)، وانظر التَّعليق عليها. وما هنا منقول برُمَّته من: «جَذْوة المقتبس» ص: ١٣٤ ـ ١٣٧ /الترجمة: (٢٤٤)، وروىٰ القصَّة: أبو محمَّد جعفر بن أحمد السَّرَّاج القارىء (٥٠٠هـ) في: «مصارع العشاق» ٢٩٧/١، وأبو الفرج عبدالرحمٰن ابن الجوزيّ (٥٩٧هـ) في: «ذمّ الهوىٰ» ٤١٩ ـ ٤٢١، وفي: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» ٧٣/٨؛ في ترجمة ابن كليب، في وَفَيات سنة: (٤٢٦هـ) بإسناده إلى الحميديّ، وذكرها: أبو جعفر أحمد بن يحيى بن عميرة الضَّبي (٥٩٩هـ) في: «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» (٤٢٦)، وياقوت الحمويّ (٦٢٦هـ) في: «معجم الأدباء» ١٠٨/٤؛ وقال عن توريخ ابن الجوزيّ لوفاة ابن كليب: ولا أدري من أين له هذه الوفاة؛ فإنَّ الحميديّ ذكره في كتابه، ولم يذكر وفاته. قلت: ومع هذا فقد اعتمد المؤرِّخون توريخ ابن الجوزي؛ فمِمَّن ذكرها في وَفَيات تلك السَّنة: عزُّ الدِّين ابن الأثير (٦٣٠هـ) في: «الكامل في التَّاريخ»، وأبو الفداء صاحب حماة (٧٣٢) في: «المختصر في أخبار البشر» ـ أشارا إليها ولم يذكراها ـ، وخليل بن أيبك الصَّفديّ (٧٦٤هـ) في: «الوافي بالوَفَيات»، والحافظ ابن كثير في: «البداية والنِّهاية» ٣٨/١٢؛ نقلاً عن ابن الجوزيّ مع شيءٍ من الاختصار، ونقلها عن ابن الجوزي ـ أيضاً ـ أحمد بن عبدالوهاب النُّويريُّ (٧٣٣هـ) في: «نهاية الأرب في فنون الأدب».

الحسن المَذْحجي[1]، قال: كنتُ أختلفُ في النَّحْو إلى أبي عبدالله محمد بن خَطَّاب النَّحويّ[2] في جماعة، وكان معنا عنده أبو الحسن أسْلَم بن أحمد بن سعيد بن قاضي الجماعة أسْلَم بن عبدالعزيز[3]، صاحب المُزَني والرَّبيع[4].

قال محمَّد بن الحسن: وكان من أجمل من رأته العيون، وكان يجيء مَعَنا إلى محمد بن خطاب؛ أحمدُ بن كُلَيْب، وكان من أهل الأدب البارع، والشِّعر الرَّائق، فاشتدَّ كَلَفُه بأسْلم، وفارق صبرَه، وصرف به القول مُتَسَتِّراً بذلك إلى أن فشت أشعارُهُ فيه وجَرَتْ على الألسنة، وتنوشدت في المحافل؛ فَلَعَهْدَي بعرسٍ في بعض الشوارع بقُرْطبة، والنَّكوريّ الزَّامرُ قاعدٌ في وسط الحَفل، وفي رأسه قَلَنْسُوَةُ وشي وعليه ثوب خز عُبَيْدي، وفرسُه بالحلية المحلاة يُمسكه غلامُه، وكان فيما مضى يُزَمِّرُ لعبدالرحمن الناصر، وهو يُزَمِّرُ في البوق بقول أحمد بن كُلَيْب في أسلم: [من المتقارب]

أسْلَمَني في هوا ه أسْلَم هذا الرّشا
غزالٌ له مقلة يصيب بها من يشا

---

(١) هو أستاذ ابن حزم في المنطق والفلسفة، يعرف بابن الكتَّاني، له مشاركةٌ قويَّةٌ في علم الأدب والشِّعر، وله تقدُّم في علوم الطِّبُ والمنطق، وكلام في الحكم، ورسائل في كلِّ ذلك، وكتبٌ معروفةٌ. وعاش بعدَ الأربع مئة بمدَّةٍ «جذوة المقتبس» (٣٥).

(٢) أبو عبدالله الأزديُّ، كان من الأدباء المشهورين، والنُّحاة المذكورين، وكان يختلف إليه في علم العربية أولاد الأكابر، وذوي الجلالة، وله مع ذلك شعر مأثور، وكان قبل الأربع مئة. «الجذوة» (٥٠).

(٣) تقدَّمت ترجمتها في التَّعليق علىٰ خبر ابن قزمان.

(٤) المزني؛ هو: الإمام العلامة الفقيه أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيىٰ المصريُّ (٢٦٤ـ)، والربيع؛ هو: الإمام المحدِّث الفقيه أبو محمد بن سليمان المراديُّ (٢٧٠هـ) تلميذا الإمام الشافعي ـ رحمهم الله تعالى ـ، وقد أخذ عنهما قاضي الجماعة أسلم بن عبدالعزيز.

وَشَىٰ بينـنـا حـاسـدٌ سَيُسْأَلُ عَمَّا وشىٰ
ولـو شـاء أن يـرتـشـي علـى الـوصـل رُوحـي ارْتَشَىٰ

ومُغنٍّ محسن يسايره فيها.

قال: فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالسِ الطَّلب، ولزم بيته والجلوسَ على بابه، فكان أحمد بن كُلَيْب لا شُغلَ له إلا المرور على باب دار أسلم سائراً ومُقبلاً نهارَهُ كلَّه، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً، فإذا صلَّىٰ المغرب واختلط الظَّلام خرج مستروحاً وجلس على باب داره، فَعِيلَ صبرُ أحمد بن كُلَيْب، فتحيَّلَ في بعض اللّيالي ولبسَ جُبَّةً من جُبَّات أهل البادية، واعتمَّ بمثل عمائِمهم، وأخذ بإحدىٰ يديه دجاجاً، وبالأخرىٰ قفصاً فيه بيض، وتحيّنَ جلوس أسلم عند اختلاط الظلام علىٰ بابه، فتقدَّم إليه وقبَّل يده، وقال: يأمر مولاي بأخذ هذا. فقال له أسلم: ومَن أنت؟ فقال: صاحبك في الضَّيعة الفلانية. وقد كان تَعرَّفَ أسماءَ ضياعه وأصحابِهِ فيها، فأمر أسلمُ بأخذ ذلك منه، ثم جعل أسلمُ يسأله عن الضَّيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام وتأمَّله فعرفه، فقال له: يا أخي! وهُنا بَلغتَ بنفسك، وإلى هاهنا تَبِعْتَني، أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطَّلب، وعن الخروج جُملة، وعن القعود على بابي نهاراً، حتى قطعتَ عليَّ جميعَ ما لي فيه راحة، فقد صِرْتُ من سجنك[1]؟! والله لا فارقتُ بعد هذه الليلة قَعْرَ منزلي، ولا قعدتُ ليلاً ولا نهاراً على بابي. ثمَّ قام، وانصرف أحمدُ بن كُليب كئيباً حزيناً.

قال محمد بن الحسن: واتَّصَلَ ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كُلَيْب:

---

(١) هكذا وردت في: «الجذوة»، و«مصارع العشّاق». وفي: «المنتظم» و«معجم الأدباء»: في سجنك.

وخسِرْت دجاجك وبيضك؟ فقال: هات كلَّ ليلة قُبلةَ يده وأخسَر أضعاف ذلك!

قال: فلما يئس من رُؤيته البَتَّة نَهكتْه العِلَّةُ، وأضجعه المرض.

قال محمَّد بن الحسن: فأخبرني أبو عبدالله محمد بن خطَّاب شيخنا، قال: فعدتُهُ فوجدتُهُ بأسْوَأ حال، فقلت له: ولِمَ لا تتداوىٰ؟ فقال: دوائي معروف، وأمَّا الأطباء فلا حيلة لهم في البتَّة. فقلت له: وما دواؤُك؟ فقال: نظرةٌ من أسلَم، فلو سعيتَ في أن يَزُورَني لأعظمَ الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضاً يؤجر. قال: فرحمتُه وتقطَّعت نفسي له، ونهضتُ إلى أسلَم فاستأذنتُ عليه، فأذن لي وتلقَّاني بما يجب، فقلتُ له: لي حاجةٌ. قال: وما هي؟ قلتُ: قد علمتَ ما جَمَعك مع أحمد بن كُلَيْب من ذِمامِ الطَّلَب عندي. فقال: نعم، ولكن قد تعْلَم أنه برَّحَ بي، وشَهَرَ اسمي وءاذاني. فقلت له: كلُّ ذلك يُغْتفَرُ في مثل الحال التي هو فيها، والرَّجُلُ يموتُ، فتفضَّل بعيادته. فقال: والله ما أقْدِر على ذلك، فلا تكلِّفني هذا. فقلت له: لا بدَّ، فليس عليك في ذلك شيء، وإنَّما هي عيادة مريض. قال: ولم أزَلْ به حتى أجاب، فقلت: فقم الآن! فقال لي: لستُ والله أفعل، ولكن غداً. فقلتُ له: ولا خُلْفَ! قال: نعم. فانصرفتُ إلىٰ أحمد بن كُليب، وأخبرته بموعِدِه بعد تأبِّيه، فسُرَّ بذلك وارتاحتْ نفسُه. قال: فلما كان الغدُ بكَّرْتُ إلىٰ أسْلَم وقلت له: الوعدَ! قال: فوجم وقال: والله لقد تَحْمِلُني على خُطَّة صعبة عليَّ، وما أدري كيف أطيق ذلك. قال: فقلتُ له: لا بدَّ مِنْ أن تفي بوعدك لي. قال: فأخذ رداءَه ونَهضَ معي راجِلاً. قال: فلما أتينا منزلَ أحمد بن كُليب، وكان يسكن في ءاخر درب طويل، وتوسط الدَّرْب، وقف واحمرَّ وخَجِلَ، وقال لي: الساعةَ والله أموت، وما أستطيع أن أنقلَ قَدَمي،

ولا أن أعرِض هذا علىٰ نفسي، فقلت: لا تفعَلْ، بعدَ أن بلغتَ المنزلَ تنصرف؟ قال: لا سبيل والله إلىٰ ذلك الْبَتَّة. قال: ورجع مُسرعاً فاتّبَعْتُهُ، وأخذتُ بردائه، فتمادَى وتمزَّقَ الرِّداء، وبقيَتْ قطعةٌ منه في يدي لسُرعته وإمساكي له، ومضىٰ ولم أُدركه، فرجعتُ ودخلتُ إلىٰ أحمد بن كُليب، وقد كان غلامُهُ دخل عليه إذْ رءَانا من أول الدَّرب مُبشِّراً، فلمَّا رءَاني تغيَّرَ، وقال: وأين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقِصَّة، فاستحال من وقته واخْتَلَطَ، وجعل يتكلَّم بكلامٍ لا يُعْقَل منه أكثرُ من الترجُّع، فَاستشنعْتُ الحالَ، وجعلتُ أتَرَجَّعُ وقمتُ، فثاب إليه ذِهنهُ؛ وقال لي: أبا عبدالله! قلتُ: نعم. قال: اسمع منِّي واحفَظ عنِّي! ثم أنشأ يقول: [مخلع البسيط]

أسلمُ يا راحةَ العليلِ ... رفقاً على الهائم النَّحِيلِ
وصلُك أشهىٰ إلىٰ فؤادي ... من رحمة الخالِق الجليلِ

قال: فقلت له: اتَّقِ الله! ما هذه العظيمة؟ فقال لي: قد كان! قال: فخرجتُ عنه، فوالله ما توسَّطْتُ الدَّرب حتىٰ سمعتُ الصُّراخ عليه، وقد فارق الدُّنيا[1].

قال لنا أبو محمَّد عليُّ بن أحمد: وهذه قِصَّةٌ مشهورة عندنا، ومحمَّد بن الحسن ثقةٌ، ومحمَّد بن خطَّاب ثقة. وأسلم هذا من بيت جليل، وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زِرْيابِ، وكان شاعراً أديباً؛ وقد رأيتُ ابنه أبا الجعد.

---

(١) قالَ الإمامُ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وهذه زَلَّةٌ شنعاءُ، وعظيمةٌ صَلْعاءُ، وداهيةٌ دهياءُ، ولولا أنَّ هؤلاء الأئمةَ ذكروها ما ذكرتها، ولكنَّ فيها عبرة لأولي الألباب، وتنبيه لذوي البصائر والعقول؛ أنْ يسألوا الله رحمتَهُ وعافيتَهُ، وأنْ يستعيذوا بالله مِنَ الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقهم حُسْنَ الخاتمة عند الممات، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

قال أبو محمد: لقد ذكرتُ هذه الحكاية لأبي عبدالله محمد بن سعيد الخَوْلاني الكاتب؛ فعرفها، وقال لي: لقد أخبرني الثِّقةُ أنَّه رأىٰ أسلم هذا في يوم شديد المطر، ولا يكاد أحد يمشي في طريقٍ، وهو قاعد علىٰ قبر أحمد بن كُلَيب زائراً له، وقد تحيَّن غفلة النَّاس في مثل ذلك الوقت.

وقال لنا أبو محمد: وحدثني أبو محمَّد قاسم بن محمد القرشيُّ، قال: كتب ابن كُلَيب إلىٰ محمَّد بن خَطَّاب شعراً يتغزَّلُ فيه بأسْلَم، فعرضه ابنُ خطَّاب علىٰ أسلم، فقال: هذا ملحون. وكان ابن كلَيب قد أسقط التَّنوينَ في لفظةٍ في بيتٍ من الشِّعر، قال: فكتب ابن خطَّاب بذلك إلىٰ ابن كُليب فكتب إليه ابن كليب، مسرعاً: [من السريع]

أَلـحِـق لـيَ الـتَّـنـويـنَ فـي مـطـمـعٍ فـإنَّـنـي أُنْـسِـيـتُ إلـحـاقَـه
لا سـيـمـا إذ كـان فـي وصـلِ مَـنْ كَـدَّر لـي فـي الـحُـبِّ أخـلاقَـه

وأنشدني أبو محمد عليُّ بن أحمد، قال: أنشدني محمد بن عبدالرحمن بن أحمد التُّجيبي، لأحمد بن كُلَيب، وقد أهدَىٰ إلىٰ أَسلم في أوائل أمره كتابَ «الفصيح» لثعلب: [من المجتث]

هـذا كـتـابُ الـفـصـيـح بـكُـلِّ لـفـظٍ مَـلـيـحِ
وهـبـتُـه لـك طـوعـاً كـمـا وهـبـتـك روحـي

❋ ❋ ❋



الملحق: (٣)
قائمة كتب ودراسات عن ابن حزم وكتابه: ((مختصر طوق الحمامة))[1]

أولاً: الكتب والأبحاث المفردة:

١ - ((ابن حزم: حياته وعصره ـ ءاراءه وفقهه)) محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة: ١٩٧٨.

٢ - ((ابن حزم: رائد الفكر العلمي)) عبد اللطيف شرارة، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر.

٣ - ((ابن حزم: صورة أندلسية)) محمد طه الحاجري، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٢.

٤ - ((ابن حزم الأندلسي: عصره ومنهجه وفكره التربوي)) حسان محمد حسان، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٤.

٥ - ((ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي)) زكريا إبراهيم، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦ - ((ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري))[2] عبد الحليم عويس، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨.

---

(١) هذه قائمة بأغلب ما كتب في هذا المجال؛ تختصر الطريق لمن أحبَّ التوسع في البحث والدراسة، مع التنبيه الأكيد على أنَّه لا يلزم من ذكر ما ورد فيها من مقالات أو كتب؛ الموافقة على مضمونها، بل إن في بعضها مخالفات واضحة للكتاب والسنة.

(٢) هذا كتاب قيِّم جداً في مجال ترجمة ابن حزم والتعريف بجهوده العلمية.

٧ ـ ((ابن حزم الأندلسي ورسالة في المفاضلة بين الصحابة)) سعيد الأفغاني، بيروت: دار الفكر، ١٩٦٩.

٨ ـ ((ابن حزم الأندلسي ونقد العقل الأصولي)) شرف الدين عبد الحميد أمين، الصفاة: دار سعاد الصباح، ١٩٩٥.

٩ ـ ((ابن حزم الظاهري: حياته وعصره)) محمد محجوبي، الرباط: دار القلم، ٢٠٠٠.

١٠ ـ ((ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأموي الأندلسي)) فاروق عبد المعطي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

١١ ـ ((ابن حزم خلال ألف عام))[1] جمع وتحقيق: أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢.

١٢ ـ ((ابن حزم الكبير)) عمر فروخ، دار لبنان، بيروت: ١٩٨٠.

١٣ ـ ((ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس)) سالم يفوت، الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦.

١٤ ـ ((ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان)) محمود علي حماية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣.

١٥ ـ ((ابن حزم وموقفه من الإلهيات: عرض ونقد))[2] أحمد بن ناصر الحمد، مكة المكرمة: منشورات جامعة أم القرى، ١٩٨٦.

١٦ ـ ((الأخلاق والسياسة عند ابن حزم)) صلاح الدين بسيوني رسلان، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٥.

١٧ ـ ((الاتجاه السياسي عند ابن حزم الأندلسي)) نجاح محسن، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٩.

١٨ ـ ((الحب ومذاهبه النفسية والجمالية من خلال: طوق الحمامة لابن حزم))

---

(١) هذا الكتاب موسوعة شاملة وجامعة عن ابن حزم وءاثاره العلمية، وقد وقفت عليه قديماً، لكنَّني لم أتمكن من الاطلاع عليه أثناء تحقيق هذا الكتاب، وقد طلبته من ناشره؛ فأُخبرتُ بنفاد جميع نسخه، وبحثت عنه في كثير من المكتبات في عدد من العواصم العربية؛ فلم أجده، كما أنه لا توجد منه أية نسخة في مكتبة الكونغرس الأميركي، ولا في مكتبات الجامعات الأوربية، بل إنَّني لم أجده عند العلامة الظَّاهريِّ ـ نفسه ـ؛ ففاتني ـ لذلك ـ فوائد عظيمة جداً، قدَّر الله ـ تعالى ـ، وما شاء فعل.

(٢) يتميَّز هذا الكتاب بتقيُّده في مسائل الاعتقاد بمنهج السلف؛ أهل السنة والجماعة.

محمد الصادق عفيفي، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، ١٩٧٢.
١٩ ـ ((حديث الحب بين الحصري وابن حزم: رؤية أدبية نقدية)) حسن ذكرى حسن، القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٩٨٨.
٢٠ ـ ((دراسات تحليلية في فكر ابن حزم الأندلسي)) عبد المقصود عبد الغني عبد المقصود، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٣.
٢١ ـ ((فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم الأندلسي)) حامد أحمد الدباس، عمان، الأردن: ١٩٩٣.
٢٢ ـ ((كتاب الحب: تقاطعات في ضيافة طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي)) محمد بنيس، رسم ضياء العزاوي، تقديم: أدونيس. الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٥.
٢٣ ـ ((معجم فقه ابن حزم الظاهري))/ لجنة موسوعة الفقه الإسلامي، محمد المنتصر الكتاني، مقدمة: مصطفى أحمد الزرقاء. بيروت: دار الفكر، ١٩٦٦.
٢٤ ـ ((مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي)) عبد المجيد تركي، ترجمة وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، مراجعة: محمد عبد الحليم محمود. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦.
٢٥ ـ ((موسوعة تقريب فقه ابن حزم الظاهري)) تصنيف وإعداد: محمد المنتصر الكتاني، فهارس: أشرف بن عبد المقصود. القاهرة: مكتبة السنة، ١٩٩٢.
٢٦ ـ ((نظرات في اللغة عند ابن حزم الأندلسي)) سعيد الأفغاني، بيروت: دار الفكر، ١٩٦٩.
٢٧ ـ ((نظرية المعرفة عند ابن حزم)) عمر فروخ، ضمن كتابه: ((بحوث ومقارنات في تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة في الإسلام)) ص: ١٠٣ ـ ١١٩، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٦.
٢٨ ـ ((نوادر الإمام ابن حزم)) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٣.
٢٩ ـ ((في الحبِّ والحبِّ العذري)) الدكتور صادق جلال العظم، بيروت: ١٩٦٨. [ليس خاصّاً بكتاب الطوق، ولكنه يعتمد عليه].

ثانياً: المقالات والدراسات:

٣٠ ـ ((أثر فتنة قرطبة على المرتكزات النفسية والأخلاقية لابن حزم الأندلسي في

كتابه: طوق الحمامة)) عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي، في: ((الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات: السجل العلمي))، مج. ١، ص: ١٣٣ - ١٥٥، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٩٩٦.

٣١ - ((أدب الحب وطوق الحمامة لابن حزم)) لويس أ. غيفين، في: ((الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس))، مج. ١، ص: ٦٠٣ - ٦٣٢، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.

٣٢ - ((ابن حزم أبو محمد علي)) محمد كرد علي في: ((كنوز الأجداد))، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤

٣٣ - ((ابن حزم الأندلسي الشاعر)) فاطمة طحطح، مقال في: ((فكر ونقد: ثقافية شهرية))، ص: ١٠١ - ١١٢، ع ٩ (١٩٩٨).

٣٤ - ((ابن حزم الفقيه الذي عالج الحبَّ في رسالته الشهيرة: طوق الحمامة)) محمد أبو زهرة، مقالة في: ((مجلة العربي)) ع: ٥٧ (١٩٦٣).

٣٥ - ((ابن حزم والحب العذري)) عاريي راشال؛ ترجمة: محمد القاضي، في: ((مجلة دراسات أندلسية: مجلة علمية مختصة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية))، ص: ٤٠ - ٦٢، ع: ١ (١٩٨٨).

٣٦ - ((الأسس الميتافيزيقية لنظرية الحب لدى ابن حزم)) سالم يفوت، مقالة في: ((تكامل المعرفة: دراسات فلسفية وأدبية))، ص: ١١ - ٣٢، ع: ٧ - ٨ (١٩٨٢ - ١٩٨٣).

٣٧ - ((التاريخ والسياسة في فكر ابن حزم)) سالم يفوت، في: ((مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية))، ص: ٩٩ - ١٣٣، ع: ١٠ (١٩٨٤).

٣٨ - ((التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي)) حامد طاهر في: ((دراسات عربية وإسلامية))، مج: ١، ص: ٩٧ - ١١٤، القاهرة: مكتبة الزهراء [١٩٨؟].

٣٩ - ((الجانب التربوي في فكر ابن حزم)) يحيى محمود ساعاتي، في: ((عالم الكتب: مجلة متخصصة تصدر أربع مرات في السنة، تهتم بالكتاب وقضاياه))، رقم: ٣/١٩٩٨.

٤٠ - ((الجانب التربوي في فكر ابن حزم)) عزيزة عبد العزيز المانع، مقالة في: ((عالم الكتب)) ص: ١٩٥ - ٢١٦، مج. ١٩، ع: ٣ (١٩٩٨).

٤١ - ((الحب الخلاق في حضارة الأندلس الإسلامية: مدخل مقارن لابن حزم وابن عربي)) قيصر موسى الزين، في: ((الحضارة الأندلسية: تكريماً للعلامة

الإسباني إميليوجارثيا جومث)) ص: ٦٦٥ ـ ٦٨٠، القاهرة: منشورات جامعة القاهرة، د. ت.

٤٢ ـ ((دراسات عن ابن حزم وكتابه: طوق الحمامة)) الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف، ط ١/١٩٧٦، ط ٤/١٩٩٣. (يتضمن مجموعة من البحوث والدراسات المترجمة).

٤٣ ـ ((السلوك الإنساني ومحدداته النفسية والأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي)) محمد محمد بنيعيش، مقالة في: ((القرويين: مجلة دورية تعنى بالدراسات الإسلامية والفقهية والاجتماعية والمقارنة))، ص: ١٨٩ ـ ٢٠٦، ع: ٤ (١٩٩٢).

٤٤ ـ ((السيرة الذاتية في كتاب: طوق الحمامة لابن حزم)) عبد الرحيم العلمي، مقالة في: ((الإحياء: مجلة إسلامية جامعة))، ص: ٢٥٧ ـ ٢٧١، ع: ١٥ (٢٠٠٠).

٤٥ ـ ((جوانب إنسانية في شعر ابن حزم)) مصطفى عراقي، مقالة في: ((الشعر: مجلة شهرية للشعر العربي)) ص: ٦٥ ـ ٧٣؛ ٢٤، ع: ٥٤ (١٩٨٩).

٤٦ ـ ((طبيعة النفس وطبيعة العلم عند ابن سينا وابن حزم وابن القيم)) مقداد منسية، مقالة في: ((المجلة التونسية للدراسات الفلسفية)) ص: ٨٥ ـ ٩٣، ع: ٢ (١٩٨٤).

٤٧ ـ ((طوق الحمامة)) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، بحث في: ((مجلة العرب))، السنة الثالثة، ص: ٢٢٧-٧١٣.

٤٨ ـ ((طوق الحمامة لابن حزم)) يوسف الشاروني، دراسة في كتاب: ((دراسات عن الحب)) ص: ٤٣-٧١، كتاب الهلال، القاهرة: ١٩٦٦.

٤٩ ـ ((عن ابن حزم وطوق الحمامة)) ماجد يوسف، مقالة في: ((أدب ونقد: مجلة كل المثقفين العرب)) ص: ٣٢ ـ ٤١، ع: ٨٨ (١٩٩٢).

٥٠ ـ ((مقارنة بين طوق الحمامة وكتاب المصون في سرِّ الهوى المكنون؛ لأبي إسحاق الحصري)) الدكتور محمد بن سعد الشويعر، مقالة في: ((مجلة الفيصل)) ص: ١٦-٢١، ع: ١٠.

٥١ ـ ((نقد النص الشعري بين ابن حزم وابن بسام)) مصطفى بهجت منجد، مقالة في: ((مجلة دراسات أندلسية: مجلة علمية مختصة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية)) ص: ٣٥.٥، ع: ٥ (١٩٩٠).

فهارس الكتاب:

- فهرس الآيات القرءانيَّة الكريمة.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأعلام والقبائل والجماعات.
- فهرس الأماكن.
- فهرس أشعار ابن حزم.
- فهرس أشعار غير ابن حزم.
- الفهرس العام.



١- فهرس الآيات القرءانية



٢- فهرس الأحاديث والآثار

الحديث أو الأثر	الصفحة

الحديث أو الأثر	الصفحة



٣- فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

(١) هذا هو الصَّواب في نسبة: (الهَمْدَاني) بالدال، وليس: (الهَمَذَاني). وعلى الصواب ورد في نسختنا المخطوطة في جميع المواضع، وفي «سير أعلام النُّبلاء» ١٧/ (٢٠٣)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٢/ الترجمة: ١٤)، وغيرهما من مصادر ترجمته.

(١) كان من أصدقاء ابن حزم، ولا يُعرف نسبه على وجه التأكيد.

(١) توفي سنة (٣٦٧هـ)، ترجمته في «الجذوة» (٨٩٦)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٧/ ص: ٣٨٧ ـ ٣٨٨).

٤- فهرس الأماكن



٥- فهرس أشعار ابن حزم



٦- فهرس أشعار غير ابن حزم



٧- الفهرس العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مُختَصَر
طَوقِ الحَمامَةِ وظِلِّ الغَمامَةِ في الأُلفَةِ والأُلافِ